الأعمال النثرية الكاملة

ايليا ابي ماضي

جمع المادة وكتب المقدمة:

الدكتور عفيف حاطوم

دار العودة . بيروت

طبعـــة
2009
يطلب من دار العـــودة - بيروت - لبنان
كورنيش المزرعة - بناية الريفيرا سنتر
هاتف : 01/818405 فاكس : 01/818406
البريد الألكتروني:Daralawda@hotmail.com
ص.ب : 146284 بيروت - لبنان

المقدمة

ـ حياتـــه

وُلِد الشاعر المهجريّ إيليًا أبو ماضي في بلدة المحيدثة جارة بِكَفَيًا في ٢١ أيار سنة ١٨٩٠ م.

وحينما بلغ الخامسة من عمره أرسله والده الذي كان يتعاطى في مسقط رأسه المحيدثة مهنة التجارة والحياكة ونظم القرّادي والمعنى إلى المدرسة الابتدائية في ضيعته. ولم يكد يمضي على وجوده فيها مدّة سنتين حتى أدرك في قرارة نفسه أنّه قد أصبح باستطاعته أن يصحّح وبسهولة أخطاء معلّمه اللغويّة.

وكان أبو ماضي يخشى معلمه ويخشى معه عصاه، إذ كان يجبر تلاميذه على حفظ خمسة أبيات من الشعر في كُلّ يوم وكان يختارها لهم من كتاب "مجاني الأدب".

فكان حظ المتكاسلين من بينهم وضع أرجلهم في "الفلقة" في آخر كل أسبوع، إذ كثيراً ما كان أبو ماضي ومعه أكثر هؤلاء التلاميذ من رفاق صَفّه يدهنون في آخر كل أسبوع أيديهم وأقدامهم بدم "الحرادين" إيماناً منهم بأن دم الحردون يساعد على انزلاق عصا المعلّم عن أيديهم فلا يحسّون ألماً ولا وجعاً.

وفي الثامنة من عمره التحق برفقة شقيقه الأكبر مراد بمدرسة اليسوعية الابتدائية في بكفيا.

فكان يتسلق حائطاً بعد عودته برفقة بعض الطلاب إلى مترله، ليلقي على مسامع رفقائه أبياتاً زجليّة جادت بها مخيّلته عليه وهي تتعلق بانتقاد وجهاء ضيعته انتقاداً لاذعاً.

ولقد كانت مخيلته قبل أن يتجاوز التاسعة من عمره مخيلة ضيّقة لا تتعدّى حدود السّواقي التي تفصل بين قريته المحيدثة والقرى المجاورة لها.

لقد أمضى أبو ماضي سنوات طفولته بسعادة وهناء إذ لم تكن الهموم قد عرفت طريقها إلى صدره بَعْدُ.

في الحادية عشرة من عمره أرسل خاله الذي كان مقيماً في مدينة الإسكندرية ويتعاطى تجارة بيع الدخان، رسالة إلى ضاهر والد أبي ماضي يطلب فيها منه أن يرسل إليه وعلى جناح السرعة ابنه إيليًا، فاستجاب الوالد في الحال، فما كان من أبي ماضي إلاّ أن حزم أمتعته واستعد للسفر في الحال.

وصل أبو ماضي إلى الإسكندرية سنة ١٩٠١ م. وبعد أيام قليلة من وصوله إليها وجد نفسه يبيع الدخان في متجر خاله قبلان إسكندر.

قال أبو ماضي: "لقد دعاني خالي صاحب محل الدُّخان في الإسكندرية وسلخني من المدرسة عمداً لأساعده في عمله في المحل، ولهذا خرجت من المدرسة في عمر باكر جدّا لا يزيد عن الإحدى عشر سنة، غير أنّي لم استسلم للقنوط وشعرت بدافع يحدوني للمطالعة والدرس، فكنت أسير الليل دارساً منقباً على ضوء الشموع، وانصرفت بعد أن

مكّنت نفسي من القواعد العربيّة في كتاب "الغراوي" إلى معالجة الشّعر ونظمه في هذه الليالي".

ظلّ أبو ماضي يعمل في دكّان خاله هذا مدّة سنتين متتاليتين، ولمّا وجد شقيقه الأكبر مراد يفتح دكاناً خاصّاً به لبيع الدخان، انتقل على الفور لمساعدته حيث نسّاه بعطفه وحدبه عليه عطف وحَدَب والديه اللّذين كانت رياح الحياة القاسية قد حملته منذ سنوات قليلة بعيداً عنهما وهو بأشد الحاجة إليهما.

"يهاجر الإنسان من وطنه (قال أبو ماضي) ويضرب في مناكب الأرض وتحول بينه وبينه الجبال، ويستغرق في المشاغل والمطالب والمشاكل فينسى أترابه وأصحابه وتغيب عنه صور المنازل والمراتع التي كان فيها، ولكن صورة واحدة لا تنمحي من ذاكرته ولا تغيب عن مخيّلته وهي صورة أُمّه.."

وبعد أن مكث أبو ماضي في دكان شقيقه مراد مدَّة من الزمن، اضطر إلى العودة من جديد إلى دكّان خاله قبلان إسكندر وذلك بعدما وجد شقيقه يبيع دكانه ويعود إلى لبنان.

ولما بلغ السابعة عشرة من عمره راح ينظم القصائد وينشرها في بعض المجلات والجرائد المصريّة. وأوَّل قصيدة له نشرها في مجلة الأكسبرس الأسبوعية. فيها قد شاء أن يقصّ قصة فتاة ماتت منتحرة بعدما أرغمها والدها على الاقتران بفتى غصباً عنها ولم تكن تحبّه ولا تهواه.

وقد فوجئ أبو ماضي بصاحب تلك الجريدة يدعوه لزيارته للتعرّف عليه، فلمّا حضر أبو ماضي بين يديه ووجده ما زال شاباً طريّ العود راح يشجّعه على نظم الأشعار والاستزادة منها ومطالعة دواوين كبار الشعراء الأقدمين والمحدثين.

ولَمَّا ترامى إلى مسامع والد أبي ماضي الذي كان مقيماً آنذاك في المحيدثة أنباءٌ تَدخلُ إيليا بالسياسة خشي عليه من السجن والاضطهاد.

فأرسل إلى ولده مراد الذي كان مقيماً آنذاك في نيويورك رسالة يقول له فيها:

يا ابني لا أريد مالاً ولا مساعدة ولا هدية ولكن برضاي عنك ابعَثْ إلى أخيك إيليا أن يلحق بك وحبّب إليه السفر لأن مصيره هنا وخيم العواقب.

فحزم أبو ماضي حقائبه نزولاً عند رغبة والده، وغادر الإسكندريّة وذلك في سنة ١٩١٢ م. متوجّهاً إلى لبنان.

وقد تمكّن من طبع أوّل ديوان له وهو ديوانه الذي أسماه "تذكار الماضي" على نفقته الخاصة وذلك على مطابع "المطبعة المصرية".

ولَمَّا وصل إلى لبنان راح ينظم القصائد النارية متعرّضاً فيها بالنقد البنّاء والسخرية اللاذعة لبعض الوجهاء في ضيعته وخاصة رجال السياسة والحكم.

"حاولنا مرّة تمثيل رواية في المحيدثة بكفيا، (قال أبو ماضي): ولكن البعض أرادوا منعنا، وقد نظمت قصيدة لتلقى في هذه الحفلة، ولمّا قرأها

على الدكتور أسعد عفيش الشاعر طلب مِنِّي حذف الأبيات التي فيها تعريض، غير أن الشيخ إبراهيم المنذر قال لي:

اقرأ القصيدة ثمّ شمّر واركض... أقمنا المسرح على سطح فرن وأمامه جلس المتفرجون ووقف حول المسرح والدي وبعض الأصدقاء كحراس لمنع المعارضين من إحراق المسرح. وقد ألقيت القصيدة فنالت الاستحسان وكان جورج سكاف يطلق رصاصة لكل بيت منها. وجمعنا ثلاثين ليرة ذهبيّة ريع الحفلة لتنفق على الفقراء".

وبعد إقامة مدّة ثلاثة أشهر في ضيعته المحيدثة راح أبو ماضي يستعد للسفر إِلى الولايات المتحدة الأميركية.

غادر بيروت على متن إحدى البواخر وهو عازم في قرارة نفسه "على هجر الشعر وطلاقه".

وصل أبو ماضي إِلى ميناء نيويورك وبرفقته شقيقه الأصغر متري وذلك في سنة ١٩١٢ م.

ولَمَّا لاح لناظريه تمثال الحرية المنصوب على مدخل الميناء هتف قائِلاً:

نفسي اجلدي ودعي الحنين فإِنّما ... جهلٌ بُعَيْدَ اليوم أن يتشوّقا

أصبحت حيث النَّفس لا تخشى أَذى ... أبداً وحيث الفكر يغدو مطلقا

وصل شاعرنا إِلى نيويورك وهو يحلم في قرارة نفسه بإمكانية جمع ما يلزمه من أموال من شوارعها مجّانا وذلك حسبما قيل له أثناء وجوده في لبنان.

ولَمّا وجد أنّه لا مال ولا ذهب يؤخذ بسهولة وبلا مقابل من شوارع نيويورك، قرَّر أن يعمل معتمداً على نفسه في كسب قوته. فالتحق بمتجر شقيقه مراد الذي كان يبيع في متجره في سنسناتي أوهايو الدُّخان.

ظلّ يعمل عنده مدّة خمس سنوات متتالية تعرّف في خلالها على الصحفي السيد نجيب دياب الذي كان يصدر في نيويورك جريدة "مرآة الغرب"، وكانت أول قصيدة نشرها له في جريدته تلك بعنوان "أمّة تفنى وأنتم تلعبون".

ولَمَّا وجد أبو ماضي نفسه بأنّه سيكون حتماً سبباً في إفلاس دكّان شقيقه إن هو استمر على مساعدته، وذلك بأنّه كان يستسلم إلى نظم الأشعار فينسى أن يسجل في دفتر الديونات أسماء المديونين الّذين كانوا يستدينون من شقيقه، قرَّر ترك هذه المهنة فودَّع شقيقه مراد معتذراً منه أشد الاعتذار وسافر إلى نيويورك حيث وصل إليها سنة ١٩١٣ م.

ولَمَّا وطئت قدماه أرضها بدأ يحرّر في "المجلة العربية" التي كان يشرف على تحريرها وإصدارها آنذاك بعض الشباب الفلسطيني المهاجر.

وبعد مدَّة قصيرة ترك أبو ماضي عمله في تلك المجلة وانتقل ليعمل محرِّراً في جريدة "الفتاة" لصاحبها السيد شكري بخاش.

وبعد أن أمضى في تلك الجريدة مدَّة شهرين ونصف تقريباً غادرها وذلك في عام ١٩١٨م. إلى جريدة "مرآة الغرب" التي وعده صاحبها بإطلاق يده فيها وكأنّه صاحبها الفعلي حَقّاً.

في عام ١٩١٩م. تمكّن أبو ماضي من جمع قصائده التي لم تكن قد طبعت بعد، وطبعها في ديوان أسماه "ديوان إيليا أبو ماضي الجزء الثاني".

ولو لم تسخّر له الأقدار مهاجراً مفضالاً محبّاً للأدب ومشجّعاً للشعراء تبرّع له بقسم كبير من نفقات طبع هذا الديوان لما تمكّن من إصداره، وذلك نظراً لضيق ذات يده في تلك المرحلة من حياته. فنشر أبو ماضي صورة ذلك المفضال في أوَّل صفحة من ديوانه هذا مقروناً بهذين البيتين من الشعر:

أنت امرؤ صاغ المهيمن روحه   من جوهرين اللطف والحريّه

لَك همة مثل الزمان كبيرة   ويد كمنسكب الغمام سخيّه

فصاحب هذا الإنعام على أبي ماضي اسمه نعمه تادرس تاجر السيجار الكبير في نيويورك. وكثّر الله من أمثال ذلك المحسن المفضال. ويا ليتنا نجد في عصرنا الحاضر محسناً مفضالاً من أمثاله يُفْضل على الشعراء ويساعدهم مادياً على طبع دواوينهم، وذلك من غير مَنٍّ ولا إبطاء.

فالشاعر الكبير نسيب عريضه ظلّ مدَّة عشرين عاماً يبحث جادًّا عن مورد من المال يتمكّن بواسطته من طبع ديوانه. وعندما تيسَّرت لديه الأحوال أرسل ديوانه إلى "المطبعة" ولكنه توُفّي قبل أربعة أشهر من صدور ديوانه. فلم يسعفه الحظ بتكحيل عينيه برؤية فلذة كبد وبنات أفكاره.

وفي عام ١٩٢٠ م. أصبح أبو ماضي عضواً فعّالاً في "الرابطة القلميّة" التي كان قد أسَّسها في مدينة نيويورك الأديبان الكبيران جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة اللّذان حرصا أشد الحرص على أن يجعلا رابطتهما هذه رابطة لا "ينطوي تحت لوائها إلاّ رجال تقاربت أذواقهم وتآلفت أرواحهم وانتفى التحاسد من قلوبهم".

وبما أنهما لم يجدا سوى عشرة رجال من الأدباء والشعراء الّذين كانوا يعيشون ويعملون في المهجر الشمالي اكتفيا بهم وهؤلاء العشرة مرتّبين حسب السن هم:

رشيد أيوب- ندره حدّاد- جبران خليل جبران- وليم كاتسفليس- وديع باحوط- الياس عطا الله- نسيب عريضه- ميخائيل نعيمه- إيليا أبو ماضي- عبد المسيح حدّاد.

ولم تكن علاقة أبو ماضي علاقة ممتازة لا تشوبها شائبة الحسد أو التنافر مع جميع أفراد "الرابطة القلمية" وخاصَّة من بينهم ميخائيل نعيمه الذي نراه يرسم لأبي ماضي في كتابه "سبعون" صورة لا تخلو من الحسد والتحامل والبغضاء.

قال نعيمه: في قيافته (أي أبي ماضي) بساطة قرويَّة تفتقر إلى الذّوق فياض القريحة طموح لجوج في بلوغ مطامعه سريع الاقتباس واسع الحيلة في كسب رزقه، وفي الوصول إلى أهدافه، متقلّب في صداقاته وعداواته حسبما تمليه مصلحته، فيه شيء من طبيعة الحمامة وشيء من طبيعة العقرب".

وفي عام ١٩٢١ م. عقد أبو ماضي قرانه على الآنسة دورا الابنة الكبرى لصاحب جريدة "مرآة الغرب" السيد نجيب دياب الذي كان أباً لخمس إناث. رزق منها بثلاثة أولاد ذكور، فابنه البكر سمّاه ريتشار ويعني رشيد باللغة العربية، وهو دكتور في الذرّة ويدرس بجامعة أوكلاهوما، إليه يعود الفضل في إقناع علماء عصره بعدم موت رجل الفضاء بواسطة الإشعاع المكون في أعلى طبقات الجو، وأما ابنه الأوسط فقد صدمته عربة في الطريق وهو ابن عشر سنوات فأصيب بكسر لعموده الفقري منعه من المشي مسبباً له الكرساح، وأما ولده الصغير فسمّاه بوب وهو أستاذ في العلوم.

وحينما أيقن أبو ماضي وذلك في عام ١٩٢٦ م. أن الكرسي الذي كان يجلس متربعاً عليه في جريدة "مرآة الغرب" قد بدأ يتزحزح رويداً رويداً من تحته، راح يجمع قصائده التي نظمها و لم يتمكن بعد من نشرها فيسّرت له الأقدار جمعها في ديوان سمّاه "الجداول".

ولقد كان أبو ماضي يمضي الليل بطوله ساهراً في مطبعة "مرآة الغرب" منتظراً بفارغ الصبر انتهاءَه من طبعها وإعدادها وتوزيعها في صبيحة اليوم التالي على القراء والمشتركين.

قرّر في عام ١٩٢٨ م. أن يترك - بعدما طبع ديوانه هذا_ عمله في تلك الجريدة تركاً نهائياً وهو لم يكن لديه من سلاح خلال تلك السنوات العشر العجاف التي عمل فيها في جريدة "مرآة الغرب" - إلاّ سلاح العزيمة والإرادة الفولاذية التي لا تلين ولا تكسر.

وفي عام ١٩٢٠ م. أصبح أبو ماضي عضواً فعّالاً في "الرابطة القلميّة" التي كان قد أسّسها في مدينة نيويورك الأديبان الكبيران جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة اللّذان حرصا أشد الحرص على أن يجعلا رابطتهما هذه رابطة لا "ينطوي تحت لوائها إلاّ رجال تقاربت أذواقهم وتآلفت أرواحهم وانتفى التحاسد من قلوبهم".

وبما أنهما لم يجدا سوى عشرة رجال من الأدباء والشعراء الّذين كانوا يعيشون ويعملون في المهجر الشمالي اكتفيا بهم وهؤلاء العشرة مرتّبين حسب السن هم:

رشيد أيوب- ندره حدّاد- جبران خليل جبران- وليم كاتسفليس- وديع باحوط- الياس عطا الله- نسيب عريضه- ميخائيل نعيمه- إيليا أبو ماضي- عبد المسيح حدّاد.

ولم تكن علاقة أبو ماضي علاقة ممتازة لا تشوبها شائبة الحسد أو التنافر مع جميع أفراد "الرابطة القلمية" وخاصّة من بينهم ميخائيل نعيمه الذي نراه يرسم لأبي ماضي في كتابه "سبعون" صورة لا تخلو من الحسد والتحامل والبغضاء.

قال نعيمه: في قيافته (أي أبي ماضي) بساطة قرويَّة تفتقر إلى الذّوق فياض القريحة طموح لجوج في بلوغ مطامعه سريع الاقتباس واسع الحيلة في كسب رزقه، وفي الوصول إلى أهدافه، متقلّب في صداقاته وعداواته حسبما تمليه مصلحته، فيه شيء من طبيعة الحمامة وشيء من طبيعة العقرب".

وفي عام ١٩٢١ م. عقد أبو ماضي قرانه على الآنسة دورا الابنة الكبرى لصاحب جريدة "مرآة الغرب" السيد نجيب دياب الذي كان أباً لخمْس إناث. رزق منها بثلاثة أولاد ذكور، فابنه البكر سمَّاه ريتشار ويعني رشيد باللغة العربية، وهو دكتور في الذرَّة ويدرس بجامعة أوكلاهوما، إليه يعود الفضل في إقناع علماء عصره بعدم موت رجل الفضاء بواسطة الإشعاع المكون في أعلى طبقات الجو، وأما ابنه الأوسط فقد صدمته عربة في الطريق وهو ابن عشر سنوات فأصيب بكسر لعموده الفقري منعه من المشي مسبباً له الكرساح، وأما ولده الصغير فسمّاه بوب وهو أستاذ في العلوم.

وحينما أيقن أبو ماضي وذلك في عام ١٩٢٦ م. أن الكرسي الذي كان يجلس متربعاً عليه في جريدة "مرآة الغرب" قد بدأ يتزحزح رويداً رويداً من تحته، راح يجمع قصائده التي نظمها و لم يتمكن بعد من نشرها فيسّرت له الأقدار جمعها في ديوان سمَّاه "الجداول".

ولقد كان أبو ماضي يمضي الليل بطوله ساهراً في مطبعة "مرآة الغرب" منتظراً بفارغ الصبر انتهاءَه من طبعها وإعدادها وتوزيعها في صبيحة اليوم التالي على القراء والمشتركين.

قرَّر في عام ١٩٢٨ م. أن يترك - بعدما طبع ديوانه هذا_ عمله في تلك الجريدة تركاً نهائياً وهو لم يكن لديه من سلاح خلال تلك السنوات العشر العجاف التي عمل فيها في جريدة "مرآة الغرب" - إلاّ سلاح العزيمة والإرادة الفولاذية التي لا تلين ولا تكسر.

ترك أبو ماضي عمله في تلك الجريدة وهو آسف على وقته الذي أضاعه فيها سُدًى. وقد كان مدى أسفه على تركها لا يقلّ عن مدى أسفه على مفارقته لمنشئها وخاصة بعدما وجده قد أضحى "مغلوباً على أمره".

وقد ظل أبو ماضي بعد أن ترك عمله في جريدة "مرآة الغرب" مدَّة ثمانية أشهر يعمل جاهداً على إصدار مجلة أو جريدة تحمل اسمه ويستطيع الاعتماد عليها اعتماداً كُلّيّا في مجابهة نوازل الدَّهر وطوارق الحدثان.

فراح يطوف من أجل ذلك على أبناء الجالية العربيَّة المنتشرين في شتّى الولايات القريبة من نيويورك والبعيدة عنها. وقد وجد نفسه ذات يوم يرهن صك التّأمين على حياته ليوفر نفقات إصدار أَوَّل عدد من مجلّته التي سمَّاها "السَّمير" حيث أبصر العدد الأَوَّل منها النور بتاريخ ١٥ نيسان سنة ١٩٢٩م.

وقد وصف أَبو ماضي للقرّاء في مقدمة ذلك العدد مدى العناء الروحيّ والجسدي اللذين عانى منهما كل المعاناة خلال الأشهر الثمانية التي سبقت ظهور "السَّمير" فقال:

"ثمانية شهور لم يتحرّك فيها هذا القلم بنثر ولا بنظم". ثمانية شهور كانت كل لحظة فيها كأنَّها ثمانية شهور حتى خِلْتُ أن الزمن يخشى رزيئه أَو مصيبة أو نكبة، إِذا هو أسرع في المسير. وما كانت الشهور بالمدَّة الطَّويلة لولا ما في النفس من أشواق ولولا ما للأديب من رغائب في الحياة لا يجدها بين أكوام الذَّهب ولا في كنوز الحجارة الثمينة، وإِنَّما

يجدها في عَبرة يسكبها من عينيه أو دمعة يكفكفها من عين باكية أو ابتسامة يردُّها إِلى ثغر كئيب. تلك هجعة لم تكن باختياري ولكنها جاءَت في وقتها وكانت نافعة، فلولاها لم يتَّسع أمامي المجال للتفكير في إصدار هذه المجلّة وإعداد الوسائل اللازمة لإخراجها إِلى حَيِّز الوجود..".

فأبو ماضي إذاً لم يكن يحلم بأن يصبح صاحب ثروة من شق "القَصبة" حينما أصدر مجلته الأدبية النصف شهرية، بل كان يهدف هدفاً وطنياً إنسانياً ألا وهو إبقاء الجالية العربية في المهجر الشمالي على صلة وثيقة بوطنهم ولغتهم وبأدبائهم وشعرائهم القدما، والمحدثين.

" أَجل قد رجعت إِلى حومة الصحافة (قال أبو ماضي) لأنني أحسب كلّ يوم أنفقه من غير خدمة قومي وبلادي ولغتي ليس من عمري، بل أنا أعتبر الفناء في أمتي وجوداً والوجود في غير أمتي فناء، ولأَنْ تُدميني أشواكها أحَبُّ إِلى نفسي من أن ينثر عليَّ سواها الورود والرياحين. أنا لأمتي ضاحكاً وباكياً وأنا لها ضاحكة وباكيةً. وقبل أن يصدر أبو ماضي أَوَّل عدد من أعداد مجلته الأدبية المتواضعة استشار عدداً من أصحابه فمنهم من نصحه بإصدار جريدة بدلاً من مجلّة، ومنهم من أشار عليه بإصدار مجلة بشرط أن تكون في البداية شهرية تصدر مرَّة واحدة في الشهر. كما كانت الأصوات المثبطة للعزائم تترامى إِلى مسمعه قائلة له:

تبّـــاً لعـــــيش الكتبــــــه ‏‏ ‏‏ ‏‏ تبّـــاً لــــه مـــا أَصــعبه

تبّـــاً لعـــــيش يرتجـــــى ‏‏ ‏‏ ‏‏ مـــن شـــقِّ تلــك القــصبه

وبعد أن وازن أبو ماضي بين جميع هذه الآراء المختلفة المتضاربة وجد نفسه يقول مع "جُحَا": إن المرء لا يستطيع أن يرضي كل النّاس، وحينما سألته نفسه عن مغزى قوله هذا أجابها ساخراً مبتسماً: لأنه إنسان.

ولكي يبقي أبو ماضي غرسته "السمير" تلك نامية .. حيّة مزدهرة، كان منذ عامها الأوّل يلجأ إلى الخروج من مدينة نيويورك ليقوم برحلات طويله كان يزور في خلالها أبناء الجالية اللبنانية والعربيّة، إذ كثيراً ما كان أثناء سفره في القطار يلتقي مصادَفةً مُهاجراً جالساً بقربه في عربة القطار، فكان يشعر في الحال وهو يستمع إلى حديث ذلك المغترب المفضال بالراحة والطمأنينة وكلمات اللغة العربية ترن في أذنيه تلك التي يلذ بها سمعه وتتراءى لروحه في تضاعيفها خيال أمته ووطنه. فأبو ماضي قد كان مواطناً أميركياً محبًّا لأميركا وأهلها ومتمنّياً من صميم قلبه لها دوام الازدهار والتقدّم، كما كان أيضاً مواطناً محافظاً على روحه العربية وجنسيته اللُبنانية.

فمن هنا يمكننا القول بأنه قد كان شاعراً وأديباً عربياً وأميركياً في آن واحد. وكان بكِلْتا هاتين الجنسيتين مفتخراً كُلّ الافتخار.

وبما أننا لا نستطيع أن نسرد سيرة أبي ماضي الطويلة في هذه العجالة ونتحدّث عمّا صادفه في حياته من متاعب ومشقّات وذلك منذ امتهانه لمهنة الصحافة والشّعر حتى وفاته في نيويورك عام ١٩٥٧ م. يجدر بنا أن

نختم بذكر وصفه لمشاعره الخاصّة خلال السنة الأولى التي انقضت من سنوات إنشائه لمجلته تلك:

قال أبو ماضي:" انقضت على نشأة "السَّمير" سنة كاملة كانت أيامها لاستغراقنا في العمل تتسرّب كما تتسرّب دقائق الماء من فروج الأصابع فلم نشعر بمرورها حتى كأنّما جنّح الدّهر أيامها ولياليها، وما كنّا لنستغرق في العمل لولا ما نجده من اللّذة، وقد يكون الألم أحياناً من لذاذات النّفوس".

ومن أقسى الأزمات التي مَرّ بها أبو ماضي وهو يعارك الزّمن ليبقي مجلة "السَّمير" على قيد الحياة، أزمة إفلاس بنك فاعور الذي كان أبو ماضي يدّخر فيه كُلّ ما لديه من رأسمال:

"شيء مزعج مثير للغضب (قال أبو ماضي) ولكنني بدلاً من أن أثور وأغضب ضحكت ضحكة الظّافر المنتصر لأنّي في الواقع ظافر منتصر، فأنا أديب عربي والأديب العربي كما يعلم النّاس أبداً فقير وأبداً مديون. أمّا الآن فهو دائن ودينه ليس في ذمّة شاعر أو كاتب مثله بل في ذمّة معهد تقدّر ثروته ببضعة ملايين! أليس هذا انتصاراً مبيناً؟ بلى!".

فأخذ أبو ماضي بعدما أصيب بتلك الصدمة القاسية يجاهد جهاد الأبطال الميامين محاولاً إبقاء غرسته النامية "السَّمير" على قيد الحياة وخاصة خلال عام ١٩٣٣ م. وهو عام فيه تفاقمت الأزمة الاقتصادية الخانقة التي بدأت تجتاح الولايات المتحدة الأميركية وهي أزمة لم يقتصر

ضررها على البيوتات التجارية والمؤسسات المالية بل تعداها ليصل إلى رجال الفكر والقلم:

"اربع سنوات (قال أبو ماضي) لم تنفتح فيها المسامع إلاّ على أنباء الكوارث. ولم تقع الأيدي إلاّ على الدموع والجراح، فقد أناخت الأزمة بكلاكلها على التجار فسحقت كثيرين ورزح تحتها كثيرون، وكان من نتائج هذا الكساد تكاثر عدد البطّالين ، حتى امتلأت بهم شوارع أميركا التي كان النّاس يتوهّمون أنّها مفروشة بالذّهب، وصار المرء أينما مشى تمتد إليه الأيدي المستعطية، وتطرق أذنه هذه العبارة: أنا جوعان! وبين هذه الأيدي الممدودة للاستجداء أيدٍ طالما وزّعت من قبل الصّدقات وجادت بالهبات، وبين الشّفاه التي خرجت منها هذه العبارة الهائلة أنا جوعان! شفاه كانت إلى عهد قريب لا يخرج منها القول إلاّ أمراً ونهياً..".

وبهذا القدْرِ من سرد حياة أبي ماضي نجد أنفسنا مكتفين، وهو قدْرُ وصلنا فيها إلى سنة ١٩٣٢ م. وهي السّنة التي تمكّن فيها من تحويل مجلته الأدبية تلك التي أسماها "السّمير" إلى جريدة أدبية سياسية وهي جريدة سمّاها "السّمير" أيضاً حيث تمكن من إصدار أول عدد منها بتاريخ ٢ ت[٢] عام ١٩٣٦م.

-نثره

عرف النّاس أبا ماضي شاعراً مجيداً فذّاً يحبب إليهم "الحياة" ويدعوهم للابتسام كلما رماهم الدهر بسهم من سهامه الطائشة القاتلة،

ولكنهم لم يعرفوا شيئاً عن أبي ماضي الكاتب وذلك لأنَّ آثاره الأدبية ظلت مجهولة غير مطبوعة حتى عصرنا الحاضر.

ونعني بآثاره تلك مقالاته التي كان ينشرها في جريدته "السَّمير" في باب خاص جعله تحت عنوان "يوميات"، وهذه "اليوميات" طُبعت خلال هذا العام، طبعتها "دار العودة/ بيروت" الغرَّاء، بعدما تمكنَّا من تحقيقها تحقيقاً علمياً مفيداً والتقديم لها.

وكان أبو ماضي قد بدأ يفكر في طبع هذه "اليوميات" ونشْرها على نفقته الخاصة ولكن عاجله الموت بسبب مرضه العضال الذي لازمه عدَّة سنوات ألا وهو مرض القلب.

ودليلي على ما أقول تلك الرسالة التي بعث بها أبو ماضي عام ١٩٥٧ م. إلى الأديب محسن جمال الدين وقد جاء فيها قوله: "تسألني عن منظوماتي الجديدة، إنَّما أشياء مبعثرة هنا وهناك وبعضها مشى عليه النسيان، أمَّا "السَّمير" فهي الآن محجوبة لمرض أصابني منذ أربعة أشهر دنا بي من عالم الأبديَّة. ولَمَّا برئت منه قرَّرت اعتزال الصحافة والانصراف إلى العناية بآثاري الأدبيَّة بعد أن أستوفي نصيباً من الرَّاحة".

وهذه "اليوميات" لها في نظرنا قيمة أدبية فنيَّة تستحق الذيوع، ويسيبها ترى مخائيل نعيمة - بالرغم من مواقفه العدائيَّة الكثيرة التي كان يتقفها تجاه أبي ماضي وأدبه وشعره - يدلي برأيه فيها فيقول: "فيما يتعلَّق بنثر أدباء المهجر الشمالي فلا يوجد في نظرنا سوى مقالات جبران خليل

جبران التي تستحق النشر والاهتمام، وكذلك بعض المقالات التي كان يكتبها إيليا أبو ماضي".

فإذا ما كان الأستاذ نعيمة يرى أن بعض مقالات أبي ماضي النثرية تستحق النشر فإننا نرى بدورنا أن قسماً كبيراً من هذه المقالات مستحقة للنشر والاهتمام والرِّعاية حتى لا يكتب لها الضياع والنسيان.

وإننا حصرنا اهتمامنا بنثر أبي ماضي في الفترة الواقعة في حياته منذ عام ١٩٢٨ م. لغاية عام ١٩٣٦ م. وهي الفترة التي كان يصدر فيها مجلته "السَّمير" وذلك قبل أن يحوّلها إلى جريدة سياسية أسبوعية ثمَّ يوميَّة.

ففي هذه الفترة كان الأدب العربي نثراً وشعراً يحاول الخروج من عهد الانحطاط الأدبي إلى عهد بداية الإزدهار والنُّمو والانتشار والانطلاق وذلك بفضل أدباء كبار عاشوا في بداية هذا العصر، من أمثال الدكتور طه حسين والعقاد وأحمد شوقي وحافظ إبراهيم وجبران خليل جبران وسواهم كثر.

وكان أبو ماضي قد بدأ عهده الأدبي بكتابة بعض المقالات أثناء إقامته في سنسناتي أوهايو وذلك بين عامي ١٩١٢- ١٩١٦ م. وقد نشر أكثرها في بعض المجلات والجرائد التي سبق لنا أن ذكرناها وخاصة جريدة "مرآة الغرب"، وقد حاولت أثناء وجودي في نيويورك خصوصاً لهذه الغاية أن أطالع أو أحصل على الأعداد من جريدة "مرآة الغرب" التي كان أبو ماضي ينشر مقالاته فيها، ولكنني أخفقت لسوء الحظ وقد

قيل لي إن هذه الأعداد كانت محفوظة في إدارة "مرآة الغرب" ولكنها فقدت بعدما شبَّ حريق كبير في هذه الإدارة أتى على ما فيها من محتويات وخاصة أعداد هذه الجريدة نفسها.

فمعرفتنا إذاً لأثار أبي ماضي النثرية تبدأ بحلول عام ١٩٢٨ م. وهو العام الذي قرّر فيه إصدار مجلته "السَّمير" تلك.

وأوَّل مقال من مقالاته زيّنا به صدر أوَّل صفحة من صفحات هذا الكتاب الذي أصدرناه تحت عنوان أبي ماضي- ناثراً، عنوانه "الخاتم والوردة". وفيه حاول أبو ماضي وبأسلوبه الأدبي الرضي الشيِّق أن يعالج مشكلة اجتماعية تفشَّت بكثرة في مجتمعه وغير مجتمعه، ألا وهي مشكلة الفتيات اللَّواتي يجدن أنفسهن بعد أن تزلّ بهنَّ الأقدام يقفن في قوارع الطُّرقَات ويقارعن الزبائن كؤوس الشراب والخمر في الملاهي الليلية، وعن اللواتي نسمّيهن بالرَّاقصات. جعل أبو ماضي من بطلة مقالاته هذه راقصة فاضلة غير شرّيرة ولا مؤذية ولا خَرَّابة للبيوت أو قاتلة قتلاً بطيئاً للنفوس.

أمَّا المقال الثاني فقد جعله أبو ماضي تحت عنوان "الأفيال المسمومة". وهو مقال حاول فيه أن يثير الشفقة في نفوس النَّاس على تلك "الأفيال" التي وُجدَ صاحبها يصطادها عنوة من الغابات ويأتي بها إلى المدن متاجراً بها. ولَمَّا ضاق بها ذرعاً بعدما عجزت وشاخت قتلها مسمومة. فراح أبو ماضي ينحو باللاَّئمة على ذلك الجاني الأَثيم الذي اقترف في نطره "جناية لا يقترفها شيطان رجيم" وخاصَّة بعدما وجد أنه

ليس هناك مبرِّر لقتلها من قبل صاحبها وخاصَّة لأنها "لم تفسد له أرضاً ولم تسد عليه طريقاً ولم تؤذه في نفسه ولا في ماله ولا في أهله ولا زاحمته على مكسب ولا نافسته في مجد ولا منعت عنه ضوء شمس ولا قمر. وليس وجودها في الحياة ينقص من ملَذّاته ومسَرّاته ولا هو مسؤول عن شيء من طعامها وشرابها وبيتها ولن ينتفع بلحمها ولا جلدها ولا عظمها ولن تصير الأرض أوسع عليه بعد ذهابها، ولكنه مع ذلك مشى إليها بالسُّمّ الفتّاك متعمّداً إهلاكها كأنها تمشي بقوائمها الضّخمة على أضلاعه، وكأنّها تتغذى بدمه فكان في جنايته أكثر بربريَّة من الذي ينبش الجثث من القبور ويمثّل بها كما تفعل الضَّبع".

وكأنَّ أبا ماضي قد أراد من خلال كلماته هذه أنْ يضع الأسس والقواعد والأنظمة التي يجب أن يعتمد عليها أعضاء تلك المؤسسة الإنسانية وهي المؤسسة المعروفة بمؤسسة "الرِّفق بالحيوان".

* * *

كانت مجلة "السَّمير" التي أصدرها ابو ماضي والتي حوَّلها إلى جريدة هي الألف والياء في حياته .

فكان دائماً يقيها برموش عينيه كلّما وجد خطراً محدقاً بها، محاولاً القضاء عليها، وخاصة خطر الحساد والأعداء والأشرار. فها هو يقول ذاكراً مشاعره الصادقة نحو غرسته تلك التي كانت بالنسبة إليه المحبوبة الفاضلة والصديقة الأمينة، في مقاله الذي كتبه تحت عنوان (مولد "السَّمير") :

"أطلَّ علينا هذا النهار وهو الثاني من تشرين الثاني وأطلَّت معه ذكريات أربع وعشرين سنة مرَّت على تأسيس "السَّمير" ذكريات فيها الحلو وفيها المرّ وفيها المبهج وفيها المزعج، ولكننا لم نحتفظ في أنفسنا إلاَّ بالجميل منها وحتى المزعج وجدنا فيه حلاوة لأنه كان طريقاً إلى المبهج".

ولقد كان أبو ماضي في أكثر مقالاته تلك أديباً واعياً ومصلحاً اجتماعياً كبيراً يبحث عن العلل والأمراض ليصف لها الدَّواء الشَّافي وكُلّ ذلك بواسطة قلمه السَّيَّال المعطار. فها هو يقول في مقال له بعنوان "ما هي أسباب الثرثرة": "يجدر بنا قبل أن نتكلّم عن أسباب الثرثرة أن نسأل: من هو الثرثار؟

إنَّ القاموس لا يعرِّف الثرثار إلاَّ بأنَّه "المهذار الصَّيَّاح" ولكنه يعرِّف الثرثرة فيقول: إنها الإكثار من الكلام وترديده، ويعرِّف الثرثارة بأنّها المرأة الكثيرة الكلام. ومن أسباب الثرثرة فراغ في ناحية من جمجمة الثرثار".

أمَّا الأدباء السَّاكتون "فإن أبا ماضي يشاطرهم الرَّأي راثياً لحالهم معدّداً أسباب لجوئهم إلى الصَّمت ويقول: "ولكن هؤلاء الأدباء آثروا الصَّمت على الكلام فما يحرّك أحدهم قلماً ولا لساناً إلاَّ ليعتذر بأنّه مغلوب على أمره، وأنّه في دنياه كالغريق يعلو ويسفل مع الأمواج التي تعلو حوله وتسفل، أو أنّه لا يرى للقول فائدة إذ ليس هناك آذان تستمع ولا قلوب تعي، أو أنّه ساكت يتبصَّر ويعلّل نفسه بالوصول إلى يوم أغَر

مُحِلّ كيوم النوروز، لا يتقيّد فيه بتجارة ولا صناعة ولا يسيطر على نفسه أحد غير نفسه، وعندئذ يطلع من كمينه وينشط من عقاله وينطلق يكتب ويخطب وينظم وينثر".

وقد لفت نظرنا - ونحن نطالع مقالات أبي ماضي وقصصه التي كتبها وألّفها والأبواب التي كان يختفي خلفها مدلياً بواسطتها بآرائه الخاصة بالنّاس، وخاصّة من بينهم الحسّاد والأشرار - بابٌ أسماه "مذكرات أحمق" وهذه المذكرات الأحمقيّة هي في نظرنا مذكراته الخاصة وليست مأخوذة عن الغير ولا مترجمة.

وكثيراً ما كان أبو ماضي يكتب مقاله ويذيّله بلفظة "فكتور" وما فكتور هذا سوى أبي ماضي نفسه تحت اسم مستعار.

ومن اللافت للنّظر حرص أبي ماضي في أكثر مقالاته على الاستشهاد بصحّة آرائه بأبيات من الشعر كان يحفظ أكثرها عن ظهر قلب. إذ إن قاموسه الشّعري كان قاموساً ثرياً من هذه الناحية، حيث تراه في مقاله "الأدباء السّاكتون" يحثّ النّاس على طلب العلم من المهد إلى اللّحد وعدم تركه أو التخلّي عنه:

" أي ماء ركد ولم يأسن ، أيّة زهرة انزوت عن النور والهواء ولم يصبح الظلام لها كفناً ، وأيّ سيف طال عليه الثواء في القراب و لم يأكله الصدأ، وقديماً قالت العرب: "آفة العلم الترك" كما قال أحد شعرائها في الجاهلية:

ومن يك ذا علـم فيبخـل بعلمـه   على قومه يُستغن عنه ويُذْمَمِ"

وكثيراً ما نراه يورد بيتاً من الشّعر ثمّ يشفعه بحكمة من أقواله الحكميّة الكثيرة وذلك مثال قوله:

"ولا عذر للأديب في ضنّه وبخله فإننا نرى الجدول يجري مترنّماً شادياً بين الأشواك وفوق الصخور، ونرى الوردة تعبق وتفوح في يد الملك ويد اللّص على السّواء".

أما فيما يتعلّق بمعرفة من هو أحمق النّاس من بين هؤلاء الحمقى الّذين سرعان ما ينخدعون بسبب طيبة قلوبهم ببعض المحتالين الخدّاعين، فإنّنا نراه يدلي برأيه الخاص بهذا الصنف من النّاس وذلك في مقاله الذي كتبه تحت عنوان "من هو أحمق النّاس".

وعلى هذا النسق من الجودة أسلوباً ومعنى يمضي أبو ماضي في أكثر مقالاته النثرية التي جعل همه الوحيد فيها إصلاح الفرد في المجتمع ولا يصلح المجتمع إلاّ بصلاح أفراده الّذين يعيشون فيه.

وكان أبو ماضي يمعن النظر في النّاس فيراهم أشبه "بالنّبت الذي فيه الشوك والزّهر أي فيهم الخيّر وغير الخيّر والجيد والرديء، ومن علامة الخيّر أنه ينظر في عيوبه قبل عيوب النّاس وإذا لاحت له عيوب الناس كفّ عنها بصره وأمسك لسانه".

وعلى هذا المنوال منوالُ إصلاح الفرد في المجتمع وجعل الأرض تزهو بسكانها والسعادة مرفرفة بأجنحتها فوق مدنها وجبالها وأنهارها وبحارها وأوديتها.. ومن هنا يتبيّن لنا لدى قراءتنا لأكثر مقالات أبي ماضي مدى

حرصه واهتمامه بالنّفس البشرية لكي لا تصاب بالأذى أو تحرق بنيران ألسنة الحسّاد والأشرار معتبراً ذنوب الناس هي ذنوب عصرهم.

وكان أبو ماضي قد جعل وكده في الكثير من مقالاته إقناع الناس بأن لا فائده لهم من وراء محاربتهم لبعضهم البعض، إذ إنّ الدّولة المنتصرة في الحرب على دولة أخرى لا تكون في الحقيقة منتصرة بكل معنى كلمة الانتصار، بل منهزمة في الحقيقة تعاني عدّة سنين من الأزمات الاقتصادية الخانقة، فضلاً عن أبنائها الّذين ماتوا في الحرب وهم يعدّون بالألوف بل بالملايين، وعن خراب المدن، وحرق الأراضي الزراعية المترامية الأطراف، فهو قد كان يؤمن بأنّ الخسائر التي تلحق بالإنسان ومدنه وحضارته أثناء الحروب أكثر بكثير من الأرباح التي يجنيها بعد انتصاره المزعوم على أعدائه.

ومن هنا كان يمكننا أن نرشح أبا ماضي لنيل جائزة السلام وهي جائزه يستحقها عن جدارة لأنّه قد كان حَقّاً أديباً وشاعراً وناثراً محبًّا لأخيه الإنسان عاملاً على إسعاده بواسطة نصائحه التي كان يسديها إليه.

كما أنه كان رجلاً فاضلاً مؤمنا أشد الإيمان بوجود الله عَزَّ وجَلّ وباتّكاله عليه ليلاً ونهاراً وفي السرَّاء والضرَّاء والشدَّة والهناء.

فلا يجدر بنا أن نجاري الّذين اتهموا أبا ماضي بالمروق والتشكك والإلحاد وخاصة في قصيدته الطويلة "الطلاسم" التي نراه يقول في أحد مقاطعها:

جئت لا أعلم من أين ولكنّي أتيـــت
ولقد أبصرت قدامي طريقاً فمشيت
وسأبقى سائراً إن شئت هذا أم أبيت
كيف جئت؟ كيف أبصرتُ طريقـــي

لست أدري

فقوله هذا شبيه بأقوال الفلاسفة لا الملحدين، والفرق كبير بين الفلسفة والإلحاد.

جميع آثار أبي ماضي النثرية الأدبية التي كتبها كما سبق أن أسلفنا ما بين عامي ١٩٢٨ م. و١٩٣٦ م. هي آثار كبيرة ذات قيمة وفائدة أدبيــة وإنسانيــة واجتماعية، نجد من المفيــد أن نذكر عناوين بعــض منها. إذ إن حكمة جماعية قديمة ذكرت أنَّ الكتاب يُقرأ من عنوانـــه. فأبو ماضي كان يكتب مقالاته مختاراً لها بنفسه ولنفسه عناوين تنبع من نصوصها وروحها.

فهو صاحب مقالات: "الضّواري البشريّة" و"عناد الجاهل" و"الشعور الحقيقي جمال النفس" و"تجار الأقاويل" و"ولادة الإنسانية". والمقال الأخير يتحدث فيه عن مشاعر الفخر والغبطة بحكم انتمائه للسيد المسيح، وكان يُعظم ويُكْبر ذلك اليوم أشرق فيه عيد ميلاده عليه السلام. قال أبو ماضي في مستهل مقاله:

"بعد أقل من أسبوع من اليوم يحتفل العالم المسيحي ويشاركه العالم غير المسيحي بولادة طفل، والأصَحّ أن نقول إن الاحتفال - في الواقع - بولادة الإنسانيّة ولادة جديدة راقيه نبيلة، فقد كانت الحياة قبل تلك الولادة قائمة على النّزعات الحيوانيّة في الإنسان، وعلى تقديس القوّة والتعبُّد للفتك والبطش، وعندما ترقّ وتعطف تمشي على قاعدة عين بعين وسنّ بسن، واستمرّت تجري ولا تحيد عنها حتى جاء الناصريّ ينادي بالمحبّة والصّفح والرفق والعفو والغفران لأنّه أدرك أنّ النّاس الّذين استحوذت عليهم فلسفة القوّة أجيالاً يأتون بما يأتون من المنكرات والجرائم وهم يتوهّمون أنّهم يأتون أعمالاً مجيدة. إنّهم لا يدرون ما يصنعون وهم معذورون، فآثامهم ليست آثامهم بل آثام آبائهم وأجدادهم".

عاليه في ٢٠٠٨/٤/٢٩م.

المحقق

الدكتور عفيف نايف حاطوم

الخاتم والوردة

الخاتم والوردة

كانت الرَّاقصة الجميلة على فراش الاحتضار، ولم يبق بينها وبين الموت إلاّ ساعات مَعْدودَة، ثم يستولي التّراب القاسي على ذلك الجسم الرَّشيق، وتخلو المسارح من الفراشة اللّعوبة الطّروبة!

خرجت صباحاً في سيارتها الفخمة الأنيقة، فزاغت بها في الطريق فصدمت سيَّارةً أخرى، فكانت الفاجعة التي انفطر لها قلب الفَنِّ حُزْناً، وطارت قلوب الفَنِّ والجمالِ شعَاعاً[1]، وقديماً كانت كواكب الأسْحار قصيرة الأعمار!

وشاع الخَبَرُ في المدينة، فأخذ عشّاق الرَّاقصة والمُعْجبون بها يتهافتون لعيادتها، فجاء لوداعها الوداع الأخير اثنان من أشَدّ النَّاس إعجابا بها، جمعتهما المدرسة، ثم الكُلِّيَّة ثم الهُيام بها، وكان أحدهما غنيًّا كبيراً ذا شهرة ونفوذ، والآخر شاعراً فقيراً.

جاءا وكُلٌّ منهما يحمل إلى رَبَّة السِّحْر والفتون هديَّةً، فكانت هَديَّةُ الغَنِيّ خاتما ثميناً من الماس الوَهَّاج، وكانت هديَّة الشاعر المسكين وردة حمراء قانية، وابتسمت الراقصة المُحْتضرة لهما ابتسامة واهية ضعيفة، وتناولت الهديَّتين بأناملها الخائرة إلاَّ أنَّ الخاتم الثمين سقط من يدها فلم تقع عيناها الذابلتان على الجوهرة اللاّمعة المتألِّقة، ولكنها أمسكت بالوردة، وأمرَّت عليها أطراف أناملها في لطف وحنان وشمّتها كأنما شذاها من الجنَّة، وأسلمت الروح وهي تشمّها وتبتسم.

ولَمَّا أنزل الموت ستاره على تلك الحسناء الفنَّانة وانتهى كُلّ شيء، التفت الغنيّ إلى صديقه الشاعر وقال له بصوت مترجرج من شدَّة التّأثر:

---

(1) وطار فؤاده شعَاعاً: تفرّقت همومُه.

الآن أدركت حقاً أنّ المال لا قيمة له، فإنّي لمّا رأيتك في ثيابك الزريّة ورأيت تلك الوردة في يدك سخرت منك في سرّي، وقلت لنفسي: ما أحمقه وأغباه! أمّا الآن فإني أقول لك إني أحسدك، لأنّ الخاتم الثمين الذي حبتُها به لم يستلفت نظرها قطّ بل ابتسمت لوردتك، وضمّتها إلى صدرها، وماتت وهي تشمّها وتبتسم. إنّك يا صديقي قد اخترت الطّريقة المُثلى في الحياة.

فأجابه الشّاعر وقد اهتزّت مشاعره لكلام صديقه: إذن لماذا لا تختار طريقتي في الحياة؟ دَعْ عنك حُبَّ ما يَفنى، وتعالَ معي نحبّ ما لا يزول وما لا يَفنى، انزع من نفسكَ هَوَى الذّهب الرنّان وحرّر قلبك من رِبْقَة[1] الجشع، وهَلُمَّ أُريك الطريق إلى الورود الأبديّة الشّذى، الخالدة الألوان.

تعال، تعال: إذا كنّا خسرنا حبيبتنا الزّائلة، فإنّي أستطيع إنقاذ نفسك الخالدة.

قال الغني وفي نبراته صوت يشير إلى أنّ أمواج الزُّهْد غمرت روحه: أجل يا صاحب، إنّي سأخلع عن نفسي رداءها القديم وسوف أتبعك، فتكون دليلي الأمين إلى المعالي، ولكن انتظرني لحظة قصيرة. ولحظة واحدة يا صاحبي ثم أصير في حوزتك عمري كلّه! وانكفأ راجعاً إلى الغرفة التي لفظت فيها الرّاقصة الجميلة أنفاسها الأخيرة، فشيّعه الشّاعر بألحاظه مبتسماً ابتسامة الفاهم المدرك إذ رسخ في ذهنه أنّ صاحبه رجع إلى الغرفة ليودّع محبوبته الوداع الأخير ثم يَنزع في الحياة نزعةً جديدةً جميلة. فتبعه مطرق الرّأس

---

(1) ربقة: الرِّبق بالكسر حبل فيه عِدّة عُرَا تُشدّ به البَهْم الواحدة.

إجلالاً لشعوره ولكنه لم تكد تقع عليه عيناه في تلك الغرفة حتى هرول راجعاً وهو مقطّب الجبين عابس المحيَّا، لأنّه شاهد صديقه الغني يبحث عن الخاتم ثم رآه يلتقطه ويدسّه خُلْسَةً[1] في كيسه!؟

الخميس ٢٧ تموز ١٩٤٤ العدد ٢١٢

الأفيــال المَسْمومــة

لو كانت الأفيال تصلّي، لكانت تتضَرَّع إلى الله، كما يتضرَّع الإِنْسان، لكي يُنَجِّيها مِنَ "الشرِّير". وكان المقصود عندها ب"الشرِّير" هذا الإنسان الذي يسافر مِنْ قارَّةٍ إلى قارَّةٍ، لكي يدخُلَ إلى غاباتِها، وينصبَ لها الأشْراك، ويصطادها، ويرجع بها إلى بلادِه، يطوف بها على النَّاس، في المُدُنِ، والقُرَى، والدَّساكر، يُغْرِي النُّفوس، ويصطاد الفلُوس. ولا تزال مِن سَفَرٍ شاقٍّ، إلى سَفَرٍ شاقٍّ، في غير الأرض التي يهواها، حتى يَدُسَّ لها إنسانٌ شرِّيرٌ السُّمَّ في ما تأْكُلُ، أو في ما تشربُ، فتَسقط صَرْعَى، كما حدثَ للفيلة التي تَلْغَط الجرائد الأميركيَّة في هذه الأيَّام بحكاية موتها مَسْمومَةً، ونهوض رجال الحكومة للبحث عن الجاني الأثيم الذي اقترفَ جنايةً لا يقترفها شيطانٌ رجيم. فهذه الحيوانات لم تُفْسِدْ له أرْضاً، ولم تَسُدَّ عليه طريقاً. ولم تؤْذِه في نَفْسِه، ولا في مالِه، ولا أَهْلِه، ولا زاحَمَتْه على مَكْسَبٍ، ولا نافسَتْه في مَجْدٍ، ولا منعَتْ عنه ضوء

(1) الخُلْسَة: ما يُسرَق خِفْيَةً أو ينقضي بسُرعة في غفلة.

شَمْسٍ ولا قَمَر. وليس وجودها في الحياةِ، يُنقِصُ مِنْ ملَذَّاته ومَسَرَّاتِه، ولا هو مسؤولٌ عن شيءٍ مِنْ طعامها، وشرابها، وبَيْتِها، ولن ينتفعَ بِلَحْمِها، ولا جلدها، ولا عَظْمِها، ولن تصيرَ الأرْض أوْسَعَ عليه بعد ذهابها، ولكنَّه مع ذلك، مشى إليها بالسُّمِّ الفتَّاك متعمِّداً هلاكها كأنَّها تمشي بقوائِمها الضَّخمة على أضلاعِه، وكأنَّها تتغَذَّى بدَمِه. فكان في جنايتِه أكثر بربريَّة مِنَ الذي يَنْبش الجثث مِنَ القُبُور، ويمثِّل بها كما تفعل الضَّبع.

وهذه الفِعلَة الأثيمَة تثبت أنَّ بعض النَّاس مفطورُون على الأذى كأنهم عاشوا والعقارب في وَكْرٍ واحد. فهم أبداً يَسْعَوْنَ بالضَّرر إلى السِّوَى دون أن يكونَ لهم مِمَّا يعملون أيَّة فائِدَة، فإذا عَجَزُوا عن أنْ يؤْذوا إنساناً آذَوْا حيواناً أو مَبَرَّة أو بناءً، أو صورةً أو تمثالاً، أو أيَّ شيء. فإذا هم أعياهم أن يؤذوا بالأيْدي أو الأسْلحَة أو الأدوات، فلهم ألْسنَة كأنيابِ الأفاعي أينما وقعتْ اندفق منها السَّمّ الزُّعاف[1]. على أنَّ الذي يُعزِّي النفوس الكريمة ويَسْتبقِي الإيمانَ بِعَدْلِ الحياة، غير مُتَزَعْزِع، هو أنَّ هؤلاءِ الأشرارَ الذين يُشبِهون الأفاعِي ينتهي بهم الأمرُ أخيراً إلى أنْ يهلكوا كما تَهْلك العقارِب والأفاعي، إمَّا دَهْساً، أو رَهْساً، أو سَحْقاً. ولِكُلِّ شيءٍ مِيقات، ولِكُلِّ شرِّيرٍ يَومه.

(1) الزُّعَاف: السَّريع القتل.

ما هي أسْباب الثّرثرة ؟

يجدُرُ بنا قَبْلَ أنْ نتكلّم عن أسْباب الثّرثرة أنْ نسأل: مَنْ هو الثّرْثار؟ إنّ القامُوس لا يُعَرِّف الثّرثار إلاّ بأنّه "المِهْذار الصَّيّاح"، ولكنّه يُعَرِّف الثّرثرة فيقول: إنّها الإكثار مِنَ الكلام وتَرْديدِه، ويعَرِّف "الثرثارة" بأنّها المرأة الكَثيرة الكلام.

ولَكِنَّ هذا التعريف لا يصوِّر لنا الثّرثار صورة كاملة، لأنَّ كَثرة الكلام وحْدَها ليسَتْ عَيْباً إلاّ إذا كانت في غير طائِل، ولا مَعْنًى للكلام المُردَّد. ولو أنَّ الكلام الكثير وَحْدَه هو العيب لكانَت للحيوانات العَجْماء أَميرة الفَضائل! لا، ليس الكثير الكلام وحده هو الثّرثار، بل الثّرثار هو الذي يتكلّم في أُمور فوق مَفْهوميَّته ويتحدَّث في قضايا لا تعنيه، ويُطْلق لسانه في كُلِّ ناحية لغير قَصْدٍ أو لِقَصْدٍ سخيفٍ هو أنْ يَظْهَر بمَظْهر الإنْسان المُطَّلع العَليم!

أمَّا أسباب الثرثرة - ولِكُلِّ شيءٍ أسباب - فهي ضَعْف في عقل الثّرثار وهمّته وصِغَر في نفسه وَوَهْنٌ في المَنْطِق. أمَّا الضَّعف العقلي، فالدليل عليه أنَّ الثّرثار يترك الاهتمام بالشّئون التي تَعنيه إلى الاهتمام بشئونٍ لا تعنيه، وليس مِن حقّه، ولا في طاقته أنْ يعالجها، ومَن تعَرَّض لِما لا يعنيهِ ادَّعى ما ليس له، وما ليس فيه. وكِلا الأمرين يَدُلُّ على سوء الأدب.

ومِن أَسباب الثّرثرة فراغٌ في ناحية مِن جُمْجُمة الثّرثار، يشعرُ هو بوجوده، ويخشى أنْ يَشْعُرَ النّاسُ به، فيندفِع يتكلّم لَعَلّه يَصْرِف الأَفْكار عنه، فيفْضح نَفْسَهُ مِنْ حيث أرادَ سَتْرَها!

مولـد السَّمِيـر

أَطَلَّ علينا هذا النَّهار وهو الثاني من تشرين الثاني، وأطَلَّت معه ذكرياتُ أربَعٍ وعِشرين سنة مَرَّتْ على تأسيس "السَّمير". ذكريَاتٌ فيها الحُلْوُ وفيها المُرُّ، وفيها المُبْهِجُ وفيها المُزْعِجُ، ولكِنَّنا لم نحتَفظ إلاَّ بالجميل منها، وحتى المُزعج وجدنا فيه حلاوَةً لأنَّه كان طريقاً إلى المُبْهج.

صَدرت "السَّمير" مَجلَّةً نصف شهريَّة، عندما كان كُلُّ شيءٍ يُخبِر أنَّ حياةَ المجَلَّة العَربيَّة في المَهْجَر أغلى مِنْ عِطْر الوَرْد، وذلك عندما كانت عواصف الحطمة الاقتصاديَّة موشكَةً أنْ تَهُبَّ وتكتسح، وتجرف.

واستمرَّت "السَّمير" تصدر مجلَّةً مدَّةَ سبع سَنَوات كانَت كالسَّنوات السَّبع العجَاف [1] التي مرَّت في تاريخ مصر الفرعونيَّة. ثمَّ وجدنَا أنصار المجلَّة يطلُبون ويلحُّون أنْ تصيرَ جريدة ولو أسبوعِيَّة فوثبنَا بـ "السَّمير" مِن مجلَّة إلى جريدة يومِيَّة؛ ورأسمالنا الأكْبر:

١- الثِّقة بالله

٢- والثِّقة بالنَّاس

٣- والثِّقة بالنَّفسِ

أجل. بالثِّقة التي لنا بالخالِق، والنَّاس، والنَّفْس، أقدمنَا على إِصدار "السَّمير" جريدة يومِيَّة بالرَّغم مِنَ المصاعب التي كانت في طريقِنا.

---

(١) العِجَاف: العَجفاء الأرض التي لا خير فيها.

فليس انْخداع المرء دليل الجهل فيه، ولا هو دليل الذّكاء والدّهاء في خادعه، فإنّ الرَّجل الكريم عُرْضَةٌ للانخداع بالنَّاس، لأنَّه يحسن الظّنّ دائما بالنَّاس.

فإذا رُمِي بالحماقة مَرَّة، فإنّه يوصف بطهارة الوجدان ألف مَرَّة. لقد سمعنا بأُناس كثيرين خدعهم المحتالون الأشرار ولكنَّنا لم نسمعْ بغير المحتالين الذين يدّعون الذّكاء والدّهاء نزلوا على كُرْهٍ منهم في السّجون! كُلّ إنسان معرّض للانخداع، إمَّا بالنَّاس وإمَّا بالأُمور والحوادث، وانخداعه لا يُحْصى عليه من الذُّنوب ولَكنَّه غلط في التَّقدير والتَّخمين والتَّصوّر. فأقبح النَّاس أغلاطاً وأقصرهم نَظَراً وأضلُّهم حِساباً، رجلٌ يَخْدع نفسه فيزين لها الأشياءَ على غير حَقيقتها، والنَّاس على غير ما هُم، ويمضي في الحياة على هذا الوَهْم الفاسد، والتَّصوّر الخاطئ، فتراه إذا نَسَب إِلَى شَخص رَذيلة ليست فيه، تَصَوّر لحماقته أنّ تلك الرَّذيلة قد لَصِقَت به وصارت جزءاً من جسده، كَيَده وعينه وأنفه ورجله.

وإذا لاح له أن يتوهم أنّه رجلٌ ذو سُلطان، مضى يتصرَّف كأنّه ذو سلطان حَقّاً، فينتهي به الأمر إِلَى هُزْء النَّاس وسُخْريتهم؛ لأنَّهم ينظرون إِلَيه بعَين الواقع، لا بعَين الوَهْم والخِداع، فيرونه كما هو لا كما يتصوّر نفسَهُ. ومن هو الذي يتصَوَّر نفسه على غير صورته الحقيقية؟ فهو إمَّا رجل مدخول في عَقله، وإما رجل جَوْعان إِلَى شيءٍ من الشّهرة أو السُّلطة؛ فهو لعجزه عن بلوغ ما يتمنَّى يُكبّ على خَمْرة الوَهْم يجرع منها الكأس بعد الكأس، حتى يكسب شيئاً من الشجاعة على المجاهرة بأنه لا يختلف عن أحد من المشاهير وذوي السُّلطان! أو رُبَّما حَمله

الوَهم على التّصور بأنّه فوق كل ذي شُهْرة وسُلطان، ولا سيّما إِذا وجد من يُشْفق عليه كما يشفق على المريض فلا يعارضه في قول ولا عَمَل لئلاّ يَسلُبَها السّعادة الوهميَّة التي يَنْعَمُ بها.

إِنّ هؤلاءِ الذين يَخْدعون أنفسَهم على هذه الصُّورة هُمْ كالأطفال الذين يَعْجِزُونَ عن الدُّخول إِلَى دُنْيا الكِبار، فيقنَعون بدنياهم الصَّغيرة، وما فيها من ألاعيب وأساطير وحكايات وخُرافات. ولَكِن ليس في الأطفال خُبْث ولا رِياء، أمَّا أُولئك فليس من شيء فيهم أظهر من الخُبْث والرِّياء والادِّعاء الفارغ! لا نَوَدُّ أنْ ندُلَّ على أحد بعينه، فنحن لا نبغي من وراء هذه الكلمة سوى التَّنبيه إِلَى آفة من شَرّ الآفات ألا وهي آفة الغُرور، فعسى أن يبتعد عنها أُولِئك الذين تصدق فيهم أو تنطبق عليهم، وذلك قبل أن تكون قد استولت على أفكارهم وطمست قلوبهم، وأعمت أبصارهم عن رؤية ما حَلَّ بمن هم من أمثالهم من مصائب ونكبات علّهم يتّعظون ويعتبرون.

أَشواك وأَزهار

النَّاس كالنَّبت فيه الشَّوك والزَّهر. أيْ فيهم الخَيِّر وغير الخَيِّر، والجَيِّد والرَّديءُ. ومن علامة الخَيِّر أنَّه ينظر في عيوبه قبل عيوب النَّاس، وإِذا لاحت له عيوب النَّاس كَفَّ عنها بصره وأمسك لسانه. ومن علامة الرَّديءِ أنَّه ينسى ما فيه من عُيوب ويمضي يتطلع هنا وهناك، في الظواهر والخفايا، لعلّه يجد عيباً يعلنه أو قُبْحاً يتحدّث به قاعداً وقائماً، ويلغط به مع أَصحابه ومع غير أصحابه. إِنَّ النَّار تحرق عود النَّد، ولكنها في الوقت ذاته تنشر أريجه الذَكي الطَّيِّب. فتصاعد الروائح الكريهة المُؤْذية

من مستنقع ما قد يحمل النّاس على اتّقائه والهرب منه فيعملونَ متكاتفين على طمره وتحويله إِلَى حديقة غنَّاء أَوَ سَهْل ممرع مخضرٌ فتَّان. لكل شيءٍ نَفْعه، جَلّ أو قَلّ، ولكن هذا لا يعني أن يستمر القبيح في قبحه وفي وسعه أن يكون جَميلاً، كما أنّه لا يعني أنه يجب أن تكون في الأرض مستنقعات لكي ينشئ النّاس الجنائن والحدائق. وإنّما ضربنا هذه الأمثال لكي نردَّ الإِيمان إِلَى بعض النفوس التي يستولي عليها اليأس من صلاح البشرية كلما رأت شرًّا في الأرض. وإِنّما نحن نضرب هذه الأمثال لكي يسهل على النّاس أنْ يَرَوْا البطَانة الفضيَّة وراء كُلّ غَمامة سوداء، وأن يتوقّعوا المطر الذي يُحْيي السُّهول كلما تلبَّد الفضاء بالغيُوم الدَّكناء.

ثم نحن نضرب هذه الأمثال لكي نخلق الرحمة في قلوب الأخيار على الأشرار، لأنّ هؤلاء ما صاروا أشراراً لأنّهم أرادوا أن يصيروا أشراراً؛ فالشوك لم يصر شوكاً بإرادته، فهناك أسباب وعوامل منها الخَفيّ ومنها الظاهر تجمَّعَت كلها فنشأ عنها ما نراه ونحسبه قبحاً ودمامة أو شرّاً وخساسة.

إنّ كل إنسان مسؤول عن أعماله وأقواله، على أن المجتمع مسؤول عن كل فرد من أفراده ويجب عليه أن يكافئ الفضيلة مثلما يعاقب الرَّذيلة. وبذلك تصلح البشرية وينتشر الجمال في نواحي الحياة.

الضَّواري البَشَرِيَّة

عندما كان الإِنسان الأوَّل يعيش في الغابات والأدغال ويأوي إِلَى المغاور والكهوف، دفعته غريزة حُبّ البقاء إِلَى الاستعانة بالهراوات الضَّخمة، والحجارة المحدّدة، لمحاربة الضَّواري ومقاتلة الأفاعِي وقايةً

لنفسه ومحافظة على كيانه. ثم ارتقى وتحضّر وسكن البيوت والقصور وأنشأ المدن وعَمَّر الأرض الخراب، فابتعد عن الوحوش والأفاعي، أو ابتعدت هي عنه وأصبح آمنا على جلده من أظافرها وأنيابها، لأنه صار أقدر على حماية نفسه منها، غير أنّه وجد نفسَه أحياناً مُستهدفاً لخطر جديد، يَحتاج في اتّقائه إلَى وسيلة غير الهراوة والحَجَر؛ وهو وجود أناس فيهم نزعة الضّواري إلَى التّخديش والتمزيق ؛ تخديش السّمعات السّليمة لا الجلود، وتمزيق الكرامات المحترمة لا اللّحوم، فوضع الشرائع وسَنّ القوانين ليحمي نَفسه ويصون شرَفه مِنْ هؤلاء الأشرار الأشدّ أذى من الأراقم والعَقارب والأولع بالفتك والتهشيم من الضّواري.

إنّ وجود اللّصوص هو الذي أنزل الوصية - لا تَسْرِقْ. وهو الذي حمل المفكّرين على وضع قانون يعاقب على السّرقة.

ووجود قُطّاع طُرق يسلبون النّاس أمتعتهم، ونقودهم، قضى بوضع قانون يعاقب السّلاّبين والنّهّابين، ووجود تجّار محتالين يأكلون مال النّاس ثم يعلنون إفلاسهم، أوجب وضع قانون ضد الإفلاس الاحتيالي، ووجود أقلام سبّابة عيّابة في عالم الصّحافة قضى بوضع قانون للاقتصاص مِمّن يفترون على النّاس ويَرْشقونهم بالتّهم الباطلة بَغْياً وعُدْواناً وزُوراً وبُهْتاناً.

وهذا القانون لازم كل اللزوم - إذ كيف يعاقب المجتمع ولداً حطّم زجاج بابٍ أو زجاج نافذة؛ ولا يعاقب من يحاول تحطيم سُمْعة، وتَشْويه صيت، وهَدْم كرامة ؟!

فأنت ترى أنّ القوانين وُضعت لحماية النّاس الفُضلاء من أذى النّاس الأردياء، وللاقتصاص من السُّفَهاء الذين ينهشون أعراض النّاس بألسنتهم السّاقطة وأقلامهم القَذِرة.. أولئك النّاس الذي يجدون في تَشْويه سُمعة إنسان طَيّب أو هدم صيت امرأة فاضلة لَذّة كالتي يجدها الذّئب في

شُرْب دَم النَّعجة؛ وتراهم يدورون من بيت إِلَى بيتٍ لينشروا إِشاعات السُّوء أو يتحدَّثوا بها كما سمعوها مِنْ غيرهم، وهم الذين اختلقوها وفبْركوها وزوَّقوها لكي يوجدوا اضْطراباً في عائلة سَعيدة، أو لكي يُقلقوا راحةَ جماعةٍ مطمئنة أو ليهدموا صِيْت تاجرٍ، أو ليلوِّثوا سُمعة أديب.

إنَّ هؤلاء الأشرار خَطرٌ على المُجتمع، لا وقاية منهم ولا سلامة إِلاَّ بالالتجاء إِلَى القوانين التي تعاقب على الافتراءات، وتحاسب الذين يَرْشُقون الناسَ بالتُّهَمِ الباطلةِ، حِساباً عسيراً.

عناد الجاهل

ما رأيت رَجُلاً حَرِداً ناقِماً على الزَّمان والنَّاس إِلاَّ وكان مِمَّن ضيّقوا الدّنيا على أنفسهم بالجَهْل، فأصبح الواحد من بينهم لقصر نظره في الأمور، وضيق صدره، لا يرضى عمَّا هو كائن، ويغيظه أنَّه عاجزٌ عن خلق الشيءِ الذي يرضيه؛ فهو لشدَّة دَوَرانه على نَفْسه، ينسى أنَّ في الدّنيا أحداً سواه، وأنَّ لذاك الغَيْر حَقًّا في الحياة مثل حَقّه على الأقلّ.

أمَّا الرجل العاقل الذي قرأ وفكَّر وٱمتحن وجرَّب فإنّه لا ينظر إِلَى أيَّة مسألة من الوَجْه الذي يَعْنيه وَحدَه منها، بل يحاول أَن يتفهَّم مَوْقف الآخرين حيالها وإِنْ اختلفوا معه في تقديرها وتَصْويرها؛ فربَّما كان الصَّواب في ما ارتأوا والخطأ في ما ارتأى! بل إِنَّ العاقل لا يَستَنكف أَنْ يأخذ الفَلسفة من أفواه الأطفال وأن يَقْتبس الحكمةَ من كلام المجانين.

أمَّا الجاهل فيَستكبر أن يقبل فِكرةً أو رأياً لسواه، ولو جاءَه من فم نبيٍّ؛ لأنَّه لغباوته يتوهَّم أنَّ في رجوعه عن رأيٍ له ولو كان خطأ، عيباً

كبيراً وسُبَّة شَنعاء! حتى إنّك لتسمع بعض الجَهَلة يفاخرون بالعِناد كأنّه ملكُ الفضائل فيقول واحدهم مثلاً: إنّي سأضرب الحيط برأسي - فإمّا أهدّه وإمّا أكسر رأسي! ومعنى كلامه أنّه لا يوجد حلّ للمُشْكل الذي يعالجه غير أحد أمرين: إمّا هَدّ الحيط وإمّا كسر رأسه، مع أنّ هناك طريقةً سهلةً جدّاً وبسيطـــة جدّاً يسلم معها الحيط من الهَدّ ويسلم رأسه من الدّقّ والكسر، وهي أنْ لا ينطح الحيط!!

أمّا إذا كان لا بُدَّ من هَدْم الحيطِ فذلك أمرٌ ميسور بغير الرّؤوس النّطّاحة، فهذه لا تَهدّ الحِيطان بل لها المعاول والأمْخال التي لم يخترعها هذا الصّنْف من النّاس بل القوم الذين استعملوا ما في رؤوسهم من عقول، لا رؤوسهم!!

ومن علامات الجاهل أنّه رجل تقوم قِيامتُه لأيّ أمْر حقير، تافه، فتراه يعالجه في حماسة متناهية ونشاط بالغ كأنّما سعادة العالم كُلّه متوقّفة على تَحْقيق ذلك الأمْر، وقد يكون في الواقع لا يهمّ أحداً غَيْرَه ولَكِنَّ النّملة تغرق في شبر ماء!

وإذا لم تغرق توّهمت أنّها عَبَرت بَحراً كبيراً! أمّا إذا اجتاز أحَدٌ البحرَ الكبيرَ فذلك أمْرٌ لا يدخل في عَقْلية النّملةِ لأنّها لا ترى البَحر وليس من بحر عندها إلاّ نقطة الماء! إنّ هذا النوع من الجهل هو السبب في ما نراه من التفكّك في صفوف أُمّتنا، وهو الذي يجب على كتّابنا وخُطَبائنا وشُعَرائنا ووعّاظنا أنْ يحاربوه، أو بالأحرى يجب أن يحاربه كلّ واحد منّا في نَفْسه وفي غيره. فكُلّنا على شيءٍ من هذا الجَهْل؛ إمّا بالنسبةَ إِلَى غيرنا من النّاس وإمّا بالنسبة إِلَى ما في الكون من أسرار مدفونة وألغاز مُغْلَقة.

من فضائل العاقل أنّه يعترف بعَجْزه عند شُعوره بالعَجْز، ولكن أحسن من هذا أنْ لا يقنع بالاعتراف وحدَهُ بل يسعى إِلَى إِزالة ما به من عجز وقصور بالدَّرس والبحث والاستقراء والاستقصاء؛ فالحياة هي المدرسة الوحيدة التي لا توصد أبوابَها ولا ترد طُلاَّبَها..

الشعور الحقيقي جمال النفس

الشّعور الحقيقي يدُلّ على جمال النَّفس، ويختلف عن المظاهر المألوفة التي تتكرَّر أمامنا كلّ يوم، وهو ما يسير عليه بعض النَّاس عند نزول الملمَّات والمَصائب بالآخرين، فتكثر المُحاباة والتَّصنّع ويبدو الرّياء بثوبه الشَّفاف، ومن تحت الثوب الخُبْثُ والمُداهنة.

والشعور الصادق ليس شفاها تتحرَّك، وألسنة تتكلّم، وعيوناً تَدْمع وأيْديَ ممدودة تتحرَّك؛ وبكلمةٍ ليس الشُّعور الصَّادق كلماتٍ معسولةً منمَّقةً لا تعني شيئاً أو لا معنًى لها على الإِطلاق، ولا هو دورٌ في رواية الحياة لا مغزى له وُجِدَ لِسَدّ فراغ أو لإِكمال الرِّواية! إِنّ الشعور الحقيقيّ هو ما كان صادراً عن قلبٍ كبير ونفس حسَّاسة وإِخلاص في القول، لا تَشوبُه شائبة[1] النَّفع الذّاتي.

وهذا الشعور الصَّامت - دون إِعلانه بالكلام النَّاعم والمُزَخْرف والتَّدليل عليه - خير من مئات الكلمات المُزَوَّقة وأفضل من مائة دمعة يذرفها مراوغ مُراءٍ. فالشعور النبيل، في صمته غايَةٌ يحس بها المرءُ فتملك

(1) الشائبة: الشيء الغريب يختلط بغيره ويقال ما فيه شائبة ليس فيه شبهة والدَّنس والقذَر ونحوهما ج شوائِب.

عليه مشاعرَهُ وتخفّف عنه ما به من هَمٍّ وكَدَرٍ، وهُوِّن عليه ما يلقاه مِن صدمات الدّهر!

وهو الذي يجمع بين عاطفة الحنان، والرّأفة وفضيلة الحكمة في مشاطرة الآخرين حَمْل أثقال الحياة ومتاعبها، واستعادة الأمل والرّجاء إِلَى القلوب المُنْكسرة بدخول الأمور من أبوابها عن طريق الرّشاد والرَّوِيَّة.

إنّ الحكمة في إبداء الشّعور الصّادق تأتي بالعجائب إبّان[1] المُلمّات[2] والمصَائب، والسرّ في ذلك هو أنْ تجعل نَفْسَكَ مساويةً لنفوس الآخرين كأنّها جزءٌ منها، وبذلك يكون لكلامك التّأثير المَرغوب والأثر الجميل البعيد في القلوب. ومن كان ذا شعور إنسانيّ حقيقي، لا يتصنّع ولا يُوارب ولا يضطر للمُداهنة فمَدارِكه سامية وخياله صاف؛ وبالتدريب والتمرين يصبح الشعور الإنساني ملكة في المَرء كسائر أمور الحياة. وكما تتمرن أصابع اليد على أوتار "العود" أو الكمنجة فتأتي بعدئذ بالأنغام الشجيَّة العَذْبة، بشرط أن يكون للمرء الاستعداد ليكون موسيقيًّا كما يجب أن تكون في قلبه جذوة الشعور الصّادق، لينمّيها بالمُمارسة والمُزاولة.

ولا يتوَهّمنَّ أحد أنّ الشعور الحقيقي وَقْفٌ على المريض والفقير التّعس والإشفاقُ عليهما دون سواهما، لا، فإنّ معاني الشعور الإنساني أوسع وأسمى من أنْ تنحصر في غرفة العَليل، أو يحدّها كوخُ الفقير، بل هي تشمل سائر النّاسِ عامّتهم وخاصّتهم على السَّواء وكلّنا في حاجة إليها، الأغنياء والفقراء.

---

(1) إبّان الشيء: وقته يقال كلّ الفاكهة في إبّانها أي في وقتها.
(2) والمُلِمَّة النازلة من نوازل الدُّنيا أي مصائبها.

قال أحد المفكّرين الكبار: إنّ الشعور مع المتألم ليس أسمى مثال في الحياة، ففي وسع أيّ إنسان أنْ يبدي شعوره مع صديق له في الشدَّة ويكون شعوره هذا سَطْحياً منمّقاً ويكيل النصائح فتجيء بعد فوات الوقت عليها. ومن يَخْلُ قلبه من الشعور الصّادق فهو لا يتميّز عن الحيوان الأعجم. أجَل إنّ هذا الحيوان الأعجم الذي نظلمه بتشبيهنا به بعض النّاس العَديمي الشّعور هو أفضل بكثيرٍ من هذه الحيوانات الناطقة من بني البَشَر! خذ الكلب مَثَلاً؛ فهذا "الحيوان الأعجم" هُوَ عندنا صفة احتقار وازدراء ننعت به الخالي من الإحساس العديم المروءة المنحط بآدابه وأخلاقه، وهذا خطأ درج عليه النّاس، فهذا الحيوان له صفات الإخلاص والأمانة ممّا لا نراها في كثيرين من البَشَر الّذين يتظاهرون بالصّداقة والإخلاص وهم على عكس ذلك.

ومن بليغ القول "يجدر بالمرء ألاّ يجعل من قلبه جزيرة منفصلةً عن باقي الأرض". وعلى الجملة إنّ الشعور الإنساني الصادق فنٌّ سامٍ في حياتنا إذا تدرّبنا عليه وتمرّنا به وأتقنّاه، فعندئذ يصبح هذا العالم فِرْدوساً يسود فيه السلام والرَّخاء.

تجّـــار الأقاويـــــل

من بيتٍ إلى بيت.

ومن مجلس إلى مجلس.

يدور تجّار أو تاجرات الأقاويل لالْتقاط حكاية أو خبَر أو كلمة ينون عليها بيوتاً عالية مِنَ الشّوائع، ويتوهّمون أنّها ستبقَى، فتعصف بها رياح الحَقيقة فإذا هي أطلال دارسة وآثار طامِسَة.

وإذا لم تجد تاجرة الأقاويل شيئاً تحمله في جرابِها وتدور به تنثره هنا وهناك فإنّها تعمد إلى الاختلاق والتزوير فتقول: سمعت "كذا وكذا" دون أن تخبر أين سمعَتْ ولا ممَّن سمعَت.

وإذا سُئلَتْ أين ومَنْ؟ تكَلّفت الحشمة وزعمت أنّها تأبى أن تُسَمّي أحداً أَو مكاناً لئلاّ ينتصب ميزان العِتاب بين الناس. وهي في زعمِها كاذبة مثل الخَبَر الذي تنشره، وليس الذي تخشاه وتتوقّاه غير أمر واحد، هو أنْ ينكشف السِّرّ ويعرف النّاس الخبر الكاذب المُختْلق.

نتكلّم بصيغة المؤنّث لأنّ النّميمة مؤنّثة والجريمة مؤنّثة والبعوضة التي تنقل الجراثيم مؤنّثة، وعندما يصير أيُّ رجل إلى هذه الحالة، وتصير هذه العادة الذّميمة عادته، فقل إنّه قد أضاع شيمة الرَّجل وشممه وصار لا رجل. لا تكثر النّمائم إلاّ بين الطّبقات الجاهلة المنحطّة التي تحنّ لضعف مداركها إلى استطلاع الأمور، ولكنّها لا تبلغ إلاّ الأعراض والقُشور فتعلُكها وتلوكها وتحسَبُ أنّها ظَفِرت بالجوهر واللّباب.

للنّمائم أجنحة ولَكنّها أجنحة بعوض.

ولها طنين ولكنّه طنين الذُّباب.

لذلك يكره الناس رؤية البعوض لأنّه لا يحمل في أجنحته غيرَ الجراثيم، وهم يمقتون الذُّباب لأنّ أغانيه وأهازيجه ليست ممّا تطرب لها الأرواح ولا تهتز لها المشاعر، ولكنّهم مع معرفتهم أنّ ضرر الشّوائِع الكاذبَة والأراجيف المختلقة مثل ضرر البعوض والذباب بل أشَدّ، ولا يعملون على إبادتِها كما يعملون على إبادة البعوض والذُّباب. ولو كان

في البلاد شريعة تعاقب المُختَلق المُرجِف لرأينا كثيرين مِمّن يغشَوْن البيوت والمجالس في غَيَابات[1] السُّجُون.

ولادة الإنسانية

بعد أَقلّ من أسبوع من اليوم يحتفل العالم المسيحي ويشاركه العالم غير المسيحي بولادة طِفْل، والأَصحّ أنْ نقول إنّ الاحتفال - في الواقع - بولادة الإنسانية ولادة جديدة راقية نبيلة، فقد كانت الحياة قبل تلك الولادة قائمةً على النّزعات الحيوانيَّة في الإنسان، وعلى تقديس القُوَّة والتَّعبّد للفتك والبطش، وعندما ترق وتعطف تمشي على قاعدة عَيْن بعين وسِنّ بسن، واستمرّت تجري ولا تَحيد عنها حتى جاءَ النّاصريّ ينادي بالمحبَّة والصَّفح، والرِّفْق والعفو والغُفْران، لأنّه أدرك أنّ النَّاس الّذين استحوذَت عليهم فَلسفة القوَّة أجيالاً يأتون ما يأتون من المنكرات والجرائم وهم يتوهّمون أنّهم يأتون أعمالاً مجيدة؛ إنَّهم لا يدرون ما يصنعون وهُمْ معذورون.. فآثامهم ليست آثامهم بل آثام آبائهم وأجدادهم، وليست ذنوبهم غير ذنوب عَصْرِهم.

ولا تزال من ذلك العصر بقية في كُلّ عَصْر، ولا يزال في النَّاس كثير من طباع وغرائز أولئك النَّاس لأنّ الرُّوحانيَّة في الإنسان لم تبلغ مقداراً كافياً من القُوَّة للتغلب على شهوات اللّحم والدم، ولمعرفة الحقيقة المتجسدة أمام الشمس وهي أنّ الإنسان يَبْطُش بنفسه عندما يَبْطَش بأخيه الإنسان، وأنّه يُهين كرامته عندما يَقبل أنْ يَسْتذلّ بشرِيًّا مِثله. منذ

(1) وغيابة الجُبّ: قَعْرُ البئر.

حوالي ألفي سنة اهتزت البَشرِيَّة طَرَباً للصَّوت القائل: " أحِبُّوا أعداءَكم. باركوا لاعنيكم. أحسنوا إِلَى مبغضيكم".

وهي لا تزال تَسْمَع كلّ يومٍ هذه النَّصيحةَ الغالية، ولَكِنّ الذين يعملون بها فهم بين النَّاس أقل من الغرّيْد بين الغرْبان، وهذا لا يعني أنَّها مبادئ لا تصلُح للعمل بها، بل يعني أنّ طبيعة التّراب في الإنسان لا تزال أقوى فيه من طبيعة الرُّوح؛ ولذلك هو يَشْقى.

على أنّ الإنسانية التي ترتعد فرائصها في هذه الأيّام كُلّما مَرّ في ذهنها طيف الحَرْب، تدل بهذا الخوف على سموّها ورقيّها وعلى أنَّها واصلة يوماً إِلَى الطُّوبى[1].. إِلَى حالة من الإخاء تضمحل معها الفوارق بين الشُّعوب، وعندئذ لا يتعالى قويّ على ضَعيف ولا كَثير على قليل؛ ولا يتجنّى مسلّح على أعزل.

وإذا لم نبلغ هذه الحالة المنشودة في عصرنا هذا فلا نغلط إِذا قلنا إنّ هذا العصر هو مقدّمة لها.

ويا ليت الاحتفال بمولد السّيد المَسيح يجري كُلّ يوم لتظلّ المحبَّة مستيقظة في الأَرواح، وتَظَلّ القلوب تحسّ مع القلوب، والأفكار مُتَّجهة إِلَى إسعاد السِّوَى[2] أقرباء وغُرباء.

---

(1) وطوبى فُعلى من الطيّب. ويقال طوبى لك وطوباك أيضاً وطوبى اسم شجرة في الجنّة.

(2) السِّوَى: الآخرين.

الكائنُ الخائفُ

الكائن الخائفُ هو هذا الإنسانُ الذي يَعُدّ نَفْسهُ سَيِّد الأرض ومَلكَ الكائنات، وهو اليوم في قَصْره المتألِّق بالأضواء الكَهْربائيَّة السَّاطعة، وفي مدينَته ذات الشَّوارع المَرْصوفة بالآجُرّ أو الصَّفائح، مثْله أيَّام كان في المَغارة الرَّطْبة المُوْحشة والكُوْخ الخَشَبيّ الحَقير المُضاء بالمَشاعل يَخشى ويَخَاف! وهو في ملابس الحَرير والصُّوف الأنيقة الدَّقيقة النَّسْج، كما كان عندما كان لباسُهُ جُلود الحيوانات وأوراق الشَّجَر، يحاذر وَيتَّقي. ممَّن يخافُ هذا الإنسانُ الذي لَجَم البَرْقَ وحَصَرهُ في الزّجاج، كما كان عفرْيتُ سُليمانَ مَحْصوراً في القُمْقُم؟ ممَّن يخاف هذا الجَبَّار الذي ذلَّل الأَمْواجَ العاتيَةَ وسخَّرها لِسُفُنِه، وزاحمَ النُّسور في الفَضاء، وارْتفع بطيَّاراته فوْقَ السُّحُب؟

ممَّن يخاف هذا الدَّاهيةُ الذي بَقَر الأرْضَ، واسْتخرج من جوفها الكُنوزَ الثَّمينة الدَّفينة منْ ذهب وفضَّة وماس ورَصاص وراديوم ونَفْط وفَحْم، ولم يَتْرك على سَطْحها شيئاً إلاَّ اسْتخدمه إمَّا في لِباسِه، أو طعامِه أو شَرابه أو مَسْكَنه أو مَرْكَبه؟

ممَّن يخافُ هذا الكائنُ الذي تخاف منه السِّباعُ الضَّاريَة، وتحذَرُه الأفاعي والكَواسر والحيتان؟

إنَّه يخاف منْ إنْسان مثْله، فهو إذَن يخاف من نَفْسه.

لماذا يَصْنَع المدافعَ الضَّخْمة؟ أليس لكي يدفع بها شَرَّ بَشَريّ؟

لماذا يَشيدُ الحُصونَ العاليَة؟ أليس لأن وراءَ تلك الحُصون إنْساناً يَتحفّز للوثوب عليه واكْتساح أرْضه؟

لماذا يَخترع السُّمومَ والغازات، ويَستنبطُ الآلات الفتّاكة؟ أليس لأنّه يَخشى أنْ يسبقه إنسان آخَر إِلَى استنباطها للفتْك به؟

بلى، وهذا الخوف في الإنسان من أخيه الإنسان، هو السّبب الأوّل في الحُروب التي تَندلع نيرانُها في الأرض، فتتركُ النّاس في حيرة من نشوبها وتملأ قلوبهم خوفاً من نِهايتها، لأنّهم يُقدمون عليها وهُمْ لا يدرُون كيف تكونُ نهايتها.

وهُمْ يَكُونونَ قَبْلها أُناساً فيصيرون بعد ٱستحواذ البُغض على نُفوسهم حيواناتٍ ضاريةً لا تُبالي إلاّ أنْ تَفتكَ وتَبطُشَ. لو كانت الحيوانات فيها شيءٌ ممّا في البَشَرِ من المَيْل إِلَى التّعاون والتّكاتف لما انْقرض كثيرٌ منها ولم يَسُدْ في الأَرض غيرها. فالنّاس عندما يتعاونون يَسعَدُون وَتَبتَهجُ الأَرض ويزدادُ عمرانها؛ ولكنّهم عندما يقاطع بعضُهم بعضاً وينوي بعضُهم الشّرَّ لبعضٍ، تحزنُ الأَرضُ ويَشقَى البَشَر.

فمتى يجيء الزّمان الذي يزول فيه من قلب الإنسان الخوفُ الذي يجعل منه عَدُوّاً لأخيه الإنسان.

رأى المَلِكَ

يخرُج الأولاد من بيوتِهم مُتَراكضين كُلّما سَمعوا قَرْعَ الطُّبول، ويتسابقــون إِلَى السَّيْر وراء المَوْكب السّائر، وتَبْلى نِعالُهم، ثم يَرْجعُون يحدِّثون رفاقَهم بتيه وفَخرٍ أنّهم رأوا المَوْكب، وساروا فيه، وشاهدوا

الأعْلامَ تَخفُقُ والسُّيوف مُشهَرَة أو مُغْمدة إِلى آخر ما يطرَبُ له الولد؛ وبعضُهم كالأولاد من هذا القَبيل[1]، لا يموت قائد مشهورٌ، ولا كاتبٌ عظيمٌ، إلاّ وحاولوا بسذاجة الأولاد دون طَهارتهم أنْ يُخبروا النّاس بأنّهم التقَوْا بذلك القائد العظيم، وأنّهم حَدَّثوه! أو أنهم عرفوه، حتى يتوهَّم السامعُ أنّه أخوهم في الرِّضاع، وأنّه كان يؤاكلهم، وأنّه هو الذي سعى لِيَلْتقِيَ بهم!

وهم يجدون لذّة ضافية وارِفة في سرد هذه الذكريات لاعتقادهم أنّهم عندما اجتمعوا بالكِبار، صاروا كباراً، وعندما رأوا العُظماء البارزين، صاروا عظماء بارزين، وهو اعتقادٌ حُلْو في نفوس أصحابه ولكنّه لسوء الحَظّ باطِل.

حسنٌ أنْ يعرفَ المرءُ مشاهيرَ الرِّجال، ولَكِنَّ الأَحْسن والأجزل فائدة هو أنْ يَعْرِفه المَشاهير! كَم وقف على شاطئ البحر أُناس! وكم جرت فيه سفن! فهل سمعت البحر يتحدّث عن أُولئك النَّاس أو الطَّريق، وعلى السُّطوح، وفي الشُّرفات ليَرَوا صاحِب التَّاج الذي إِلَيه مرجع الأُمور، ويرونه كُلّهم أو جُلّهم، ويذكرون صورته وهيئته، واليوم الذي رأوْه فيه، والسَّاعة التي رأوا فيها مَوْكبَه، والمكان الذي شاهدوه فيه، كما يذكرون ألوان ثيابه، ومَرْكبته والذين كانوا معه؟

ولكن لو قلت للملك: هل تَعْرف أحداً من الجمهور المحتشد على الأرصفة؟ لأجابك: لا، ولكنني ما رأيت سوى رؤوس! أمَّا أَسماء النَّاس وأمَّا أحوالهم ومراتبهم ومراكزهم فلا أعرف عنها شيئاً!

---

(1) القبيل: الجِهَة.

إذن فمن الفحش والغُرُوْر أن يتحدّث المرءُ مفتخراً بأنّه رأى الملك إلاّ إذا كان الملك رآه، فلا يَحْسُنُ بالرجل أن يكون كالوَلَد إلاّ إذا كان في حديثه ما في حديث الولد منْ سَذاجة وطهارة. فلْيذهب الرجل وراء الموكب السائر، ولَكِن عليه ألاّ يحاول إقناع من حوله من النّاس بأنّه رجل عظيم حَقّاً، وقد أصبح ذا شأن في مجتمعه لمجرد أنّه تمكّن من السّير في موكب الملك بِناءً على رغبته لا رغبة الملك نَفْسه!

الخَبَر والقَمَر

ليست المُشابهة بين الخَبَر والقَمَر قاصرةً على الوَزْن والرَّوي في الكَلمتين، بل هما متشابهان في نواحٍ كثيرة!

ولِلْقمر عُشّاقه ومحِبّوه الذين يترقّبون طلوعَه ويشتاقون أن يسمروا في ضوئه، ويجدون لَذّة في بَثّ أشجانهم ومواجعهم إليه لأنّه لا يَنُمُّ عليهم ولا ينقُلُ أحاديثهم إلى النّاس.

وللخبر غواته وناشدوه الذين يستسهلون كل صعب في الوصول إليه، والوقوف عليه، ليعودوا فينشرونه في الأسواق والبيوت ويحدّثون به من يهمهم ومن لا يهمهم، ويُسَيِّرونه في كل ناحيةٍ من الأرض سواء كان خبراً صحيحاً أم مختلقاً. وسواء أفاد أو أضرَّ! فالمُهم عندهم أنّه خبر يُرْوى!

إنما الفرق بين الخبر والقمر هو أنَّ الأخبار كثيرة ومختلفة الأنواع؛ فمنها المفرح ومنها المحزن، ومنها ما يُرْضِي ومنها ما يُغْضب ومنها ما يُزْعج، ومنها ما لا يهم غير شخص واحد من النّاس، ومنها ما يهمّ كل

النّاس. أمّا القمر فواحد لا يتعدّد، وحالاته مألوفة لا تتغير ولا يشذّ هو عنها.

ثم إنّ الفرق بين الخَبَر والقمر هو أنّ الخَبَر يُطِلّ على المَسامع والقَمَر يُطِل على النّواظر، وإذا كان هناك عُمْيٌ لا يَرَون القمر فهناك صُمٌّ لا يسمعون الخبر أو خُرْس لا يَرَوْنه ولا يتحدّثون به.

حدثني أحدهم قال:

كنتُ وأنا صغير أسْمَع بعض الشيوخ يقولون "قمر وخبر لا تشتري آخِرْتو بِبَال" فما كنت استوعب معنى هذا المثل الكامل حتى كبرت، وانطلق هذا المثل من خزانة ذاكرتي وخرج من بين شفتيَّ في سياق حديث مع بعض الأصدقاء الذي قال لي: ما تعني؟ و لم أكن حَلّلت هذا المَثَل من قَبْل. فحملني سؤال الصديق على التحليل فانتهيت إلى أنّ الحكمة في هذا المَثَل هي أن لا يتعجَّل الإنسان الشيءَ قبل أوانه، وأنْ لا يشعرَ بأنّه محرومٌ أو مظلومٌ أو مَغْبونٌ، لأنّ ما يطلب حصوله لم يحصل عليه قبل مِيقاته؛ فالأمور مرهونَةٌ بأوقاتها. ولكل شيءٍ مِيقات.

إذن فالخبر لا بُدَّ أن يظهر وينتشر ويَسْمعه من يرغب فيه ومن لا يَرْغب! ومهما بذل المرءُ من جَهْدٍ وأنفق من وقت فلن يطلع القمر إِلاّ في وَقْتٍ معلوم، وقديماً قال الشّاعر الجاهليّ:

سَتُبدي لك الأيّامُ ما كنتَ جاهلا ويأتيك بالأخبار مــن لم تُــزَوِّدِ

وما دام الخبر كالقمر سيظهر عاجلاً أم آجلاً فمِنَ الحكمة أن يتريَّث المرءُ وينتظر، لأنّه إذا كان الخبر مزعجاً ومحزناً فمن الخير أن يتأخَّر وصوله، وإذا كان مُبْهجاً ومُفْرحاً فلا ضَرَر من تأخّره!

أمّا الشوائب والأراجيف[1] فإنها تنتشر أحياناً كما ينتشر الذُّباب في الصيف ولكنها تموت كما يموت الذُّباب.

الصَّمْت زَيْنٌ

ما أحرى بعض النّاس بالصمت لا في وقت مَعلوم، ولا في مكان مَعْلوم، بل في كلّ وقت، وفي كل زمان، لأنّهم ما تكلّموا مَرَّةً إلاّ دلّوا على قُبح فيهم أو جَهْل أو غثاثة أخلاق، وقد يكون الواحدُ منهم جميلَ الصُّورة حسنَ الشّارة[2] فيمسخ ما فيه من جمال، ويطمس على ما أوجده حُسْن هِندامه[3] من الرَّوعة في نَفْسِ جليسه أو محدِّثه. الصَّمْت زين.. فكم من إنسان كانت له جلالة الصَّنَم أو التِّمثال الرَّائع، فَلَمَّا تكلَّم تلاشت تلك الجَلالة ولم يبق له وهو روح في جسد حتى قيمة الرُّخَام أو الجَفْصين المصنوع منه الصَّنَم.

وكم من رجل كان في عينيكَ وفي دائرة حواسِّك وروحِك بشراً سَوِيّاً، فَلَمَّا فاهَ وتكلَّم انقلب إِلَى ضِفْدَع، كأنّما مسَخه ساحرٌ خبيث.

الصَّمْت زين، إنَّه أجمـلُ سِتْر للمعايب الرُّوحية والأخلاقيَّة؛ فلو قضيت ساعات مع شخصٍ لم يتكلَّمْ، فإنَّك لا تُحسّ له في نفسك شيئاً من الاحتقار أو الازدراء، بل قد تُحسُّ أنّك في حَضْرة إنسان قد يكون علماً كبيراً، أو فنّاناً مبدعاً، أو بطلاً من أبطال الأخلاق العالية، أو أنّكَ مع رجل هو مِثْل باقي النّاس المعاصرين علْماً وأخلاقاً. فإذا حَلّ عُقْدة لِسانِه وخاض معك في الحديث شعرت كأَنك انتقلت من دنيا عُليا إِلَى

---

(1) الأراجيف: وقد أرجفوا في الشيء أي خاضوا في الأخبار السيِّئة.
(2) الشَّارة: الهيئَة الحَسَنَة.
(3) الهِنْدام: حُسْنُ القدّ، وتنظيمُ الملابس مع ذوقٍ وحُسْنِ اختيار.

دنيا سُفْلى، وأنك كنت مع إنسان مثلك فصرت مع جرس يَطِنّ، أو آلة ميكانيكية تتحرَّك دون أن تفكِّر أَوْ تَشْعُرَ، أو أنَّك مع رجل ولَكِنَّ عقلَه لا يزال في الطفولة، فتضحك في سرِّك لا من حماقته بل من توهّمك شيئاً لا وجود له، وانخدعت من حَيْث ظننتَ أنَّك غير مُنْخَدع، وتعود فتقول مع الشَّاعر الجاهليّ القديم[1]:

وكائنْ ترى مِن صامتٍ لك مُعْجِبٍ ... فصَاحَتُهُ أو عِيُّهُ في التكلّمِ
لسان الفَتى نِصفٌ ونصفٌ فؤادهُ ... فلمْ يبقَ إلاّ صورةُ اللّحْم والدّمِ

أَجل، إنّ اللّسان نصفُ الإنسان، ولَكِنَّه نصفٌ يحسن به الكُلّ أو يقبح الكُلّ، ويصلح به أَمر صاحبه أو يفسد فإذا مضى المرء يثرثر وهو لا يشعر أنه يُثرثر، فقد حكَم على نَفْسه بأَنَّ ما نقص من عقله زاد في لسانه. وهي زيادةٍ هيهاتٍ أن تعوّض عن ذلك النَّقْص.

وإنَّ الذين يكتبون عن غير تقدير وتفكير مثل الذين يتكلّمون ولا قُوَّة لهم على التَّقدير والتَّفْكير، وأحرى النَّاس بأن يَصْمُتوا ليستمعوا هم الذين لا يحسنون أنْ يتكلَّموا ليسمعَ غيرُهم.

ولعل مصيبة الدُّنيا منذ تكوَّنت تكمن في هَؤُلاءِ الذين يبدأون نُسوراً وينتهُون فَراشاً أَوْ خَفَافِيش .

---

[1] طرفَةُ بنُ العَبْد.

شريعة الغاب

هي التي تُبيح للقويّ أنْ يفترس الضَّعيف، وتُبيح للضَّعيف أن يحتال على القَوِيّ، هي شريعة المِخْلَب الأَقْوى والنَّاب الأَحَدّ، والسَّاعد الأَشَدّ. هي شريعة "الحقّ للقوَّة" ومبدأ "الدنيا لمن غلب". ولقد استطاع الإنسان أن يخرج من الغاب ويبعد الأُسود والسِّباع والذِّئاب ويشيد لنفسه بيتاً بدل الكوخ. ويمشي في اللّيل على ضوء الكهرباء بدل نور النجوم. وأن يركب القطار والسيَّارة بدل الحمار والجمل والبغل. وأن يجلس إِلَى موائد من رخام ويأكل بملاعق فضة في صحاف من بِلّورٍ أو خزَفٍ بعد أن كان يقضم كل شيءٍ بأسنانه ويتناول كل طعام بيديه. وصار ينام على الأَسِرَّة من وثير ويلتحف الدمقس والحرير بعد أن كان يضطجع على الأرض العراء ويستتر بجلود الحيوانات. ولقد ارتقى الإِنسان وتقدَّم كثيراً بعدما استطاع أنْ يتفلّت من أمراس الحياة الأُولى – حياة الغاب– غير أنَّه ما برح حتى الساعة لا يستطيع التفلّت من غرائزه الوحشيَّة. فهو بالرَّغم مِن ظهوره بالمظاهر الأنيقة الجَذّابة المغرية ما زال يلجأ إلى شريعة الغاب كلما سنحت له فُرْصة! وكثيراً ما لجأ إِليها وهو يَدَّعي أنَّه يريد القضاءَ عليها، فيقتل ليمنع القتل، ويسرق انْتقاماً من الذين يسرقونَ، ويسطو وينهب وهو يزعم أنَّه يريدُ أن يقضي على آفتَين ألا وهما: السَّطو والنَّهب، ويعتدي عَلى الأَضعف منه وهو يدَّعي أنه يريد أنْ يحميه من العدوان والبَغْي!

إنَّ الإنسان الذي خرج قديماً من الغاب وافتخر وباهى بأَنه قد صار كائناً حُرّاً راقياً، قد عاودته وَحْشيَّته كما تَعُود الحُمَّى إِلَى المُصاب بها، فإِذا به يُحَوِّل بشراسته وقَسْوته الدُّنيا الجميلة التي بناها إِلَى غابة مأْسَدة،

وإذا هو اليوم سبعٌ ضار فتّاك - يساقط الرجوم على النّاس الآمنين أو ينسف بهم الأرض أو يزلزل عليهم الجبال- ويَنْشد في الوقت ذاته أغاني السلام وأناشيد الحُبِّ والجمال.

فيا للإنسان من شيطان يسير في الأرض كأنه إله! ويا له من إله له دمامة الشيطان! ويا ليته لم ينطلق من الغابة و لم يفارق الذئاب، فقد صار أذاه عظيماً بعدما صار خيره عَميماً!

الرَّأس كَثير الأَوْجاع

لماذا قالوا: " الرَّأس كَثِير الأَوْجاع"؟ لأَنَّ في الرأس العَين التي تَقْذى بما تَرَى من مشاهِد البُؤْس ومآسي الظُّلْم في الحياة، مثلما تتأَذّى بِلَفْحِ الهواءِ أو رَشاش الماءِ أو ذَرَّات الغُبار!

والرَّأس كثير الأَوجاع؛ لأن الله قد رَكَّب فيه راديو عَجيباً، هو أعظم من كل راديو العالَم، لأنّه ينفَتِح على كُلِّ مَوْجة في وقت واحد؛ ففيهِ الأُذنانِ اللّتان تَعيان أحياناً من الأكاذيب والتَّخرُّصات[1] ما يملأ ألفَ بِرْميل ولكِنّهما لا تمتلئان. وتَمُرُّ عليهما صرخات داوية، وشكاوى مُحْرقة، ولَكِنّهما لا تَحْترقان ولا يتردّد فيهما صَدًى. فإن الأَلم كُلّه يدخل من تَيْنِكَ الكُوَّتين إِلَى الرَّأس كما يدخل اللّص إِلَى البيت مِنَ النّافذة!

والرَّأس كثير الأوجاع لأَنّ فيه الأنف أو حاسَّة الشَّمِّ، وأكثر ما تكون الأَوجاع في رأس قويت فيه حاسّة الشّمّ. أما الذين انْعدمت فيهم

---

(1) التخرّصات: تخرّص تكذّب بالباطِل.

هذه الحاسَّة فرؤُسهم في حِرزٍ حَريزٍ[1] من الألم، لأنَّ الأصل في الألم الحِسُّ فإذا خَدِرَ الحِسُّ فلا ألم!

والرَّأس كثير الأوجاع لأنَّ فيه الفَمَ وفي الفَم حاسَّة الذَّوْق، وخاصَّة إذا ما كانت هذه الحاسَّة حاسة الحِسّ المرهَف مستيقظة في إنسان يريد التحدّث مع الذين نامت فيهم هذه الحاسَّة فصاروا يَهْرِفون[2] بما لا يعرفون، ويرسلون الكلام على عواهنه[3] فيسقط على الرّؤوس وكأنّه حجارة من سجّيل[4] تُساقطُها طَيرٌ أبابيل[5]، لَموات الحِسِّ فيهم. إنّهم ينثرون على النّاس بكلماتهم العقيمة هذه الأزهار والرَّياحين!

والرَّأس علاوة على اجتماع أربع من الحواس الخمس فيه، هو القِمَّة العليا من الجَسَد، ولكنه ليس من حَجَر لذلك، يتأثر قبل أيّ عضو آخر في الجسد بأشعة الشَّمس في الصَّيف، ويصيبه المَطَر كَمَا يصيب سطح البيت قبل جدرانه وأساساته. فهل تستغرب إذَن لماذا يصاب الرَّأس أحياناً بالصَّداع، وأحياناً بالزُّكام، وأحياناً بالدَّوخة، وأحياناً بالوَرَم؟ ولا تنس أنَّ الرَّأس مركز الدِّماغ، ويُمْكن أن تقول إنّه مركز العَقل وإنْ كان بعضُهم يعتقدون أنَّ عقولَهُم في بُطُونِهِم، وليس مع وجود العقل الرَّاجح راحة لأنّه أبداً في حِراك وعِراك، ولذلك قيل:

---

(1) الحِرزُ الحَرِيزُ: المكانُ المَنيعُ الحَصين.

(2) هَرَفَ: أطرأ في المدح إعجاباً به أو مدح بلا خِبرة يقال لا تهرف بما لا تعرف.

(3) العواهِن: ألقى الكلام على عواهنه قاله من غير فكر ولا رويَّة.

(4) السِّجّيل: وقوله تعالى: "حجارة من سِجّيل" قالوا هي حجارة من طين طبخت بنارِ جهنَّم مكتوب فيها أسماء القوم لقوله تعالى في آية أخرى: "لِنُرسِلَ عليهم حجارة من طين".

(5) الأبابيل: جاءَت إبلك أبابيل أي فرقاً "وطير أبابيل" يجيء في معنى التكثير وهو من الجمع الذي لا واحد له.

أيّها الجاهلون دامت عليكم نِعمة الجَهْل إنّكم سُعَداءُ[1]

وفي هذا المعنى يقول المتَنَبّي:

ذو العقل يَشقى في النّعيم بِعقلِه وأخو الجَهالة في الغَباوة يَنعَمُ

لأنّ صاحب العقل والحكمة مَسئُول عن نَفْسه وعَمّن حوله من النّاس، وأحياناً يكون مسئُولاً عن أُمّة بكاملها! أمّا الجاهِلُ فهو غير مَسئُول عن أحد حتى عن نَفْسه. لذلك لا يشقى ولا يتعب، ولكن بالرغم من كلّ الأوجاع التي تصاحب الرّأس والمَكاره التي تترل به لأنّه رأس، نقول: خَيْر لك أنْ تكون رأساً تتهافت عليه الأَوْجاع من أن تكون قَدَماً تختبئ في حذاء لَمّاع!

إِذَنْ كن رأساً لا ذَنَباً!

الخُطَبُ والقصائدُ الموؤدة

ما أشَدَّ انطباقَ المَثل القائل " أسمعُ جَعْجعة[2] ولا أرى طِحنا[3]" على الخُطب والقصائد التي يروي الرُّواة أنّها قِيلت أو أُنْشدت في المجالس

(1) هذا البيت لأبي ماضي نفسه.
(2) الجعجعة: صوت الرَّحى وفي المَثل: "أسمع جَعْجَعةً ولا أرى طِحناً".
(3) والطِّحْن: الدَّقيق.

والاحتفالات، ثم يفتح القارئ أجفانه فلا يَرَى لها أثراً في جريدةٍ ولا مجلّة ولا ديوان!

"وقُدِّم الشاعر البليغ فلانٌ فألقى قصيدة عامرة"

واستدعى الخطيب المِلسان[1] "فُلَيْتان" فتدفق كالسيل وصاغ عقوداً من جواهر المعاني فسحر الألباب. أمَّا نحن فإنّنا نسأل بدَورنا: ما دام الأمر كذلك فَلماذا لم ينشر ذلك الشاعر قصيدته العامرة وذاك الخطيب خطبته الجوهريَّة؟

لهذا السؤال جوابان أحدهما: أنّه لم تكن هناك قصيدة عامرة بل أقوال عَجْفاءَ[2] مشوَّشة مختلة. أو أنه كانت هناك قصيدة عامرة ولكنها لم تكن لشاعر تلك الحفلة بل لشاعر آخر، سطا عليها وادّعاها ثم خاف أن ينفضح، فطواها، أما الخطبة فإنها كالقصيدة إمَّا كلام مَعْلوك، وإمَّا خطبة نسخها خطيب الحفلة ومسخها واكتفى بأن يقال عنه إنَّه خطيب، وإن كان لم يفهم هو شيئا مِمَّا قال، ولا النَّاس الذي سمعوه فهموا شيئاً!

هذا هو رأينا الذي انتهيْنا إلَيه، وحُكْمنا الذي لا نَحيد عنه لأنّنا عَرَفْنا بالدَّرس والاخْتبار أنَّ بنات الأفكار كبنات النَّاس. فما رأينا أُمّاً وأدت ابنها حتى ولو كان مشوَّهاً، ولا ابنتها حتى ولو كانت خرساء وعمياء! وما راينا شاعراً نظم قصيدة وكَتَمها عن النَّاس حتى ولو كانت ليست في نظر النَّاس من الرَّوائع، فكلّ شاعرٍ سَواءٌ كان من الطَّبَقة الأُولى أو من الطّبقة الرابعة له ببنات أفكارِه إعجاب واْفْتتان مثل

---

(1) المِلسان: واللَّسِن الفصيح، واللَّسَن الفصاحة.
(2) العجفاء: والعَجَف الهُزال. فهو أعجف والأنثى عَجْفاء.

إعْجاب وافْتتان كلّ فتاة بأبيها، ولا يشذُّ إلاّ القليل، والشّاذ لا يقاس عليه.

وأخيراً نقول: لو كانت القصائد الرّنّانة والخُطَب الرّائعة التي نَسْمَعُ بها ولا نراها في الحقيقة قصائد أوْ خُطَباً، لكانت لغتنا أغنى لغة في الأرض وأدبنا أسمى وأرَقّ أدَب في العَالَم. ولَكِنْ لسوءِ الحظّ إنّ هذه التي يقال لها قصائد أو خُطَب ليست سوى كلام أجوف لا قِيمة له، وليس أصحابها غير أدعياء مُمَخرِقين،[1] فمتى سيُنقّي قَمْحنا من الزُّؤَان؟ ومتى نضع الأشياء في مواضعها فلا يقال عن الزُّجاج إنّه ماس ولا عن الحَنْظل إنّه تَمْرٌ شَهيّ؟ فإن الاسْتمرار في هذه الخُطّة تَمْويه وخِداع وتَضْليل، ومَقْتلة للوقت الثّمين، ومَضْيَعة للجُهود، وإِفساد وتشويه لمقاييس الأشياء!

النَّصيحــة

النَّصيحة شيءٌ كَثُرَ باذلوه، فكَثُرَ رافضوه فهَان.

والناصح رجل يعطيك كثيراً ولا يعطيك شيئاً...

هذا كلام مُوجَز فَلْنَتوسَّع...

الرِّجال أربعة : رجل يبذل النَّصيحة لكلّ سائل، ورجل يطلب النَّصيحة من كُلّ جَليس، ورجل يتبرَّع بالنَّصيحة بسؤال وغير سؤال، وَرجُلٌ يتجاهل النَّصيحة...

---

(1) المُمَخرِق: الخُرْق الجهل. وخَرق خَرَقاً حَمُقَ.

يَطَّلِعُ أحدهم على شأن من شؤونك فلا يلبث حتى يفاجئك قائلا لَكَ: خذ نَصيحتي، أَنَا لو كنت مكانك لفعلت كذا أو لَخلّيتك تفعل كذا...

يقرع سَمْعك بهذه العبارات وأمثالها وهو يجهل مقدمات الأمر والظُّروف المحيطة بك، والنَّتائج التي يمكن أن تكون إذا عَملت بنَصيحته، وهو مع تقديره لنصائحه الثَّمينة لا يعمل لو كان مكانك، ولكنَّه يُسْديكَها، لأنَّه من القوم الذين يعرفون دائماً أكثر مِنْ غيرهم، ولا تَتِمّ لذتُهم في الحياة إلاَّ إذا أغدقوا على النَّاس ما عندهم من الآراء الثَّاقبة، أمَّا الذين يطلبون النَّصائح فهم أقَلّ النَّاس عَملاً بها، إنَّهم أشبه بالمرأة التي تدخل إلَى أحد المخازن فتأخذ في استعراض كُلّ ما فيه من البضائع ثم تغادره دون أن تشتري منه شيئاً.

وكثيراً ما رأيت أحدهم يتكلّم عن مسألة ويَهُزُّ رأسه حائراً، ويطيل الإصغاء لكلّ ناصح، ولَكنَّه لا يعمل أخيراً إلاَّ برأيه...

إنَّ هذا الرَّجل خَطَرٌ كبير، لأنَّه كالإنسان الذي يستعير الجرائد والمَجلات والكتب ويقرأها مجَّاناً. أمَّا الذّين يتجاهلون النصائح ويزدرونها فهم في معظم الأحيان أحوجُ النَّاس إليها، كالمُسْرِفين الذين يجنون على أنفسهم بأيديهم لضعف بادٍ في تقليد من هم أغنى منهم، كالشُبَّان الذين يَنْغمسون في حَمْأة[1] الملاهي مفرِّطين بصحَّتهم وبسمعتهم الطِّيبة النَقية. فإنهم كثيراً ما ضربوا بالنَّصائح عُرض الحائط و لم يبالوا زَجْراً ولا تَعْنيفاً، ولا استفادوا شيئاً من الصدمات التي تَنالهم، فكأنهم الذُّبابة التي لا تنفَكّ تَضْرب زُجاج النَّافذة برأسها وجَناحيها طَمَعاً بالدُّخول، مع أنَّ هناك

---

(1) الحَمْأة: الطِّين الأسوَد.

نافذة أُخرى مفتوحة لا يستلزم الدخول منها جهداً ولا طَنيناً. وأحقُّ النّاس بالرَّحْمة هُمْ هؤلاء الذين يحملون الهُموم عن سواهم ويشيبون قبل الأوان من فرط إشفاقهم عليك وعَليَّ، فتراهم دائماً يهتموّن ببذل النَّصائح السَّديدة لكلّ إنسانٍ بصورة لا تدع رَيْباً في إخلاصهم وغيرتهم، ولكنهم كثيراً ما ألقوا حنطتَهم حيث لا ينمو إلاّ الشَّوْك، أو حيث لا ينمو شيءٌ! ومن النُّصَّاح جماعة لا يزورونك في البيت ولا الحانوت ولا يستوقفونك في الطَّريق، ولكنَّك مع ذلك تسمع نَصائحهم، إنهم الكتبة والمؤلفون الذين يسوقون إليك ما عِندهم من الآراء وذلك في الفصول التي يعقدونها والروايات التي يؤلفونها. ففي الغالب لا تكون الغاية من النَصيحة إلاّ إعلان مقدرة باذلها أو بَسْط نفوذه، فهذه الرَّغبة وحدَها كافية لأَنْ تُوْجدَ مُشيراً في كلّ بيت أو مَكْتب أو جريدة أو مجلس.

وهذا النوع من النُّصحاء إنَّما يَرْمي إِلَى السَّيْطرة، ولو كان ذا حَوْل[1] وطَوْل[2] لكان دكتاتوراً مستبدّاً. ولو أنه في الحقيقة ذو معرفة واسعة بالأُمور لما رضي لنفسهِ أَنْ يكونَ مِهزاراً يُلْقي الكلام على عواهنه، بل كان يلوذ بالصَّمت حتى يحدث ما يدعو إِلَى الجَهْر وإِبداءِ الرَّأي وعرض المشورة.

---

(1) الحَوْل: الحيلة وهو أيضاً القُوَّة.
(2) الطَوْل: الفضل والغِنى واليُسْر.

كلمة في الهَوَس

كنت أودّ الرجوع إِلَى القاموس لأرى كيف يعرِّف "الهوس"، ولكنني في رحلتي بعيد عنه وعن كل كتاب يمكن الاستعانة به. ولا أظن القاموس فيه ما ينقع[1] الغليل من هذه الناحية، فإِنَّ الغَرَض المنشود ليس تفسير كلمة، بل شرح حالة من الحالات النَّفْسيَّة في بعض النَّاس.

وأستطيع بعد الملاحظة والدَّرس أن أقول: إِنَّ الهَوَس هو الخروج عن دائرة المَنطق بحيث يبدو صاحبه غريباً شاذًا، لأَنَّه لاستحكام الهَوَس فيه يتصرَّف على خلاف ما يتصرَّف النَّاس، ويعمل أُموراً يَسْتَهجنونها، ويقول أشياء تنبو عن مسامعهم.

خذ مثلا رجلاً متهوّساً في الدِّين، فهو لا ينفكّ يرُدّ كل أمر، وكُلّ حادث، وكُلّ حالة، إِلَى فكرة استحوذت على عقله، واصطبغت بها جوارحه كلها، فهي عنده قياس كلّ الأَشياء والحالات وإِن لم تكن لها علاقة بها على الإِطلاق! وبعبارة أجْلى إِنَّ المُتهوِّس يسهل عليه لانْعدام المَنْطق عنده أَنْ يجعل من المَحْدود قياساً لغير المحدود، ليصيرَ هو قُطْب الوجود بل كُلّ الوجود!

وما أشبهَ المتهوِّس ببقرة ذلك الإِسكوتلندي الذي وضع على عينيها نظّارة من الزُّجاج الأخضر لكي يَتراءى كُلّ ما تراه في الأَرض عُشْباً.

بل إِنَّ المَهْووس أسوأ حالاً من هذه البَقَرة؛ لأَنَّ الزُّجاج الأَخضر على عينيها، أمَّا هو فالزُّجاج المَلوَّن على عقله وروحه، لذلك كيفما دار بك المَهْووس رَآك على خطأ، وكيفما درتَ به وجدت مشقّةً وتَعَباً.

---

(1) **ينقع الغليل: يرويه. والغليل: حرارة العَطش.**

وترى أهل الهَوَس يحاولون أن يجعلوا من كلّ إنسان يلتقونه أو يتّصلون به مُتَهَوِّسا مِثْلهم، فلو تمَّ لهم ما يَبْغون لَمَا بقي في الأرض فلاّح يحرث حَقْلاً، ولا ماهِنٌ يصنع آلة، ولا نَسَّاج يحوكُ ثَوْباً، ولا تاجر يبيع سِلْعة، ولا مؤلّف يصَنِّف كتاباً، ولا فنّان يرسم صورة، ولا كيماويٌ يُرَكّب دواء، ولا عالم يكتشف سرًّا من أسرار الحياة! بل ينصرف الكُلّ إِلَى الجَدَل الفارغ العَقيم في أُمور لا تقع تحت الحِسّ ولا العَقل، والدُّنيا لا تَعْمُرُ بأهل الهَوَس بل يتسارع إِليها الخراب كلما كَثُر فيها هذا الصِّنف من النّاس.

والهَوَس في السياسة كالهَوس في الدِّين يَصْرِفُ النّاس عن الاهتمام بالأُمور التي يملكونها إِلَى الاشتغال بأُمور لا يملكونها، ويتركون ما يعنيهم إِلَى ما لا يَعنيهم، حتى لَيُمْسي الواحد منهم يحسَبُ أنّه يَقْدر أنْ يدير إمبراطورية، وهو في الحقيقة عاجز عن إِدارة شؤون بيته أو مكتبته أو مزرعته أو حانوته.

إِنّ الهَوَس نوع من الجُنُون، والجنون كما قيل فُنُون!

الفُضُولِيُّون

من هو الفُضُوليّ ؟

هو شخصٌ تعرفه جَيِّداً، إِذا لم يكن من أَنْسبائك فهو بلا شَكٍّ من أصدقائك، وهو رجل لا يَقْصد أن يُؤْذيك ولَكنّه يؤذيك! وهو لا ينوي لَكَ إِلاّ الخَير ولَكِنْ لا خير يجيءُ عن يده. وهو أَبداً يصنع أَفضل ما يَقْدِر عليه غير أنّ هذا الأفضل الذي يصنعه لا يكون إِلاّ مُزْعجاً!

يحاول أنْ يُشْعل سيجارتك فيقلب زجاجة الخمر المعتّقة التي أمامك على الطّاولة، وقد تكون الزجاجة الوحيدة التي لك! ويحاول أنْ يُقَدِّمَ إليك كأسَ ماء فتتدفق من يده على ثيابك. وهو من أولئك الذين يسوقون إليك الأذى وهُمْ يقصدون أن يسوقوا إليك النَّفع، ولا يُمْكنكَ أنْ تنتقم منهم لأنَّ قَصْدَهم حَسَن!

تقع في مُشْكلة وتحتاج إِلَى مُعين فيتطوع أحدُهم ويقنعك أنّه هو الرجل الذي ينقذك مما أنت فيه، ولا ينقذك غيره، فتعوِّل عليه وتنام ملءَ عينيك لاعتقادك أنْ لا مُشكلة باقية، غير أنّك لا تلبث أن يُصيبك ما أصاب الفيل مع السُّلَحْفاة.

زعموا أنَّ الفيل أصابه صُداع أليم فوقف في الغَابة يتوجَّع ويَصيح: آه يا رَأسي، فسمعت السُّلَحْفاة فجاءت إِلَيه وقالت له مترفِّقةً: ما بالُك يا صديقي الفيل؟ أخبرني ما أَصابك. فشكا لها الفيل ما به بين الآهات والتنهدات. فقالت له: هَوِّن عليك فالأمر يَسير! إني سأذهب إِلَى المدينة وآتيك بدواء يشفيك من الصُّداع في الحال، فالبثْ مكانك في انتظاري!

فقال الفيل وقد تأثّر قلبه من عَطفها عليه: لا أدري كيف أشكرك على شهامتك ومُرؤَتك يا صديقي! قالت السُّلَحْفاة: لم أَفعل شيئاً يستوجب الشُّكر، وآنسلّت بين الأَعشاب في الغابة.

وانقضت ساعة ولم ترجع فَقلق الفيل، ثم انقضت ساعتان فآشتد به الغَيْظ، وأَخيراً فَرَغ صَبْرُه فصاح حانقاً: أُفٍّ[1] لتلك السُّلحفاة، ما كان يجب أن أثق بها فإنها ليست بصديقة لي، وإِذا بالسُّلحفاة تخرج من بين

---

(1) أفٍّ له: اسمُ فعلٍ مضارع بمعنى أتضَجَّرُ. تضجّر وتكرّه.

الأعشاب وتقول له في غَيْظ واستياء: أتشتمني؟ إنّي من أجل هذا لن أذهب!

أتعرف حكاية أبي القاسم الطّنبوري؟ كان لهذا الرَّجل مَداسٌ عتيقٌ أحَبَّ أنْ يتخلَّص منه، ولَكن الفضوليين لم يريدوا. وما زال يطرحه وهم يردُّونه إليه ويكبّدونه في كُلّ مرَّة خسارة في ماله وفي عَقله حتى افتقرَ وصار لا يَمْلك إلاَّ ذلك المَدَاس، وذهب مثلاً في الحماقة والغَفْلة.

وقاك الله يا قارئ شَرَّ الفُضُوليين، ندعو لك لأننا نعلم أنَّكَ مهما بلغ بك مِن حَوْلكَ وطَوْلك وذكائك وإبائك. ستظل عاجزاً عن أن تسدَّ أُذنك عمن يعرض إليك خدماته، وأَن تصدَّ عَمَّن يتقدَّم ليُشعل سيجارَتك أو مناولتك كأْس ماء، أو التَّعهد لك بحلّ مُشكلةٍ مِنَ المشاكل، وما دام الأمر كذلك فعليك أَنْ تَصْبر لأنَّك ستَصْبِرُ في النهاية، على الرَّغم مِنْك!

الأَنانيَّة

الأَنانيَّة أنواع كثيرة، أَظهرها أنانيَّة الطِّفل الذي تحمله على البكاء كلما أَفْلت من يديه شيءٌ يجب أَن لا يكون في يديه. وكلّما سُئِلَ أَنْ يقاسم أخاه أَوْ أُخته قطعة حلوى أو أَيّ شيءٍ غير الحَلْوى.

أَمَّا سَبَبُ الأَنانيَّة في الطِّفل فهي الجهل وقِصَر الإِدراك الذي يجعل خوف الحِرمان في نَفْسه شديداً.

فإذا رأيت رجلاً فيه هذه الأنانيَّة فاعلم أنَّه لا يزال كالطِّفل جهْلا وقِصَرَ إدراك! ويجب عليك أن تسير معه كما تسير مع الطِّفل الصغير الذي لا يَدري ما يصنع وإنْ لاح لَكَ كأنَّه يَدْري.

وهذا مَظْهَرٌ من مظاهر الأنانيَّة التي لا ضَرَر منها إلاّ في دائرة صغيرة ضيِّقة، إنَّما هناك أنانيَّة هدَّامة هي الانزواء والانكماش التي لا يقنع صاحبها بأنه لم يبنِ ولم يَغْرس ولم يَنْسج بَعْد، بل يَسُوغ لذاته أن يمنع غيره من أنْ يبني ويغرس وينسج، فهو دائماً يُلوِّح للنَّاس براية التَّزْهيد والتَّثبيت كلما رأى أحداً ينشر راية التَّشجيع. اعرِضْ على هذا الأنانيِّ الهَدَّام أيَّة فكرة عُمْرانية أو أدبيَّة أو إنشائيَّة أو إنسانيَّة فيرُدَّ عليك تبْرَهَا تُراباً، وزُلالَها[1] الشافيَ سراباً، ويذهبَ بكَ في طريق الزُّهد فيصَوِّرَ لَكَ كُلَّ ما تَصْنع لَغْوا[2] وعَبَثاً لا فائدة منه إذا كنت صاحب الفكرة! أمَّا إذا كان غَيْرُك صاحبَهَا فهو إذن في نظر هذا الأنانيِّ الهَدَّام إمَّا مُشَعْوذ[3] وإمَّا مَعْتوه وإمَّا شيطان رجيم[4] يوسْوِس في صدور النَّاس ليسلبهم أموالهم أو ليزيغ بها عن جادَّة الحَقِّ والصَّواب.

ويساعد هذا النوعَ من الأنانيين على الاسترسال في التشنيع والتقبيح ظهورُ أفْكار باطلة ومشاريع زائفة من قَبْلُ، فيتَّخذونها شاهداً يعزِّزون بها موقفهم ويؤيدون خطتهم. وكثيراً ما التبست الأُمور على النَّاس فخلطوا بين صَحيحها وفاسدها، وضارِّها ونافعها، وكان هذا سبباً في فَشَل كثير من المشاريع المفيدة فَذَبَلَت ويَبِسَتْ وَهيَ طفلة كما تَذْبُل غرسة تعاورتها

---

(1) الزُّلال: الماء العذب الصَّافي البارد السَّلِس.
(2) اللَّغو: السَّقط وما لا يعتدّ به من الكلام.
(3) المُشَعْوذ: شَعْوذ مَهَرَ في الاحتيال وأظهر الشيء على غير حقيقته.
(4) الرَّجيم: الرَّجم القتل وأصله الرمي بالحجارة فهو رَجيم ومَرْجوم.

النمالُ والحَشَرات وأمعنتْ في وَرَقها الرَّطْب وجِسْمها الغَضّ عَضّاً ونَهْشاً..

لولا هؤلاء الأنانيُّون الهَدَّامون الذين لا يعملون ولا يَدَعُون النَّاس يَعْمَلون، لقام بيننا أَلْف مَشْروع مفيد، وكان للكلِّ حتى جماعة الأنانيين منهم خَيْر كبيرٌ ونَفْع عميم.

هل لك خصوم وأعداء؟

لو تعمَّق المرء مَلِيًّا في استْجلاء الأشياء وأسرارها لكان يشكر عدوَّه كما يشكر صديقه إِن لم يكن أكثر، فإِن للعدُوِّ حسنات لا تقلُّ في قيمتها عن حسنات الصَّديق، بل كثيراً ما كان للعدو فضل لا يمكن أن يجيءَ من أَوْفى الأَصدقاء.

فلا يَفُتُّ في عَضُدك[1] أنَّ لك خصوماً بل اشْكُر الله أنَّك رجل له أعداء، لأَنَّ الذي لا أعداءَ له هو أَحد اثنين: إِمَّا هو إِنسانٌ قد مات، وإِمَّا هو إِنسان لم يولد بَعْدُ!

الجوع من أَلدّ الأَعداء ولَكِن كم لهذا الجوع من يَدٍ بيضاء على الإِنسان وعلى العُمْران، لو لم يشعر به الإِنسان لَمَا راحَ يضرب في الأَرض باحثاً عن القُوت في الحقل والغَابة والوادي والنَّهر والبَحْر!

ولولاه لَمَا تَعَلَّم كيف يزرع الحِنْطة ويطحَنُها ويَخْبزُها، ولولاه لَما تعلَّم كيف يَخزُن في الصَّيف مؤُنَة تكفيه كُلَّ أيَّام الشتاء.

---

(١) فَتّ في عَضُده: أوْهن قوَّته.

إننا نَذُمّ الجُوع ولكننا نتّقيه لئلا يَفترسنا! وهكذا يجب أن يكون مَوْقفنا من كل عَدُوٍّ سواءً كان إنساناً أو حيواناً أو حَشَرة أو جُرْثومة أو فَيضاناً أو قحطاً أو مَرَضاً.

ولا نغالي إذا قلنا إنّ الحروب أحياناً لا بدَّ منها؛ فالأُمَّة التي لا تخشى عَدُوًّا ولا تتّقي خَصْماً تستسلم إلَى الدَّعَةِ وتسترسل مع الشهوات فيدبُّ فيها الوَهْن ويستولي عليها الجُمود، وتُصبح كالهيكل الأجوف؛ فمنظره من الخارج جميل أمَّا داخله فظلام دامس وعفونة..

إنّ الصديق لا يفتش عن عيوب صديقه أمَّا العدوُّ فيفعل، وخوف المرء من عدُوّه هو الذي يحمله على إصلاح نفسه وسَتْر نقائصه، فالعدوُّ إذن نعمة مستترة في نِقْمة، وخير كامنٌ في شَرّ، وبَرَكة تسوقها الحياة إلَى الإنسان بشكل آفة..

إنّ الحياة مع العدو مثل التّصْعيد في الجبل. فيه مَشَقَّة، ولكن فيه أيضاً للجسم منفعة! أمَّا الحياة مع الصَّديق فتشبه النزول في منْحدرٍ يجتازه بِسُرْعَةٍ، ولكنّه منحدر قد لا يخلو من زَلَل وعَثَرات..!

الإخاء البَشريّ

يحاول الإنسان منذ وُجدَ على هذه الأَرض أنْ يجعلَ منها نَعيماً لا حُزْن فيه ولا كَدَر ولا خصَام ولا نِزاع، ولكنَّه لم يفلح ولا نظنُّه يُفلح بالرَّغم منْ إدراكه أنَّ في الأَرض متَّسعاً للكُلّ وخَيراً كثيراً يكفي الكُلّ!

حَلُمَ أفلاطون بالجمهوريَّة السَّعيدة، لَكنَّ حُلْمَهُ الجميل لم يزل حُلماً، وحَلُمَ الفارابي بالمدينَة الفاضلَة ولكنَّها ظَلّت مدينة خيال ووهمٍ،

فإنَّ مجرَّد التَّصوُّر لا يبدِّل أطوار البشر ولا يغيِّر سُنَن الحياة! ولو أنَّ معجزة حدثَت وتبدَّل الناس فلم يبق فيهم شعُور بالحب ولا البغض ولا الغَيْرة ولا الحَسد ولا القناعَة ولا الطَّمَع، وبَطَل أنْ يجوع الإنسان ويشبع ويشتهي ويَرْغب، فإنَّهم لا يكونُون عِندئذٍ نَاساً بل أشباه آلهة! ولَكنَّ الآلهة لا تسكن الطِّين ولا تعيش في اللحم والدم. فإذا صاروا إلى هذه الحالة لم تَعُد الأرض صالحة لِسُكناهُم، بل لم تَعُد تَصْلح أن تكونَ مَدْفناً لِموتاهُم!

كيف يمكن أنْ يزهر الإِخاء البَشريّ والبشر - بَلْه الرَّاقينَ منهم - لا يخرجُون مِن هَبْوة حرب إلاّ ليتأهّبوا لخوض حرب جديدة؛ إمَّا لاسْتضعاف أو لاسْتقواء، وإمَّا للحصول على مقتنيات الغَيْر، وإمَّا للحؤول دون اشتراك الكُلّ في خيرات الأرض.

كيف يمكن أن يَتِمَّ السلام البشريّ ويسود السلام في الأرض وتنقطع الحروب، وهذا يقول: إنَّ ما أسعى إليه ما يسعى إليه سواي، وإنَّ ما أعمله أنا يجب أن يَعمله غيري؟

كيف يمكن أن يسودَ الإِخاء بين البشر، وكُلّ أُمَّة تدَّعي أنَّها مَغْبونَة مِن الأُمم الأُخرى أو أنَّها مهضومة الحُقُوق من الأُمم الكبرى التي بيدِها مفاتيح الرِّزق، وبيدها القوَّة على أن تخفض وترفع وأن تُغْني وتُفْقر.

لا شَكَّ في أنَّ النَّاس قد ارتقَوا كثيراً عَمَّا كانُوا عليه منذ قرون وأجيال، ولكنَّهم ما بَرحُوا في أوَّل الطريق إلى الهدف الذي يَنشده الفلاسفة والمفكّرون وما زالُوا مِن هذه الناحية أطفالاً، يلعبون معاً الآن وبعد قليل يختلفون ويقتتلون ثم يندمون فيتصاحبون، ثم يختلفون فيتنازعون فيَتشاجرون، إنَّما عجزُ الإِنسان حتى الساعة عن الوصول إلى الإِخاء العام وصَيْرُورَة الأَرض فِرْدوساً سعيداً لا يدعو إلى القنوط ولا

يحمل على الانقطاع عن السّعي في هذا السّبيل، لأنّنا إذا زهدنا ووقفنا لم نَصِل إلى شيء، أمّا إذا استبقينا هذا الرَّجاءَ في أنفُسِنا فإنّنا قد لا نصل إلى فِردوس وإنّما وبلا شَكٍّ فإنّنا نَصل إلى شِبْه فِرْدوس.

الحياةُ بلا أمل شقاء وبؤس، ولكنّها مع الأمل والرجاء تصير لامعَة ويصير فيها نُور وهناء. فلْنَأمُلْ ولْنَعْمَلْ.

النَّفْــــع العـــــامُّ

نَوَدّ أن نَخْلق في نفوس الذين نتّصل بهم بواسطة القَلم أوِ اللّسان حُبّ النَّفع العَام؛ لأنّنا نعتقدُ أنّ أسْعدَ النّاس وأهنأهم هم الذين يعيشون في بيئة راقيةٍ ومحيطٍ جميلِ المَظهر والمخبر[1]، إذاً فالمَرءُ يعمل على تَرْقيةِ مُحيطِهِ ونفعِ النّاس من حوله لينفع نفسه ويمهّد لها السَّبيلَ إلى الهَناءِ والطُّمأنينة!

ونؤكد أنّ إنْساناً ممتازاً لا يلمع في أيِّ مكان كما يلمع في محيط راقٍ مُتَنوِّر؛ خذ مثلاً عباقِرَة العقُول والأرواح الذين ظهرُوا في الأجيال الدَّاجيَة المُعْتكرة، فَهُم في تلك العصور كانوا قوماً مكروهِين؛ لأنّ المحيط الذي عاشوا فيه كان محيطاً متأخِّراً متقهقِراً مُنْحطّاً لا يَسْتطيع أنْ يُطِلّ على الدّنيا التي أطَلّ عليها هؤلاءِ العَباقِرَة.

فلَمَّا تقدَّم الناس وارتقَوْا وتاقَت أرواحهم إلى المعرفَة وحَنَّت إلى دَرْس الأجيال الماضِية ورجالها، كان للعَباقِرَة النَّصيب الأوْفر والمَقام

---

(1) المَخبَر: ضد المظهر.

الأسْمى في نفوس هؤلاء؛ فالمحيط الصافي الرَّاقي تنعكس عليه الأشياء فتبدو في أروع محاسنها وأمْجد جلالها.

ولم تحسن بيئة ولا محيط إلاّ بالقوم الذين يجدون لذّة في تضحيتهم بأوقاتهم وأموالهم وبذلهم لأرواحِهِم في سبيل إسعاد النَّاس.

فيا أيُّها الإنسان الذي يرى ما نعمل ويسمع ما نَقول، إذا أعيَاك أن تكونَ صورةً جميلة تقع على لوح بلّوْر أو نغمَة طروبَة تهبط على أُذن سَميعَة، فكُنْ إذن لوحاً صافياً لمّاعاً تنعكس عليه الصُور الجميلة، وكنْ أيضاً مَسْمَعاً حسَّاساً يتلقّفُ النَّغمَات الشَّجيَّة ويَهتَزّ لها.

وبعبارة أوجز وأقرب إلى الفهم، كُن جميلاً في أقوالك، وفي أعمالك، وفي أفكارِك وفي صحبتك وعداوتكَ وقُرْبك وبُعادكَ وحُبّك وبُغْضك وغنائك وبُكائكَ! فتَصير ترى كُلَّ شيء حولك جميلاً بل يَصيرُ كُلُّ ما حولكَ جميلاً. ولا تدعِ الكآبة تتسرَّب إلى نفسِك عندما ترى كثيرين لا يُقيمون وَزْناً لتَضحياتك في سبيل مُحيطك أَو عشيرتك ولا يَفْهمون مَعْنًى لجهودِك، بل تَذكَّر أَنّهم لو كانوا أكثر إدْراكاً وفَهْماً للأمورِ لَمَا احْتاجُوا إليك ولا [إِلَى] غيْرِكَ، ولَمَا كان لمساعيكَ أيّ معنًى في نَظَر العارفين!

حَسْبُكَ[1] وأنتَ تسعى إلى هَدَف نبيلِ الشُّعورُ الذي يُخامر[2] نَفْسك الاعتقادُ المُنتشر في قَلْبك بأنّك تعمَلُ خَيْراً وتَنشد جَمالاً وكَمالاً!

(1) حسبك درهم أي كفاك.
(2) خامَرَ الشيء مارسه وخالطه يقال خامره الدَّاء وخامره الشكّ.

ليجرحْ غيرُك أمَّا أنتَ فعليك أنْ تأسُوَ[1] الجِراح. وليهدمْ غيرُك، أمَّا أنت فانصرفْ إلى البناء. ولْيضع غيرُك العثَرَات والعراقِيلَ في طريق المُصْلحين، أمَّا أنت فاْجْعل هَمّكَ أنْ تُزيل العَراقِيل وتُذلِّل العَقبات.

الصَّمْت والكلام

إنَّ الصَّمْت خيرٌ مِن كثيرٍ مِنَ الكلام، بأيَّة لُغة كان، ولا سِيَّما إذا كان المتكلِّم يُطْلق كلامه بلا رَوِيَّة ولا تَدبُّر ولا وَزن، أو يُطْلقه بعد تدبُّر ورويَّة ليبلغ به أرَباً غير نبيل أو يعرقل سَعْياً نَبيلاً يقوم بِهِ سِواه.

إنَّ الكَلامَ بأيَّة لُغَة كان هو أداة كالسِّكِّين والقلم، يمكن أن يستخدمه المرء للخير كما يُمْكنه أن يستخدمه للشَّرِّ، ويستطيع أن يداوي به مريضاً كما يستطيع أن يُسْقِمَ صَحيحاً مُعَافى.

وخير المتكلِّمين هم الذين يعيشون عِيشة الطُّيور المغَرِّدَة يملأون الفضاء أغاني وإنْ لم يكن من سَمِيع غيرُ الفضاء! لأنَّهم يجدون لذَّة في أنْ يصدحوا ويترنَّموا. وشَرُّ المتكلِّمين هم الذين شأْنهم في الحياة شأن الأفاعي تَنْفُث السُّمّ وتَنْسَلّ مسرورةً بما نفَثَت ولو وَقع سَمُّها على زَهْرة أو طِفل رَضيع!

فالمتكلِّمون أنواع: فمنهم المُقَلِّد الذي لو مُسِخَ طيْراً لكان ببَّغاء، ومنهم المُسْتعير الذي يقرع أُذنيك بما قالَهُ غيره وكأنَّه مِن مُبْتكراتِهِ وقد يكون الذي تسمعه منه هو لك أنت.

---

(1) تأسى: تأسوا الجراحَ تُعالجها تُداويها.

ومنهُم الرَّاغب في الكلام كيفما كان، فهذا لو لم يكن مِنَ البَشر لكان ذُبابة تَطِنّ أو جَرَساً يَرِنّ، ومنهم المُتصنِّع في حديثِه يحاول أنْ يُوْهِمَك أنَّه ذو شأن كبير في الحياة فيَفْضح نَفْسَه مِنْ حيث لا يدري، ويظَلّ يتوهَّم أنَّ السَّامعين مَخدوعون به مع أنَّ المخدوع هو وَحْدَه!

هذه نعامَةٌ لا رِيْش لها؛ الكلام خَير مِقْيَاس لِمَعرفة الإنسان. إنَّ الطبيب لا يَقْدر أن يَفْحَص الإنسانَ حتى يَفْتَحَ فَمَهُ، وكذلك المَرءُ لا يَقْدر أن يَحْكُمَ على مِقدار أخلاق المرء إلاّ إذا فتح فَمه وتَكَلَّم!

لسانُ الفتى نِصْفٌ ونِصْفٌ فؤادُهُ   فلم يبقَ إلاّ صورةُ اللّحم والـدّمِ

فإذا حَمدْتَ الله لأنَّ لك عيناً ترى فاَحْمَدْه لأنَّ لك أُذناً تَسْمع، فبالعَين تَستْطيع أنْ تميِّز بَين القَبيح والجَميل، كما تُمَيِّز بحاسَّة الذَّوْق بين الحُلو والمُرِّ، وبالأُذن تستعين على معرفة الكلام المُبْتذَل مِنَ الكلام القيِّم، فإنَّ الكلام السَّقيم لا تَهْضمه الأُذن كما لا تَهْضِمُ المَعدة الطعام الرديء!

إنَّ أعاظم الفلاسفَة والحكماء كانُوا لا يتكلَّمُون إلاّ قليلاً؛ لأنَّهم كانوا يفكِّرون ويتأمَّلون كثيراً. اَنْظُر إلى الكواكب إنَّها تطلع وتملأ الفضاء نُوراً ولا يُحِسُّ الناس لها همساً ولا نَبساً[1]، أمَّا الضَّفادع فإنَّها تملأ اللّيل نَقيقاً وهي لا تَكاد تُرَى.

قالتِ الجماعة: للكلام وَقْتٌ ولَكِن كُلّ وَقْت عند الحمقى والثّرثارين هُوَ وَقْتُ كلام!

---

(1) النَّبس: النُطق والكلام.

من إنسان إِلَى شيطان

ما شبَّت حربٌ في الأرض إلاَّ رَجَع الإنسان إِلَى غرائزه الوَحْشيَّة التي كان قد فارقها، فصار كالنَّمر لا يفكِّر إلاَّ بالانقضاضِ والبطش والتَّنكيل، وكالحيَّة لا همَّ له إلاَّ أن يَنْفُث السُّمَّ، وكالصَّقر يدور في الفضاء وعيناه تبحثان في الأرض عن فريسة!

والإنسان كائن عجيب غريب إذا ارتقى وسَمَا فهو ينبوع رَحمة وصلاح وإخاء، أمَّا إذا سَفُلَ فَهْوَ بُرْكان رزايا ومصائب وأهوال، هو عندما يتجرَّد من الأنانيَّة يَذْهَل عن نَفْسه ولا يعود يبالي جُوعاً ولا عَطشاً ولا عُرْياً ولا مَشَقَّة، بل يصبح كُلُّ هَمِّه أن يفعل شيئاً في سبيل أخيه الإنسان.

فكم من عالِمٍ انقطع عن الدُّنيا كالزُّهَّاد لعَلَّه يهتدي إِلَى علاجٍ لمَرضٍ من الأمراض الفتَّاكة؛ فكان حيناً يَهْتدي إِلَى ضالَّته وأحياناً يموت في تجاريبه وامتحاناته قبل أن يهتدي إِلَى شيءٍ! وكم من رحَّالة مُغامر اقتحم المجاهل مُعَرِّضاً حياته للخَطر لعَلَّه يكتشف ناحيةً مجهولة من الأرض، فاكتَشفها وصارت بَعْدَ ذلك أرضاً مأهولة بالبشر! وكم من إنسان ذَهَب طَعَاماً لذئب أو لحوت أو مات ولم يَعْرف أحدٌ أين قَبْره!

على أنَّ هذا الإنسان الذي تَنْبثق منه هذه الكواكب هو ذاته الذي ينقلب على نفسه فيطفئُ كواكب العلْم، ويجفِّف ينابيع التَّهذيب، وذلك عندما يستيقظ فيه الوحش النَّائم أو الغَريزة الحَيوانية العَمْياء، فَيَنْسُل الأولاد ليجعلهم عندما يَكْبَرُون حَشايا للمدافع، ويزعُم أنَّه يسوقهُم إِلَى ساحة المَجد ومَلَكوت الخلود. أو أنَّه يَصُبُّ القذائف المُحْرقة على مدينة

عامرة فيتركها خراباً يباباً[1] ويرجع يباهي أنه فتك ودمّر. أو أنه يسوق إِلى السجون مئات وأُلوفاً مِن الخلق الذين يخالفونه في الرأي والعَقيدة والأطوار ولا يَطْرِف له جفن ولا يوبّخه ضمير كأنّما هو جزّار وهم أغنام!

إنّ هذا النوع من الإنسان المسترجع غرائز الوَحش الضّاري كثيرٌ في هذه الأيام، لأنّ البَشريَّة في حالة هي أشبه بالحيوان.

نرى النّاس اليوم مثل أُمّهم الطّبيعية عندما تغضب وتثور، فكم من نهر كان يَسقي الحُقول عن جانبيه طَغَى وفاضَ فذهب بتلك الحقول واكتسحَ ما فيها من أشجار وأغراس وجَرَفَ ما قام عليها من مبانٍ!

لقد جَمَّل الإنسان هذه الأرض منذ سُكْناه فيها بما أحدثَ من عمران، غير أنّه اليوم يَهدم ما بَنَى ويزيد على الهَدْمِ القتل والتّنكيل. فهو اليومَ شَيطانٌ لا إنْسان.

عندما ينامُ العَقْل

عندما ينامُ العَقْل يستيقظ الحيوان الرَّاقد في الإنسان فيصير نَزّاعاً إلى الفَتْك والبَطْش والسَّيْطرة. وتشتدُّ فيه روح الأَنانيَّة فيَقسو ويُصْبح يتوهَّم أنّ الدُّنيا خُلقَت له وَحْدَه، وأنّ غَيْرَه لا حَقَّ له فيها، فإذا ادَّعى أنّه ذو حَقٍّ كان مدَّعياً أثيماً!

ما شَبَّت حرب بَيْنَ أُمَّتَين إلاّ وكانَت العقُول فيها نائِمَةً أو مخدَّرَة عَليها غِشَاوَة مِن وَهْمٍ أو خيَال أو ضلالَة.

---

(1) اليباب: أرض يَبابٌ أي خراب.

والدَّليل على ذلك أنَّ النَّاس يعودُون بعدَ كُلِّ حَرْبٍ ينادُون بالإخاء البَشريِّ العَام ويَدْعون إلى التَّضامن في القول والعَقل.

أجل، إنَّهم يصيرون حُكمَاء وهُدَاة ولَكنْ بعدَ أنْ تكونَ المدائن الجميلة صارت خَرائبَ، والحقولُ أصبحت بَلاقع[1]، والأودية امتلأت بالدماء والجثث، وصار العَويل يتعالى من كُلِّ قرية ودَسْكرة[2]!

إنَّ النَّفس البشريَّة أغربُ شيءٍ تحت الكواكب، ففيها تَلْتقي السَّماء وجَهنَّم في وقتٍ واحدٍ، وعنْها يصدرُ الخَير والشَّرُّ معاً.

انظُر إلى هذه الحضَارَة الجميلة العَظيمة واسْأَلْ مَنْ الذي بناهَا، أليس الإنسان؟! ثمَّ انظُر إلى الحروب وويلاتها وقُلْ مَن الذي يُضْرِمُ نارَها ويَنْشُر بلاياها في الأرض؟ مَن هو غيرُ الإنسان ذاته؟

أجل، إنَّ هذا الإنسان الذي يتحوَّل في لحظة من ملاك سَويٍّ إلى شيطان رَجيم، قد استطَاع أنْ يُصْلحَ الأرْض ويروي النَّبات والشَّجر ويروِّض الحَيوان ويمتلك ناصيَة الأمواج والهواء والسُّحُب حتى الجَوهَر الفرد[3]، ولكنَّه حتى السَّاعة لم يستطِع أن يبدِّلَ أطواره فيصيرَ ملاكاً بَحْتاً أو شيْطاناً صِرفاً.

وما دام كذلك فسوف تظلّ البشريَّة كما كانَت من قَبْلُ تتآخَى عَصراً وتقتتل سَنة، فَتَهْدم في سَنة القتال كُلَّ ما بَنَت في عَصْر السِّلم، وستبقى الأرض مَسْرحاً للآمال الضاحكة والأماني الباسمة فَتْرة من الوَقْت تَعْقُبها فَتْرة أُخرى تَنْطوي فيها الآمال والأماني ويَرجع الظَّلامُ والهَوْلُ يُغطِّيان السُّهُول والقِمَم!

---

(1) بلاقع: البَلْقع الأرض القفر التي لا شيء فيها.
(2) الدَسْكرة: القرية العظيمة.
(3) الجوهر الفردُ: الذرَّة؛ ما لا ينقسم (قبل اليوم).

إنَّ الإنسان في كُلِّ مكانٍ هو الإنسان، وليس في الإمكان أحسنُ ممَّا كان!

فالعياذ بالله من ساعة تنام فيها العُقول وتستيقظ شَياطين الجَهْل والهَوَس والنَّزَعات الحيوانيَّة في النَّاس.

مـودَّة الذَّليـــل

لا بأس في وقْفَة - ولو قصيرة كإلمام الطائر بالغَدير - مع أبي الطَّيب المتنبِّي ننقُبُ ونَبْحثُ لعَلَّنا نهتدي إلى مُرادِه في قوله:

والذُّلُّ يُظهر في الـذَّليل مَـوَدَّةً   وأَوَدُّ منه لِمَن يَـوَدُّ الأَرْقَـمُ[1]

كيف خطر لهذا الشاعر أن يخوض بَحْر هذا الموضوع ويستخرج منه لؤلؤته اللاَّمعة؟

إنَّ مَن يقرأ سيرة المُتنبِّي - وخلاصتها موجُودَة في ديوانه - يعرف أنَّ هذا الشَّاعر كان كثير الحُسَّاد والأَضداد في حياتِه، وبقي كذلك حتى بَعْد مماته، وكان هو يدرس أخلاق الذين يعادونه والذين يصاحبونه فلا يَخفى عليه غَثٌّ[2] ولا يخدعه سَمين! وكانت له جُرْأَةٌ على المُجاهرَة بآرائه وأفكاره في أكثر مواقفه. فهو عندما أرسل هذا البيت في شَتم ابن كَيلغ أرسلَه إلى صدر كل ذليل منافقٍ يمشي إلى غايته الخسيسة تحت سِتار الرِّياء والمُصانعَة! فيتكلَّف الابتسام وبين جوانحه تَضْرَمُ نارُ الحِقْد

---

(1) الأرقَمُ: ذكَرُ الحيَّات أو أخبثُها ج أراقِمُ.
(2) الغَثُّ: ضدُّ السَّمين.

والبُغضاء، ويتظاهر بالإخلاص والوفاء، ولَكنَّه في السِّرِّ يضحكُ ممَّن يستمع إليه ويَصْدُقُهُ..

ينبسطُ لسانُه كجَناح حمامَة فإذا حانَت غَفْلَةٌ من صاحبه انقلبَ ذلك اللِّسان إلى حُمَة[1] عقْرب، أو نَصْل حادّ مَسْموم..

إنَّ صحبة الأرقم أسلم عُقْبى[2] من صُحْبة الذَّليل المُرائي[3] هنا رأي أبي الطَّيِّب، ورأي أبي الطَّيِّب ليس بالرأي الذي يجوز الارتياب فيه لأنَّه خارج من بُوتَقَة التَّجربَة والاختبار.

ولذلك يَحُقّ لنا أن نقولَ إنَّ مودَّة الذَّليل لم تكن مضرَّةً في عَصْر المُتنبِّي وَحْدَه بل هي مُضرَّة في كُلّ عصر، وليس المُتنبِّي وَحْده هو الذي ينظر إليها هذه النَّظرة بل إنَّ رأي الناس الأحرار كلهم مثل رأيِ المُتنبِّي في الذَّليل الذي يَتصنَّع المَودَّة ويتكلَّف الإخلاص!

ولَكن رُزِقَ المُتنبِّي بياناً وفَصاحة فأعلنَ رأيهُ في الذَّليل المُرائي في بَيْت عُمِّرَ أكثر ممَّا عُمِّرَ بَيْت لُقمان دون أنْ تَخْلُقَ جدَّته[4] أو تَشيب حواشيه[5].. وخلود هذا البيت واشتهاره دليل جَليّ مَلْمُوس على أنَّ المُتنبِّي لَمَّا أعربَ عن رأْيه أعربَ عن رأي الناس الأَحرار كلهم في كُره الرِّياء والتَّصنُّع والمُداهنَة في المَودَّة.

ولَكنِ المُتنبِّي كان قاسياً كثيراً فهوَ لم يكتف بالكَشف عن مَضارِّ صُحبة الذَّليل المُصانع بل اسْتطرد فقال:

---

(1) الحُمَة الإبرَة التي تضرب بها العقرب والزّنبور ج حُمًى وَحُمَات.

(2) العُقبى: الجزاء بالخير والأخيرة.

(3) المُرائي: مَن يُري خِلافَ ما هو عليه. والفعلُ راءَى. مصدرُه مُراءاة.

(4) الجدَّة: وجَدَّ الشيء جِدَّة صار جديداً وهو نقيض الخلق.

(5) الحواشي: والحاشية واحدة حواشي الثوب.

لا يَخْدَعَنْكَ مــن عَــدُوٍّ دَمْعــهُ   وارْحَم شبابَك من عَدُوّ تُرْحَمِ

فأثبتَ بقوله هذا أنَّ الذَّليل الذي يُظْهر ذُلَّه مودَّة ليس غيرَ عدوّ مُبين على المرء أنْ لا يكْتفيَ بالحَذَر منه والابْتعاد عنه، بل عليه أنْ يقضي عليه قضاءً مُبْرماً قبل أنْ ينفسح الوقت لديه للغدر والفَتْك..

هنا يبطل المُتنبّي أن يكون واعظاً حكيماً، ويصير رجلاً فتَّاكاً يريد استئْصال الرِّياء مِنَ الأرض باستئصال المُرائين كلهم. ولا تعجبْ منه وقد صَوَّر لَكَ أنَّ المُرائي الذي يُظهر الذُلّ فيه مودَّة هو شَرٌّ مِنَ الأرْقم ونحن نقول لَك: افتكْ به قبل أن يفتكَ بك؛ إيَّاك وأنْ تخدعك دموعه فترقّ له وتَرْحمه؛ لأنَّه إنْ قَدَر عليك فلن تأخذه فيك رَحْمة.

هذا هو رأي المُتنبِّي وإنَّما الذين يعملُون بهذا الرَّأي قليلُون في الدنيا! ولذلك سيبقى جنس المرائين المُنافقِين في الأرض ولو ظَهَر ألفُ متنبِّئٍ في كُلِّ يوم!

نُقْطَــــةُ الحِبْــــر

يا لها مِن قَطْرَةٍ مسحُورة !

إنّها ليسَت ماءً يشربه العَطَاشَى ولَكِنّـها تـروي أحيانـاً كالمـاء النّمير[1]، وتروي وهي قطرة صغيرَة جماعات وجماهير . وليسَتْ خمـراً، ولكنّها تسكِر أحياناً كالخَمْر، والغريب فيها أنّها وهي ماء سائِل بـارد، فيها حرارةٌ كالجَمْر بل أينَ منها في بعضِ الأحيانِ حَرارة الجَمْر!

والأعجبُ الأغربُ أنّ فيها نوراً وضّاحاً مع أنّها سـوداء داجيَـة كاللّيل الذي تُوُفّيَت نجومه !

أجل، إنّها يا صاحِبي نقطة الحِبْر!

ولكنْ كم في هذه النقطة مِن خيْرٍ كبير! وكم فيها مِن شَرّ مُسْتَطير! تتلاشى ولا يتلاشى أثرها. وتنطمس وما تركَتْهُ في العقُولِ والقلوبِ باق. هي تلك القَطْرةُ المائعَة، ولَكِنْ كم زلزلَت كيانـاً وزَعزعَـت بُنْيانـاً، وضَعضعَت عقيدة وأَضْعفَت إيْماناً!

وأحيانا تَشيدُ الكيانَ وتوطّدُ البُنْيانَ وتقوّي الإيمان، وهي التي يدوّن بها المَرء أحبَّ الأسماء إلى نَفْسه، كما يرقّم أقبحَ النعوت والصّفات، بنقطة حبرٍ واحدة يكتبُ الذّليلُ صكَّ عبوديَّته أو صكَّ تحريره! وبنقطـة حِبْـر واحدةٍ يعلنُ المرءُ فضائله أو رذائله!

---

(1) الماء النّمير: الماء النّاجعُ عَذْباً كان أو غير عَذْب.

بنقطة حبْرٍ يمهر الحاكم طرْس العفو أو طرسَ الإعدام، وبنقطة حبْرٍ يكتبُ التَّاجرُ حوالة فيها عدَّة أرقام! هي أحياناً سَمّ قتَّال وأحياناً ترياق[١] شاف. وهي أحياناً جالبة الغنى الوفير، وأحياناً جالبة الفقر المُـدْقع[٢]. وهي أحياناً لا قيمة لها ولا نفع ولا ضَرّ، يشمُّ رائحتها بعض الأدعياء فيسْكَرُون ويتصوَّرُون أنَّهم صاروا مِن فَطاحِل[٣] الكُتَّاب والمُنْشئين وأساطين[٤] الشعراء. ويستفيق كُلّ شارب مُخَدِّر، وهؤلاء لا يَسْتفيقُون!

إنَّ هذا شَرٌّ في الأرض مصدره نقطة الحبر!

ويجري بها قلم العَبْقريِّ الموهُوب في القِرْطاس فإذا للنَّاس إمَّا صورة ساحِرَة، أو قصيدة رائعَة، أو فكرَة عالية، أو لحن فاتن.

هذا خَيْرٌ مصدَرُهُ نُقْطة الحِبْر!

لولا الحِبر لَمْ يُؤَدِّ القلم رسالة، ولا كان للمطابِع فائدَة مِن وجودِها، ولم يحتشد كلام في قِرْطاس، فهو ذو فضل عميم على الحضارة والإنسانيَّة، ولكنَّ النَّاس لا يذكرون فضل الحبر الذي لا غِنَى لهم عنه، ويتغزَّل شعراؤهم وكُتَّابهم بالخَمْر!

ويكتبُون قصائدهم بالحِبْر، وربَّما ذَمَّ بعضهم الحِبْر وشَتَمَه لأَنَّ نُقْطةً منه وقعَت على ثوبِه، أو كُمِّه، أو ورقة مِن أوراقه.

أمَّا فضائِل الحِبر وحسناتُه فنَسْيٌ منسيٌّ عند أكثر النَّاس حتى الذين يصنعونه ويربحون مِن صنعه الملايين مِنَ الدولارات، وحتى الذين لا يستطيعُون مُزاولَة صناعتهم إلاّ بالحِبْر!

---

(1) التِّرْياق: دواء السُّموم.

(2) المُدْقع: وفقر مُدْقِع أي شديدٌ. والدَّقْعاء التّراب.

(3) الفطْحَلُ: الضَّخم الممتلئ الجسم والسَّيل العظيم ج فطاحِل.

(4) أساطين: المبرِّزون في العِلمِ والأدب وغيرهما.

فيا لَلحبْرِ مِنْ مُحْسنٍ مَغْبون!؟

أَحِبُّوا أَعداءَكم

ما تَرَدَّدَتْ هذه العِبارة في مِسْمعِ إِنسان إِلاَّ وقَف عندها مُسْتَغرِباً كيف يمكن أن يُحِبَّ الإِنسان عَدُوَّه وهو القائِل: هذا أَمرٌ مستحيل، هذا فوق الطَّبيعة البشريَّة.

ونحن نقول إِنَّه كذلك ولكنَّه ليس فوق الطَّبيعة البشريَّة المُدْرِكة معنَى الإِخاء العام والحياة المُشتركة.

مَن هَو العَدو؟

هو إِنسانٌ في بلدَتكَ أَو قريتك أَو مدينتك.

هو إِمَّا جارٌ قريبٌ أَو غير قريب أَراد بكَ السُّوء أَو ساقَ إِليك مَضَرَّة، فأَنتَ تَحْذَره في كُرْهٍ وتتربَّص بهِ الدَّوائِر[1]، لأَنَّه يتربَّصُ بك الدوائِر.

على أَنَّك قد نسيتَ أَنَّه إِنسانٌ مثلك، كما نَسِي هو أَنَّك إِنْسان مِثْله وأَنَّك أَخٌ له كما هو أَخ لَكَ أَحَبَّ أَمْ كَرِه!

فإِذا أَنت أَحببته وسَعَيت لنفعه بدلاً مِنَ السَّعْي لأَذاه أَفَدْتَ إِنساناً لا يسعك إِلاَّ أن تحمِل عنه شيئاً مِن أَعبائه، وذلك لأَنَّه إِذا افتقَرَ وصَار عالةً على الحكومة فأَنتَ الذي يعوله لأَنَّك تدفع المكوس والضرائِب للحكومة التي تنفق عليه وتعوله، وإِذا أَصابَهُ مَرَضٌ مُعْدٍ فمِن مصلحتك أن تَـــذُودَ عنهُ هذا المَرَض لِئلاّ يسرِي إِليك وتصيرَ أَنتَ ضحيَّةً له مثله .

---

(1) الدوائِر: الدَّواهي.

فأنت ترى أنَّ محبَّة العَدوّ أمرٌ لا بُدَّ منه، مهما اعتبرتما أمراً مستحيلاً وعددتما فوق الطَّبيعة البشريَّة.. وإنما يختلف تفسير هذه الآية باختلاف العقول؛ فمَن اتّسَع مدى فكره في الحياة وجَدَ أنَّ العدو كالحبيب يلزَمه من أمرِه ما يلزَمه من أمرِك في هذه الحياة المشتَركة المعَقّدَة المُتَداخلة. ثم يرى أنَّ المحَبَّة أحسن وأشهى ثَمَراً.

هَبْ أنَّكَ مررتَ ذات يوم بعدُوٍّ تكرهُهُ، فوجَدتَه مَطرُوحاً في الشارع مُهَشَّماً مَرْضوضاً، أفَلا تسرِعُ إلى إغاثَتِهِ، أفَلا تدعُو النَّاس إلى إعانته؟ أفَلا تشفقُ على هذا الإنسان المُجَرَّح؟

فلماذا تنتظر إلى أن يسقطَ طريحاً مُجَرَّحاً مُهشَّماً لتحبّه أو لتُشْفِقَ عليه؟ أحْبِبْهُ وهو سليم فإنَّ حُبَّك له إذا أفادَهُ ذرَّةً أفادَكَ قنطَاراً، لأَنَّ مُجرَّد طَرْد البَغضاء من قلبِك هو أشرف ما تفعله نحو نفسك. فأَحبِب عدوك وكُن له نِعْمَ النَّمُوذج والمِثَال.

أحِبهُ تشعر بفرح وغبطة وإن لم ينلهُ مِن حُبِّكَ فائدة، إذن فهذه الآية ليسَت في نظر الجاهلين ونظرنا ممَّا يستحيل العمل بها.

اقتَد بالمصلُوب صاحب هذه الحكمة البالغة، وليَكُن إيمانك بِهِ مُرْتكزاً على دَعَامةِ الحُبِّ الشَّامِل والإخاء الكامِل!

القَريب البعيد

كم مرة لقيت شخصاً من جِنسك. لغته لُغَتُكَ. وتاريخه تاريخُكَ. وعاداته عاداتُك. وزِيّه زيُّكَ. وطَعامه طعامك. وأَغانيه أغانيك حتى مذهبه هو مذهبك، وكل شيءٍ فيك يقرِّبك إليه، وكل شيءٍ فيه يقرِّبه

إليك! فحينما تبحث معه في أية قضية من قضايا بلادك تشعر أنَّكَ غريب عنه وأنْ بينك وبينه هاوية لا جِسْر فوقها يعبر عليه إليك. فتعود عنه وأنت كئيب حزين لأنَّك أضعت واحداً من أبناء أُمَّتِك. أضعته وهو موجود وبَعُدَ عنك وهو قريب منك. وإذا ما بينكما ما بين غريبين.

أتريد أن تعرف السبب في هذا التباين بل التناكر بينكما؟ إنَّ السبب بسيط جداً وهو أنَّكَ تعيش في عصر وهو يعيش في عصر آخر، وهو لا يذكر من الزمن الماضي غير الصَّفَحات السَّوْداء فيه. والسر الآخر في اختلافكما هو أنَّكَ تسير إِلَى الأمام وتتطلع إِلَى قُدَّام. أمَّا هُوَ فيأبى أن يسير إذا مشى إلاَّ إلى الوراء القَهْقرى.

وتحاول جهدك أن تفتح عينيه على الأُمور التي تراها وتعتقد أنَّ الخير في رؤْيتها، فيحرن كما تحرن البغال أو يثور كما يثور البُرْكان، فترجع عنه واليأس يحز في نَفْسك لأنَّك عجزت عن فَكِّ اللفائف التي حول عَقْله، وأعياك أنْ تخرجه من كهف الانكماش إِلَى فضاء الانطلاق، إِلَى دنيا العقل المتحرِّر!

أما هو فيمضي عنك وفي قلبه حِقْد عليك وبُغْض لك لأنَّك لا تقول كما يقول ولا تفعل كما يفعل، فأنت في رأيه إنسان متمرِّدٌ على تقاليد آبائك وأجدادك. أو أنت في نظره عدوٌّ قومك وبلادك. وكلَّما التقى إنسان مثلك بإنسان مثله فإنهما لا بدَّ مفترقان إِلَى غير لقاء.

ذلك لأنَّ الجهل لا يمكن أن يُحبَّ.. إنَّ المحبَّة بنت المعرفة وَحْدَها. وهذه المحبة هي التي تبقى، وتدوم والجاهل ضَيِّق الصدر أبدا يتوهَّم كل فكْرة جديدة بدعةً وإلحاداً، ويتصوّر كُلّ مخالفٍ له في رأْي أو نظريَّة عَدُوّاً وإن كان أعظم فيلسوف.

وما كثر أمثال هؤلاء الجُهَلاء في أُمَّة إلاّ ذَلّت وضَعُفت وصارت فريسة باردة لِكُلّ طامعٍ، ومَسْرحاً لثعابين الشّقاق والنفاق والنزاع المُذْهِب للقوى.

وأُمَّة يكثر فيها هؤلاء الجَهَلَة يكون العِبء على كواهل المتنورين فيها أعظم وأصعب، والطريق إِلَى الحُرِّيَّة والكرامة الوطنية أطول وأصعب وأشَق، إِذ ليس من الأُمور السَّهلة أن تنقل إِلَى القرن العِشرين أُناساً يعيشون ويفكّرون بعقليَّة القرن السابَعَ عَشَر أو الثامِنَ عَشَرَا! كما إِنَّه من العسير أن تبني جداراً من حجارة غير متناسقة ولا متساوية. فالحجر الأملس المسطَّح لا يَلْتَحم مع حجر غير أملس ولا مُسَطَّح. ولَوْ كانت العقول تنحت كما تنحت الحجارة لما كان الوقت الثمين يَمْضي في الأَسف والحزن.

[قُلْ هَلْ يَسْتوي الَّذين يَعْلَمُون والَّذين لا يَعْلمون[1]]، [ولله في خَلْقه شؤون].

ذِكْـــرى الأمـــوات

بعد أيام تنصرم حياة شهر أَيّار. وفي نهايته يقف الناس الأَحياء يفكّرون في النِّهاية، نهاية الأَحياء، ونهاية الأَشياء. ويقودهم التفكير إِلى تذكُّر الآباء والأُمَّهات والأَقارب الذين فارقوا هذه الحياة وسكنوا ظلمات القبور، فتستيقظ في نفوسِهِم عاطفة عِرفان الجميل، وتحملهم

---

(١) سورة الزُمَر ٩/٣٩.

هذه العاطفة على زيارة المقابر وتزيين الأضْرحَة تكريماً للرّاقدين تحت التراب.

لعلّ قائلاً يقول: إنّما الإنسان الحيُّ يَسْعى إلى تكريم نفسه لأنّه يسُنُّ سُنَّة سيناله منها بعد عمر طويل مثل الذي نال الذين يكرّمهم، وهو قولٌ فيه كثيرٌ مِنَ الصواب. ولكنّه ليس ممّا يعاب به الإنسان بل إنّ وجود هذا الشعور فيه وإن كان أنانيَّة هو مِن حُسنْ حَظِّ الإنسانيَّة! فلو ذهل الإنسان عن التفكير بنفسه والعمل على تمجيدِها وتكريمها لكان أشَدَّ ذهولاً عن غيره، ولصار كائناً كالجماد يمرُّ به القاتل فلا يغضب ولا يتأثّر، وتطرح عنده جثة المقتول فلا يتحرّك ولا يتألّم.

وعندنا أنّ الأنانيَّة أنواع كثيرة لا نَوْعٌ واحد، فيها الأنانيَّة الجميلة النَّافعَة، وفيها الأنانيَّة القبيحَة المُضِرَّة. ومثال الأنانيَّة الكريهَة البغيضة المُضِرَّة هي التي نراها في جماعة مِنَ الأغنياء لهم نفوس إسفنجيَّة تمتصُّ الخير من كُلِّ مكان ولا تقطرُ ممّا تمتصُّ قطرة في أيِّ مكان!

إنَّ الأنانيَّة المكروهَة الممقوتَة ماثلة أمامنا عند مَنْ يقدر أن يُغيثَ ملهوفاً فلا يُغيثه، وأنْ يكسو عارياً فلا يَكْسوه، وأن يداوي مَريضاً فلا يداويه، وأنْ يُنشئَ مدرسة في قرية فقيرة فلا يُنْشئها، وأن يبني مَصَحّاً أو مُستوصفاً يلجأ إليه المرْضى المساكين فلا يبنيه، وأن يُدْعى إلى تخفيف كارثة أو نكبة في بلد فينفُض طوقه ويقول: هذا لا يعنيني.

وبعبارة مُختَصرة فإنّ الأنانيَّة المكروهة هي التي يَحْصُر صاحبها اهتمامه بنفسه وَحْدَها دون سائر الخَلْق! فهو ذئب في صورة إنسان لأنّ الذئب وأمثاله مِنَ الحيوانات الضاريَة لا تهتمُّ إلاّ بذاتِها.

أمّا الثانية الجميلة النافعة فهي التي نراها في الجندي الذي يطلب المَجْد في ساحات الوغى، فإنّه في الوقت ذاته يصون وطناً ويحمي شَعْباً. ونراها في الغني الذي يستكثر مِنَ الثروة ليهبها في النهاية لمؤسسة علميّة أو معهد كيماوي أو مستشفى. ونرى الأنانيَّة الجميلة في الأمّ التي تضحّي بحياتها وراحتها في سبيل أولادها لكي تحصل منهم على الحب والتّكريم. إنّها تحافظ بهذه الأنانيَّة على ذاتها، وعلى كيانها وبقائها.

ومِن أمثلة الأنانيَّة الفاضلة أنانيَّة الفنَّانين الذين لا يهتمُّون بما يهتم له الناس مِن مأكل ومَلْبس ومَشْرب ولَهْو، لأنّ هذه المطالب تبدو عندهم حقيرة تافهة بإزاء ما يراود أرواحهم مِن رُؤى، وما يتراءى لهم في مسارح الطّبيعة مِن آيات، فيذهلون بها حتى عن أُمور ضروريَّة كُلّ الضّرورة للكائن البشري.

أجل! إنّ الأنانيَّة تبلغ بالفنَّان إلى حَدّ نسيان ذاته، فيعيش يكدّ ويَكْدح ويجوع ويعطش مرهقاً نفسه وحارمها، وكُلّ ذلك في سبيل شيءٍ هو أعزّ عنده مِن كُلّ شيء.. في سبيل الفَنّ، حتى إذا حاز ذلك كُلّه صار ثروة خالدة لأمّته وبلاده بل للعالم كُلّه!

ونحن عندما نكرِّم موتانا لا نكرِّم عِظاماً نَخِرة، ولا رِمَماً باليَة، بل نكرِّمهم لِمَا فعلوه مِن حسنات وتركوه مِن ذكريات، وليس ضرورياً أن يكونَ كلّ واحد منهم فنّاناً عَبْقريًّا ليستحقّ التّكريم والتَّمْجيد، يكفي أن يكونَ رجلاً غرس شَجَرة أو عَبَّدَ طريقاً أو ربّى ولداً، ويكفي أن تكون امرأة نَسَجَت ثوباً أو عَمَّرَت بيتاً أو اعتنَت بعَيلَة أو سهرَت على مَرِيض، أو ضَمَّدت جرح مُصاب، أو واسَت محزوناً؛ فإنّ الحياة في جملتها مِن هذه الأمور التي نحسبها غير ذات شأن. وهي في الواقع جوهر كُلّ شأن.

لنذهب يوم الاثنين إِلى المقابر، فكم مِن عظَةٍ بالغة في وَقْفَةٍ على قبر!

كيف نرى أَنفسنا وكيف يرانا الناس؟

كيف نرى أنفسنا، وكيف يرانا الناس ؟

وللإِجابة عن هذين السّؤالين الوجيهين إِجابة مفيدة بنّاءَة، نقول: إِنَّه يجدر بكل إِنسان أن يناقش نَفْسه الحساب ويَبْحث عن مواضع الضّعف والعَجز فيها لعلّه يتداركهما فيُصْلحهما، وذلك قبل أنْ يراهُما النَّاس فيَدلُّون عليهما وعليها بأَصابعِهِم وأَلسِنتهم!

أجل! عليه أن يفعلَ هذَا الأَمر قبل أن يفتح عينَيه على عيوب الآخرين. فإِنّ وجودَ عيوبٍ في غيرِه لا يستر عيوبه ولا يمحوها!

مثال ذلك؛ إِذا كان تاجراً وحدَّثته النفس الأَمَّارَةَ بالسّوء أن يشنِّع على تاجر ينافسه ويزاحمهُ فمن الخير له أن يتروَّى ويتربَّص فلا يُطْلقَ سهاماً ربَّما ارتدَّت إِلى صدرِه قبل أن تصل إِلى صدر مُنافسه.. كأَنْ يزعُمَ أَنّ ذلك التَّاجر لا يصدُق في أقوالِه. وأَنّ رأسماله ليس رأسماله. وأَنَّه أفلس مَرَّة أو مَرَّتين إِفلاساً احْتياليًّا..

وقد يكون هذا المندِّد المُغتاب رجلاً غير مستقيم ولا محترم لا يَصْدُق في أقواله مائة بالمائة أو سبعين بالمائة أو خمسين بالمائة، وعمَّا إِذا كان لا يخلقُ لذاته أحياناً بالتمويه رأسمالاً لا يمكن أن يظفرَ به حتى في المنام!

ورُبَّ سيدة لذَّ لها أن ترفعَ مِن شأن فَرْوَتِها وأن تتباهَى بصيغتِها لتوهِم السَّامعين أنّها مِن ذوات الغنى الوفير، فتراها تندفعُ في المبالغة

والغُلو زاعمَة أنّها دفعَت أُلوف الدولارات ثمن فروها، وهي لم تدفع غير المئات بل ربَّما كانَت الفروة التي عليها ليسَت لها..

أو تزعمُ أنّها ابتاعَت صيغتها مِن أعظم وأنفس مخزن للجواهر والحلي في باريس أو نيويورك، وقد تكون اشترتها مِن جوهريٍّ عاديٍّ في الحيِّ!

أو ربَّما كانَت جواهرها مزيَّفة!

لا! إنَّ التحدُّث عن النفس في هذه الصورة مثل التحدُّث عن الغير بتلك الصورة، لا يزيد في مقام المرء ولا يرفعه بل ربَّما أنقص مِن قدره وذهب بكثير مِن احترام الناس له.

يجب أن نرى الفضائل في الناس لكي يحقَّ لنا أن نتوقَّع منهم أن يبصروا الفضائل فينا. وأحسن مِن هذا أن نمرَّ بعيوب الغير كأنَّنا لا نراها لكي يُغضي الناس عن عيوب فينا.

إذا أردتَ أن يكون رأي الناس فيك جميلاً فهذا أمرٌ هين جداً لأنّه في طاقتِك ومقدرتك. وذلك بأن تكونَ أنت جميلاً فيصير رأي الناس فيك جميلاً.

كيف تتَّسع الدنيا وتضيق

كم هي مساحةُ دُنياك؟

كانت دُنيا الإنسان في أوَّل أمْرِه مغارةً أو كَهْفاً ثمَّ صارَت خيمَة فكوخاً فبيتاً فبلاداً؛ أمَّا اليوم فلا يقنع إلاَّ أن تكون له الأرض كُلّها وطناً.

لم تكن الدنيا كبيرة واسعة مِنْ قَبْلُ، وإِنَّما الإنسان كان صغيراً لأنَّه كان جاهلاً، أما الآن فهو كُلَّما آرْتقى وتمدَّن، شعر أنَّ الدنيا تصغر لديه وتضيق عليه. وأدرك أنَّ الأرض على اتساعها لها حدود تتمّ عندها، أمَّا القوة التي أودعها الله في الإنسان فلا حَدَّ لها تقف عنده.

وعندنا أنَّ هؤلاء الأبطال الذين يَثِبون فوق البحار من قارَّة إِلَى قارَّة كأنَّما البحار بِرَكٌ هم رُسُلُ العلم والاختراع، كما هم رسل الإِخاء العام بين البشر وإِنْ لم يُلقوا عظة على منبر، أو يدوِّنوا دعوة في كتاب، فهم يصغِّرون الدّنيا في العيون ويَنْسخون آية المَسافة والوقت؛ فإِذا البحر كالساقية، وإِذا الشَّهر كاليوم، إِنَّما لا ينبغي لكُلِّ إنسان أنْ يطير كما طاروا ليصير كبيراً وتَصِير الدنيا صغيرةً عنده، فالدّنيا لا تضيق إِذا ضَيَّقتها.

أنتَ جزء مِن هذا العالم إِذا أتَّحَدتَ به صار كلّه لَكَ! أَمَّا إِذا انفصلتَ عنه وحَصَرتَ نَفْسكَ في دائرة ضَيِّقة - كالمذهب مثلاً والجنس واللون والإِقليم - فإِنَّك تصبح كالمسجون في نفق أو سِرْداب لا يَرَى مِنَ الدنيا غير الجُدْران التي حوله، وصار كل شيء غيره مجهُولاً منك كلَّما تصورته دبَّ إِلى نفسك الخوف واستحوذَ عليك الحَذَر؛ لأنَّ الإِنسان عدوٌّ ما جهل وصديق ما أَلِف.

فما هي دنياك وكم مساحتها؟ لا نقول لك: ثِبْ فوق البَحْر، ولكنَّنا نقول لك: ثِبْ فوق الحواجز المَذْهبيَّة والجنسيَّة والإِقليميَّة تصبح الدنيا كُلُّها وَطنكَ والنَّاس كُلُّهم أهلك وإِخوانك؛ فالعالم ينكمش ويتقلَّص إِذا انبسطَت العقُول وتمدَّدت الأرواح. أمَّا إِذا كانَت العقول في انكمَاش والأرواح في انقباض فالدُّنيا تتَّسع وتنبسط وتَكْبُرُ وتكثر فيها

المجاهل حتى لَيصيرُ الإنسان فيها كالحَشَرة القابعَة في ظِلّ صَخرٍ في سَهْل مترامي الأطراف.

قبيح أن يكونَ الإنسان كالحَشَرة! عليه أن يعرف دنياه ما دام فيها ولن يعرفها ما دام عقله في سجن الجهل والغَباوة!

لا يصير العالم لَكَ إلاّ إذا صِرْتَ أنتَ للعالم.

فإذا عَجَزْتَ عن السياحَة بنفسِك في الأرض فلا يَعْجِزُ عَقْلُكَ أنْ يَسبَحَ في الكُتُب.

وَسِّع دائرة نفسك تَصْغُر الدّنيا لَديك.

الإِسراف والبُخْل

إنّنا شَعْبٌ كريمٌ مِضياف أمْرٌ لا جدال فيه؛ لأنّ تاريخنا كُلّه منذ عَصْرالخَيْمة إلى عصر القَصْر، ومُنْذ عَصْر النّاقة إلى عَصْر الطّائرة، يشهد لنا شَهادة حَقٍّ لا تزويرَ فيها ولا تزويقَ بأنّنا عُرِفْنا بالكَرم وعُرِفَ الكَرَم بنا. وأنّنا قومٌ لا يَقتَصِر كَرَمُنا على بَذْل المال وَحْدَه بل نجودُ أحياناً بأنفسنا في سَبيل اسْتبقاء هذه المِيزَة لنا دون غيرنا، واستبقائها كاملة غير منقوصة ولا مُشَوَّهة!

ولكنّنا أحياناً نجاوز الحَدَّ في الجُوْد حتى يبدو كَرَمُنا مُزَيَّفاً مُصْطَنَعاً، وحتى يتحوّل مَدْحُ النّاس لنا إلى اسْتخفاف بنا، أو تَلْوِيم وتَثْريب[1] لما نَصْنع! خُذْ مثلاً أعراسَنا؛ فإنّ أعراسَ الأُمَراء والمُلوك في الزّمن الخالي

(1) التّثريب: التّعيير والاستقصاء في اللّوْم.

ليست أجملَ منها ولا أكثرَ نفقة وكُلْفَة ولا أحسن تنسيقاً وترْتيباً! ولو أنّ الذين يتكلّفون هذه الفَخْفَخة والأُبهَة في الأعراس هم الأغنياء وحدَهم لكان الأمر مَحْمولاً هَيِّناً؛ فالأغنياء الذين اعتزلوا النّاس.. أو قُل الذّين ابتعد عنهم الناس، يحتاجون إلى هذه المَظاهر الطّنّانة لكي يُثْبِتوا وجودَهُم ولكي يَدُلّوا على أنّهم مِن ذوي الثّراء.

ولَكنَّ الأمْرَ غيرُ قاصر على هؤلاء.. بل يكاد يكون البَذْل في هذا الباب عامّاً شاملاً؛ مِمَّا يَدُلّ على أنّ الرَّخاء أصاب الجميع وأنّ الغِنى ليس وَقْفاً على بعضٍ دون بَعْض...

استوى الماء والخَشَبة، بل قُلْ إنّ الذين يُنْفقون الأموال على الأعراس وغَيْر الأعراس - وهُم غيرُ أغنياء - هم أكرم مِنَ الأغنياء! فليس مَن ينفق الألف وعنده الألوف بكريمٍ بل الكريم هو الذي يَبْذُل الألْف وليس له سواها.

وَلكن هذا الكرم على جماله وجلاله إذا رضِيَت عنه العاطفة فلا يرضى عنه العَقل الرَّشيد، ومهما تكن الغاية منه فلن تكون غيرَ لذّة عابرة لا تستأهل كُلّ هذا الإسراف.

ومثلُ أعراسنا مآدُبنا وولائمُنا؛ فمِنَ النّادِر أنْ تقام وليمة لِعَشرة ليكفي ما يُهيّأُ لها مِن مطاعم ومشارب لثلاثين وأربعين. وإذا لم يستطع أهل الدّار هذه الأَشياءَ كلّها استعانوا بالخُبَرَاء وفي هذا ما فيه مِنَ التّكاليف. ولذلك صار بعضُهم يدعو ضيوفَه إلى مطعم أو فُنْدق تفادياً مِن أمرَين: الأوَّل إرهاق ربَّة الدّار، والثاني إنفاق مال لا لزوم لإنفاقه. ومهما تَنْتَقِ ربَّة البيت مِن أصناف الطّعام ومهما تبالغ في إعداده، يظلّ المَطعم الكبير أوفى بالعنايَة وأكثرَ استعداداً.

إننا لا نعيب على قومِنا هذا السَّخاء المُتناهي ولكنّنا نَوَدُّ أن يكونَ للمشاريع الإنسانيَّة والأدبيَّة والخيريَّة نصيبٌ مِن هذا السَّخاء، وبذلك يزداد كرمُنا جمالاً ويزداد شكر النّاس لنا كما يزداد مَقامنا ارتفاعاً بين الأمَم. نكتب هذه الكَلمة لا لنَحُضَّ قومنا على البُخْل المَكروه، بل للتّنبيه على أنّ الكرم إذا تجاوز الحَدَّ ولم يكن في مَوضعِه هو مِثل البُخل لا يَكْسو صاحبه غيرَ الذّم. فالبُخل هو الطَّرف الأقصى للاقتصاد، والإسراف هو الطَّرف الآخر للكرم!

كلاهما مُستَهجَن مَذْموم، وكلاهما مُضِرّ بصاحبه. وقد قال الشاعر:

بين تبذيرٍ وبُخْل رتبة ... وكلا هذين إنْ زادَ قَتَلْ

روح العيـــــــــد

ها هي طلائعُ الميلاد ورأس السَّنة تُطِلّ على الناس مِن نوافذ المنازل أضواءَ حمراءَ وصفراءَ وزرقاءَ وبيضاءَ، وتُطِلّ معها الأشجار الخضراء اللابسة الزَّخارف المختلفة.

وها هي بشائر العيد تتألّق في الحوانيت حَلْياً وجواهر، أو ملابس وألاعيب، وأدوات وأثاثاً؛ وكلّها تبعث الغبطة إلى الأرواح كما تَسَع العيون.

ولكنَّ أجملَ هذه البشائر وأسمى هذه العلامات هي تلك الابْتسامات التي تموجُ في الوجوه وعلى الثغور أنّى ذهب المرء وكيفما التفت.

إذا لم يكن في الأشياء المرئيَّة غير هذه الابتسامات التي تَنُمّ على فرَح جديد في القلوب، لكفى أن يعرفَ الإنسان أنّ الدُّنيا تبدَّلَت مِن كآبتها

بشاشة، ومِن خَوفِها طُمَأْنينة، ومِن بُغْضِها حُبّاً ومِن شَكِّها إيماناً.

لَيْتَ شعري! فما دام بوسع البشر أن تتولّد في نفوسِهِم روح المحبّة والتّسامح أثناء المواسم والأعياد، لماذا تفارقهم روحُ العيد بعد انقضاء العيد؟

أسَببُ ذلك أنّ الإنسان يَجِدُ لذّة في صُحْبة الشّقاء، وجِيرَة القَسْوة والبغضاء؟

أم أنّ النّسمَة العُلوِيّة المُوْدَعَة في الإِنسان لا تزال عاجزَة عن التّغلُّب على الحيوانيّة فيه؟!

أم تُراه عندما تجيء المواسم يشعر أنّه كان في الأيّام التي سَبَقتها- وهي كثيرة- يسيرُ في طريق الإثم والضَّلال فهو يُكَفِّر عن خطاياه وآثامه في المواسم بتوزيع ما في قلبِه مِنَ الحُبِّ ابتسامات وما في يدِه مِنَ المال هدايا وهبات؟

كانَت البشريَّة قبل مجيء النَّاصري مُنْغمسَةً في حَمْأَة[1] الشَّرِّ والبَهيميَّة. فلمَّا جاء كشف بتعاليمه السِّتار المُسْدَل على ما فيها من محاسن، فأدرك الإنسان أنّه يَقْدر أَن يحبَّ كما يَقْدر أن يُبْغض. وأنّه يستطيع أن يسوقَ الخير إلى جارِه مثلما يَقدر أن يمشيَ إليه بالأذى!

وفَوْقَ ذلك.. فهو قد أدرك أنَّ الإنسان يَجد في عمل الخَير لَذَّةً لا يَجدها في عَمَلِ الشَّرِّ، ولا في التَّخاذل والتقاعد عن عَمَل الخَيْر..

وهذه الرُّوح هي التي وثَبت بالبَشريَّة مِن حَضيض الجَهْل المُتْلف المُدَمِّر إلى أوجِ المَعْرفة البانيَة المُعَمِّرَة. فكانَت الحَضارة وكان الرُّقيّ.

غَلَط ولكنَّه غيرُ مَطْبَعي!

يَغْلَطُ الإنسان في عمل أو قَول، فإذا نُبِّهَ إليه وكان حكيماً تداركه بل رُبَّما أسْرع إلى إصلاح الخطأ قبل أن ينبِّهَهُ إليه أحد.

وهكذا تفعل الجريدة عندما يقع فيها غلط ناشئٌ عن سَهْو الكاتب أو المُنَضِّد! وَلكِنْ هنا غَلَطَات لا يستطيع الإنسان إصلاحها لأنَّها فوق قُدرَته.

---

(1) الحَمْأَة: الطِّين الأسود.

خُذْ مَثَلاً بعضَ النَّاس الذي خلقتهم الطبيعة ولهم كُلُّ ما للنَّاس من أعضاء وجَوارح وحَواس، ولَكِن ليس فيهِم شيء مِن كياسَة[1] الإنسان الرَّاقي ولا فَهْمه ولا شُعُوره.

هؤلاءِ بين النَّاس كالأغلاط المَطْبعيَّة في الكلام الجميل، إنَّهم مركَّبون مِن لَحْمٍ ودم، ولكِنَّ قلوبهم مشوَّشةٌ بالحقْد وعقولَهم مطموسةٌ بالجَهل ولا قُدْرةَ لَكَ أنْ تُصْلحَهم لأنَّك لستَ ربّاً.

هم كالكلِمَات المَغْلوطَة تتألَّف مِن الحروف كسائر الكلام الصَّحيح، ولَكِنَّ الحروف وهي في غير مواضِعِها لا تؤلِّف كلاماً صحيحاً.

ومثلَما يستعصِي عليكَ فَهْم جملة مُشَوَّشة أو تستنكرُ عبَارة نافرة خارجةً عن قاعدة الكلام الصَّحيح، كذلك تقف أمام هذا الصِّنْف مِن البَشَر وأنتَ حائِر مُمتَعِضٌ لا تقدر أن تصحِّحَه لأنَّه ليس كلاماً، وليس لك أن تشطبه من دفتر الحياة لأنَّ الأمر ليس لك، وأنكَى مِن هذا أنَّ عليك أن تحسَبَه مِن النَّاس وإن لم يكن منهُم إلاّ بشَكْلِه وهَيْئته ...

قد تقول في نفسك: لماذا لا نمرُّ بهذا الصِّنف كما نمُرُّ بالأصنام والتَّماثيل، فلا نكلِّفُ أنْفُسنا أنْ نَحْسَبها مِنَّا ولا نجبِرُ أنفسنا على أن نأخذ معها ونعطي؟

رأيٌ حسنٌ، إلاّ أنَّ الأصنام لا تمشي إِليك بمكروه إِذا كانت لا تمشي إِليك بجميل، أمَّا هؤلاء فيمشُون ولكِنْ بالمكْرُوه وَحْدَه!

---

(1) الكِياسة: ضدّ الحُمْق.

إذن فالطَّريقة المُثلى هي أن نفعل بهم ما يفعل البستَاني بالشوك والزَّارع بالزُّوَان، أي أنْ نَعزلَ الأول عن الأزهار لِئلاَّ يَخنُقَها، ونَفصِلَ الزُّوان عن القمح لئلاَّ يَغْلبَ الشرُّ الذي في الشَّوك الخيرَ الذي في القَمْح!

أجل إنَّ الجهَلَة والأَشرار هم في عالم الإنسانيَّة الصَّحيح مَرْضى يجب عَزلهم إذا استعصَى على المجتمَع أن يكشفَ عنهُم عَماوَةَ الجهل وأن تتغَلَّبَ فيه نزعَاتُ الشر.

فإذا ابتُليتَ بواحدٍ مِن هؤلاء وأعجَزَكَ أنْ تُصْلِحَه فابتعدْ عنه كما تبتعد عن موبوء، لئلاَّ تنتقل عَدْوى التَّعَصُّب والغَبَاوة منه إليك.

خُذْها نصيحةً مِنّي، فهي بنت التَّجارِب الكثيرة- تجارِب الحكمَاء والفلاسفة والأنبياء، وتجاربي أنا أيضاً.

امَّا إذا عَجزتَ عن أنْ تَبْتعد فلتكن لكَ شجاعَةٌ وقُوَّة على استئصال الشَّوك لِئلاَّ يُدْمِيك، وعلى سَحْق العَقْرَب لِئلاَّ تؤْذيك!

حكاية طِبْق الأَصل

زار أَحدهم دار جريدة عربيَّة. وبعد أَنْ تثاءب وتمطَّى قال للمُحَرِّر: إِنَّ لجريدتكم سُمْعةً حسنةً في بلدتنا وأنا مِن أنصارها.

قال المحرر: شُكْراً ومَرْحباً.

قال الزائر: عندي خبر وأظنُّ أَنَّ الجريدة تحبّ أَنْ تَنْشرَه.

قال المحرر: هاتِه. إِنَّ الجريدة أُنشئت لنشر الأَخبار.

فتهلَّل الزائر وقال: أَمَّا الخبر فهوَ أَنَّ الوجيه الكبير والصِّناعي الكبير صاحب الأَيادي البيضاء على المشاريع الخيريَّة وصاحب النفوذ البَعيد في

الدوائر الرسميَّة - حنين ابن بَطُّوطة - اعتزم السفر إلى الوطن حُبّاً بالوطن الذي فارقَه منذ أربعين سنة. ولمَّا علم الأصدقاء بعزمه على السَّفر تسابقوا إلى إقامة الولائم السخيَّة بالمآكل العامرَة بالمشارب على شرفِه. فاتحتْها مأدُبة في بيت صديقه حاتم طي صاحب الدَّار الجميلة. وواحدة في بيت نَسيبه الهُمام[1] والتَّاجر المِقدام بولس طماطم. وواحدة أحياها "نادي البُطون" على شرف المسافر لأنَّه عُضوٌ عامل في النادي الذي قدَّم لأعضائه ولغيرهم خدمات جليلة. ومأدبة في قاعة جمعيَّة "الأبطال". ومأدبة في.....

فقاطعه المحرر: قلت لي إنَّ لدَيْك خبراً . فأين هو؟

قال الزائر: يا عَجَباً! أليس ما سَردتُه عليك خبراً؟

قال المحرر: كلاَّ، بل الذي سَردته سلسلة نُعوت وألقاب لا أدري إذا كانت تنطبق على أصحابها، بل لا أدْري إذا كان أصحابها يرضَوْن أَنْ تُسْبَغَ عليهم هذه النعوت والأوصاف. والأَرْجح أنَّهم سوف يتكدَّرون ويَغْضَبون إذا كانوا مِن ذوي الإِحساس؛ لأنَّ مَدْحَ الإِنسان بما ليس فيه هو القَدْح[2] بعينِه، بل الأَصحّ أن يقال إِنَّه تَهَكُّم فاضح وسُخْرٌ مَرير.

فبُهِتَ[3] الزائر وقال: إِذن كيف يكون الخَبَر؟

قالَ المحرّر: الخبر، الخبر.. هو أن تقولَ عن إِنسان سافرَ إِلى مكان: "إِنَّ فلاناً سافر إلى مَوْضع كذا" وإِذا مرض ولزم البيت فالخَبر الصَّحيح هو أَنْ تقول " أصابَ فُلاناً وَعْكَةٌ لَزِمَ البيتَ بِسَبَبِها".

أَمَّا النُّعوت الطَّنَّانة والألقاب الرنَّانة فهيَ ليسَت أخباراً، ولا يَليقُ

---

(1) الهُمام: العظيم الهمَّة.

(2) القَدْح: وقَدَح في نَسَبه طعن.

(3) بُهِت: أي دَهِشَ وتحيَّر.

ابتذالُها باستعمالها حيث يجوز وحيث لا يجوز! وإذا لم تكن ألقاباً لذوي مِهَن أو وظائف فهي أماديح. والأماديح غير الأخبار. وأنت ألصَقتَ بصاحبك المسافر ألقاباً ونعوتاً عظيمة، فهل لك أن تخبرني ما هي صناعته أو تجارته؟ وما هو شأنه في المجتمع؟

فارتبك الزائر أمام هذا السؤال ولكنّه تماسك وقال: إنّه مِن ذَوي الثّراء.

قال المحرّر: إذا كان صاحبك مِن ذوي الثّراء فأيُّ الغِنى غِناه؟

قال الزائر: ماذا تعني؟ وهل الغِنى أنواع ؟

قال المحرر: أجل! إنّه أنواع كثيرة حسنة وسيِّئة. فمن أنواعه السيِّئة نوع يجعل مِن صاحبِه صَنماً لا حِسّ فيه. ونوع يجعل صاحبه سجيناً لا حريَّة له. ونوع يجعل من صاحبه جباناً يرتعد كلّما طرق بابه طارق. ونوع يجعل صاحبه أبْكَم أصَمّ ولا سِيَّما عندما يتنادى الناس إلى الغَوْث والنَّجدة في نَكْبة.

أمَّا أنواع الثَّراء الجميلة فهي تلك التي تهذِّب طِباع صاحبها وترقّق شعوره فيصير يحسّ كأنَّه مسؤول عن إغاثة المنكوبين وعن مطاردة الجهل ومحاربة الأمراض. وهذه الأنواع مِنَ الثراء هي التي أوجَدَت المدارس والملاجئ والمستشفيات وعَمَّرت المعابد والمكاتب.

أمَّا وقد شرحتُ لك أنواع الثَّراء فأخبِرْني عن ثراء صاحبك مِن أيِّ نوع هو ؟

قال الزائر: أنا لا أفهم ما تقول، كُلُّ ما أعرفه أنَّ صاحبي رجل غني.
وهو الذي أرسلَني إلى الجريدة لتُخبِر الناس أنّه مسافر إلى الوطن وأنّه ذو شأن عَظيم، وذلك لكي يحمل الجريدة معه ويستعين بها على تعريف نفسه إلى النّاس هناك. فالنّاس تخدعهم الكلمة المكتوبة...

قال المحرّر: وهل صاحبك مشترك في الجريدة؟

قال الزائر: إنّه غير مشترك في أيّة جريدة.

قال المحرّر: ولماذا هو غير مشترك في جريدة؟ ألم تَقُل لي إنّه غنيٌّ كبير؟

قال الزائر: أجل! إنّه غني، ولكنه يجهل القراءَة والكتابة...

قال المحرّر: لعَلّه يجهل اللُّغة العربيَّة.

قال الزائر: إنّه يَجْهل اللُّغة العربيَّة والإنْكليزيَّة والفرنسويَّة وكُلّ لُغَة في العالم!...

ليس للفِكْرة مَذْهَب

عندما يأتيك رجل بتحفَة صناعيَّة جميلَة أو بحَجرٍ كريم مِنَ الجواهر الثمينَة، أو بصورةٍ رائعَة أفتقُول له: ما هُوَ مذهب هذه التُّحْفَة، وهذا الحجر الكريم وهذه الصورة النفيسَة البديعَة؟ أم تُراكَ تنكر قيمَة التحفَة وتميل بوجهِك عن الجوهرَة وكذلك عن الصُّورة لأنَّها لا سِمَة لمذهب عليها، أم تُراكَ تستهجنها وتستقبحُها لأنَّ الذي صَنَعها أو الذي جاء بها إليك لم يولد في المذهب الذي وُلِدْتَ أنت فيه؟!

إنَّك لا تفعل شيئاً مِن هذا لأنَّك إنسان عاقل مُدْرك تَفْهم أنَّ الفنَّ

كالعِلْم لا دينَ له، وهو لا دين له؛ لأنّه صُورة الحياة. فكيف يكون لصورة القمر في الليل مذهب وليس للقمر نفسه مذهب؟ ومثل صورة القمر صورة أيّ شيءٍ آخر.

ولا شكَّ في أنّكَ تستنكر أنْ يفعل إِنسان ما لا تفعلَه أنت في هذا المَقام، وتعُدُّه من الحَمْقَى والمغفّلين الذين طمسَ الجهل على قلوبِهِم وأبصارهم فصارُوا في مَرْتبَةٍ لا هي إِنسانيَّة راقيَة ولا حيوانيَّة سافلَة.

إِنّك لا تُقدِّرَ قَدْر الجواهر والمعادن الكريمَة مثل الألماس والذّهب والفضة وغيرها، ولا يغضُّ مِن منزلتها عندك أنّها ولِدَت في باطِنِ الأرض بين الأوحال والدّيدان.

لذلك لا يجدرُ بك ولا نحسبُكَ تُسوِّغ لنفسِك احتقار الفكرة الجميلَة لُمجَرَّد أنّها وُلِدَتْ في كوخ حقير أو جاءَت مِن إِنسان غير غني وغير جميل ولا قوي.

وأقبح مِن هذا أن تحتقرَ هذه الفكرة الجميلة ولا تتبنَّاها، وذلك لأنْ الذي يؤدِّيها إِليك ليس مِن مذهبِك أو طائفتك، فإِنّك بذلك تسُدُّ على ذاتِك الطريق إِلى المعرفَة وتضرِبُ حول عقلك وروحك نطاقاً دونَه الفَولاذ في صلابتِه وسُمْكه. وتكونَ أشبه بدودة القزّ التي تحوك أكفانها بذاتِها...

فاُذكر هذا الأمر وسواهُ من الأُمور المشابهة له.. واُذكر معه أنّك أنتَ قد يكون لديك فكرة جميلة تريد أن تؤدِّيها، فإِذا نظر الناس إِليك وإِليها على طريقتِك فكيف تنتشر فكرتك أيضاً معه وكيف يتاح لك أن تؤدِّيها؟!

أحْبِبِ الفكرة الجميلة كما تحب الزهرة الفوّاحَة المتألّقَة. وكما تحبُّ الشجرة في أوراقها الخَضْراء وأثمارها الشَهِيَّة. وكما تحبّ أيضاً النُجُوم التي تسطع وتلمع في الأُفُق.

خذوا الحكمة مِن أيِّ المصادر جاءت. واطلبُوها في أيِّ مكان وجدَت. وسيروا إليها في كُلّ سبيل تنفتح عليه عيونكم.

وليذكرْ كُلُّ إنسان هذه الحقيقة، وهي أنّه لم يختر مكان ولادته ولا مذهبه، ففي هذه الذكرى فوائد جَمَّة للبشريَّة لأنّها تقرّب الإِنسان مِن أخيه الإِنسان. ولا تَتِمُّ فائدة الإِنسان بملءِ إِرادته في هذه الدنيا إِلاّ بِإنسان.

كيف تُطَالِع

إذا كان القول الفرنسويُّ المأثور "مَنْ كَتَبَ فسيكتُب" صحيحاً، فما أَجدَرنا أن نقول: "من قرأ فسوف يقرَأُ" لأنَّ اللّذَّة التي يجدها المرء في المُطالعَة ليست مِنَ اللّذاذات التي تتكرَّر على وَتيرة واحدة ليضجَرَ منها القلب ويزهَد فيها العقل، فأنتَ كُلّما طالَعتَ فكرَة جديدةً حَصَلتَ على لذّة جديدة، وكُلّما قَرأتَ لِكاتبٍ مُفكِّرٍ تعرَّفتَ إلى صديق، ورفيق، وعشير، ومعلِّم.

قالوا: مَن "كتبَ فسيكتُب" ولكن القول لا يصدُق إلاّ في الكُتّاب الذين يَحْمِلُون في قلوبِهم رسالة عُلْوِيَّة إلى المجتمع؛ فهم يكتبون لكي يؤدُّوا هذه الرسالة، بل قُلْ لِكَي يريحوا أَرواحهم ممّا يتلجْلَج فيها مِنَ

الحَنين إلى رؤية الفِكْرة التي في رؤوسهِم صورةً تطالعُها العُيون وتشرُبها الأفهام .

أمَّا الذين لا رسالة عندهم يؤدُّونها إلى زمانِهم وناسِ زمَانهم فهؤلاء لا يَحْسنُ بهم أنْ يكتبوا؛ لأنَّهُم لن يفيدُوا محيطهم شيئاً ولا تكون النتيجة غير قَتل وقتِهم وتضييع أوقات النَّاس في غَيرِ طائِل. وإذا وجدتَ أُناساً ينصرفُون عَن المطالَعة بعدَ إقبالهم عليها، فاْعْلَم أنَّهم ما قَتلَ الشَّوق فيهم إلى المُطالعَة إلاّ وجودُ كُتَّاب بُلدَاء ظهَروا في وَسَط نامَ فيه الكُتَّاب المُفكِّرون أو تأخَّرَ ظُهُورهم !

وإنَّ الكاتب السَّمج[1] البَليد ليَمسَخ[2] أذواق النَّاس إذا هم لم يتَجنَّبوه قبل أنْ تتسرَّب سماجتهُ إلى نُفُوسِهِم وعقولهم .

وإذا أنتَ تتبَّعتَ سير العِلم والأدب وجَدتَ أنَّ أذواق النَّاس في الأدب قد ارتقَت في الزَّمَن الأخير ارتقاءً كبيراً، والسِّر في ذلك هو تكاثُر عدد الكُتَّاب المُفكِّرين ذوي الرِّسالات الواضحَة والفِكَر الجليَّة السَنِيَّة التي يصبُّونها في قوالب مِنَ البَيان رائِعة وخلاَّبَة، تُحبِّب المَطالعة إلى النَّاس حتى الذين هم زُهْدٌ في المطالَعَة.

وإذا أردت أن تعرِف كيف بلغَ هؤلاء الكُتَّابُ المُفكِّرون مَنزلَتهم العالية في خَلْقِ الفكْرِ وابتدَاع الصُّوَر، وكيف مَلَكوا ناصيَة البَيان، ووضعوا أوابد[3] اللُّغة وصَفَت أرواحهم ورقَّت أساليبهم، فاْعْلَم أنْ لذلك سَبَباً واحداً وَهوَ: المطالعة!

---

(1) السَّمج: سَمُج قَبحَ.

(2) مَسَخ: المَسْخ تحويل صورة إلى ما هو أقبح منها.

(3) أوابد: الأوابد الشَّوارد أي الغريب منها.

وليست المطالعة أن تقرأ كُلَّ أسود في أبيض، فهذا النَّوْع مِنَ المطالعة يُضِرّ أكثر مما يُفيد.

وأحْسِن اختيار الجريدة التي تطالعها، وعليك عندما تأخذ في المطالعة أنْ تُهيِّئَ لها ذِهْنَك فلا تقرأ وأنْتَ مَشْغولٌ بأمرٍ آخَرَ، ولا تَخَف أن تجادل الكاتب الذي تقرأ له شيئاً، وبكلمَةٍ أُخرى جَرِّب أنْ تقولَ في نَفْسِكَ: لماذا يجب أن يكون الأمر كما قال هذا الكاتِب ولا يجب أنْ يكون على خلاف ما يقول؟

ثم قابِلْ بين الوَجْهَين وكُنْ عندما تَحْكُم للكَاتب أو عليه عادلاً مُنْصِفاً في حُكْمِكَ، لأنَّك إنْ ظَلَمته أسأتَ إلى نَفْسِكَ وَرَسَخَ في ذهنِك اعتقادٌ مغلوطٌ يجب أنْ يُصَحَّح، وفكرة عَوجاء يجب أنْ تُقَوَّم.

إنَّ الإنسان الذي يطالِع هو الذي يستفيد أكثر من سِواه. إنَّما المطالِع الذي يُمَحِّص[1] ما يقرأ يستفيد ويُفيد سواه، فكُن هذا المُطالِع المُمَحِّص أيُّها القارئُ، واعْلَم أنَّه إذا كان مِنَ المُهم أنْ يُطالِع المرءُ فإنَّ الأهمَّ مِنهُ هو كيف يُطالِع ولماذا يُطالِع ؟

التَّصَلُّب في الرَّأْي

لكُلِّ مسأَلة وَجْهان: وليس هذا أَنَّ المسائل كبعض النَّاس تتقلَّب وتَلْبَس اليوم وجهاً وغداً وَجْهاً آخر. بل تعني أَنَّ ما تجهله أنتَ قد يعرفه غيرك، وأَنَّ ما لا تراه أَنتَ قد يراه سِواك، وأَنَّ المسائل مِن كُلِّ نوع تَتَسَهَّل وتتصعَّب على مقدار ما نعلم

---

(1) مَحَّصَ: اختَبَرَ ونقَّى من الشَّوائب.

ونجهل، فإذا علمنا كثيراً هانت كثيراً، وإذا لم نعلم فكل شيء صَعْب وكل شيء مُخيف، ونحن نَحْمَد الأشياء والأشخاص على نِسبة ما ينالنا مِنَ النَّفْع والضَّرَر. إنَّما النَّفع الذي ينالك وفيه ضَرَرٌ لغيرك هو نَفعٌ مَذْمُومٌ، بعكس الضَّرَر الذي يُصيبك في سَبيل الغَير وفي وُسْعِك أن تتوقاه؛ فإنَّه التَّضحيَة التي يَحْمَدُها كُلّ النَّاس.

فتِّشْ عن المرأة

مِنْ أشهر الأمثال عند الفرنسويين قولهم "فتش عن المرأة". وهو قول اشتهر وشاع ورَدَّدَته الألسنَة والأقلام، ولا تزال تُردِّدهُ كُلّما وَقَعَت جريمة أو انْقلَبَ مَلك عن عَرْشٍ أو تَدَحرَجَ مِن قمَّة الشُّهْرة زَعيم.

وسبب اشْتهار هذا المَثَل في فرنسا هو ما كان للمرأة في أيام المُلوك والأشراف مِنْ التأثير في البلاط والقُصُور. فقد جاء على فرنسا حينٌ مِنَ الدَّهْر كانت فيه مقدرات الأُمَّة الفرنسويَّة يديرها اثنان هما: المرأة والكَاهن؛ فالمرأة بما لها مِنَ الدَّهاء، وَالكاهن بما له مِنَ السُّلْطان.

إِنَّما هذا المَثَل الذي يجعل المرأة كالخَمرة مصدَر الوَيْلات والعَثرات والشُّرور، لا يَصْدُق فيها إلاَّ عندما يدمن المرءُ الاعْتكاف عَليها ويُسيء التَّصرّف بها، كما يدمن الاعتكاف على الخمر. فإن العِبْرة ليست في الشَّيء بل في الطريقة التي يستعمله بها الإنسان.

قليل من الخمر يُفرح القَلْب، ولَكِنْ كثرتها تُضْعف القَلب والعَقل معاً. الخمرة في ذاتها غير مُضرَّة، وإنَّما إذا وُجد من يشربها ويُسيءُ شُرْبها حصل الخَطَر، وكانت التَّبِعَة على الإنسان العاقل الذي لم يستطع مع عقله أن يتغلَّب على تلك التي لا تَعْقل. ولا نعني بهذا أنَّ المرأة كالخَمْرة على طول الخَطّ، ولَكِنّنا ضربنا هذا المَثَل لنرفع بعض التَّبعة عن عاتقها في

ما يُعزَى إِليها من الآفات والنّكبات. لماذا يجب أن نلوم المرأة إذا مَدَّ شابٌ عُنُقَه وتمطّى لمشاهدة فتاة جميلة سائرة في الشّارع، فسقط ودَقَّ عُنقه؟ لماذا نُنحي بالمَلام على المرأة إذا خسر رجلٌ غَنِيّ زوجتَه من جرّاء إسرافها وتبذيرها؟ أليس هو مسؤولاً عن المال الذي يخرج من يده؟!

لماذا نعزو إِلَى المرأة كل الشُّرور وننسى الرّجل؛ وهو شريكها في كل ما يقع من الأمور التي نَحْسَبُها شُروراً؟ ولماذا لا نُحصي لها الحسنات مثلما نُحصِي عليها السّيّئات ونضع هذه في كِفّة وتلك في كفّة الميزان الأخرى ليحصل لدينا حُكْمٌ عادلٌ لا حَيْف[1] فيه ولا جَنَف[2]؟

إنّ الذين ينظرون إِلَى المرأة من وراء هذه الزُّجَاجة الحَمْراء لا يَرَوْن إلاّ ناراً محرقةً، ولَكنَّهم إذا رَفَعوا الزُّجاجة الحمراء رأوا النّور المتألّق. ويَحْسُن بهم أن يَرَوْه لأنهم بحاجة إليه. أمّا إذا سقطت الزُّجاجة الحَمْراء وبقيت المرأة التي يَنْظرون إليها لهيباً لاذعاً، فيجب أن يعملوا على الوقاية من هذا اللّهيب وأن يَحصُروا سُخْطَهم بهذا النّوع الشّرِّير مِنَ النِّساء.

طُلاّب الشُّهْرة الجَوْفـــاء

يكاد يكون أَمْراً مقرَّراً عندنا أنّ أكثر النّاس وَلَعاً بالظُّهور هم أقلُّ النّاس أهليَّة للظُّهور. فإنّ الشُّهرة لا تجيء لمجرّد الوُلوع بها والرَّغبة فيها، بل لها شروطها وهي أَنْ يكونَ المرء على شيء مِنَ الأهليَّة وعلى شيءٍ أكثر مِنَ التَّجافِي عن طلب الشُّهْرة؛ لأَنَّ الإِنسان إِذا انْصرف إِلَى

---

(1) الحَيْف: الجَوْر والظُّلم.

(2) الجَنَف: المَيْل والانحياز.

الاستعانة بالوسائل المزيّفة للحصول على الشّهرة أضاع الوقت الثّمين في ما لا طائل تحته، وإذا حصل على شيء من الظهور فإنّه لا يحصل عليه ليُمدَح بل ليُذم! إنّ الوسائل التي تؤدّي إلى الشّهرة كثيرة لا تُعد، ولكنْ أفضلها تلك التي تؤدّي إلى شُهْرة حقيقيّة لا يبوخ لونها عندما تُسلّط عليها نار النّقد، أو تُغلى بماء الامتحان والتّجْربة!

ما أشبه طالبَ الشّهْرة على غير أهليّة بالضّفْدع يتعالى نقيقُها في الماء، فيحسَبُ السّامع إنْ كان لم يُبصر الضّفْدع مِنْ قَبْلُ أنّ صاحب ذاك الصّوت كائنٌ ذو قُوّة واقتدار. فإذا وصل إلى مَصْدره عَجب لذاته كيف انخدَع وكيف غَلطَ في التّقدير؟ على أنّه إذا كان عاقلاً حكيماً لا ينقم على الضّفْدع لِنَقيقها، فهي ليس لها مِن وسيلَةٍ تدُلُّ بها على وجودِها إلاّ هذا النّقيق.

كُلّ امْرِئ ينفقُ مِمّا عنده، وليس للضّفْدَع أنْ تُغَرّد كالكنار، ولا ينبغي للرجل الحكيم أن يَغْضَبَ على الضّفْدع تنقُّ في اللّيل وإنْ أزعجته وأطارَت الكَرى مِنْ جَفْنيه، بل عليه أن يتمثّل بالنّجوم السّابحَة في الفضاء وينصرف إلى التفكير بما ينسيه الضّفْدع ونَقيقها. فلكُلّ بيت بابُه الذي يدخل الناس إليه منه...

صُنْع الفَخّ

أجل! حتى صُنْعُ الفَخّ المُتقَن يَسْتلزم خبْرة ومعرفة وولعاً بصناعة الفِخَاخ. نعرف صديقاً لنا كان من كبار تُجّار السمانة في المدينة، صرف على ممارسته هذه التجارة عَصْرَ شبابه وبَعضَ عَصْرِ كُهولته! وكان موفّق الخُطُوات، غير أنّه مَلّ البقاء بين تَنَكات الزّيت وبراميل الزّيتون، فوَثَبَ من حَوْمة السّمانة إلى حَوْمة تجارة المُطَرّزات المجلوبة من الصّين وماديرا

والفلبين، فما مَرَّ عليه عام وبعض العام حتى أضاع في هذه التِّجارة ما كَسَبَه في تجارة السَّمانة؛ ورجع كجندي جُرِّدَ مِنَ السلاح ومن العَزيمة!
لم يكن الرجل غبيًّا ولا أحْمَق ولكنه زاول تجارة لا خبْرة له بها، فكان كمن يَطْرح نَفْسَه في البحر وهو لا يُحْسن السِّباحة؛ ولكِنَّه توهَّم أنَّه يُحْسنها، ففَشِل وكان في تجارته الأُولى من المُبرِّزين.

لكُلِّ فَنّ أربابه، ولِكُلِّ مهنة ناسُها الذين خُلقوا لها وانصبّوا عليها بأرواحهم وقلوبهم، ووقفوا عليها أعمارهم. فإذا هجم على الفَنّ غيرُ أرْبابه، ساءت حالة الفَنّ وساءت أحوالهم وانتهى أمرهم إلى الخذْلان وربما إلَى الافْتضاح، مع أنهم لو انْصرفوا إلَى ما خُلقوا له من الأَعمال والمِهَن لكان حظّهم من اللّذّة الرُّوحيَّة والنَّجاح على المدى كبيراً وفيراً، ولَكِنّهم طلبوا الشُّهرة في غير بابها فوصلوا إلَى كلّ مِحراب غير محرابها،[1] وصاروا كُلّما قاسوا انكساراتِهم إلَى انْتصارات سواهم نسبوا مَا أصابهم من الفشل إلَى "سوء البَخْت" وما أصاب غيرَهم من نجاح إلَى "حُسْن الحظ".

إنَّ "سوءَ البخت" هو أن يحاول المرء أنْ يطير كالنَّسْر وهو ليس نسراً! وأن يغرِّد كالكنار وهو ليس كناراً! وأن يشعَّ كالألماس وهو زجاج! وأن يَعْجَبَ كيف لا تَكْتحل به العُيون وهو غُبَار!!

(1) المِحْراب: صدر المجلس ومنه محراب المسجد والغرفة.

لا، إنَّ الحياة نواميسُ تأبى أنْ تُبَدِّلها. وليس من نواميسها أن يُغَرِّد إلاّ الكنار وأشباه الكَنار، كما وأنْ ليس من عادات النَّاس أن يكَحّلوا أجفانهم بالغُبار ولا الدُّخان!

قد يتزيّا بالهوى غيرُ أهله، ولَكِنَّ هذا لا يجعلهم أهْله.

إذن فالعِبْرة ليست في أن تُمارس مِهنة أو تزاول فنّاً، بل العِبْرة في أن تُتقن مِهْنتكَ وتجيدَ فنّك، وتكون في الحالتين صادقاً مع نَفْسك ومع النَّاس، مخلصاً لفنّك وللحياة.

بين أَمْسِ وغَد

بعد أيام تَطْوي يدُ الحياة صفحةً في كتاب الدَّهْر لتنشرَ صفحة جديدة. الصفحة الأُولى هي ما نُسَمِّيه "أمس" والصفحة الثانية هي ما ندعوه "غد".

هذا ما اصطَلَح عليه النَّاس.

ولكن هل حقيقة أنَّ في الدَّهر "أَمْسِ وغدٌ" و"قَبْلُ وبَعْدُ"؟!

أَيَّة قَطْرة في ماء النَّهر هي الأُولى؟ وأَيَّة قطرة هي الأخيرة؟

أَيَّة ذرَّة مِن ذرَّات النُّور جاءت قَبْلَ أو بَعْدَ الأُخرى؟

أَيَّة موجة في البحر أَقدمُ فيه مِنَ الأَمواج الباقيَة؟

ولماذا يقيس الإِنسان الفَرد ذاتَهُ بمقياس خاص، وهو في نظر الدَّهر الذي لا حُدود له ولا أَوَّل ولا آخِر - مثلُ الذَّرَّة والموجة والقَطْرة، بل مثل كُلِّ شيء آخَر في الدنيا؟

إذَن ليسَت قيمة الإِنسان ولا قيمة أيِّ شيءٍ بأنَّه جاء مِن قَبْلُ أو جاء مِن بَعْدُ، وإِنَّما قيمته في أنَّه كائنٌ، لوجوده نَفْعٌ وخَيْر.

والمفروض في الإِنسان أنْ يكونَ أكثر نَفْعاً؛ لأنَّه أعقل مِنَ القَطْرة والذَّرَّة والمَوْجة، وله سُلْطان على الماء والهَواء والضِّياء وعلى النَّبات والحَيوان؛ فإذا هو زَلَّ وهَوَى، أو زاغَ وفَسَد، انقلب كُلُّ شيءٍ يسيطرُ عليه مِنْ حَسَنٍ إلى قبيح، ومِن خَيْرٍ إلى شَرّ، ومِن نَفْعٍ إلى ضَرَر.

إذن فالخير في أنْ يستقبلَ الإِنسانُ العامَ الجديدَ وهو عازمٌ في تأكيد على أنْ يكونَ أكثر نفعاً فيه مِمَّا كان في العام الذي انْصرم، وأنْ يعلمَ عِلْم اليقين بأنَّه لا يَسْعد إلاّ إذا فكَّر في أنْ يَنْشُرَ السَّعادة حَوْله، وأنَّه إذا سَلك سَبيل الفَضيلَة والحُبِّ صار أمسه هيجاً وصار غده أبْهَج.

أمَّا السَّالكُ طريق الشَّرِّ، النَّازِعُ إلى الأذى، المُتوغِّل في دُروب الإِثْم، فهذا لا يَسْعد ولا يستريح في أَمْسِه ولا في يومِه ولا في غَدِه. ولا يغرَّنَّك أو يُوْهي إيمانك بعدالة الحياة أنَّ بعض الأَشْرار المَجْبولين بالآثام والخَطايا يعيشُون في يُسْر، وإنَّهم لَهُم القُصور والسَّيَّارات واللَّيالي المُتَرَنِّحَة... إنَّ الزَّيزفُون يُزْهر... ولَكِنَّه لا يُثْمر، وكلَّما طال عُمْر الأثيم كان شقاؤه أعظم وأمَرّ.

فاستقبلِ العام الجديد بإِيمانٍ وطيد بأنَّ الحَياة عادلَة وأنَّ **{مَن يعمل مِثْقال ذَرَّة خيراً يَرَه، ومَن يعملْ مثقالَ ذرَّة شَراً يره}**[1].

فإذا كان لك هذا الإِيمان فكُلُّ يومٍ يُطِلُّ عليكَ تكونُ له رَوْعَة وبهجَةُ رأسِ السنة.

---

(1) سورة الزَّلزالة ٩٩/ ٧ و ٨.

هذه الدنيا لِمَن؟

بينما كنّا نطالع إحدى مَقامات بديع الزّمان الهمذاني استرعى نظرنا البيت التّالي:

كُلُّ مَنْ لاقيــتُ يَشْــكو دَهْرَهُ   ليــت شِعْري! هذه الدُّنيا لِمَنْ؟

لا نعلم إذا كان هذا البيت من مقول بديع الزّمان أم من منقوله، ولَكِنّه على كلّ حال يتضمّن سؤالاً يدُلّ على تَفكير حكيم ونظر بديع في الحياة. فهذه الدُّنيا الجَميلة التي تُطْلِعُ أرضُها الزهر والشّجر، وتجري فيها السَّواقي والأَنْهُر، وتُخرِجُ الذهب والفضة والحديد والفحم وأنواع المعادن، وتُغَنِّي فيها الطُّيور، وتترنَّم الأنسام وتتراكض في فضائها الغيوم بين ضاحكة وباكية، ويَسْكُبُ القمر فِضّته على سُهولها وحُقولها وأوديتها وجبالها، وتَنْسُجُ لها الشَّمْس سرابيلَ من ذَهَب؛ إنّ هذه الدُّنيا يجب أن يكون لها صاحبٌ، ولن يكون صاحبها إلاّ هذا الإنسان المُدْرِك العاقل الذي يَعْرف كيف يَقيس ويوازنُ وكَيف يُمَيِّز بين الأشياء؛ صحيحِها وفاسدِها وقبيحِها وجميلِها.

فهذا الشاعر الذي رأى كل هذه المحاسن في الدنيا لَمَّا سار بين النّاس، سَمع كُلَّ واحدٍ يتذمَّر من الحياة ويتشكّى من الدَّهر فتعجَّب وراح يتساءل: إذن لِمَن هذه الدنيا، وأصحابُها الذين خلقت لهم منصرفون إلَى الشّكوى منها؟

أهي للذِّئاب التي لا تُحْسن غيرَ الوُثوب على النِّعاج والفَتْك بها؟

أهي للصخور التي لا تَعْقِل أم هي للأشجار التي لا تَمْلك لِذاتها ضرّاً ولا نَفْعاً؟

أم هي للحشرات التي تَسْرح في الزّوايا؟ لا، بل هي في نظرنا لهذا الإنسان الشّاكي المُتَضجّر المتذمّر الذي يَحِنُّ إلى السّعادة، ولَكنّه لا يسعى إليها في الطريق الذي يؤدي إليها، بل يسعى في كل طريق لا يؤدّي إليها. فهو مثلاً يتوهّم أنّ في الحصول على المَال بلُوغ أَرَبه[1] فيكُدّ ويَكْدح ويَكيد ويَحْتال، فإذا صار المال في حَوْزته استحوذ عليه القلق وساورته المَخاوف من ضَياعه فعاش كئيباً؛ بينما غيرُه يعيش حَزيناً مُتحسّراً، لأنّه لم يستطع أنْ يحوشَ المالَ الذي يكفيه، والمرعى الذي يطعم به مواشيه، فتنهك قواها أثناء المعارك بالقتال، وفي حالة السلام تغسلُ قلوبَها بالحِقد والبَغْضاء.

ونمت البشرية وارتقت وصارت أُمَماً، وصارت هذه الأُمَم المتحضّرة تستهجن ما كانت عليه القبائل مِن حياة الجَهْل والغباء. ولَكن هذه الأُمم الرّاقية المتحضّرة لا تزال يقاتل بعضها بعضاً على الماء والمَرْعى...

إنّ في الدنيا مُتّسعاً لكلّ مَن عليها من البشر، وفي وُسْع الكُلّ أنْ يعيشوا عليها آمِنين سُعداء، لو تعاونوا، بدلاً من أنْ يَقْتَتلوا كالقبائل الجاهلية على الماء والمرعى.

ليست هذه الدنيا لأحد بِعَينه ولَكنّها لكلّ أحد! فيا ليت البَشَرَ يُدْركون هذه الحَقيقة فيَسْتريحوا ويَسْعدُوا!

---

(1) الأَرَب: الحاجة، والبُغية والأُمنيّة.

مَشْهد فيـــه عِبْرَة

مررْتُ في أيّام الصَّيف بدار صاحبٍ لي في إحدى القُرَى المشهورة بزراعة الدَّوالي، فإذا بنظري يقَع فجأةً عل دالية شاحبَة المنظر مُصفرَّة الأوْراق، فلاحَتْ لعَيني وهي بين الدَّوالي الخضراء النَّديَّة كأنَّها عجوزٌ في سِرْبٍ[1] مِنَ الصَّبَايَا، أو كأنَّها حَسْرةٌ في موكبِ أفراحٍ ومَسَرَّات.

فقلت لصاحبي: ما بال هذه الدَّاليَة؟ إنَها ليسَتْ كبقيَّة الدَّوالي نُضْرة وبشاشةً وخُضْرةً وحَياة!

فأجاب: إنَّها هكذا تلوح ولكنَّها في الواقع أطيب عُروقاً وأشهَى عِنباً مِنْ كُلِّ هذه الدَّوالي!

قلت: أين العنب فيها؟ إنِّي لا أرى غير أغصان جريدة[2] وأوراق متناثِرَة!

قال: إنَّ الحشرَات تفتكُ بها كُلَّما أورَقَت وأطَلَّت منها البَراعم!

قلت: لماذا لا تصونها وتقيها فَتكَ الحشرات فيزولَ من أمام دارك مشهد مِن مشاهد الخَراب والدَّمار، ويكون لكَ الورقُ الأَخْضر النَّديّ والعنبُ النَّاضِجُ الشَّهِي؟

فضحك وقال مُستهتِراً: ومِن أينَ لي الوقـــت لأهتمَّ بهذه الدَّاليَة ولا سيَّمَا في أيـــام الصَّيف؟

فغاظَني جوابه وشعرْتُ كأنَّ الدَّالية سوف تؤنِّبني إذا أنا لم أُؤنِّبه على إهمالِه فقلت له: أليسَ مِنَ العار عليكَ أن تكون شريكاً للحَشرات في

---

(1) السِّرْب: القطيع من الظِّباء والخيل والحمُر والنساء.

(2) جريدة: بلا أوراق. الجريد قضيب النَّخل المجرَّد.

جنايتها؟ أترضَى أنْ تذهبَ هذه الدَّاليَة الجميلَة المفيدَة لتبقَى الحشرات والهَوَام[1]؟

ولكنَّه لم يتأثَّر بما قلت بل استرسَلَ في المُزاح والتَّنكيت فقال: إذا كنتَ مفتوناً بهذه الدَّاليَة فخذها معك وقُمْ عليها حارساً! أمَّا أنا فلا أُبالي أأكَلتْها الحشَرات أم أكلتْها الشياطين!

فرَجَعتُ مِن عندِه وأنا أُفكِّرُ في كثيرٍ مِنَ الأشجار الطَّيِّبة التي يهملها أصحابُها فترعاهَا الحَشرات، فلا تَمُرُّ بِضْعَة أعوام حتى تَصير الأشجار كأنَّها أوتاد مِن خَشَب لا وَرَق فيها ولا لِحاء[2].

ومثلَمَا تدبُّ الحشرات إلى الدَّاليَة أو الشَّجرة أو غَرْسة الوَرْد، ترى الجُهَلاء يدبُّون ألسنتهم وأقلامهم إلى ذوي المآثِر والمحامِد وأهل الفضل والنَّفع، ويتسلَّقُون السمعات العطرة كما تتسلَّق الحشَرات جذوع الشَّجر والأغراس للفتك والتَّدمير. ولكنَّهم لا يُفلحُون إلا إذا تنَاومَ النَّاس وتغافَلُوا كما أهملَ صاحب تلك الدَّاليَة كَسَلاً وإِهمالاً وجَهْلاً بفضل الدَّالية وجمالها ونَفْعها.

يَوْم الإِله الصَّغير

أَمْسكنَا القلم لنكتُبَ كلمةً عن يَوْم الأُمَّهات الذي شرعَ الأميركيُّون يحتَفلُون به منذُ بضع سنَوات، فحَضَرت إِلى الذِّهْن صُوَر

(1) الهَوَام: ما لا يقتُلُ من الحشرات، واحدتُها الهامَّة.

(2) اللِّحاء: قشر الشَّجر.

أناس نعرفهُم هاجروا إلى هذه الدِّيار وهم في مَيْعة الشَّباب الغَضّ، كانَ لهُم أتراب وأصحاب فلمَّا طال زمن البعاد نَسُوهُم.

وكان لهم عُشَراء وأصدقاء فاستحدَثوا من بعدِهِم غَيْرَهم في الأماكن التي نزلُوها. وكانت لهُم رغائب وأشواق فَذَبلَت في أرض الغُرْبَة لتنبتَ في قلوبِهِم أشواقٌ ورغائبُ أُخرى.

وكانَ في أذهانِهِم للجمال والفضيلة صُوَر خياليَّة قريبة مِن الواقِع أو بعيدة. فلَمَّا نزلُوا إلى مُعتَرَك الحياة القاسي تبدَّلَت هذه الصُّوَرُ بتأثير المُحيط أو الأحوال أو انْطَمسَتْ وآنْدَثَرَت.

أجل، إنَّهُم تبدَّلُوا من كل شيء شيئاً آخر حتى اللُّغة واللِّباس والوَطَن، إلاّ أنَّ شيئاً واحداً فيهِم لم يتبدَّلْ وهو حُبُّ الأُم في قلوبِهِم وصورة الأُم في أذهانِهِم، فهي الإِله الصَّغير المَنْظور الذي لا ينساه المَرْءُ إلا إذا استطَاع أنْ ينسى الله ..

فهوَ رَحمَةٌ شاملة ...

وهي رحمة لا حَدَّ لها

هو مَحَبَّةٌ وغُفْران

هو صاحب العيْن التي لا تَنَام

وهي صاحبَة القلب الذي لا يتعَب مِنَ الخفَقَان بالحَنَان والعَطْف والإِشْفاق.

هو الذي تُشرِقُ شَمْسُه على الأخيار والأشرار مِنْ عباده.

وهي التي تغمرُ بحُنُوِّها ومحبَّتها الأخيار والأشرار مِنْ أولادها!

استمِع إلى الفلاسفَة الوُعَّاظ ورجال اللاَّهُوت يُقيمُون الدَّليل على وجُود الله فتَحارَ وتَحارَ وربَّما ضَلَلْت وأنتَ تريد أنْ تَهْتدي ...

ولكنّك إذا نظَرتَ إلى وجهِ أُمّك ضاحكَة أو باكيَةً شعرتَ أنّك تقترب مِنَ الله، بدون أن تمشي خطوة أو تُجْهِدَ عقلك في البحث.

فإنّها الدّليل الذي لا يُدحَض بحُجّة فيلَسوف ولا بكلام سفسطائيٍّ، على أنّ الله موجُود وعلى أنّه رَحْمة ومَحبّة وسَخاء عميم.

ولقد أدركَ الأميركيُّون ما للأُمّ مِنَ الفضْل على الحَياة، وما لها من التّأثير الفعّال في ارْتقاء الإنسان وازْدِهار الحَضارة، فخَصّصُوا لها يَوْماً في السّنة، فأحسَنوا وأجَادوا.

إلاّ أنّ الأمر الواقِع هو أنّ كُلّ يَوْمٍ في الدّهر هو يَوْمُ الأمّ!

لماذا يَسْعد هذا ويَشْقَى ذاك!؟

ما هو السرُّ في كون الرَّجل الفَظّ الخَشِن أقرب إلى السّعادة في حياته مع المرأة مِنَ الرجل الأديب الدَّمث الأخلاق؟

تناول بَعضُ المفكّرين هذا الموضُوع فقالوا، والعُهْدة عليهم في ما قالُوا.

كلّما سَمَا خيال الرجل، وجد الحياة صعبة شاقّة مع أيّة امرأة، لأنّ المرأة أقرب إلى الطبيعة مِنَ الرجل وهي كذلك لأنّها حسّاسَة أكثر منه، وهي لشدّة إحساسها أكثر نزوعاً مِنَ الرجل إلى النِّضال والعراك، حتى إنّها لتجدُ لذّة في الغضب كالتي تجدها في الرِّضَى. وإذا تأمّلتَ وجهها وهي تحدّثُك لَمَحتَ فيه الغبطة سواء كانَت تتحدّث عن شيءٍ تحبّه أمْ تتكلّم عن شيءٍ تكرهه.

أمَّا الرجل فيتكلم إِمَّا ليظهر ذكاءه، وإِمَّا ليستر ضعفَه وعجزه، وإِمَّا ليحفظ لنفسه خط الرَّجعة. وبعبارَة ثانية فهو يقيم مِنَ الحُجَج سُوراً بينَه وبين حقائق الحياة التي تواجهه.

ولكن كَلَام المرأة على خلاف ذلك؛ فهي لا ترمي إِلى التهرُّب مِنَ أمر واقع، ولا إِلى سَتْر عَجز، بل تتكلّم لأَنَّ الكلام شيء ضروري لحياتِها. فهي كالسَّمكة التي تحرك ذنبها وزعانفها لتعوم في البحر وبدون ذلك لا تعوم. وهي عندما تتكلّم تضيف حقيقتها الهائلة إِلَى حقيقة الحياة؛ فالحقيقة وحدها هي التي تَهم النساء.

إِذن كيف يتسنَّى للرجل الذي يخلق الأَوهام ويناضل عنها أَنْ يكون سعيداً مع امرأة تُشاركه المأْوَى والمَطْعم والمَشْرب في صباحه ومسائه؟ كيف يسعد هذا المتخيِّل المُتوَهِّم مع تلك التي يزعجها التَّخيُّل والتَّوهُّم؟

على الرجل أن يجابه الموقف فيعيش معها كفيلسُوف لا يتوقّع جزاء لفضيلته غير اللَّذَّة التي يستمدّها مِنْ هذه الفضيلة ذاتها، ولكن عليه في الوقت نفسه أن يكون يَقظاً كرقيب الطَّقس فكثيراً ما تَكَشَّفُ له وجوه الحياة الغامضة بواسطة هذه المرأة.

ولا شيء يضمن سعادة الرجل مع المرأة أكثر مِن إدراكه الفرق بين ما يُغْضِبه وما يُغْضِبها. فهو يَغْضَب عندما يشعر أنَّه مظلُوم أَو مغبُون، أو مُعتدَى على كرامتِه. إِنَّه يغضب مسترشداً عَقْله، أَمَّا هي فيلُوح أنَّها لا تغضب لكراهَة أو بغض في نفسِها له بل تغضب لحبِّها إِيَّاه. هذا الغريب غير الأَمْر الواقع، فالمرأة لا تسترشد عقلها بل إِحساسها، وما غَضَبُها غير جزء مِنَ التعبير عن محبَّتها.

وإِنَّه لرجل أَحمق ذاك الذي يُعْنَى في جدٍّ كثير بما يسمعه من فم المرأة وهي في حالة الانفعال والغضب، ويقيس أقوالها بمقياس العَدْل والحَق؛

فهي في تلك اللحظة لا تتحرَّج مِن أن تقذفَه بأيَّة عِبارة جارِحَة وهي تعرف جَيِّداً أيّ شيء يغيظه ويجرح كبرياءَه. ولكنَّها بعد أنْ تهدأ وترضى تعود إليه قائلَة: أتصدِّق ما قُلتُه؟ اتحسَب أنّي عَنَيْتُهُ!؟ وفي الحقيقة إنّها لا تَعْني شيئاً...

كُنْ مُسْتَقيماً صادقاً – حكايةٌ ذاتُ مَغْزى

زعمُوا أنَّ الفَاقة عَضَّت بنابِها رجلاً معروفاً بين النَّاس بصدْقه واستقامَته وتَقْواه وتديُّنه، فقصد إلى رجلٍ مُوْسر مشهُور في البلدة ليسأَله أن يُقْرِضَه مبلغاً مِنَ المال يُفَرِّجُ به كُربته، فقال له الموسِرُ: أنت رجلٌ فقير لا تملكُ حقلاً ولا داراً وليس عندك شجرة ولا مَدَرة، وأيَّ رَهْن يمكنك أنْ تدعَ عندي لقاء المبلغ الذي ستستدينُه منِّي؟

وكان الرجل الفقير – لتقوَاه – قد أطلق لحيتَه وكانَت اللحيَة في ذلك العهد لها كرامتها وجلالها يحلفُ بها صاحبها كأنَّها أثرٌ مقدَّسٌ أو حَرَمٌ شريف، ويرى مِنَ الجنايَة أن يرعَى فيها المقص أو تطالها الموسى. فمدَّ يدَه إلى لحيته وانتزعَ منها شعرة ودفعَها إلى المُوْسِر قائلا: إنِّي أترك هذه لدَيكَ رَهْناً...

ولم يكن الموسر المرابي ممَّن يجازفُون في إدانَة أموالهم، فالمُوْسرُون المُرابُون في كُلِّ زمان نمط واحد، لا يترك أحدهم السَّاق إلاّ مُمْسكاً ساقاً بل عُنُقاً. غير أنَّه في هذه المَرَّة جازف إذ أَدانَ الرَّجل أَلفَ درهم ولم يأخذْ ضَمَاناً لمالِه غير تلك الشَّعْرَةِ التي لا تسوى غير شَعْرة!

وذهب الرَّجل فأنشأ حانوتاً وملأ بيته قُوتاً، وكان له جار ذو لِحْيَة مثله ولكنّه غيرُ متديّن ولا معرُوف بين الناس بالصِّدق والاستقامَة بل المعرُوف عنه أنّه مقامر. فسأل: مِن أينَ حصلتَ على المال الذي تتّجرُ به؟ فأخبرَه أنّه استدَان ألف دِرْهم مِن المُوْسِر المعرُوف في البَلَد.

قال: وكيف أدانَكَ ذلك المبلغ وأنت لا تَمْلِكُ عَقاراً وليس لك مَتْجر، وهو مشهُور أنّه لا يعطي درهماً إلاّ إذا ارتَهن ديناراً؟

فأخبرَه أنّه رَهنَ عنده شَعْرة مِن لِحْيَته! فتعجَّبَ مِن حديثِه وجعل يروز لحيته الطويلة الكثيفَة بيده ويقول في نَفْسه: إذا كان جاري قد حصل على مبلغ كبير لقاءَ شَعْرة واحدة مِن لِحْيَته المُشوشَّة الباهتَة، فلا رَيْبَ أنّي ببضع شَعْرات من لحيَتي أحصلُ على كُلِّ مال ذلك المُوْسر! إنّه لا محالَة قد أصابَه خَبالٌ[1]... ومجنُون كهذا لا يجب أن يبقَى في حوزته شيءٌ مِنَ المال... وما عَتَم[2] أن قصدَ إلى ذلك المُوْسر مُسْرعاً وأخبره أنّه بحاجة إلَى ألف درهم، وأنّه مستعدٌّ للوفاء بعد شهر أو أَقَلَّ مِن شهر فهوَ يملك داراً وله حقُول ومزارع وعمًّا قريب يَرثُ ثَرْوة كبيرةً. فأصغى إليه الموسر ملياً ثم قال له: إنّي لا أدِين إلاّ برهن، فما الذي يمكنُكَ أن تَرْهَنَه عندي لقاء الألف درهم؟ فأسرع المقامر وقبض على لحيته بملء أصابعه وانتزع منها خُصْلة وقدَّمها إليه قائلا: هذه رهينتي!...

فضحك الموسر وقال: لا يا صاحبي لا يمكنني أن أُقرِضَك فَلْساً واحداً.

قال المقامر: لماذا؟ وأنت قد أقرضتَ جاري مبلغاً كبيراً ولم يَـرْهَن عندك غير شَعْرة واحدة!...

(1) الخَبَال: الجُنون. فسادُ الأفعال

(2) وما عتم: ما أبْطأ، أو أمتنع عن الشيءِ.

قال الموسر وهو يُقهقه: إنّي أدنتُه ألف درهم لقاء شعرة واحدة، أما أنت فلا أُدَيّنك درهماً واحداً لقاء ألف شعرة... لأنّ هذا "الحلش" ليس "حلش" مَن ينوي الدّفع!

هذه حكاية شرقيَّة لها مغزاها البديع وفيها فلسفة عظمى تَصْدُق على الناس في كُلّ عصر ومكان؛ فالمعاملات لا تقوم بمجرّد وجُود المال وحده والعَقار والمِلْك بل يجب أن تكون هناك عُمْلَة غير مطبوعة ولا مَسْكُوكَة[1]، عملة تستند إليها العملَة المطبوعَة المَسْكُوكَة، ألا وهي الثّقة. وهذه لا يَحْصُل عليها المرء بذكائه ومضائه ودهائه وإنّما ينالَها بتلك الشّيمة الجميلَة السَّامِيَة التي لا يَسْمُو إليها شيء إلاّ الحُبّ... وهي الاستقامَة. فإنّك إذا قلت: رجل مستقيم، فكأنّك قلتَ رجل: صادق مُخْلص وفيّ نزيه ومُنْصف. وإذا اجتمعَت هذه الصّفات في رجل فهو الذي يأتمنُه النَّاس على أموالِهِم وأسرارهم ومحارمهم. ورجل مثل هذا هيهَات أنْ يكونَ غير ناجح في أعماله، وإذا لم يكن ناجحاً على القدر الذي يجب أن يكونَ له فهيهَات أنْ يكونَ غيرَ سعيد في حياته.

ليس كل مَن رَوَّجَ تجارة أو رَبحَ ثروة بسعيد، وكثيرُون ممَّن لا مَتاجرَ لهم ولا ثراء منَ السُّعداء. ولا نعني أنّ السَّعادة لا تُصاحب الثروة، بل الذي نريدُ أنْ نقولَه إنّ الثروة المكسوبَة بالخِدَاع لا يمكن أنْ يكونَ للسعادَة فيها أثر.

كم عَرَفتَ أيّها القارئُ أناساً مِن أهل المُجازفَة والمُضاربة ظهرُوا على مَسْرح الحَياة كواكبَ تَتَألّق فخلتهم دَهَاقنَة[2] نوابغ، ولكنّهم لم

(1) مَسْكوك: وسِكّة الدّراهم هي المنقوشة.

(2) الدّهْقان: رئيس المُقَاطَعة أو رئيس الإقليم.

يلبثوا إلاّ قليلاً ثم اختفوا كلَمْح البَصَر حتى كأنّما كنتَ تراهم في الحُلُم لا اليقظة.

إنّ شجرة التمويه والخداع كشجر الزَّيزفُون يُزْهر ولا يُثمر...

وكُلُّ مَن يخالفَ نواميس الحياة لا مَناص له مِنَ السُّقُوط عاجلاً أو آجِلاً.

كيف يموت الإِنسان وهو حَيٌّ

ليس مَن مات ودُفِنَ في التراب هو وحدَه الميِّت، فالتُّراب لا يغيب تحته إلاّ الهَياكل، ولا يُبَدِّل إلاّ الصُّوَر! أمّا الشَّخصيَّات الجديرَة بالبقاء والتي فيها أشياء أسمى مِنَ التُّراب فإنَّها لا تغيب، بل تَبْقى وتنمو وتنتشر وتزدادُ مع الأيام لَمَعاناً وإِشْراقاً.

الأنبياء لم يموتُوا.

الشعراء لم يبيدُوا.

الأبطال لم يَنْدثِرُوا.

الفلاسفَة ما برحُوا خالدين.

الفنانون لهم في كُلِّ عَصْرٍ ولادةٌ جديدة.

رجال العلم أحياء بما تركُوا مِن آثار مفيدَة وأعمال مجيدَة.

"ذِكْر الفتى عمره الثاني" كما قال أبو الطَّيِّب. ولكن بعض الناس يَخْمُل ذكرهم ويَنْطَوي أمرهم وهم أحياء يُرْزَقُون. وشرُّ أنواع الموت أن ينطوي ذكرُ الإِنسان وعيناه مفتوحتَان وأُذنَاه تَسْمَعَان ورجلاه تمشيان على التراب.

عرفتَ أيّها القارئُ كيف يحيَا الإنسان بعد موته بالأثر الطيِّب، بالفكرة الخالدَة، بالقُدْوَة الصَّالحَة. أمَّا كيف يموت وهو حيٌّ يُرْزَق ويأكُل ويشرب فذلك لأنّه رضي مِن دُنياه كُلها بأن يأكل ويشرب!

إذا كان الإنسان يجاهد في سبيل مبدأ سامٍ ثمّ انقلبَ على نفسه وتخلّى عن مبدأه مِن أجل مال أو وظيفَة أو لذّة زائِلَة، فذلك رجل قد ألقى نَفْسَهُ في وادي الموت قبل أن يَغْمُرَه ظلامُ الموت.

وإذا اشتهرَ الإنسان بالإستقامَة فوَثِقَ به الناس وائتمنُوه على أمْوالِهم ثمّ وَسْوسَ له شَيْطان الطّمَع أنْ يحتالَ على هَضْمها واهْتِضامَها، فذلك رجلٌ قد مات قبل أنْ يَستوفيَ عُمُرَه.

ورُبَّ رجل كان في جيش لجب مِنَ الأصدقاء، زيَّنت له نفسه الأمّارة بالسُّوْءِ أن يتوهَّمَ أنّه كذلك لأنّه أَسمى منهم مَقاماً وأرفع قَدْراً، أو أنّهم خُلقُوا ليعيشُوا مِن أجلِه، فيذهب لغروره يتكبَّر على هذا ويتنقَّصُ مِن قَدْر ذلك ويشمخ عليهم، ويظلُّ سائراً في غوايته حتى ينفضُّوا مِن حولِه فيُمسي لعزلته وانفراده "كالسَّيف عُرِّي مَتْناهُ مِنَ الحلية".

قد يُعَمَّر هذا الرجل طويلاً ولكن كما تُعمِّر عَوْسَجَة في قَفْر! هو حَيٌّ عند نفسه ولَكِن لا حياة لِلْكَفِّ بلا بَنَان.

ورُبَّ إِنسان كان يحيا في قومِه وأهله حياة شريفَة نقيَّة، استولَى عليه ضَعْف عَقليّ في ساعة من الساعات العَصبية فأَفاق على خيانة شَوْهاء، أو معصيَة شَنْعاء، أو جريمة نَكرَاء، فَسِيق إِلى السِّجن أو عاش بعدها مُحْتقراً منبوذاً كأنّه يعيش في دنياه في سِجْن بل في قَبْر..!

ازرَعْ جميلاً ولو في غير موضعه

هل سمعْتَ قولهم: عملنا طرس بركَة. طلع طِرْس لعنة. وهل خطر في ذهنك أن تتساءل لماذا تصير البَرَكَة أحياناً لعنة؟ وبكلمة موجزة: لماذا يتحوَّل الخير إلى شرّ؟

إنَّ كثيرين يردِّدون هذا المثل المشهور كما يردِّدون غيره مِنَ الأمثال، بدون أن يجهدوا أنفسهم في التَّعليل والتَّحليل للاهتداء إلى السبب في انقلاب البَرَكَة إلى لعنة.

إنَّ نقطة الحبر السَّوداء يجري بها قلم على الطِّرْسِ في رسالة إلى صديق أو مقالة لطيفة أو حكاية ظريفة، بَرَكَة تُحمَد وتُشكَر وتُحَب. ولكن هذه النقطة ذاتها إذا وقَعَت على ثوبٍ أبيض شوَّهَتْه فصارَت لَعْنَة.

والشمعة التي يُستضَاء بها في اللَّيل تظلُّ بَرَكَة حتى يَغْفُلَ عنها موقدها أو يَعْبَثَ بها طفل فيُدنيها مِن ستارة النافذة أو مِن جريدة أو ورقــة، فإذا الشمعة تُحدثُ حريقاً فتصير نِقْمَة بعد أن كانَت نعمة.

وهكذا كُلُّ شيء آخر، إذا أُسِيء استعماله أو إذا وُضِع في غير موضعه..

يحدُث أحياناً أن تسديَ جميلاً إلى شخصٍ فضولِيّ أو مُحتاج أو غريب الدار. فيقابلُك على جميلك بالعقُوق أو الجحُود بل رُبَّما جازاك على إحسانك إليه إساءة. فتعْجَبُ منه في قرارَةِ نفسِك وترجع عليها باللَّوم لأنَّك أحسنت!

لا يا صاحبي. إنَّ الخاسر هو أنت. ومهما يكن من سوء فعله وقبيح

سلوكه فإنّ جميلك يظلّ جميلاً ويجب أن تظلّ أنت تعتقد أنّك فعلت أمراً حسناً.

ولا رَيْب في أنّ ما لقيته من ذلك الجاحد العاقّ يهون عليك إذا أنت رجعت إِلَى الطبيعة ورأيت كيف يضيع الغيث في الأرض الصَّخريَّة الشائكة.

إنّ بعض النَّاس كهذه الأرض الصَّخرية، تشرب المطر المُحْيي للأرض الموات من غير أن يظهر له فيها أيُّ أثَر، ولا يبيت فيها له أثر. ولكِنَّنا نرى الغمام يظلّ يزورها ساكباً عليها الماء النَّمير.. كما يسكبه على الحدائق والبساتين!

وأخيراً تذكّر قول الشاعر الحكيم:

إِزْرَع جميلاً ولو في غير موضعه فلن يضيع جميل أينما زُرِعا

بَيْــــن عـــام وعـــام

ها نحن الآن واقفون بين سنة تغرق في لجَّة الأَبد وسنة تطل علينا من وراء الحجاب، هذا في اصطلاح الفلكيين. أمَّا في غير اصطلاحهم فإِن ملايين الأحلام تضمحل مع آخر ورقة في الروزنامة، وملايين الأحلام تولد مع ولادة الرقم الجديد .

وهذا لا يجري فقط عند انقضاء سنة وبدء سنة أُخرى، بل هو يجري في كل يوم بل كل لحظة. فولادة الأَحلام والرَّغائب لا تقتصر على ذهاب فترة من الدَّهر اسمها السَّنَة، إِنَّها تولد مع مطلع كل شمس بل مع كل تكَّة من تكَّات الساعة. ولَكِنَّنا لا نشعر بها لأَنَّها خافية مستترة عنَّا

استتار الأعشاب والأزهار في جوف الأرض في زمن الخريف، فنحن لا نرى في الشِّتاء البراعم في الأغصان لأنَّها ليست في أديم الشَّجرة بل في عروقها في رحمها كالأجيال التي ستأتي.

ولَكِنَّ الإِنسان لمحدودية بصره وعقله وقوته، يَقْنَعُ بما يقع تحت حواسه. فهو لا يبالي لأنَّه لا يدري كم ذاق الأحياء في كل يوم انقضى من الغصص واللّذات والآلام والمسرات، لأنه لا يحسّ من ذلك شيئاً غير ما ذاقه هو.

بنك فاعور

قالوا: وتقوّلوا كثيراً في مصير هذا البنك! أَمَّا نحن فنطمْئن أَصحاب الودائع، فلن يَضيعَ عليهم شيءٌ، فقد علمنا أَنَّ موجودات هذا البنك، وأَملاكه، تزيد عن المال المطلوب منه.

وإِذا كان لأَحد حَقٌّ بالشَّكوى والتذمّر، فهو صاحب هذه المجلَّة الذي ظَلَّ يتعاطى مع هذا البَنْك مدَّة أَربع سنوات متتاليَة، تحمله على ذلك الثقة بأَصحابه، وهي ثقةٌ لم تتزعزع بالرَّغم من المِحْنة التي أَصابتهم، فقد غَلَّ إِقفال البَنْك أَيْدينا، غير أَنَّنا لم نجزع، ولم نضطرب، ولم نَلُمْ.

فرجاؤنا أن تكون المعلومات التي وصلت إِلينا لا غُبار عليها! فنحن نشير بدورنا على أَصحاب الودائع بالتريّث!

مُذَكّرات أَحْمق!

أوصد بنك فاعور إِخوان أبوابه، أو بالأحرى بابه، على خمسماية ألف دولار، لخمسماية مودع تقريباً، غير أنّي لَمَّا قرأت الإِذاعة الملصقة على الباب، أحسستُ كأنَّ الباب قد أُوْصِد في وجهي وَحدِي دون سائِر النَّاس!؟

رأيت هناك امرأة تبكي وتنادي: "خلّوني شوف الخواجة جــورج".

ورأيت رجلاً شارد النَّظرات، مضعضع الفِكْر، متلبِّد الوجه، كأنَّما بــين ضلوعه زوبعة تَهمّ بالعَصْفِ.

ورأيت جماعة على الرَّصيف يتسارّون ويتهامسون، ترتفع أصواتهم حيناً وتنخفض حِيناً، هذا يقلّب شفتيه استغراباً، وهذا يَهُزُّ رأسه أسفاً، وهذا يَهُزُّ يديه حَنَقاً واستنكاراً، ومن مُتحَدِّث بأشياءَ مضى عهد التحدّث بها، ومن قائِل أشياء لا ينبغي له أن يقولها، ومن متكهِّن بأشياء لا يعرف حقيقتها أحد!

ولكنْ لا صراخ المرأة الباكية، ولا ذهول الرَّجل، ولا هَمْس الهامسين، ولا لَغَط اللاّغطين، استطاع أَنْ يفتح الباب؛ وهو باب وراءَه كُلّ ما أستطيع أن أقول إِنَّه لي! أمَّا الشَّيءُ الذي بقي لي فهو محجوز كما يحجز المسافر الموبوء في أَحد المحاجر الصحيَّة.

شيء مزعجٌ؛ مؤلِّم، محزن، مثير للغضب، ولكِنَّني بدلاً من أَنْ أثور، وأغضب، ضحكتُ ضحكة الظَّافِر المنتصر! لأنّي في الواقع ظافر منتصر،

فأنا أديب عربيٌّ، والأديب العربيّ كما يعلم النّاس أبداً فقير، وأبداً مديون، أمّا الآن فهو دائِن، ودينه ليس في ذِمَّة شاعِر، أو كاتب مثله، بل في ذِمَّة معهد تقدّر ثروته ببضعة ملايين!!

أليس هذا انتصاراً بيّناً؟

بلى!

التوقيع:

" هو "

إلى "مرآة الغرب"
أَو الأَيدي التي وراءَها!

تساءَلت جريدة "مرآة الغرب" في آخِر عَدَد طالعناه من أعدادها: "أيّ دخلٍ لصاحب "السَّمير"[١] إِذا خرجت المرآة[٢] من يَدِ صاحبها، أو لم تخرج؟ وما شأنهُ إِذا تخلّى صاحب "المِرآة" عن ملكيته أم بقيت في حَوْزته"؟

فنحن عندما قلنا إِنَّ "المرآة" خرجت من يَد مؤَسَّسها لم نتحدّث إلاّ بما فعله مؤَسّس "المِرآة"، فإِذا كان هناك مِنْ لَوْم فعلى الفاعل لا على القائِل.

وكانت جريدة "الهُدَى"[٣] الغَرَّاء قد طَرَحت مِثْل هذا السّؤال الاستفهاميّ، ولكنَّها صحَّحته عندما أجبنا على سؤالها رَدّاً لا يدع مجالاً للتَّساؤل، غير أَنَّ "المِرآة" عادتْ بعد أُسْبوعين تردِّد نَفْسَ هذا السُّؤال!

---

(1) صاحب "السَّمير هو أبو ماضي الذي جعل من "السَّمير" لدى إِصدار أوّل عدد منها مجلّة شهرية ثم حولها بعد مدّة إِلى جريدة سياسية أسبوعية ثم يوميّة.

(2) "المِرآة" أي جريدة "مرآة الغرب" لمؤسسها الأستاذ نجيب دياب حَمْو أبي ماضي.

(3) "الهدى" جريدة سياسية كان يصدرها في نيويورك مؤسسها المرحوم نعّوم مكرزل.

في أن نخسر (قال أبو ماضي) بعد سنة أو سنتين أكثر من عشرين بالمئة إذا قيل لأصحاب الودائع اصْبروا مدّة سنة أو سنتين أو ثلاث فلا يخسرون شيئاً، فنقول لهم بدورنا: إنّ حصول كُلّ واحدٍ على ماله منقوصاً عشرين بالمائة في الوقت الحاضر يمكنه من استثماره مُستقبلاً فيربح به أكثر من عشرين بالمائة في مدة سنة أو سنتين.

قال أبو ماضي: هذا رأي صاحب هذه المحلّة (أي السَّمير) يعرضه على أصحاب الودائِع، فليتدبَّرُوه ولا يقبلوا بغيره.

كلمـــة ثانيـــة

قال أبو ماضي: عَجِب القوم الذين قرأوا ما وجَّهته إلينا جريدة "المرآة" من الشّتائِم بلسان صاحبها السَّابق، واندهشوا من تطاولها القبيح علينا بذلك القلم المرفوض المسَخَّر في هذه الأيّام بسبب حزازات[1] لا في صدر حامل هذا القلم بل في الصَّدر القريب من صدره...

واستغربوا كيف رضي ذلك الكاتب أنْ يتعرّى من رِداء الحشمة، ويخلع برقع الحياء في جريدة تنطق اليوم بلسان سيِّدتين أكثر مِمَّا تنطق بأيّ لسانٍ آخَر، وإن كانتا تبسطان عليهما ظلّهما لوقت قصير.

وقد ازداد القوم دهشةً عندما رأوْنا نقابل الإساءَة بالصَّفح والغُفْران، والإجرام بالعفو والإحسان، والافتراء علينا بالرفعة والعطف والسَّماح، حتى كتب إلينا أَحدهم يقول: كيف يمكنكم أنْ تسامحوا رجلاً يَنْهَش سُمْعتكم نَهْشَ الوحش الضَّاري المفترس؟

(1) الحَزازة: وجع في القلب من غيظ ونحوه.

أما، والله، لو وقع مثل هذا لسواكم، وله قَلَمٌ كقلمكم لمزَّقه بسنانه شرَّ مُمَزَّق، أوْ على الأقل لكان تبرّأ منه وتنصَّل!؟

هذا ما قالوه، ونحن لا نستغرب شيئاً مِمَّا جاءوا به، ولكن فاتهم أمر يجدر بنا أن نذكّرهم به، وهو أنّنا لم نَبْنِ صرح سمعتنا بالشتائم بل بالارتفاع عن الشتّامين والسّبابين، للكُلّ أن يتعجّبوا من شراسته وشكاسته ولكن ليس لهم أن يتعجّبوا من ترفّعنا وتسامحنا، فنحن قد نزّهنا "السّمير" عن كُلّ ما يشين وسرنا بها على نور الأدب أربع سنين، وما زلنا سائِرين، ولن تستطيع قوَّةٌ تحت السَّماء أن تحيد بنا وبها عن النَّهج الذي رسمناه لها، فهل نرضى أن تحوّلنا عن خطتنا وتبدل من شيمتنا شتائِم تخرج من صدر قائلها لترتد إِلى وجهه؟

نحن لم نُنْشِئ "السَّمير" لنكاية خصم، ولا للانتقام من عدُوٍّ، فهل نسمح لأنفسنا أن نشهّر على صفحاتها اللاّمعة رجلاً نحن أَوْلى النّاس بسَتر عيوبه؟

وهل يليق بنا أنْ نحصي الزَّلاَّت والهفوات على رَجُلٍ نحن ملزمون بالإِغضاءِ عن هفواته، والتَّجاوز عن خطيئاته؟

وإِذا كان قد جمح به الغضب – وهو أَخو الجنون- فسَبَّنا وشتمنا؛ فهو معذور لأنّه لا يملك قياده، ولا هو يدري ما يصنع، وإِنَّما اللَّوم كلّ اللّوم على الذين حوله، على الذين أنهكوه وسلبوا منه قوَّته ثم اغتنموا فرصة ضعفه فاستولوا على إِرادته حتى صار يصدِّق ما يقولونه له! وينقلونه إِليه! وقد كان نجاحهم في هذا الباب غريباً يدلّ على مهارتهم في التقويم والاستهواء. فهو لا يزال يتوهَّم أنَّ الجريدة له ولأولاده، مع أنَّها خرجت من يده كما خرجت المطبعة ولغير أولاده!

أولئك هم أعداؤه الألدّاء[1] وهم أعداؤنا بل أعداء كُلّ فضيلة ومروّة لأنّهم لا فضيلة لهم ولا مروّة. فلولاهم لَما تعرّى من أصحابه ولا من أملاكه ومقتنياته ولا من عافيته التي كانت من مفاخره!

وما كفاهم كُلّ هذا حتى راحوا يحاولون تعريته من أحاسن أخلاقه، فنحن نسامحه لأنّه غير مسؤول عَمّا يكتب ولا عَمّا يقول، وسيشعر قريباً أنّ الثّوب المستعار لا يدفّئ لابسه.

إنّ بيننا وبينه علاقة مقدَّسة تزول كُلُّ علاقة بالنّاس وتبقى. ولو لم تكن هذه العلاقة موجودة، فنحن لا ننسى وإن نسي هو أنّنا اصْطحبناه مدّة طويلة فلم يحدث بيننا خلاف ولا وقعت بيننا نُفرة، بل ما زلنا وإيّاه كالماء والخمر حتى هفا هفوته ودخلت تلك الأفعى الخبيثة إلى ذلك الفردوس ونفثت سمَّها الزُّعاف، فإذا ذلك الرّجل الفاضل غيره!

ودار به نَفَرٌ ممَّن لا شغل لهم غير دسّ الدَّسائِس، ونقل الوشايات والنّمائم في ذلك الحَيِّ من بروكلن، من متلاعب لا يفلت من قبضة دائن إلاّ وقع في قبضة دائن، ولا يخرج من حبس إلاّ إلى حَبْس، ومن كسول لا ينهض إلاّ لاقتراض المال من هذا وذاك التّاجر، ومن متنطّع منتفِش كالدِّيك، وحوله مَنْ حوله، إلى مُرْتَدٍ للحرير من مال سواه، وإلى راكب سيّارة ليست له، فهو ضائع بين مخادع ومراوغ ودسَّاس ومنافِق، وشرّ أعداء الإنسان بطانة[2] السُّوء!

فهل ننتقم منه وهذه حالته؟

وفضلاً عَمّا تقدَّم، فنحن كُنّا حتى في مناظراتنا مع خصومنا نلزم جانب الرّويّة، ونتسلّح بالحُجج لا بالشّتائِم، فإنّها سلاح العاجزين، فهل

---

(1) الألدّاء: المبالغة في الخصومة.

(2) البِطانة: بِطانة الرّجل أهْلُهُ وخاصّته.

يصحّ أنْ نبدّل أطوارنا، ونخرج عن أخلاقنا مع رجلٍ ما أصابه سَهْمٌ إلاّ وأوْجعنا؟

إنَّنا قد رفِقْنا، وصفَحْنا، وعفُونا ولسنا بنادمين! ولغيرنا أن يؤاخذه على ما أتاه، وجَناه، أمَّا نحن فلا...!

خاتمة سنة

هذا الجزء من "السَّمير" خاتمة سنتها الرَّابعة ولكنه ليس خاتمة الجِهاد الذي نحن فيه، فعلى الإنسان أن يعطي في حياته ما دام قد بقي عنده شيءٌ بإمكانه أن يعطيه، إنْ قولاً وإن فعْلاً!

أربَع سنوات كان النَّاس فيها كأنَّهم محمولون على جَناح عَاصِفة لا يدرون أين سيستقرّون ولا كيف يكون المَصير؟ فقد اضطرب حبلُ الحياةِ الاقتصاديَّة، بل قد تقطَّع فاختَلَّ التَّوازُن في كُلِّ شيء.

أربَع سنوات لم تنفتح فيها المسامع إلاّ على أنباء الكوارث، ولم تقع العيون إلاّ على الدُّموع والجراح، فقد أناخت الأزْمة بكلاكلها[1] على التّجَّار، فسحقت كثيرين، ورزح تحتها كثيرون، ولفحت بناها الزَّارعين، والفلاّحين، فصهرت ثروهم، وأذابتها، فهي في أيديهم وكأنَّها في غير أيديهم، وتوالت الضَّربات على أصحاب رؤوس الأموال، فاضمحلّت أموالهم، وتراكمت فوقهم جبالٌ من الدُّيون، وكان من نتائج هذا الكساد تكاثر عدد البطَّالين حتى امتلأت هم شوارع أميركا، التي كان النَّاس يتوهّمون أنّها مفروشة بالذَّهب، وصار المرء أينما مشى تمتدّ إليه الأيدي المستعطية وتطرق أُذنه هذه العبارة: أنا جَوْعان، وبين هذه الأيدي

(1) الكَلْكَل: الصَّدر.

الممدودَة للاستجداء أيدٍ طالما وزَّعت مِن قَبلُ الصَّدقات، وجادَت بالهبَات، ومن الشفاه التي خرجت منها هذه العبارة الهائلة: أنا جَوْعان، شِفاهٌ كانت إلى عهد قريب لا يَخرُج منها القول إلاّ أمراً ونهياً.

وظهرت في الأسْمال[١] جسوم كان يؤثّر في أديمها[٢] الدّيباج[٣] والخزُّ، وقنع بالحصول على ما يسدّ الرّمَق، ويستبقي الرُّوح في الجسد أُناسٌ كانوا لا يقنَعُون من المَجْد بما دون النُّجوم!

أربع سنوات تضايقت فيها الأرواح حتى كادت تَزْهَق[٤]، بل قُلْ زَهَق فيها الكثيرون غمّاً، ولم يتأذَّ منها التُّجار والصُّناع والزُّراع فقط بل تمادى الأذى حتى وصل إلى مملكة العِلم، فاضطرب نظام الفكر، وتشوَّش سياق السِّياسة، واستولت الحَيْرة على دَهاقنة السياسة والإدارة، فذهبوا في تعليلها مذاهب شتَّى، ووضعوا لمعالجتها ضروباً مختلفة من الأدوية حتى كاد ينشأ في البحث عن الأزمة وأسبابها أزْمة أشدّ منها!

فمن قائِل بتحديد النَّسْل

ومن قائِل بالإقلال من الإنتاج

ومن قائِل بتحطيم الآلات الميكانيكيَّة

ومن داعٍ إلى حرب جديدة

إلى غير ذلك من الآراء والنَّظرات التي زادت حياة الدَّهْماء[٥] تلبُّكاً وأرواحهم بلبالاً!

---

(1) الأسمال: الثياب البالية.

(2) الأدم: الجلد.

(3) الدّيباج: ثوبٌ سَداه ولُحمته حرير.

(4) زَهَقت نفسه خرجت.

(5) الدّهْماء: عامّة النّاس وسوادهم.

بين هذه العواصف والزّوابع كانت "السَّمير" تسير متّئدة رابطة الجأش[1]، جاعلة نصب عينيها إدخال الطُّمأنينة إلى النُّفوس القلقة، بصرف هذه النفوس عن الاستغراق في الهَمّ الذي يشلّ العزائم، ويطفئ مصابيح الرَّجاء، لأنّنا أدركنا أنّ السّعادة لا تخلع على الإنسان كالرِّداء، ولا تُجنَى كالثّمر، ولا تُشرب كالماء، وإنّما هو شعورٌ ينشأ في نَفسِ المَرءِ، لا بقوّة سِحْر بل بقوّة الإنسانِ نَفْسه، فهو الذي يَخْلُق همومه والآمه وحسراته، بما يضعه من المقاييس للسَّعادة ولغيرها؛ فإذا قرَّر مثلاً أنّ السّعادة لا تتِمّ إلاّ بالغِنى فهو يظلّ فريسته، ما دامت الثّروة بعيدة عن يده، ولكنه إذا ارتفع بنفسه فوق هذا المِقياس وأمثاله، قَدَر أنْ يشعر بلذّة السَّعادة، وإن لم يكن من الأغنياء!

ولقد عالجت "السَّمير" قصَّة الأدب العربيّ مراراً فأوجدت يَقْظة جديدة في النّفوس، بدأ يتردَّد صداها اليوم في الأقطار العربيَّة.

فلا نزعُم أنّنا فعلنا كُلَّ المُسْتطاع، ولكنّنا لم ندَّخر جَهْداً في سبيل خِدمة قومِنا ولُغتنا، خدمةً إنْ لم تَظْهر فوائدها اليومَ فستظهر في المستقبل.

وإذا فاتنا أن نَجْنِيَ ثمارها فحَسْبُنا تعزيةً أن تجني أُمَّتنا تلك الثّمار.

إنّنا نودِّع بهذا العدد السَّنة الرّابعة من "السَّمير" ورجاؤنا عظيم بأنّنا نودِّع في الوقت نفسه عهد الزَّفرات والحسرات.

فقد أخذت غيوم الضائقة تنقشع عن الأُفُق وتُطِل علينا تباشير فَجْر جديد وعَصْر سعيد، ونشاط وإيمان بالمستقبل.

إنّنا قد خسرنا في سنوات الأزْمة كثيراً من المال والقوَّة والفرَح، على أنّنا يجدر بنا ونحن نُحْصي خسائرنا أنْ نُحْصي أيضاً أرباحَنا، فهذه الأزمَة

---

(1) الجأش: رُواع القلب إذا اضطرب عند الفَزَع ونَفْس الإنسان ج جُؤوش.

قد علّمت المسرفَ الاقتصادَ، والمتكبّر التّواضع، والمغامر التّؤدَة، والطّائش الحكمة، كما أبانت للأنانيين ضرر الاستئثار والاحتكار، ولأهل الشّراهة والجشع الذين اتّخذوا شعارهم "من بعدي الطّوُفَان" أنّ هذا الشّعَار لا يصلح للبقاء لأنّه كثيراً ما جاء الطّوفان قبل أنْ يذهب هؤلاء الذين لا يهتمّون بغير أنفسهم وملذّاتها.

كلُّنا قد تعلّم في هذه الضّائقة أُمثولَةً. فلا يجب علينا أن نأسف على ما فات، بل يجب علينا أنْ نتّعظ بما أصابنا من شدائد في شتّى هذه الحالات، وأنْ ننظر ونسير دائماً وأبداً إلى الأمام!

أوّل نيسان ١٩٣٣ السّنة الرّابعة

سَمِعْتُ

"سمعتُ" هي الكلمة التي يُفتتَح بها كُلُّ قولٍ مصنوع، وخبَرٍ مُلَفَّق، وحديث مُفْتَرى، يمشي بها في الأرض أحد رجلين: إمّا داعية سوء تغلغل المكر في عروقه مع الدّم، وإمّا رجل مأفون[1] استحكم الاسترخاء في عقله وأخلاقه، فهو يتلقّف كُلَّ قولٍ يطنّ في أُذنيه ويردّده كما يردّد الحاكي نغمة الفرح ونغمة الأسى على حدٍّ سواء!

كم مرّة دخلتَ أيها القارئ إلى بيت، فَلمّا خرجتَ وسُئِلتَ عمّا رأيت فيه، تذكّرت الكثير من الأمتعة والصّوَر والآنية التي رأيتها، ولكنّك لم يخطر في ذهنك أن تتذكّر الباب الذي دخلت منه وخرجت!

---

(1) مأفون: ضعيف العقل والرّأي.

وكلمة "سمعت" وكُلّ حديث مبدوء بها كالباب في البيت، يلتهمها النّسيان كأنّما لم يَجْرِ بها لسان ولا دخلت أُذناً، ويبقى بعدها الحديث المفترى كأنّه أمرٌ وقع فعلاً.

إنّها كعود الثّقاب، يضرم النار الهائلة، فتلتهم المدينة الكبيرة العامرة، وهو شيءٌ لا يكاد يراه الطّرف من مسافة أمتار، وإذا أصبح البلد قاعاً صفصفاً[1] بحثت فلا تجد لعود الثقاب أثراً. إي، والله، لا أحذر الأسد الضّاريّ انطلقَ من عرينه في طلاب الفريسة كما أحذر هذا الذي يأتيني متكلّفاً الابتسام، ويقول لي: سمعت! ولا أتّقي العَدوّ يبرز لقتالي بالحديد والنّار كما أتّقي الرّجل يعرف عَنّي أنّي لا أثِق به، فيقول لي: سمعت..! يتخذها إرْبَته[2] لكي ينجو من التّبعة، ويتفلّت من العُقبى! تقول له: ممّن سمعت هذا الحديث؟ وأين سمعته؟ فيتبرّم لسؤالك ثم يتلّبس الإباء والشّمم، ويتصنّع المروءَة، والخُلق العالي، فإذا أحرجته قال لَك: ليتني ما أخبرتك. ثم يعتذر عن التصريح لكونه لا يحبّ أن يُرْوى الحديث عن لسانه! ويعلم الله وملائكته أنّ ذلك الحديث لم يَدُر به لسان قبل لسانه، ولم تتمثّل صورته في ذهن قبل ذِهنه، وأنّ له في صنعه أرَباً، وله في دَسّه في أُذنكَ لبانة[3]، ولكنه لم يجد سبيلاً إلى قضاء وَطَره[4] سوى هذا السّبيل! وتُقْسِم عليه أنْ يخبرك مَمَّن سمع الحديث، وتَحْلفُ له الإيمان المُغَلّظة[5] أنّك لن تذيع مِمّا يقول لَك شيئاً، فيزداد امتناناً، وتأبّياً، ويبدو الانقباض على

---

(1) الصّفصف: المستوي من الأرض.

(2) الإرْبَة: البُغية والأُمنِيَة والحيلة.

(3) اللّبانة: الحاجة.

(4) الوَطَر: البُغْيَة والحاجة فإذا بلغتها فقد نلت وَطَرك.

(5) أغلظ له في القول عنّفه بشديد الكلام.

وجهه بينما قلبه يرقص ونفسه تضحك، لأنْ سحْرَه سرى في نَفْسكَ وهاج فيها حُبّ الاستطلاع، فتلحّ عليه أن يسمّي لَكَ الشّخص الذي فاه بما نقل إليك، فيتملّص منك قائلاً: كنت أوَدّ أن أُسمّيه لتعرف عدوّك من صديقك، ولتعلم ما في أخلاق النّاس من ضَعْف، ولكنّني أخشى إذا أنا سمّيته لَكَ أنْ تذهب إليه، وتعاتبه، أو أن تحقد عليه وتُناصبهُ[1]!

وهكذا يترك الخَبيثُ الحديثَ المكذوب في نفسك كأنّه لقيطٌ طرحَه شخصٌ مجهول في الظلام على باب مستشفى أو دَرج كنيسة وفرّ.

وتجلس بعد ذهابه إلى نَفْسكَ، تُسَائلها، وتستحضر إلى ذهنك صور أصحابكَ، وجيرانك، وتسيّرها موكباً موكباً، في مضيقٍ من الظُّنون والرّيب، لعلّك تهتدي إلى المُفْتَئت[2] عليك، والمُسيء إليك!

فتَظْلِم كثيرين من أَصدقائك، ويداخلك الرِّيَب[3] من إخلاص إخوانك، ويُوْغِر[4] الوهم صَدْرَكَ على أكثر جيرانك، وقد يتمادى بك الغيظ، فتنقم على النّاس أجمع، حتى تتلاشى كُلّ صورةٍ جميلةٍ في نفسك للصّداقة والجوار، وحتى ينقلب النّاس في نظرك ذئاباً لا ترعى عهداً، ولا تصون وُدّاً، وكثيراً ما هَمَمْت بأن تستطلع الحقيقة من بعض النّاس الذين لم تَتزعْزَع ثقتك بهم، فيمنعك مِن التحرّي والاستقصاء قول النّاقل أنّه يكره أن يُرْوى الحديث عن لسانه، ولا يدور في خَلَدك[5] أبداً[6] أنّ ذلك الخبيث لم يضع هذا الاستدراك إلاّ لِيُلْجِمَ لسانَك، ويكلّ نَفسك، وإذا ما

---

(1) ناصَبَهُ: عاداهُ وقاوَمَهُ.

(2) المفتئت: المختلقُ الباطلَ عليك.

(3) الرِّيَب: الشّك.

(4) أوْغَرَ صدْرَك عليه: أشعلَه غضباً. الوَغْرة شدّة الحرّ.

(5) الخَلَد: البالُ.

(6) أبداً: ظَرْفٌ لنَفْي الزمان الآتي (المضارع).

ذهبت بدَورك تستقصي الأمر الواقِعَ، لم تجد أحداً عنده خَبَر عن ذلك الخَبَر، إلاّ الذي نَقله إليك!

أعرف رجلاً انخرمته كلمة "سَمِعْتُ" في النَّهي منذ سنين ولَكنَّه لا يزال إلى الآن حيّاً يُرْزَق!

تأخَّر هذا الرَّجل مرَّة عن المجيءِ من منزله في بروكلن إلى حانوته في نيويورك عن الموعد المألوف، وكان له جارٌ يَهُشُّ له كُلّما رآه كأنَّه من أوفى أصدقائه؛ فساوره القلق ذات مرَّة بسبب تأخّره ولم يستطع أنْ يكتم هواجسه. فما إن دخل عليه أحدهم حتى أخذ يتظاهر بالإشفاق على جاره، لأنَّ أحواله الماليَّة في اضطراب ومعيشته العائليَّة في تلبّك فقال: ها هو اليوم قد تأخَّر عن المجيءِ إلى حانوته فلا بدّ أن يكون قد طرأ عليه عارض، أو حَلَّ به مكروه، ثم قال بعد ذلك مستطرداً: وعندي إذا لم يكن هذا الرجل مريضاً فلا شَكَّ أنَّه قد طرح نفسه في النَّهْر ليستريح من العذاب الذي يكابده صباح مساء، فقد سمعتُ أنَّه قد أصبح يكره الحياة ويَمْقُتُها.

وكلمة السُّوء لا تُسْرع في الانتشار فقط، بل هي كُلّما انتشرت تحوَّلت في ساعة من شرارة إلى أَتُّون[1]، ومن حصاة إلى جبل، فلم تَنْقَضِ بِضْع ساعات على هذا القول، حتى ذاع في السُّوْق أَنَّ فلاناً قد غرِقَ في النَّهْر.

وأَعْرِف شاباً أديباً كان يتأبَّى الخمر، ويَسْتغربُ كيف يشربها النَّاس ولطَالما سمعته يقول: أيَّة لَذَّة فيها؟ وما ذقتها مرَّة إلاَّ وعلتني قُشَعْريرة[2].

هَبَطَ هذا الشَّاب نيويورك وأقام فيها رَدَحاً من الوقت، كان فيها

(1) والأتّون كتنوّر مَوقِد نارِ الحمّام. وحجارة توقد فيها النّار لتحويل الحجارة كِلساً.
(2) القُشَعْريرة الرِّعْدَة.

مثال العفّة والخُلُق الكريم، مجتمعاً إلى النّاس أو منفرداً، ولكنّ رجلاً عديم الأخلاق ساءه أن يكون ذلك الشّابّ موضع حفاوة النّاس أينما وُجِدُوا، فكان كلّما رأى إنساناً يَعْرِفه قال له: إنّي أحزن على هذا الفتى لأنّه يُطوِّح[٢] بنفسه وبمستقبله، فقد سمعت أنّه يقضي ليله سُكْراً وعَربدةً، ونهاره يقضيه في لعب القمار أو المراهنة. فأخذت هذه الكلمة تنتقل من أذن إلى أُذن، حتى استقرّ في الأذهان أنّ ذلك الشّاب قد أصبح أكثر وَلَعاً بالصّهْباء[٣] من ابن هانئ[٤]، وأشدُّ استهتاراً بالحياة من الرُّومان بعدما أشرف مُلْكهم على الزّوال. كلما عرض ذكر الفتى تصوّروه سائراً في الشّارع مترنّحاً من السُّكر لاطِماً بكَتفه أو بخدّه ذا الجدار أو ذا الجدار! أو تمثلوه جالساً إلى مائدة القِمار يذيب نَفْسه حَسَرات.

لقيته مرّة في الشّارع بعدما شوّهت الأحاديث السائرة صورته، فرأيته على أحْسَن ما يكون من العافِية، والبَشاشة والنّشاط والمَرَح، فتوهّمتُ أنّي أرى إنساناً سواه، لمَا قد كان استقرّ في نفسي عنه الكثير الكثير مِن صُوَر السُّكْر والعَرْبدة[٥]، وكَبُرَ[٦] عَلَيَّ أن أرْوي له شيئاً مِمَّا يقول النّاس عليه، لكنني ما شئت أن أتركه قبل أنْ أتأكّدَ من صِحّة ما يقال ويُشاع عنه.

---

(1) الرَّدَح: المُدّة الطويلة.
(2) طاح طَوْحاً هَلَك وأطاحه أفناه وأذْهَبه.
(3) الصّهباء: الخمر.
(4) ابن هانئ: هو أبو نؤاس، الحسن بن هانئ، الشاعر العبّاسي المشهور شاعر الخمرة بلا منازع.
(5) العربدة: وعَرْبَد السّكران على النّاس آذاهم.
(6) وكَبُرَ عليه الأمر: شَقّ وثَقُل.

فرُحتُ أُحاذبه أطراف الأحاديث، مُتطرِّقاً إلى شريعَة مَنْع المُسْكرات المتّسمة بالحَيْف[1] والإجْحاف[2] على الذين تعوّدوا شُرْبَ الخَمْر مُستغرباً لَهْجَتي وحديثي، فراح يردّد على مَسْمَعي تلك العبارة التي سبق له أنْ أسْمعني من قَبلُ إيّاها أكثر من مرَّة: لا أدري أيّة لَذَّة يجدها النَّاس في الخمر!

فكَلمة "سَمعتُ" هي في نظرنا سيف ذو حَدَّين ومِرآة لها وَجْهان: إنّها تَمْسَخُ الحَقَّ لِيَبْدوَ في صورة الباطل، وربما زخرفت الباطِل وألبسته ثوب الحَقّ!

كم تراءَى إليك أنّ فلاناً من النَّاس مُتخَلّقٌ بأخلاق اللّطف وهو من طبعه الذي لا يتحوَّل ولا يزول، فأحببت ما سَمعت وأنت تظنّ أنّك أحببته؟ فَلمَّا اختبَرته وبَلَوْته[3] وجدته رجلاً فَظّ الطِّباع، غليظ القلب، بذيءَ اللّسان لا خير فيه لأقْرب النَّاس إليه.

فَلمَّا رَجَعْتَ إلى الذين صَوَّروهُ لَكَ مَلاكاً كريماً، وقلت لهم: أخبروني عن السَّبب الذي جعلكم تنعتونه بهذه الصِّفات؟ قالوا لَكَ: لا معرفة لنا بالرَّجل، ولكنَّنا سَمِعنا النَّاس يقولون، فقُلنا كما قالوا!

---

(1) الحَيْف: حاف عليه حَيْفاً جار وظَلَم.

(2) الإجْحاف: أجحف به اشتدّ في الإضرار به.

(3) بلاه: جرّبه واختبره.

وربّما تمحّلوا[1] لأنفسهم الأعذار فقالوا: إنّه كما وَصَفْنا، ولكنّه لأمر ما قد تغيَّرت أطوارُه!

ولم يكن ذلك الرجل في يوم من أيّام حياته غير ما هو عليه الآن، وإنّما كان للرُّواة مآرب ولُبانات[2]، في تشويههم لِصُورَته، فلَمَّا قَضَوْا أوطارَهم[3]، أرجعوه إلى صورته الأُولى المعَبِّرة بوضوح عن حقيقة أمره.

تقول العرب: إنَّ الكريم يَنْخدع ولَكِن الذي ينخدع دائماً لا يُمْكن القول عنه بأنّه كريم لأنَّ المؤْمن لا يُلْدَغ من جُحْرٍ[4] مرَّتين.

وعندنا أنَّ من يصدِّق الأفّاك[5] مرَّة فهو إِنسانٌ فيه شيءٌ من سَذَاجة الطِّفل، وطهارة المَلاك.

فإذا صدَّقه مرَّتين، فهو إِنسانٌ فقط.

أمَّا إذا أَصْغى إِليه السَّمْع، وهو يعلم أنّه أفّاك، فهو شيطان يُصْغي إلى شَيْطان!

أوَّل حزيران ١٩٢٩

(1) مَحَل: وتمحَّل في الشيء احتال في طلبه، وآختلق العُذْرَله.

(2) اللُّبانَة: الحاجة.

(3) الوَطَر: الحاجة، وجمعه أوطار.

(4) الجُحْر: حفرةٌ تأوي إليها الهَوام وصغار الحيوان. المقصود الأذى.

(5) الأفّاك: الكذّاب.

رِواية الحياة

أعْرِف منذ عَهْد بعيد أنّ الدُّنيا مَسْرحٌ، وأنّ الحياة رِواية، ولكنّني كثيراً ما أسْأل نَفسي: أهي رِواية هَزْلِيّة أوْ جِدّيّة!؟

يأتي الإنسان مُكْرَهاً، ويمضي مُكْرهاً، وبين المجيء والذّهاب فترة من الزّمن يقضيها في التجارِب، فلا يفهم شيئاً، ولا يَفْهَمهُ أحَد!

هو في الطُّفولة مَلاك، وفي الصِّبا شَيطان، وفي الرُّجُولة كُلُّ شيء؛ من الحَشَرة فصاعداً.

إذا كان فقيراً فهو كَسول سَيّئُ التّدْبير، لا عَقْلَ له.

وإذا كان غنيّاً فهو ذكيٌّ ولكنّه غير صادق ولا مُستقيم.

إذا لم يشتغل بالسِّياسة، فهو مقصِّر بواجبه نَحْوَ بلاده.

وإذا اشتغل بها، فهو نَفْعِيٌّ أو طالِب مَنْصِب.

وإذا مات شابّاً فَهْوَ لم يتمتّع في الحياة، ولم يَنْفسِح له الوَقْتُ لظُهورِ مواهبه العظيمة.

وإذا عاش حتى صار شيخاً عِتيّاً[1]، فهو عَقَبَةٌ في الطّريق.

إذا ذهب إلى الكَنيسة فهو مُراءٍ[2].

وإذا لم يذهب فهو كافر أو مُسْتَهتِر بالدِّين.

إذا تَصَدَّق أو تبرّع للخير، فهو يَفْعل ذلك للشُّهْرَة.

---

(1) عِتيّ: وعَتا الشّيخ عُتيّاً بالضمّ ويُفْتح كَبِرَ.

(2) المُرائي: راءى قراءات، أراهُ خلافَ ما هو عليه.

وإذا أمسَكَ يَدَهُ عن الإحسان فهو بَخيل.

عندما يجيءُ إلى الدُّنيا فالكُلّ يوَدُّون ضَمَّهُ ولثمهُ، فإذا صار على باب القبْر فالكُلّ يوَدُّون لو لم يُخلَق!

١٥ حزيران ١٩٢٩

لماذا لا تشتري الكُتُبَ؟

خرج جورج سَحْبان[1] مِنَ المدرسة، وهو يتصوَّر أنّ الدُّنيا أضيق من أنْ تتّسع للآمال التي تجول في صدره.

كان يحلُمُ بأنْ يؤلّف كُتُباً تبدّل الأُمّة من أخلاقها أخلاقاً جديدة، لِيَجعلَ رجالها كلهم من نوع السُّوبرمان أو المثل الأعلى، ويَجْعَلَ للمرأة جمالاً دائماً لا يَزول بزوال أيّام الشّباب القصيرة. وكان يحلُمُ أيضاً بأن يضع كُتُباً يصف فيها جمال الحرّيّة والاستقلال بحيث لا يبقى في الأُمّة أحدٌ لا يَصْبُو إلى الحُرّيّة. ولم يكن يَكْبُرُ[2] عليه أن يعتقد أنّ مؤلفاته ستَقضي على كُلّ تَقْليد قديم وعادة موروثة، حتى لا يبقى من المبادِئ الصّحيحة في نظره سوى تلك التي يَبُثّها في النُّفوس.

ولَكِن لم يكد يمرّ على خروجه من المدرسة غير سنة حتى دَفَعَ إلى المطابع كتاباً في "الأخْلاق" ثم كتاباً في "تكوين الأُمم" ثم كتاباً آخَر في "الغاية مِنَ الوُجود".

---

(1) سَحْبان رَجُل من وائل مشهورٌ بفصاحته وبلاغته.
(2) كَبُرَ عليه الأمر شقّ وثَقُل.

ولَمَّا تَمَّ طَبْعُ هذه الكتب، تناولتها الجرائد والمجلاّت بالتَّقريظ[1]، وأفرغت عليها حُللاً من الثّناء والبَديع، مهنّئةً الكاتب بنبوغه المُدْهِش، والأمَّة بهذا الفَرْد الأَوْحَد الذي لا نظير له بينَ كُتَّاب العَالَم.

وكان جورج سَحْبان يقرأ هذه التّقاريظ فيتراءَى له أنَّ يوم انْعتاق الأُمَّة من نفسها على الأبْواب. وأنّ كتابَ حياتها الأوَّل سيُطوى أو يَمْضي، وستقرأُ في كتابٍ جديد، وأنّ التَّاريخ سيكتب اسْمَهُ مع أسْماء المُصْلحين الخالِدين!ومرَّتْ سنةٌ على ظهورِ تلك الكتب القَيِّمة، وتَلَتها أُخرى فأُخرى وجورج سَحْبان يتردّد إلى المكاتب التي التزمت بيع مؤلّفاته، فإذا النُّسَخُ التي بيعت لم تتجاوز المائة، وبعض النُّسَخ ردَّها الذين اشتروْها، وطلبوا كُتباً سواها، لأنَّهم لم يستطيعوا أنْ يفهموا مَغْزاها.

وفي عُصَارَى[2] يومٍ من أيّام الرَّبيع، شوهد جورج سَحْبان جالساً في قهوة عند شاطئ البَحْر، وإلى جانبه صديقه، وكان الاثنان يتحدّثان وهما يَمحّان القَهْوة، وكان راوي هذه الحكاية جالساً على مقربة منِهما، فسمع حَديثَهما كلّه ولكِنْ لم يبق منه في ذهْنه سوى ما يلي:

جورج سَحْبان: عجباً لماذا قومنا يُعْرِضون عن مطالعة الكتب المُفيدة؟ ألعلّ ذلك لأنَّها غالية الثّمن؟

فأجابه صديقه: كَلاّ يا صاحبي، وإنَّما القوم مُنْهمكون بالرَّكْض وراءَ الغِنى ولا وقت لديهم للمُطالَعة؟ ولا يَصِلُ واحدهم إلى الثّروة، ويصيرُ الوقت مُتَّسعاً لديه للمطالعة حتى يكون قد نسي القراءَة، وشَخَّ بَصَره، ولم يعُد في وُسْعه أن يقرأ شيئاً؟!

---

(1) التّقريظ: المديح والثّناء. وقرَّظ الكتاب بيّن محاسنه ومَزاياه.

(2) عُصَارى: العصرُ العَشيّ آخر النهار إلى احمرار الشّمْس.

العَنْكبوت

بَيْنما أنا أمشي في الطّريق، وقعَت قدمي على عَنْكَبوت فسَحقتَها!
مخلوقةٌ هي رأت الشّمس تُشْرق ولم ترها وهي تَغيب.
مخلوقةٌ تُغْرِب[1] في الهندسة فيما يحيّر عقل الإِنسان.
ماذا كان غرضها في الحياة؟ بل ما كان غرض الحياة منها؟
ولماذا عرضت في طريقي في ذلك النّهار؟
كم سَحَقْتُ من الآمال عندما سَحَقْتها؟
وهل العناكب الأُخرى تنتظر الآن أَوْبَتها؟
هل تَحْزَن العناكب على أحبابها كما يحزَن البَشَر؟
وهل تبكي آمالها الضائعة كما تبكي أنْتَ وأنا؟
وهل تعرف وهي تدُبّ أو تتردَّد في الهواء ما هو الضَّحِك؟ ومـا هو البُكاء؟
أمْ أنها تَعيش لِتَزْحَفَ فَقْط ليمُرَّ بها إِنسان فيَسْحَقَها بقدميه!
يا حكماء افْتوني[2]، ماذا يحدث عندما تَموت العَنْكَبوت؟!
نيويورك في ١٥ حزيران ١٩٢٩

---

(1) أغرب جاء بشيء غريب.
(2) أفتاهُ: أفتاه في المسألة: أبان الحُكْم فيها.

الصّحافي

الصّحافيّ كالعاشق، لا يعلم أنّ في العشق هلاكه، ومع ذلك لا يَهْرب من العِشق إلاّ إليه..

فهو عندما ينشئ جريدته يبني لنفسه جِسراً يَعْبُرُ عليه إلى الجُمْهور.

ولكنه يَنسى أنّ النّاس سيعودون إليه على هذا الجِسْر نفسه، فهو لا يَعْرف عن النّاس شيئاً حتى يكونوا عرفوا عنه أشياء، وهو لا يُصْدِر حُكْماً حتى يكونوا قد أصدروا عليه أحْكاماً.

إذا نشر النّوادر والفُكاهات في جريدته، قال النّاس: إنّه مِهْذار[1].

وإذا لم ينشرها قالوا: إنّه عَقيم[2]..

وإذا كتب وألّفَ، قالوا: إنّه مُضْجِر مُمِلّ، وإنّ كتاباتِه على وَتيرةٍ واحدة.

وإذا هو نقل من الجريدة الأُخرى قالوا: إنّه كسول، أو إنّه لا بضاعة عنده!

إذا لَزِم مَكْتبه، قالوا: لماذا لا يخرج لِيَتسقّط[3] الأخبار؟

وإذا خرج لِيَتسقَطّ الأخبار، قالوا: لماذا لا يَلْزَم مَكْتبه، ويَهْتَمّ بأشغاله.

إذا ضحك فهو طائش.

وإذا لم يضحك فهو متكبِّر.

---

(1) المِهْذار: الكثير الكلام بما لا ينبغي.

(2) العَقيم: لا خير فيه، ولا ينفعهُ عقلهُ بشيء.

(3) تسقّط الأخبار: تسقّط الخَبَر أخذه شيئاً بعد شيء.

إذا كانت ثيابه قديمة فهو بخيل.

وإذا كانت جديدة فهو رجل مُسْرِف.

إذا طالب المشترك فهو لا يثق به ولا يحترم مشاعره!

وإذا لم يطالِبْه فهو غير محتاج إلى بَدَل الاشتراك.

إذا انغمس في مناظرة جادَّة، يقول النَّاس: نحن لم نشترك في الجريدة لنقرأ شتائم.

وإذا لم يَنْغَمس، فالجريدة ليس فيها شيءٌ!

إذا نَشَر مقالاً جميلاً، قالوا: الله يَعْلَم مِن أين سَرَقه، وربّما ظنُّوا أنّ هذا المقال مَسْروق!

نيويورك ١٥ حزيران ١٩٢٩

الأَديب المتطيِّر (١)

مررت بالأمس في شارع - ركتر - كما يمرُّ الجَمَلُ مِنْ سَمِّ الخِياط(٢)، فإذا بقدَمَيّ تدفعان بي إلى حانوت الأديب الذي انزوى انزواءَ الغَدير عَرَّش العشب فوقه، وانطمست الطَّريق إليه فصار خَريرُهُ لنفسه، عَنَيْتُ صديقنا الياس عطا الله الذي هجر بضاعة الشَّياطين منذ سنين إلى الأَردية الشفَّافة والبُرودِ المُهَلْهَلَة(٣)، فكان هذا التَّحوُّل ربح،

---

(١) المتطيِّر: المتشائم.

(٢) والمِخيط بوزن المِبْضَع الإِبرَة وكذا الخِياط ومنه قوله تعالى (حتى يَلجَ الجَمَلُ في سَمِّ الخِياط) ٤٠ ك الأَعراف ٧

والخِياط ثُقْب الإِبرَة.

(٣) والمُهَلْهَل بالفتح. ثوبٌ سخيف قليل الغزْل.

وكانت فيه خسارة، ولا تسل عن أيّ جانب، فالحُكْم في هذه القضيّة استلزم حكمة سُليمان، ودهاء لُقمان، وإيمان الماشي على السُّراط[1]، فإنّ الياس مثل كلّ النّاس له خصوم ينكرون عليه كلّ شيءٍ، كما له أصدقاء يعترفون له بكُلّ شيءٍ، أمّا الذين ليسوا مِنْ خصومه ولا أصدقائه، فلا يُنْكرون عليه شيئاً، ولا يعترفون له بشيء!!

كنت إلى أمْسِ من حزب القائلين إنّ الابتسام للرجل كخياله، غير أنّي لم أجد لخيال الياس الضاحك اللّعوب في كتاباته أثراً في قَسَماته[2] وسماته ونظراته، فهو كما بدا لي لا يضحك إلاّ بجُهْد، حتى كأنّما هو يستلّ الابتسام من جوارحي[3] استلالاً، ولكنّي مع ذلك أستطيع أنْ أقول: إنّه لا يضحك!

أكان يتكلّف الدُّعابة من قَبْلُ، أمْ هو يتكلّف الوَقَار[4] اليَوْمَ، أم أنّ التجارة كالصَّدَف نَفْلُقُهُ بالسّيْف فيمحو بريقَه ولَمعانه، وكاللّيل يترل بالرَّوْض فيغيب إشراقه وتخفى ألوانه ولا يبقى إلاّ الشّذا[5] ينشره النّسيم؟

ليس من السَّهْل أنْ يُميطَ[6] أيّ إنسان السّتَّار عن الأسرار التي تموج بها نفس أيّ إنسان، بل هو يَعْجَز عن وصف ما يحسّ به في نفسه، فكيف يتسنّى له أن يصف ما يَتَلَجْلج في ضمير غيره، لذلك أقول: إنّ الذي يتراءى للنّاظر في وجه الياس مِنَ الذي به. أو الوَقَار لا يدرك

---

(1) السُّرَاط: القَطّاعُ من السيوف
(2) القسَمَة: الوَجْه، ما بين الوجنتين والأنف.
(3) الجارحة: العضو العامل من أعضاء الجَسَد كاليَدِ والرِّجْل.
(4) الوَقَار: الحلْم والرَّزانة.
(5) الشّذا: حدّة ذكاء الرّائحة.
(6) أمَاطه: نَحّاه جانباً.

كُنْهَهُ[1] غير شخص واحد هو الياس نَفْسُه.

ولكن الياس لا يتكلّم، وربّما كان في تصرّفه هذا الخيرُ كلّه لـه ولنا!!

وهو لا يتحدّث ليسمعَ نَفْسه كبعض النّاس، بل يختزل الكلام اختزالاً. فيه براءَة غير مصنوعة ولا مجلوبة ولعلّ هذه الشيمة هي التي حبَّبت إليه تجارة الفساطين التي اختزلتها الموضة طولاً وعَرْضاً، واختزلتها من كلّ ناحية فصيَّرتها رقيقة ضعيفة حتى لتُذيبها الأنفاس وتُجعِّدُها النَّظَرات!

وكان من حُسْن حَظّي أنّ الحانُوتَ لم يكن فيه ثالث ولا ثالثة، فتفضَّل إلياس ونَفحَني بابتسامة قلّ الذين ظفروا بها! فإنّ ابتساماته أصبحت أعزّ وأَنْدَر من وِسَام رَبْطة السَّاق الذي لم ينله في المملكة البريطانيَّة غيرُ أفراد مَعْدودين من العُظماء!

ثم تلطَّف فحدَّثني، وعَرَفْتُ من حديثه أنّه يقرأ مجلّة "السَّمير" من الدَّفّة إلى الدَّفّة، وأنّ له في "السَّمير" رأياً جميلاً، ولكنه بالرَّغم من وَلَعه بها ورأيه الجميل فيها، لم يستحسن وضع حكاية "القاتلان" في صدر الجزء الثالث من المجلّة لأنّ في هذه الحكاية صورة قاتمة مُحْزِنة، وكان الأحْرَى في نظره أنْ تَحُلّ في وَسط الجزء أو في آخِرِه، وأن تَحُلّ مكانها حكاية أُخرى فيها صورة ضاحكة راقصة تنبسط لها الأسارير[2] وتتبخّر على نيرانها الهموم!

عَبثاً حاولت أنْ أُقنعه بأنّ النّاس تلذّ لهم رؤية الحزين على ما فيه من المشاهد الكئيبة والألوان القاتمة، وأنّهم يجدون طرباً خفيّاً وهم

---

(1) الكُنْه: حقيقة الشيء وجَوهرُه.
(2) الأسارير: خطوطُ الوَجْه، تنبسط كناية عن الراحة والفرح.

يُصغُون إلى الرِّياح تُعْوِل وتُوَلوِلُ حول البيوت في ليالي الشتاء الباردة!

وزدت على ذلك أنّي دَلَلْتُ على صحّة زعمي أنّ المرء يجد في بعض الأحيان في البكاء راحة وشفاء، وأنّ كثيرين من النّاس لا تحـرّك مشاعرهم الطُّبول والدُّفُوف والمَزامير، ولكنّها تطير طيراناً لمشهد وَجيع أو حكاية فاجعة..

ولكنّني كنت أدور في ناحية وصديقي يبتعد بفكره عـن تلـك الناحية! فهو اليوم لا يُهمُّه كيف يرى النّاس الأشياء، وإنّما الذي يُهِمُّهُ كيف يراها هو؟ وهو لا يحبّ إلاّ كُلّ ما فيه زَهْو[1] وابتسام، ويُعْـرِض عن كُلّ ما فيه كآبة وانْقباض، حتى إنّه يكره النّظـر إلى السّماء إذا كانت غائمة! ولاح لي أنّه ممّن يتطيّرون، ويتخيّلون المكـروه كبيراً وهائلاً وذلك قبل وقوعه، فيُعَكِّرون على أنفسهم الحياة كمـا تُعَكِّـر الأحلام المُزْعِجة عليه صَفْو راحته؛ فينهض في الصَّباح مترعجاً مُضْطرباً؛ وكأنّه لم يَنَم ساعةً وقد يكون نام اللّيلَ كُلَّه!.

حسنٌ أن يتحاشى المرء ما يُفْقده ابْتسامَته، لو كان إلياس قد جاوز الحَدَّ في هذا النوع من التجنّب والحذر، حتى إنّه ليتخطّى الشّارع الذي يسير فيه إلى شارع آخر إذا عرف أنّه سيمرّ بحانوت دنّان[2].. ولا يزور بيتاً فيه مريض ولو كان المريض من أعَزّ أصدقائه، وقـد انقطـع عـن مطالعة الجرائد لأنّها تَنْشُر إلى جانب أنباء الولادة أنباء الموت.

وأرْوعُ ما يروّعُه تلك الخطوط السوداء ولا سيّما صورة الملاك الذي يقف مُطْرِقاً واجماً فوق كُلّ بَلِيّة:

---

(1) الزَّهْو والزُّهُوّ: الفخر والمنظر الحسَن.

(2) الدنّان: صانعُ الدِّنان، والدَّنُّ وِعاءٌ ضخمٌ للخمر أو نحوها.

"وقوفَ شحيحٍ ضاع في التُّرْب خاتمهُ"

وأخيراً قال لي: إنّ النَّاس يحبّون أنْ يضحكوا..

قالها بلهجة كُلّها إيمان فلم أشكّ بعدها بأنّ لفظة "أنا" في اليـاس هي كُلّ النَّاس، ثم رأيته واجماً فخرجت من حضرته وأنا أتكلّف الوَقار.

كَنْـزُ الحَيـاة

أقبلتِ الحياةُ على الشَّباب في يوم ضاحٍ[١] ضاحك حاملـةً في يـديها كنزاً، وقالت له:

أيّها الشَّباب، هذا تاج السَّعادة، وجوهر الوُجود، وسرّ النَّعيم مـا دام في حَوْزتكَ فأنت الغنيّ المَحْسُود، فإذا زال فأنت البائس المنكود.

فأبرقت أسارير الشَّباب، ولمعت عيناه طَرَباً وشَوْقاً، ومـدّ يديـه النَّاعمتين بلَهْفة، وتناول الكَنْزَ، قائلاً:

- أيتها الحياة - ما هذا الكَنْزُ؟ ما هذه الجوهرة الثمينة؟

قالت الحياة: إنّه الحُبّ.. إنّه أثمن الكنوز، فحَـذارِ[٢] أنْ تنفقـه عَبَثًا! ثم افترقا.

فلم يعمل الشَّباب بنصيحة الحياة الواهبة، بل جعل يُنْفـق الكـتر النَّفيس في كُلّ طريق، يستغويه كُلُّ بريق.

وتستهويه كُلّ طلعة، وتفتنه كُلّ ابتسامة.

لم يُحِسّ بأنّ الكتر الذي في يديه ذو قيمة، بل لم يكن شيءٌ عنده

---

(١) ضاحٍ: أبيَضُ، شمسُه مكشوفة، ولا غَيْمَ في لَيْلَتِهِ

(2) حَذَارِ: اسم فعل أمْر بمعنى احذَرْ.

ذا قيمة.

وأخيراً بلغت شمس الشّباب الظّهيرة، وتوسطّت الأفق فمرّت به حسناءُ تحمل في يدها باقة من الزّنابق البيضاء النّقيّة، وكانت شفتاها تفيضان حلاوة وسحراً، وفي شعرها ذهب السّعادة وتبرها، أمّا قلبها فكان كالبُرْعم تعالجه شمس الصّباح لينفتح.

فَصَبا[١] إليها الشباب وتمنّى لو حازها، وأدرك بُغْيَته، وراح يسائل نفسه: لماذا منحته الحياة ذلك الكنز، فخرَّ راكعاً عند قدمي تلك الحسناء، وحاول أن يُفرِغَ كنزَهُ لديها، ولكن الكنز كان قد فَنِي؛ لأنّه قد بَعْثره في الطّريق، قَبْلَ أن يَصِلَ إليها..

وبينما كان راكعاً نظرت إليه الحسناء بعينين طافحتين غراماً وحياءً ومرَّت به وهي ضاحكةٌ منه ساخرة.

عندئذ تذكّر وصيَّة الحياة له. تذكّرها ولَكِنْ بعد فوات الوقت، وَضَيَاع الفُرْصة.

أيّها الشّبابُ! إنَّ الحُبَّ كَنْزٌ فاْعْرِف كَيْفَ تُنْفِقه ومتى تُنْفقه!

الذِّئْب والمُؤَلِّف

قصّة الذّئب والحَمَل مشهورة عند أبناء الغرب، مثلما هي مشهورة عند أبناء الضّاد[٢]، ومَفادها أنّ ذئباً أقبل على غدير ليَشْرَبَ، فرأى عنده حَمَلاً فأراد أن يقيم عليه الحُجَّة لكي يفترسه، فقال له: أيّها

(١) صَبَا: صَبا إليه حَنّ وتشوّق.

(2) أبناء الضّاد: أي أبناء اللغة العربيّة وقد سمّيت بلغة "الضّاد" لأنّ حرف الضّاد غير موجود في لغات العالم.

الحَمَل الذي لا أدب له، لقد عكَّرت عليَّ الماء! قال الحمل: وكيف ذلك والماء يجري من نحوك إليَّ؟ قال الذئب: ألسْتَ أنتَ الذي شتمْتني في العام الماضي؟ فأجابه الحَمَل: كيف يكون ذلك، وأنا قد ولدت في هذه السَّنة؟

قال الذئب وقد ضاق به ذَرْعاً[1]:

إنْ لم تكن أنت المُسيءَ الجارما كان أبوك أو أخوك

ثم هجم عليه فمزَّقه إرْباً[2]، وَوَلَغ [3] في دمه.

هذه قصَّة وضعت على ألسنة الحيوانات للدَّلالة على أنَّ القَوِيَّ يتمسَّك بأوْهى الأسباب للوصول إلى مطامعه، فإذا لم يجد سبباً يتوكَّأ عليه توكَّأ على قُوَّته، وجعلها شريعة تخضع لها الشرائع، ووضع القُوَّة فوق كُلِّ شيءٍ. ولهذه القصَّة نفسها قصَّة لا تخلو من فكاهة وموعظة ألا وهي:

بعدما انتهى المؤلِّف من كتابة هذه الحكاية، طرح القلم من يده، واستوى في كرسيِّه يقرأها لنفسه مسروراً بِنَتَاج قريحته الثاقبة[4]، جَذِلاً[5] بِحُسْنِ سَبْكِها[6] وانطباقها على المعنى الذي حام حَوْلَهُ فكرُه،

---

(1) ضاق به ذَرْعاً: تضايق منه فلم يعُدْ يحتملُه.

(2) إرْبا إرْباً: الإِرْب بالكسر العُضْوُ. وقد غلطَ الكاتبُ فلم يكرِّرْها للدَّلالة على الحال.

(3) ولغ: شربَ من دَمِه بطَرَفِ لسانِه.

(4) الثاقبة: المتوقدة كالنّار.

(5) الجَذِل: الفَرِح.

(6) السَّبْك: سَبَك المعدن سَبْكاً أذابه وخَلّصه من الخَبَثِ ثم أفرغه في قالب، يقصد حُسْنَ تهذيبِ الحكاية

وبينما هو كذلك إذا بذئب كريه المنظر، عَصِل[1] الأنياب، قد دخل إلى غرفته، ووقف أمامه ثم قال له: إنّي قد سمعت حكايتك عنّي، ولـذلك أحتجّ على نَشْرها، وما كان لي أن أحتجّ لو كان واضعها غير الإنسان!

قال المؤلف: إنّي لا أفْهم ما تَعْني، فهل لَك أنْ تُفْصِح...

قال الذئب: إنّ حكايتك قد أغاظتني كثيراً، لأنّك قلت في بدايتها إنّي كَذَبْت على الحَمَل، وفي ختامها إنّي أكَلته، ومن هذا نـستنتج أنّ الإنسان أسمى من الذّئب، مع أنّ الحقيقة الواقِعَة تؤكّد أنّ الذّئب أسمـى من الإنسان، وأعدل!

قلت أنت إنَّه يكذب، وأنا أعترف بذلك، ولكنّ الذّئب قبـل أنْ يأْتي فَريّاً[2] أراد أنْ يتذرّع بواسطة عادلة، وأنْ يجعل عمله العِـدَائيّ[3] مبنيّا على شيءٍ من الحَقّ، فهو يبحث عن طريقة شرعيَّة، ولو بالكذب، وهذا دليل على أنّه يعرف الحَقَّ، ويحترمه، أمَّا الإنسان فهـو بعكـس ذلك. قال المؤلّف: إنّي لا أزال غير فاهم قصَدك، فزدني بيانـاً. قـال الذّئب: ماذا أعددت لنفسكَ من الطّعام في هذا العشاء؟ قال المؤلـف: قطعة من لحم الضَّائن[4] معها شيءٌ منَ الحُبُوب. قال الذّئب: تماماً قطعة من لحم الضَّأن.. فهل فكّرتَ أو فكّر الجزّار الذي ذبح الخروفَ، وباع

---

(١) العَصَل: الاعْوجاج في صلابة.

(2) الفريّ: افتراه اختلقه مختلقاً عظيماً وقوله تعالى[شيئاً فريّا]. سورة مريم ١٩/ ٢٧ ك.

(3) والعِدائي: العُدوانيّ وفيه الخصومة. والفعل عادَى: خاصَمَ. وكان عدوَّه. مصدره عِداء، مُعاداة

(4) الضّائن: من الغَنَم، وهو الخَروف.

لحمه منكَ، أنْ يوضّح له لماذا يجب أنْ يُذْبح، كما صنع الذّئب الـذي وصفته في حكايتكَ..؟ كَلاَّ، بل قتلته، ثم أكلته، وأنت لا تبالي!

أرأيت الآن أنّ الذّئب كان أعدل منك، وأسْمى، إذ حـاول أن يستند إلى قاعدة قانونيَّة عندما عَمَد إلى الكَذب على الحَمَـلِ قبـل أنْ يَفْترسه؟

قال المؤلّف: ولَكنْ أنا إنسان، ومن الضروريّ للإنسان أنْ يأكُـلَ وإلاّ فإنّه يتلاشى في الأَرض!

قال الذّئب: وأنا ذئبٌ ومن الضروريّ للذّئاب أنْ تأكل وإلاّ فإنّها تنمحق، وتَبيد!

قال المؤلّف: ولأيّ شيءٍ تعيش الذّئاب؟ إنّها بـلا فائـدة علـى الأَرْضِ، فهي لا تأتي عملاً على الأَرض سوى أنّها تتغذّى، وتموت.

قال الذّئب: وأيَّ شيءٍ يفعل الإنسان غير ذلك؟

فانتصب المؤلف بكبْرياء، وقال: إنّ للإنْسان نَفْساً!

قال الذّئب: أنا مَسْرور؛ لأنّ لا نَفْس لي، إذ لو كانت لي نَفْـسٌ لَمَا بقي بيني وبين الإنسان فَرْق! إنّ الذّئب ضـارٌ مفتـرس، لأنّـه لا يستطيع أنْ يأكل شيئاً غير اللّحْم. أمّا الإنسان الذي له نَفْس ليست في الذّئب كما تقول، فيأكل اللّحم وهو قادر على الاستغناء عنه.

إنّ الذّئب يقتل لأنّه مضطرّ! وأمّا الإنسان فيقتل وهو قادر علـى تجنّب القتْل!

قال المؤلّف: إنّ في كلامك معنًى لم أفهمه من قَبْـلُ! ولَكنّـك نسيت أنّ للإنسان قلباً رقيقاً ولذلك فهو عندما يضع السّكّين على عُنُق الشّاة تستسلم له!

قال الذّئب: وأنا كذلك، فإنّ الحُمْلان عندما أقتلها لا تبدي أقَـلّ

اعتراض، بل تستسلم إِلَيَّ بكُلّ سَكينَة، واحتشام..

قال المؤلّف: مسكينة الحُمْلان.. ثم سقطت من عينه دَمْعة.

قال الذئب: ليس بكاؤكَ رأفةً ولا شَفَقةً، فأنتم معاشر النّاس لستم أسمى منّا، بل كما قلت أوّلاً.. ولكن لي رجاء أن تنتج الأرض حُملاناً تكفينا وتكفيكم، أمّا إذا خاب هذا الرّجاء..!

قال المؤلّف مُضْطرباً: إذا خاب هذا الرّجاء، ماذا..؟

قال الذئب: أمْرٌ بَديهيّ ولازم: إمّا أن تموت الذّئاب وإمّا أنْ يموت النّاس؟!

قال المؤلّف: بل تموت الذّئاب!

قال الذئب: كَلاَّ، بل يموت الأوْفَى، فالإنسان كما أثبتّ لَـكَ في السّابق، أوْفى من الذّئب.. وفضلاً عن ذلك، فالذّئب يقدر أن يأكل لحم الإنسان ويتغذّى به، أمّا الإنسان فلا يستطيع أنْ يَهْضم لحم الذّئب، ولا يَلَذُّ له أكْله.. فَتبعاً لذلك، يجب على الإنسان أنْ يقدّم ذاته للذّئب كما يفعل الحَمَل، وأرى أنْ أبْدأ بك! وأقبل عليه وهو فاغرُ الشّدقين.

وما كاد يهمّ به حتى أهوى المؤلّف بالفأس التي كانت وراء ظهره على أمّ رأسه، فوقع يتخبّط بدمه. فَلمَّا تحقّق موتَه، وقف عند رأسـه، وقال له: لا شكَّ أنّك أشرف من الإنسان قلباً، ولو لم تُبَـرْهِنْ علـى كَونِكَ كذلكَ لَمَا ذَهَبْتَ قتيلاً!

نيويورك ١ تموز ١٩٢٩

الأُمّيّ والأَعْمى

أشجاني كتابٌ جاء من سيِّدَة تستصرخني فيه إلى نُصْرة النِّساء والفتيات اللَّواتي تزخرُ أرواحهُنَّ وعقولُهُنَّ بالحنين إلى المطالعة، فيمنعهنّ من ذلك آباؤُهُنَّ أو أزواجهنَّ لأنّ الفضيلة في عُرْف بعضهم لا سياج لها إلاّ الجَهْل!

ولأنّ كُلّ سواد في بياض هو ممَّا لا يجمل بالمرأة أنْ تَنْظُرَ فيه!

قرأتُ هذا الكتاب، فخُيِّلَ إِلَيَّ أنّي خرجتُ من دُنْيايَ ومِن زمني، وكدت أحسبه آتياً من بقعة قصيَّة في الأَرض، لم تصل إِليها بعد أنــوار المَعْرفة، والثَّقافة، حتى أقبلتُ أتفحصّ وَرَقه، وحِبْرَه، وعنوانه، وتاريخه، وطابع البريد عليه، فإذا هو لم يجفّ حبره إلاّ منذ أيّام معدودَة، وإذا هو لسيِّدَة سوريَّة في الولايات المتحدِّة تشكو عَنَت[1] الأزواج والآباء، ولا سيما الأمّيّن منهم، وإنَّها، والله، لشكوى موجعة، وإن تكن من الأُمّيين أو أنصاف الأُمّيين، فمثل هذا الظُّلْم لا يجب أنْ يَــنزل بــالمرأة في أيّ مكان، ولا سيّما في هذا العصر. وإذا كان للمرء أنْ يستغرب شيئاً فهو وجود أمّيّين من هذا الطِّراز وغير هذا الطِّراز، في بلاد نَطَق فيها الجمادُ أوكاد، وذلك بعدما حال فيه شيءٌ من الحِسّ والشُّعُور.

من البَديهيّ المفهوم أنّ الرَّجُلَ الأمّيّ يصعب عليه أنْ يُدْرِكَ ما في المطالعة من الفائدة العَقْليَّة، واللّذّة الرُّوحيَّة؛ لأنّه لا يطالع، ولكــن ألا يَرَى بِعَينيه آثارها ومنافعها في الذين يُآكلهم ويشاربهم، ويقلــدّهم في ملابسهم وعاداتهم؟

(1) العَنَتُ: التَّضييق والتَّشديد.

فهو لا يحادث أحداً في الحَانُوت أو الشَّارع ولا يشتري ولا يبيع، إلاَّ اتَّصل برجل يقرأ ويكتب؛ أو امرأة تقرأ وتكتب، ثم هو لا يقطع حَوَالة[1]، ولا يدفع كمبيالة ولا يعمل اتّفاقاً ولا يَعْقُد مِيثاقاً[2] إلاَّ استعان برجل متعلِّم أو امرأة متعلِّمة!

فغريب إذن أن يضطرب لرؤية الكتاب في يدِ زوجته اضطراب العاشق الغيور، وأن ينظر إلى الصَّحيفة تطالعها ابنته خائِفاً وَجِلاً، كأنَّما العقارب والأفاعي في السُّطور.

ما أشبه الرَّجُلَ الأُمِّيّ بالأعمى! فليس للأَعْمى قُدْرةٌ على التَّمييز بين الأشياء، والحالات، والأشخاص، إنَّه يَمُرُّ بالمكان فلا يعلم إذا كان حديقة أمْ مَقْبَرَة، وبالنَّاس فلا يدري أَتَجَمْهَرُوا لمهرجان أَمْ تألَّبُوا لحرب عَوان[3]، ويَسْمع وَقْع الأقدام فلا يعلم أتمشي إليه بالإساءَة أم تسعى إليه بالإحسان، ويَلْمَس الحجارة في الجُدْران فلا يعرف أهي حجارة بيضاء، أم صفراء، أَمْ سوداء، ولا يدري إذا كان البِناء منزلاً أَمْ هيكلاً، أَمْ فندقاً، أَمْ خمَّارَة؟ ويظلّ في حَيْرَته وضلاله حتى يسأل أَحَد المُبْصرين، فإِمَّا يَصْدُقه الخَبَر، وإِمَّا لا يَصْدُقه، فهو أبداً مَخْدوع وهو أبداً في شكّ مِمَّا يَلْمَس ويَسْمع.

ودنيا الأُمِّيّ كدنيا الأعمى، ما تنفكّ مشوّشَةً مضطربة، ليس فيها صورة تامَّة، وليس فيها شيءٌ غير مَمْسوخ أو مُشَوَّه، لذلك يعزّ عليه أَنْ يتَّفِق والنَّاس في أَمْرٍ واحد، من كُلّ نواحيه؛ لأنَّ دنياه تضيق عنهم، وهو يضيع في غير دنياه الضَّيِّقة!

---

(1) الحَوالة: الكَفالة. ونَقلُ الدَّين وتحويلهُ من ذمَّة صاحبه الى ذمَّة المُحال عليه.

(2) الميثاق: العهد والجمع المواثيق.

(3) الحرب العَوَان: الشديدة التي قوتل فيها مرَّة بَعْدَ مرَّة.

ويتّفقُ الأمّيّ والأعمى في أمر آخر، وهو الخوفُ من النّاس والنِّقمةُ على الحياة، إنّما للأعمى عُذره إذا اشتدّت به النِّقمَة، فهو مظلـــوم في الحياة، وغير منصور من إخوانه البَشَر، وليس في استطاعته أنْ يعيـــد إلى مُقلتيه[1] نورهما المنطفِئ؛ على أنّنا لا نحسَبُ الأعمى مهما بلغ من غيظه وحقده يَوَدّ لو انطفأت الكواكب في السّماء، وجَفّت الغُدْرانُ والمناهل في الأرض، واندرست الرِّياض والحقول، لأنَّ غيره يراها وهو لا يراها، أو يشتهي لو صار النَّاس كُلّهم عُمْياناً مِثْلَهُ لأنّهم يَرَوْن ما لا يرى!

ولكن من الأُمّيِّين من يشتهي في نفسه لـــو اندرســت الكُتُـــب وانْطَمَست الصَّحائف؛ لأنّه يجهل ما فيها، ولا يَفْهم أنَّ الكتـــاب هـــو أساس المدنيَّة، وأنّ الإنسان لم يَصر إنساناً حقيقيًّا إلاَّ عنـــدما صـــار في مكْنته أنْ يضع صور خواطره ومشاعره على الألواح والأوراق، وكثيراً ما نَسَب الأُمّيّ إلى الكتب كُلّ ما في الحياة من عيوب ونقـــائِص والآم وأحْزان، وودَّ لو أزاغ الله العيونَ عنها لعلّ الدُّنيا تَسْتَرِدُّ بَهْجتها، وتظلّل السعادة النَّاس بأجنحتها، وما إلى ذلك من الأَماني والتَّصوُّرات الصِّبْيانيَّة لأنّ الأُمّيّ لا يبرح في مَدارِكه طِفلاً صغيراً وإِن اكْتَهَل[2]، وشاب مِنـــه المَفْرقان[3]، وإنّك إذا قست دماغه إلى دماغ ساكني الغابات والأدغـــال في أفريقيا، لم تجد بينهما فرقاً كبيراً، وإن كان الأُمّيّ في أرْضِ المُتمدِّنين وفي ثِيابِهِمْ. فإنَّ النَّفْس التي لا تلطّفها المَعْرِفة تظلّ الحيوانيَّة غالبة علـــى غرائزها؛ حُبّها شهوة لا صَبْرَ مَعَها، وبغضها قوَّةٌ لا عَـــدْل فيهـــا، ولا رادع لها..

---

(1) المُقلَة: العين.
(2) اكتهل: الكَهْل من الرِّجال الذي صار بين الثلاثين والخمسين.
(3) المَفرِق: وَسَط الرّأس وهو الموضع الذي يُفرَقُ فيه الشّعر.

إنّ الأُمّي خَطَرٌ على نَفْسِه وعلى أُسْرته، وأشدّ ما تكون الحياة الزوجيَّة تنكيداً وتنغيصاً إذا كانت الزوجة تقرأ والزَّوج لا يقرأ، لأنّ التكافُؤ في المدارك بين الزَّوجين هو أساس السعادة العائليَّة، فإذا ضاع هذا التَّكافؤ اختلّ التَّوازن، وحصل الاضطراب والتَّشويش. أمَّا إذا انعكست الآية، فكانت الزَّوجة هي الأُمّيَّة والزَّوج هو المتعلّم، فلا شكّ أن سعادتهما لا تكون تامَّة ولكنَّها لا تكون مفقودة كلّها في البيت، لأنّ للمرأة من رقّة شعورها، ولطافة حِسِّها ما يساعدها في مهمّتها زوجةً وأُمًّا.

وفي وُسْع المرأة الأُمّيَّة أنْ تستبقي حُبَّ الرَّجل المتعلّم لها، واحترامه لها، أمَّا الرَّجل الأُمّي فإذا استطاع أنْ يستبقي حبَّ المرأة له فهيهاتِ[1] أن يستطيع استبقاء احترامها!؟

ومن المعلوم أنّ المرأة أرقّ إحساساً وألطف شعوراً من الرَّجُل، وهما على الفِطْرَة[2]، فكم تكون الأمّ نفسها شقيَّة إذا صَقَل العلم مشاعرها، ووسَّع دائرة عواطفها ومداركها واضطرَّت أنْ تقضي حياتها مع زوج أُمّيّ، جافي الطَّبْع، جافي الرُّوح، كَشَقٍّ في حجر يُقرع فلا يطنّ ولا يرنّ!

إنّ حُبَّ الزَّوجة يتحوّل عندئذٍ إلى نوعٍ من الشَّفقةِ، وما أقبحَ الشَّفقة من المرأة الضعيفة على الرَّجل القويّ!

ولعلّ هذا هو السرّ في القَلَق الذي يساور الزَّوج أو الأب الأُمّيّ في رؤية الكِتاب أو الصحيفة في يد زوجته أو ابنته! فهو يخشى أنْ تعرف

---

(1) هيهاتِ اسم فعل ماضٍ مبني بمعنى بَعُدَ.

(2) الفِطْرَة: الخِلْقَة.

من شؤون الحياة أكثر مِمّا يعرف فتصبح هي الأعلى وهُوَ الأدنى، ويصير هو الأضعف وهي الأقوى، وهو لا يلام على هذا الخوف؛ فإنّ الجَهْل ضَعْف والضعف جريمة في هذا الزّمان، والمعرفة قوّة، والقوّة فضيلة، ولَكِنْ لماذا لا يصيرُ هو متعلّماً فيستريحَ من مخاوفه وظنونه، ويعْذب طعم الحياة في فَمِه، ويلذّ النّور في مُقْلَتَيْه؟ وليس الخروج من ظلام الأميَّة بالمطلب العسير حتى على الشيخ العَتِيّ، لأنّ هذه البلاد عامرةٌ بالمدارس اللّيليَّة من كُلّ نوع!

فإلى المدارس اللّيليَّة أيّها الأمّيّون.. لا، من أجل زوجة أو ولد، ولا من أجل نسيب أو جارٍ، بل من أجْلِ أنفسكم!

إلى تلك المدارس؛ فإنّها الطّريق التي تخرج بكم من دنياكم المشوّشة التي تتصادم فيها الأشباح السّوْداء، إلى سماء المَعْرِفَة الواسعة ذات الألَق والنُّوْر.

إليها! إلى أنْ تنقطع هذه الشّكْوى.

نيويورك ١٥ تموز ١٩٢٩

حديث بين وَرقتين

تناثرت الأوراق في الغابة من الأشجار كُلّها حتى السّنديانة الضخمة الباسقة التي طالما بنت فيها الطُّيور أعشاشها، وتجاذب الأولاد أطرافها، وتفيّأها المسافرون، ولقد بقيت في رأس الغصن الأعلى منها ورقتان، فقالت إحداهما للأُخرى، وهي مكتئبة:

- ليست الحياة اليوم كما كانت من قَبْلُ.

- كَلاَّ فقد سقط اللّيلة الماضية منها عدد كبير حتى لم يبق في هذا الغصن إلاَّ أنا وأنت تقريباً.

- ولا تعلم إحدانا أيّتنا تذهب قَبْلُ الأخرى. فكم اختطفت الرّياح والأعاصير أوراقاً قبلنا وهي في مَيْعَة[1] الشَّباب!

فتنهدَّت الورقة الأُخرى وقالت: يا عجباً! كيف صارت الشمس لا تشرق إلاَّ لَمْحاً، وكيف صار نورها ضعيفاً لا طراوة فيه مع أنّنا نحن الآن أحوج إلى الحرارة منْ ذيْ قَبْلُ!

- أحقًّا أنَّ هناك أَوراقاً كثيرة ستحلّ مكاننا بعد ذهابنا وأنَّ هذه الأوراق نفسها ستذهب، وتجيءُ بعدها أوراق ثم أوراق بعد أوراق؟

- أجل، هذه هي الحقيقة التي لا رَيْب فيها، اليوم نحن وغداً غَيرنا! فأطرقت الأُولى حزينة باهتة ثم ما لبثت أنْ سألت نفسها قائلة: لماذا يجب أن نسقط؟

- ماذا يصيبنا بعد سقوطنا؟

- إنّنا نتفرَّق.

- ولكن أيُّ شيءٍ تحتنا؟

- لا أدري ولا أحد يدري!

- أنظلّ نشعر ونحسّ بعد سقوطنا إلى تَحْتُ؟ وهل نعرف ما يحدث لنا، وما يجري حولنا؟

- لن نعلم، لم يرجع أحدٌ من تَحْتُ يخبرنا بما هناك!

وسكتتا بُرْهة[2] قصيرة، ثم تململت - إحداهما الأُولى - وقالت

---

(1) مَيعة الشباب والنّهار: أوّلهما.

(2) بُرْهة: المُدّة من الزمان.

لرفيقتها في عطف وحنان:

اطْرُدي عنك هذه الحوادث، فإنّك ترتجفين!

- بل صرت أرتجف لأقلِّ شيءٍ، فارقتني تقواي، وفارقني اليقين.

- إذن، لننقطع عن الحديث في هذه الأمور فإنّه يبعث في النّفْس الأسى والشَّجَن.

- حَسَناً، ولكن بأيّ شيء نتحدّث؟

وسكتت هُنَيهة[1] ثم عادت فقالت: من يعلم أيّنا تسقط أوّلاً؟

- لِنَتْرُكْ هذا الموضوع فلا تزال في الأجل فُسْحةٌ[2] كبيرة. وتعالَي نتذكّر أيّامنا ولياليَنا المواضي الجميلة، وما كُنّا فيه من شباب ونعيم:

أيّــام نــرقص للــضُّحى والليـــل والقَمَـــرِ المُــنيرْ

أيّــام نطــرب للــصُّداح وللُهتـــاف وللـــصَّفيرْ

أيّــام يلثمنـــا النَّـــدى ويهزّنـــا صـــوت الغـــديرْ

ونــرى الطيــور علــى الــرُّبى فنكـــاد مـــن شـــوقٍ نطـــيرْ

فأجابتها مُنْفعلةً:

ذهــب الــشَّباب وأخلقــت ديباجــة العــيش النَّــضيرْ[3]

فالليــــل تِبْــــرٌ مُظْلِــــمٌ والــصُّبْح كــالأعمى الــضَّريرْ

قــد بــات في الزهــر الأريــج وبـــات في المـــاء الخريـــرْ[4]

---

(1) هُنَيْهَة: مُدّة من الزمن أقصرُ من البُرْهة.

(2) الفُسْحة: السَّعَةُ.

(3) النَّضير: النّاضِر الشديد الخُضْرَة.

(4) الأريج: ريح الطِّيب.

فعلى الرُّبى كفن الضّباب وفي الثرى الورق النثير
إنّ الحياة إلى الفنا وبلاهُ مِنْ هذا المصير

فقالت لها الورقة الأُولى:
هوّني عليك، لا ينبغي لنا أنْ نشكوَ، فقد نعمنا بالحياة أكثر من سوانا!
- انظري إِلَيَّ، أترَين أنّي تبدّلتُ كثيراً؟
- لا، لم تتبدلي، فلا يزال لَكِ الإشراق والنَّضارة، وإنّما أنتِ تتوهّمين أنّكِ قد شختِ لأنّك تنظرين إِلَيَّ فترينني صَفراء، هزيلة، دميمة، أنت على العَكس منّي.
- إنّك لا تصدقينني الخَبَرَ، إنّك تخدعينني!
- كَلاّ، بل صدْقاً قلت، فأنتِ جميلة كما كنتِ يوم وُلدْتِ، أجل، في جانبك بعضُ الاصفرار والتّجعّد، ولَكِن هذا يزيد من جمالك.
- لا أستطيع أنْ أصدّق ما قُلْتِ عَنّي، ولكنّني أشكرك على لطفكِ يا صديقتي، وأراني أشعر بعطْفكِ عَلَيَّ أكثر من أيّ وقتٍ مضى.
وهنا ارتعشتِ الورقتان، فأعياهما الكلام. ومرَّت سُوَيعاتٌ عليهما وهما جامدتان، ثم هَبَّت عليهما نسمة باردة قاسية فقالت إحداهما: ها أنا...! ولكنّها لم تكَمِّل عبارتها لأنّ الرِّيح اقتلعتها من مكانها، فسقطت إلى الأرض.. فكان ذلك بَدْءَ الشتاء!

١٥تموز ١٩٢٩

كلنا حاسدٌ ومَحسود

بقلم "محسود"

قال لي أحدُهم بالأمس: إنّي أحسُدك.

فوقعت عِبارته في نفسي موقع الدّهشة والاستغراب، لأنّه قال شيئاً كان يجول في نفسي أنْ أقوله له، لأنّي أحسُده.

وما جال في خاطري وخاطره هو في خاطر كُلّ إنِسان، فإنّ الإنسان يحسد دائماً أخاه الإنسان.

أمَّا أنا فلا أعرف فيّ ما يستوجب أنْ يحسدني عليه أحد.

بل أعرف فيّ أشياء يلذّ للمرء أن يحمد الله لأنّها ليست فيه، مثال ذلك أنّ الذي يحسدني لا يعلم أنّي مصاب بداء في مَعِدَتي يمنعني من تناول بعض المآكل التي أجد فيها لَذّةً كبرى.

وهو لا يعرف أنّي أُلاقي مشقّةً كبرى في كتابة الفصول التي يقرأها كهذا المقال، فإنّي أكتبها بالألم والعَذَاب. ثم هو لا يعرف أنّي أعتبر أكثر ما أُحَبِّره من المقالات على غير شيءٍ من الجمال وأتمنى لو لم أكتبه. وأنّي في عذاب عظيم من جرّاء رغبتي في الكتابة ومعرفتي مواضع العجز في الكتابة، ومعرفتي بمواضع العَجْز في نفسي.

أمَّا الرَّجل الذي يحسُدني لأنّي صاحب سيَّارة، لا يعلم كم أُكابد من الهموم في دَفْع ثمنها.

والذي يحسدني لأنّي غير مصاب بالروماتيزم لا يدري أنّ

أسناني اصطناعيَّة! والذي يحسدني لأنّي أُدخِّن كثيراً فلا يؤذيني التَّدخين، لا يعلم أنّي إذا جرَعت نصف كأس أمْرض ثلاثة أيّام!

والذي يحسدني على مَنْصِب أشغله لا يعلم كم في هـذا المَنصب من التّعب، والجَهْد، وما فيه من وجَع الرَّأس وعـذاب الرُّوح!

وإنّي لعلى يقين أنَّ الذين أحسدهم ليسوا في الحقيقة كما أتصوَّر ولا كما يتراءَونَ لي! وقد يكون الرَّجل الذي أحسُدُه مصاباً بمـرضٍ في قلبه، أو غارقاً في الدَّين إلى الخِناق، أو أنَّ في قلبه جرحاً ثخيناً مِنَ الحزن لا يندمل مهما تقادم الزَّمن عليه.

إنَّنا ما ننفكّ نحسد الحاكم الكبير، والغـنيّ الخطـير، والكاتـب النِّحْرير[1] والرَّسَّام الشَّهير، وغيرهم مِنْ كِبار النَّاس، حتى نعرف عنهم ما يعرفون عَنْ أنفسهم.!

أمَا للحياة طريقتها في المبادلة والموازنة بين القُبْح والجمال والمَرَض، والصِّحَّة، والفقر، والغنَى، والحزن، والسّرور؟ فهي لا تعطي المرء كـل شيءٍ، ولا تأخذ منه كُلّ شيءٍ! وإذا سَلَبَتْه مِنْ ناحية، عَوَّضَت عليه من ناحية أُخرى.

كان أبو العلاء المعَرّي ضريراً لا يرى شيئاً ممَّا يراه المُبْـصرون، على أنَّ الطَّبيعة عوَّضته عن عينيه الذّكاء المُفْرِط فكَان له ألـف عـين خفيَّة!

---

(1) والنِّحرير: الحاذقُ الفَطِنُ.

وكان عنترة فارساً مغواراً، ومحارباً جبّاراً، ولكنّه كان عَبْداً، فاشلاً في حبِّه لعبلة ذات البَشرَة البَيْضاء.

وكان تيمورلنك أعرج، وهو الفتّاك السفّاك للدماء لا يعزّ عليه مطلب في الحياة ولكنّه كان يَحْسُدُ أصْغر جنوده؛ لأنّه لم يكن مثله أعْرج.

ولَكَم تطلّع النّاس إلى نابليون وهو يسير في مواكب مَجْده، وتَمنّوْا لو حصلوا على اليسير التّافه من سعادته ولو في الحُلُم! أمّا هو فقد كان يعاني آلاماً لا تطاق من جرّاء السَّرطان الذي عشَّشَ في مَعِدَته!

فصديقي هذا لم يحسدني ولكنه توهَّم أنّه يحسدني، فليس هناك شخص يستحق أن يُحْسَدَ من شخصٍ آخر، ولو اطّلع إِنسان على دخيلة كُلِّ إِنسان لَمَا قَبِل أَنْ يكون أَحداً غير ذاته.

نيويورك ١تموز١٩٢٩

هل الشِّعْر عَبَث؟

عبثاً نتظاهر في بلاد الحديد والفولاذ بأنّا أصبحنا لا نقيم لشيءٍ وَزْناً[1] إلاّ إذا لمسناه بأيدينا كما نلْمُس الحديد.

وعَبَثاً يقول بعضنا لبعض إنَّ الشّعر خيال، والخيال لَهْوٌ لا يفيد، ولهو لا طائل تحته، فقد يكون ما نَحْسَبُه رَغْوةً هُوَ اللّبن الصَّريح!

---

(1) نقيم وزناً أي نقيم قيمةً.

نحن قوم لنا أريحيَّة[1] لا يَطْمُسُها فينا هذا الكلام وأشباهه، وإن عناه قائلوه، وهم في أكثر الأحايين لا يَعْنونه، وهي روحيَّة لن يسحقها شيءٌ حتى الحديد والفولاذ، ولو صار كُلُّ ما نَلْمُسه حديداً بارداً، وكُلُّ ما يحيط بنا فولاذاً صُلْباً!

قد تُصَرِّفنا نوازع العيش، كما تصرف غيرنا، إلى الاستغراق في ما هو من المادَّة، فنتوهَّم أنَّنا قد صِرْنا غيرنا.. وأنَّ الحياة قد بدَّلتنا من أرواحنا أرواحاً أُخرى.

ولكنَّنا لا نتوغَّل في هذا العالم الجديد حتى تكتنفنا المَلاَلَة، فنشعر أنَّنا أضعنا ما هو أثمن من المادَّة، وإن لم تكن له صورة المادَّة.

لو كان كُلُّ ما يلامس حياتنا ويلابسها مسموماً مزيَّفاً لصحّ القول بأنَّ الشِّعر عبثٌ ولَهْوٌ، ولكان عالمنا غير المنظور والملموس أرحب أفنية وأوسع مدًى من عالمنا المحسوس الملموس، ولا يستطيع الجولان فيه إلاَّ ذو خيال.

فإنَّ في كُلِّ ما نشاهده بأعيننا ونلمسه بأيدينا، صوراً ورسوماً لا يراها البصر ولكن يراها الخيال!

ماذا في الزَّهرة غير أوراقها، وألوانها، وعَبيرها؟

ولكن أصحيح أنَّ الزَّهرة أوراقها وألوانها وشذاها فقط؟

فكم من المعاني السِّحْريَّة التي تتسرَّب إلى روح المتأمِّل عند رؤيته إيَّاها رافعةً رأسها إلى العلاء، كأنَّها تتطلَّع إلى وطنٍ قديم، طُرِدَت منه، أو كأنَّها تقول للسَّماء: أنا جزء من بياض فجرك، وضياء شمسك ونجومك، وسواد ليلكِ! وكذلك عندما يراها مُطرِقة إلى الأرض تتأمَّل

---

(1) الأريحيّ: الواسع الخُلُق.

سِرّ مَحْياها[1] ومصدر لونها وشذاها، وكأنّها تقول للأرْض: إذا كنتِ أنتِ ابنة الأبد، فأنا مثلك ابنة الأبد.

أنت لا ترى هذه الصوَر بعينيك، ولا تَلْمُسُها بيديك، ولكنّك تراها، وتَلْمُسُها بالخيال الذي لا آخر لمعجزاته وآياته.

ويجيءُ الخريف فتصفّر الزّهرة وتذبل أوراقها وتنتثر، ويخلو منها مكانها في الحقل أو الحديقة، ولَكِنْ صورتها تبقى في ذهنك كأنّما الزهرة نفسها قد انتقلت إليك واستَقرَّت فيك، وامتدت أُصولها في جسمك مع الشَّرايين.

إذا كان الشعر عَبَثاً؛ لأنّه لا يبني جداراً، ولا يُعَمِّر داراً، ولا يزرع حقلاً، ولا يجني ثمراً، ولا يَطْحَنُ دَقيقاً، إذن فكُلّ ما لا يَنْفعك في هذه الناحية عبثٌ.. وعلى هذا القياس يصير المصباح الذي تقرأ في ضوئه أهم وأعظم شأناً من ألف كوكب في السماء لأنّ أنوار الكواكب لا تُغنيك عنه!

إذن، فالحياة جاهلة حمقاء لأنّها خلقت في الإنسان قوّة التصوّر، وجعلت الخيال أقوى ما يكون في دَوْر الشباب وهو أطيب أدوار العمر، فإنّ جَمْرة الخيال تَهْمُدُ في المرء، وتصير رماداً بعد انقضاء زمن الشَّباب، ورثاثة ديباجته[2]، ولكن، لا، فالحياة غير جاهلة، وغير حمقاء، وما الخيال في الواقع إلاّ نعمتها الكبرى، فهذا المِجْهَر الذي نرى بواسطته ما لا نراه بالعين المُجرَّدَة[3] فإذا أضعناه صغرت الحياة لدينا، وضاقت بنا.

الخيال وحده هو الذي يمتدّ بنا في أُفق الماضي، فنشاهده بملوكه

---

(1) مَحْياها: حياتها، مصدر حَيِيَ.

(2) الديباجة: ثوبٌ من الحرير الخالص.

(3) العين المجرَّدَة: هي الطبيعيَّة بلا أدوات ولوازم تقوّيها.

وعبيده، وقصوره وأكواخه، وجماله وقبحه، وفضائله ومساوئه، وابتساماته ودموعه، وضحكاته وتنهدّاته، ويمتدّ بنا إلى المستقبل، فَنَلْمح في ثناياه ما هو نُوْر وما ليس بنُور، وما نتوقع وما لا نتوقّع، فهو الصّلة التي تربطنا بالماضي المُنْدثر بعد فنائه وتدنينا من المستقبل البعيد قبل ولادته! وهو الذي يهوّن علينا آلام الحاضر وأوضاعه بما يخلقه في أنفسنا من الأماني الشهيَّة التي تخفف حلاوتها مرارةُ العيش.

وليس لأحد أن يجرِّد روحَه من الخيال إلاَّ إذا استطاع أنْ يكون آلة ميكانيكيَّة يستحيل أنْ يخامرها فرحٌ أو حزن، ويعجزها أنْ تُحِسّ خيبةً أو فرحاً!

أمَّا الذين يستَخفّون بالشعر استخفافهم بشيء مَهين[1]، فهم في الغالب ممن لم يكلّفوا أنفسهم الخروج من دنيا الطُّعام، والشّراب، واللّباس، فهم يَسْتغربون دنيا الشّاعر ويَسْتهجنونها كما يَسْتهجنون الشّاعر، ويسخرون من أطواره[2].

فلا ينكر أحدٌ أنّ في الشِّعر لَغْواً[3] كثيراً، ولكن ليس كُلّ الشّعر من هذا النّوع! وما هذا اللّغو الذي نشاهده عندنا في الشِّعر إلاّ وليد الخيال الضّعيف المنحطّ عند الّذين يزاولون النَّظْم قبل أن يسمو خيالهم، وتصفو أرواحهم!

بل يمكن القَوْل إنّنا ضُعفاء لأنّ الخيال فينا ضَعيف، وأنّ حياتنا مشوَّشَة لأنّ خيالنا لا يزال مشوَّشاً!

---

(1) المَهين: الحقير الضّعيف.

(2) الطّور: الحال والهيئة. يقصد تقلّب أوضاعه.

(3) اللّغو: الكلام الباطل والخطأ.

على أنّنا بالرّغم من ذلك أُمّةٌ شـــاعرةٌ بالـــسَّليقة[١]، شـــاعرة في مظاهر حياتها وإن لم تر صورتها تامّة في قصائد شعرائها.

نحن أُمّة شاعرة في ضـــحكها، وبكائهـــا، شـــاعرة في حـــديثها وصمتها، وفي يأسها ورجائها، وفي شِدَّتها ورخائها، وحُبِّها وبُغْـــضها، وغنائها وعَويلها،

ضحكات عَذَاراها أناشيد.

نظرات نسائها ألحانٌ شجيَّة[٢].

أحاديث عجائزها قصائد ساحرة.

في حكايات شيوخها فلسفة عميقة صافية.

في قناعتهم زُهْدُ الشُّعراء.

يبكِّر الفلاَّح إلى حقله وهو يغنِّي مع طيور الفجر في الحقول.

يمشي المُكاري وراءَ رواحله في اللَّيل يُنْشد السَّهْل والجَبَل ويَطْرب للصَّدى في السَّهل والوادي.

وتذهب المرأة تملأ جرَّتها من العين، فكأنّها تمشي على توقيع أنغام مَوْزونة متناسقة.

ويجلس الشّيوخ في الشتاء حول المواقد فإذا هم يـــدفأون بحـــرارة الشِّعْر قبل حرارة النَّار.

بَعْض الشعراء

في مدينة نيويورك حيٌّ معروف يأوي إليه فريـــق مـــن الـــشعراء

---

(1) السَّليقة: الطبيعة، بلا تعَلُّم.

(2) الشَّجيَّة: الحزينة، شجاهُ: أحزنَهَ، أطْربَهُ.

المتمرّدين على أغلال المادّة، يحاولون أن يهربوا من حياة التكلّف والتصنّع فإذا هم يتكلّفون، ويتصنّعون حتى في الفِرار مِنْ التَّصنّع؛ لأنّهم في غير أرض الشعر، وتحت سماء غير سمائِه!

إنّهم يحاولون أنْ يكونوا في نيويورك كالقرويّين في لبنان، بينما نحن نُزْري بأنفسنا، ولا نقيم وزناً لأرضنا وسمائِنا، هم ينزعون إلى الانطلاق من حِبال المادّة، ونحن نَحِنُّ إلى لَفّ تلك الحبال حول أرواحنا!

وهناك فريق من السَّراة[١] الأمبركيّين الأمّيّين أتخمت نفوسهم من المادّة ورمَّت[٢] قلوبُهم مَلَلاً وضجراً منهم، يذهبون كُلّ عام إلى أوروبا الشرقيّة لترويح القلوب، لأنّ الرّوح في أوروبا لا تزال حيّة قويّة بالفَنّ الحيّ فيها، وهو الشعر المتجسِّد الماثل في القصور الجميلة، وإن لم تنطح السَّحاب، وفي القلاع والأبراج التي كانت للحُبّ كما كانت للحرب، والصّور والتّماثيل الرّائعة التي مهما أغلى الشّاري سعرها، يظلّ البائِع هو المغبون!

أمّا الشّرْق فكلّ قطعة منه صورة جميلة الألوان والأظلال لِما فيها من معاني القِدَم وجلال الذّكرى.

وما الذهاب إلى الجبال والشّواطئ في أيّام الصّيف غير فِرارٍ من وجه المدينة العابس المتجهّم إلى وجه الطّبيعة الضاحِك البسّام؛ إنّه رجوع المرء من غربته إلى وطنه الأوّل إلى الطّبيعة... إلى الإله الذي يصلّي له الشعراء في خلواتهم، وبين النّاس.

وهكذا تجد أكثر الذي ينعَون على الشعراء جاه[٣] الخيال لا تعاود

---

(١) السَّراة: أصحاب السَّخاء والكرَم في مروءة. السَّرِيُّ: السيِّد الشريف.

(٢) رمَّ: بَلِيَ وتَقَطَّعَ.

(٣) الجاه: القدر والمنزلة.

وجوههم البشاشة والطّلاقة إلاّ إذا صاروا أحراراً كالشُّعراء!

نيويورك

- لشاعرٍ فيها -

أيّتها المدينة التي تفوح كزهرة هائلة.
أيّة قوّة قوّتك؟
أأنت امرأة خرجت من الجحيم لِتحوكي للرجال المَصائدِ؟
أم جنّيّةٌ على شاطئ البحر تومئ وتتنهّد؟
أم أنت شيطانة حمراء المقلتين؟
إنّي لأشعُرُ منذ عرفتك بحبالكِ تلتفّ حول عنقي، وأحسّ أصابعك تطوّق قلبي.
فأنا ساهر ولكنّني رجل مرعوب!
نيويورك، لقد حطّمت أرواحنا على دولابكِ!
وهشّمتنا بالحديد والفولاذ!
وسَحَقْتِنا تحت قدميك!
وخدّرت مشاعرنا فبتنا نحن ما نُحِسّ ولا نشعر!
خُذيني أيتها الغادة الرُّخام.
واجذُبيني مرّة أُخرى إلى صدرِك.
فما أنا غير إنسان مسكين ضعيف كَسائر البشر.
قبّليني قبلاتك القاسية الباردة كحديدك!
والْمُسيني متحبِّبةً بأناملكِ الحَجَرِيَّة.

ثمّ اقْذِفي بي هازئةً ساخرةً إلى أعماق الظّلام وَخُذي!

إنّي سأهجرك، وأهجر أبراجَكِ المائلة التي تطاول النّجوم،

وسأعرف أزهارك التي تزهر من الدُّخان، وتحيا بالأمطار التي تنسكب

فوق أسواقك ذات السَّناء والنُّور.

أجل سأهجرك أيّتها المدينة المائلة.

وأفرُّ من سكّانك الذين يتحرّكون كالأصنام.

وأهرب من شوارعك المفروشة بالحصى.

إلى سكينة القفر وسلام الغابة.

إنّ في ديباجة العشب الخضراء بعضَ الطُّمأنينة لروحي.

إلاّ أنّي لِسرٍّ من الأسرار أشعر أنّي جزء من كآبتكِ ومن ترابِكِ!

ولَكِنْ، سأعود إليك.

سأعود إذ لا بُدَّ من الرُّجوع.

سأعود لأبحث عن اللّبن والعسل في الحديد والحجر.

وأمشي إلى النهاية مهشّم الجسم والفكر والرُّوح.

أيّتها المدينة التي تُسَمَّنُ وتُذْبح، كم عافك قبلي أُناسٌ ثم عادوا

متهافتين كالفراش على لهيبك الخَدّاع!

على هذا مضت السّنون منك وكذا سيكون فيك وكذا سيكون

الأمْر منْ بَعْدُ!

لَكِ النصر الذي لا دمع في حواشيه[1].

ولنا العار الذي لا عزاء فيه.

نيويورك ١٩٢٩

---

(1) الحواشي: الجوانب. يقصد ليس في النّصر أيُّ دمعٍ.

صورة قلميَّة

جبران خليل جبران

شاعرٌ رَسَّام.

ذاب في الفَنِّ وذاب الفنّ فيه.

فإذا قلت الفنَّان فكأنَّك قلتَ: الفنَّان.

وإذا قلت جبران فكأنَّك عَنَيت جبران.

اشتغل النَّاس بالنَّاس واشتغل هو بنفسه وفنِّه عن كُـلِّ النَّـاس، وطالت عليه العُزْلَة وهي كما يبدو، لا بُدَّ منها لكُلِّ مَوْهـوب، حـتى صار يتعجَّب إذا اختلط بالنَّاس وشاهد فيهم شيئاً من الجمـال الـذي يَنشده في فَنِّه، أو سمع من أفواههم حكمةً يبحث عنها في مملكة خياله، ولكنّه ليس غريباً عنهم إلاَّ في مؤلّفاته ورسومه، وكثيراً ما اعتـزل ذو الموهبة النَّاس لِيَخْدُمَهم، وابتعد عنهم ليقتربَ منهم!

هو الأَديب الوَحيد الذي انصرف إلى الأَدب والفَـنّ في المهجـر بقلبه كُلِّه، وروحه كُلّها، وواقعه كُلّه، فرفع الفَنَّ إلى عرش الاسـتقلال والأُبهة والجمال.

رَبْعَة[1] القامة، بل هو إلى القصَر أمْيَلُ، أَبيض البشرة، في ملامحـه يقظة وبشاشَة، تُطالعُ في وَجْههِ الَوسيم طهارة الطِّفـل ووداعَتـه[2]، وتَلْمَح في عَينيه إخلاصه وإيمانه، فإذا استخفّه الطَّرب ترنَّح كـشارب الخمر، أو كعُصْفور بلَّله القَطْر[3]، فإذا الابتسامه تشرق مـن شـفتيه

(1) رَبْعَة: الوسيط القامة المعتدلُها – للمذكّر والمؤنث.

(2) الوَدَاعة: السَّكينة والوقار والطُّمأنينة.

(٣) القَطْر: المَطر.

ومُقلتيه.

هو فوق الثانية والأربعين من العمر ولكنّه لا يحبّ أنْ يسمع أنّه قد جاوز هذه السّنّ. وهذا غريب من جبران الذي يعتقد بالولادات المتعدّدَة، وعنده للحياة مقاييس تضيع فيها الأعمار المحدودة لا سيّما أعمار الذين لم يتزوجوا بَعْدُ ولا نَحْسبه يتزوَّج غير فنّه. يَلْبَس في سبَّابَته[1] خاتماً كبيراً من الصّفر[2]، قديم الطّراز!

ويحمل عصاً عند خروجه للتّجوال، ويرتدي قميصاً ليّنة الطّوْق[3]، أمّا الطّوق الأبيض المكويّ فلم يُرَ قطّ حول عنقه!

وهو بين الأميركيّين أميركيّ السّيرة والعادات، وبخاصّة في المواقف الرّسميَّة، إلاّ أنّه إذا جلس إلى مائدة عربيَّة رجع إلى قوميَّته لَهِفاً طروباً، ولو كان الطّعام كُلُّهُ بصلاً وثوماً!

وهو لا يتكلّم إلاّ اللّغة العاميَّة أيّا كان محدّثه، ويجد لَذَّةً في ذلك، ويطرب كثيرا للحكايات العاميَّة والقصص التي تُرْوى عن القرويِّين، ولا سيّما ذوي الطفولة منهم، ويصغي بأذنيه أو بأُذُنِ روحه "على لُغَة" للقصص التي يمازجها شيءٌ من الفَلْسَفَة، ورُبَّما استولد منها صورة أو قصيدة أو مقالة.. أو استعارة جميلة.

يُكثر من شرب القهوة العربيَّة أثناء العمل، ومن تدخين السَّجائر. وإذا حضر مجلساً دارت فيه الأقداح أصاب من الخمر كغيره من الجلاّس! بطيءٌ في الحديث، إلاّ إذا أُحرج في مجال حوار، فهو عندئذٍ

---

(1) السَّبَّابَة الإصبع التي بين الإبهام والوسطى.

(2) الصُّفر: النحاس الأصفر. الذّهَب.

(3) الطَّوْق: كُلّ شيء مستدير.

سريعٌ شديد النّبرات. ولا سيّما الموسيقى الشرقيّة.

ولوعٌ بالموسيقى إلى درجة قُصوى، أو إلى العود ينقر إذا شاهدته مصغياً إلى صوت النّاي ينفخ فيه ذو مِران، على أوتاره خبير، خُيّل إليك من هيئته كأنّ روحه تصعّد مـع الأنغـام وتمتزج بها امتزاج النّدى بالنّور، وربّما لمحت في أجفانه أثر الدّموع.

يكتئب كثيراً، ولا يغضب إلاّ قليلاً، أي إذا جاء أمرٌ على غير مـا يتوقّع أو يودّ، اربدّ وجهه أسفاً وجزعاً، فإذا تكلّم وهو في تلك الحالـة لمستَ في ألفاظه الدّموع تنحدر من قلبه إلى قلبك! وقد يكون الأمر لا يَستحِقُّ الحزن، ولكنّ جبران يحزن له ويتأثّر حتى إنه ليرى في الدُّعابـة فاجعة. وهذا غير غريب من شاعر ينظر إلى الصّخر في قارعة الطّريـق، فيتمثّله شيخاً أقعدته السّنُون..!

- مؤامرَة -

اتّفقَ مرّةً أنّ رشيد أيّوب دفع إلى صـاحب "السـائِح" قـصيدة للنّشر، وكانت قد جاءَت جريدة من سوريا في زمن الثـورة، وفيهـا فُسْحة بيضاء ضرب قلم المراقبة على ما كان فيها من سُـطُور، فـرأى صاحب "السائِح" أنّ المجال متّسع للدّعابة، فطبع حروف القـصيدة في تلك الفُسْحة وطرح الجريدة في السّلّة، وأوعز إلى أحدهم أن يتناولهـا ويتظاهر بأنّه يطالعها، حتى إذا عثر على القـصيدة اسـترعى أسمـاع الحضور لتلاوتها عليهم.

وأحسن هذا، فمثّل الدّور المنوط به، فما لبث أنْ قال: هل تحبّون

أنْ تسمعوا قصيدة جميلة؟ حتى كان لا يفوت أحدهم حرف منها، ورشيد يبتسم ويجهد في كتم ابتسامته، لاعتقاده أنَ القارئ أراد أن يمتدح قصيدته، فَلمَّا انتهى، قال أحَدُ الحضُور: لِمَن هذه القصيدة؟ قال الذي تلاها: إنها لابن المُعتَزّ!

قال رشيد وهو يضحك استخفافاً: أمَيْتٌ يَسْلُبُ حَيّاً؟

قال أحدهم: مَنْ تعني بالحَيّ؟

قال الرجل الذي تلاها: لا أخالك تَدَّعيها يا رشيد!

قال رشيد: ولكن لا أحسَبُها تنكرني، وحبرها من سواد ليالي شهر كامل.

قالوا: أتمزح؟

قال: أتجُدُّون؟

هنا سقَطت الجريدةَ على الطّاولة، فوقعت العيون على القصيدة وعلى اسم ابن المعتَزّ في ذيلها، فجعل رشيد يَفْرُكُ التَّوقيع المطبوع بإصبَعه ثم يعود فيُفرك عينيه، ثم يُرجع الجريدة ويقلّبها وينظر فيها على الضوء، فلم يغب عنه أنَّ هناك سِرّاً لم يَهْتَدِ إليه، ولم يستطع أن يُقْنِعَ مَنْ حوله بغير الذي شاهده، فسكت على غيظ ومَضَض، تاركاً للأيّام أنْ تُبرِّئَ ساحته من تُهمَة السَّرقة.

وجاء جبران بعد ساعة، فاختلى به مخائيل نعيمة في الغرفة المحاذية، وقصَّ عليه في جدّ واحتشام كيف دفع رشيد إلى السائح قصيدة ادَّعى أنَّها له، وهي ليست له، وكيف عَثَروا عليها منشورة في جريدة تصدر في سوريّا بتوقيع "ابن المعتَزّ".

فقال جبران: ربما كان رشيد هو الذي بعث بها الى تلك الجريدة بذلك التَّوقيع المستعار!

فقال مخائيل: ولكنَّ رشيد ينفي هذا الظّنَّ وليس من عادته أنْ يُنكِر.

فقال جبران: هذا توارد خَواطِر، ولكن مخائيل أقنعه أنَّ توارد الخواطر لا يكون في قصيدة برمَّتها.

كان جبران يخشى أنْ تصدق التُّهْمَة وأنْ يصدّقها، فَلمَّا لم يجد مهرباً من الإقتناع والتَّسليم قال في حُزْن ويأس: ألا يستطيع عبد المَسيح[1] أن يُصْدِرَ هذه الجريدة بدون هذه القصيدة؟

قال مخائيل: إنَّ السائحَ قد تَمَّ طبعها وهي الآن في البريد، وغداً تصل إلى أكثر المشتركين!

قال: ليتك لم تخبرني يا مخائيل!

قال مخائيل وهو لا يزال محافظاً على جدِّه واحتشامه: إنَّما أخبَرتُك لعلك بما لَك من الدَّالَّة[2] على رشيد تَنْصَح له أن يُصْلِح من شأنه ويتدارك هذه الهَفوة.

فجعل جبران يمشي في الغرفة ذَهَاباً وإِيَاباً وهو مضطرب مترعجٌ، ثم التفت إلى مخائيل وقد كَمَد[3] وَجْهه واغرورقت عيناه، وقال له بلهجة المتوسِّل: بربّك لا تدع رشيداً يدري أنّي قد عرفت بهذه السَّرقة، يا أسفاً على رشيد!

وكاد يبكي إشفاقاً عليه. وصار يحاذر الخروج من الغرفة لئلاَّ

---

(1) هو عبد المسيح حدّاد اللبنانيّ المولد الأميركيّ الجنسية صاحب جريدة "السائح" التي كان أعضاء الرابطة القلميّة من كتّاب وشعراء من أمثال جبران ومخائيل نعيمة ينشرون فيها مقالاتهم وقصائدهم. وكان عبد المسيح هذا معاصراً للشاعر إيليّا أبي ماضي صاحب جريدة "السَّمير" وصاحب هذا المقال.

(2) الدَّالَّة: الجُرأة. ما يُدِلُّ به المرءُ على مَن يُحِبّ.

(3) كَمَد لونه تغيَّر وذهب صفاؤه فهو كامِدٌ.

يشاهد رشيداً "السَّارق" فيتألَّم لمصيره ويَحزن.

هكذا عَبَث[1] عبد المسيح برشيد فزعزع إيمانه في نفسه، ومضى مخائيل يعبث بجبران حتى كاد أن يستقطر الدّموع من محاجره!

ومضت أيّام ورشيد حائِر، وجبران كئيب.

كانون أوّل ١٩٢٩

الزَّائِر الأَصَمّ

ومن هذا القبيل حكاية أُخرى تبيّن سهولة انخداع الإِنسان البعيد عن معترك الحياة!

وملخص الحكاية أنّ شابّاً من المعجبين بكتابات جبران أَحَبَّ أَنْ يتعرَّف عليه، واستعان على ذلك بصديق لجبران فأخبره صديقه هذا أنّ جبران مصاب نوعاً ما بالصَّمم، فهو لا يسمع الحديث إِلاّ عالياً مرتفعاً. ولَمَّا أوصله إِلى الاستديو انفرد بجبران على حِدَة وقال له: إنّ الشَّاب الزَّائِر من المولعين بالفَنّ وله ذكاء نادر، إِلاّ أنّه مصاب نوعاً ما بالصَّمم، ولا يسمع كلام محدِّثه إِلاّ بعدما يرفع صوته في أُذُنه!

فَلَمَّا استقر بالثلاثة المُقَام، جعل الشَّاب ينظر إِلى جبران ويتأسَّف لما في سَمْع الفنَّان من وَقْر[2]، وجعل جبران ينظر إِلى الزَّائر ويأسف لأَنّ الطبيعة سلبته إِحدى حواسه الخَمْس، وهو في مقتبل العمر.

ثم دار الحديث فجعل كُلّ منهما يقترب من محدِّثه ويرفع صوته

---

(1) العَبَث اللّعب.

(2) الوَقْر: الثِّقَل في الأُذُن.

عالياً كأنّما ينادي شخصاً بعيداً.. ثم مضت دقائق والحديث بينهما صراخ، ولَمّا لم يعد في طاقة الصّديق الصدوق لجبران الصَّبْر، أمعن في الضّحك من كليهما بسبب انْطلاء حيلته عليهما..

إذا دخلت على جبران خَفَّ إليك يرحّب بك وكأنّك صديق زاره بعد غياب طويل، وقد يكون بدوره لم يَرَكَ من قَبْلُ، ولكنّك لا تلبث طويلاً حتى تشعر كأنّك واقف أمام رجل لَكَ به صِلة وبينك وبينه أُلْفَة ومَوَدَّة.

يقضي جبران فصل الشتاء في نيويورك لا يزور الحيَّ السوريّ إلاّ قليلاً، ولا يزوره من السوريِّين إلاّ الصّحاب، وحتى هؤلاء زيارتهم لِماماً.

فإذا جاء الصَّيف ذهب جبران إلى بوسطن وضواحيها، حيث صَرَفَ الشطر الأكبر من صباه.. وفي بوسطن ألَّف جبران كتابه "دَمعة وابتسامة".

يختلف الأصدقاء المعجبون به إلى منزله فيستقبلهم مرتدياً ثوباً أشبه بالقُفْطان[1] أو "القنباز" طلباً للرَّاحة والحريَّة الجسديَّة.

قلّما خلا منزله من الزُّوار في أيَّة ليلة لأنّه لم يكن ليفارق بيته عند المساء. ولا تمرّ عليه ليلة دون أنْ يكتب أو يطالع، وذلك بعد انصراف زوّاره. وهو يكثر الشطب والمَحْو، ومن عاداته أنّه كلّما سمع عبارة أعجبته أو نادرة راقته، دَوَّنها في ورقة صغيرة أو على غلاف تحرير معه، أو على كُمّ قميصه دون أن يستوقف محدِّثه، ودون أن يشعر أحد مِمّا حوله!

---

(1) القُفْطان ثوبٌ فضفاض سابِغٌ مشقوق المقَدّم يضمّ طرفيه حزامٌ ويتّخذ من الحرير أو القطن ويُلبَس فوقه الجُبَّة.

وهو أكثر الأدباء مطالعة، ولكنّك لا تجد لذلك أثراً في حديثه أو كتاباته إلاّ إذا كنت من مَهرَة النُقّاد!

سئل عن شعوره كلّما وقف لتصوير غانية جميلة ماثلة أمامه، فقال مجيباً سائله: إنّ شعوري أمام "الموديل" لا يختلف عن شعور أيّ إنسان أمام تمثال حسناء عارية لأنني لا أنظر إليها بعين الرّجل بل بعين الفنّان!

فلا سبيل إلى الحكم على صور جبران وحظّها من الشهرة والبقاء بالقياس إلى الرسوم والصُّور الفنيّة الخالدة.

فبعض الأميركيّين يعتقدون أنْ جبران أقرب إلى الكاتب منه إلى الرّسّام، وبعض من الذين قرأوا جبران في كتبه العَربيّة والإنكليزيّة على حدّ سواء يقولون: إنّه في كتبه الإنكليزيّة أوضح وأحلى..

إننا نجد في كتابه "المجنون" بعض حكايات شرقيّة متداوَلة على ألسنة الشيوخ والعجائز في لبنان، كحكاية الطّائر الذي اشتهى عند الشُروق ثوراً كبيراً، وأكل عندما استقام الظّلّ دودة حقيرة!

وأمّا السّرّ الكامن وراء شهرة جبران فيتجلّى في مقدرته على الخروج بالقارئ قارئه من العالم الذي هو فيه إلى العالم الذي يريد جبران أن ينقله إليه ليجعله يعيش فيه!

فالذّين يودّون أن تتشابه دنياه ودنياهم إنّما يودّون في نظرنا أنْ يكون جبران غير نفسه وغير ما خُلِق له..!

لـو

لو عُهد إلى الشاعر، لا الفلكيّ، أنْ يقسم الزّمن إلى سنينَ والسّنين إلى فصول لَما كان أوّل السّنة شهر "كانون" الذي يجلبب الأرض بالأسودين: الضّباب والظّلماء، بل شهر "أيّار" الذي تضحك فيه الأرض والسّماء، فتصبح السّنة كالإنسان ترقّى في سُلّم الحياة من الطفولة الطّاهرة إلى الشّباب الجريء الطّموح، إلى الكهولة المفكّرة الرّشيدة، إلى الشيخوخة ذات الحكمة، والمهابَة، والوَقار.

فلا بِدْع[1] إذا أحبّ الشاعر الرّبيع وفضّله على سائر الفصول؛ فهو فصل القُوّة والنّشاط والبشاشة والرّواء، أمّا الشتاء فهو فصل الهَرَم، والكآبة، والبكاء.

في الرّبيع تسترجع الجداول أناشيدها، والسواقي أغانيها وتستعيد الأغصان العارية أوراقها، وتخرج الأرض نبتها وبقلها، وتتسارع الأزهار من قلبها إلى أديمها ضاحكة مستبشرة كعذارى خرجن من كهوف الأسر إلى أوج الحريّة.

في الرّبيع تلد الأماني والأحلام، وتتجدّد الأشواق والذّكريات القديمة، وترى الفتى باسماً جَذلاً، لأنّه يشاهد الدّنيا كالعروس في أحسن زينتها، ويرى الزمان مثله فتًى لعوباً طروباً. فكيفما أدار عينيه قابلته البدائِع والرّوائِع، وكيفما اتّجه بسمعه هَزّته التّغاريد والتّهاليل!

لو كان للشاعر أنْ يفعل هذا، أي أنْ يجعل شهر "أيّار" رأْس العام، لِما اعتمد النّاس "التّقويم" وحده لمعرفة ميقات العيد بل كانوا يجدون طلائِعه وبشائِره في كُلّ ما يسمعون ويبصرون.

(1) لا بِدْعَ: لا عَجَبَ.

أليست السماء الصافية بعد الانكدار، والنجوم السافرة بعد الاستتار، واللّيل الهادئ بعد الاضطراب والاكفهرار أدلّ على انتقال الحياة من طورٍ إلى طورٍ، من أوراق مطبوعة، توهمنا أنّ الزّمان قد انشطر إلى قديم وجديد، وماضٍ وآت؟ مع أنّنا في الواقع لم نخرج من منطقة فصل واحد في الشتاء، ولم يحدث تبديل يصحّ أنْ يُدْعى تبديلاً إلاّ في ما تخيّلناه، وتوهّمناه.

ثم أليست الرُّبى المخضرّة كأنّها الزّبرْجد والنّسيم المترنّم في الحقول، والحقول المدبّجة[1] بالزّهر من كُلّ لون، والطُّيور الصّادحة الّتي تتساجل الأنغام وتتطاوح الألحان، والمياه المصطفّة في الجداول والغُدْران، أليست هذه كلّها أقرب إلى أنْ تكون من مظاهر العيد ومعالمه من هذه الأوراق الملبود بعضها فوق بعض، لكُلّ يوم من أيّام السّنة ورقة يعلوها هذا الرّقم ١٩٣٠م؟

أليست مجالي الطّبيعة أحفز للطّرب وأبعث على التّجدّد من الأثواب الجديدة نرتديها وكُلّ ما تحتها قديم خَلَق[2]؟ والأقوال المألوفة نقولها بألسنتنا، ونكتبها بأقلامنا دون أن يكون لها أثرٌ كبيرٌ في أرْواحنا وقُلوبنا، فتمرّ بالآذان كأنّها أنغام قديمة لها في النّفْس حرمة وليس لها طلاوة. بيد أنّه[3]، إذا لم يكن الربيع هنا .فالعيد هنا، وما صنع من أوّل السّنة عيداً إلاّ الأنبياء والشعراء.

فإذا كان الشعراء يعجزون عن نَسْخ آية الفَلَكيّين الذين نظروا إلى ناحية واحدة وهي ضبط الحساب، فهم لا يُعْجِزهم أنْ ينقلوا إلى أذهان

---

(1) المدبّجة: دبّجه نقّشه وزيّنه.

(2) الخَلَق: البالي.

(3) بيد أنّ: غير أنّ، إلاّ أنّ تفيد الاستثناء.

النّاس صورة الرّبيع حتى في شهر كانون ذي الرّياح العاصفة والثلوج المتراكِمَة، ففي قيثارة الشّاعر ألحان تجد في كُلّ نَفْسٍ أُذُنا سَميعَة وليس أقدر منه على التقريب بين الإنسان وآية الطّبيعة.

فإذا شئت أنْ تحسّ أنّك في جوٍّ جديد، وأنْ تجد لقدوم العيد في نفسك طرباً، وفي روحِك نشوةً، فأنظر إلى الحياة بعين الشّاعر لا بعين الحاسب والتّاجر، فتخرج عندئذ من عالم التقاويم ومملكة الأرقام، وتحرّر نفسك من قيود السّاعات والأيّام فتصبح أنت مقياس الزّمن لا الزّمن مقياس حياتِك، وتدرك أنّ العيد لَيْس في لُبْس الجديد، ولا في ما اصطلح عليه النّاس، بل في أن تطرح عن نفسك أثقالها، وتطهّر قلبك من أدْرانه[1] وتجدّد آمالَك قبل أثوابك، وتَلْبَس الابتسام في روحِكَ قبل شفتيكَ. فأنت وحدك تستطيع أن تُسْعِدَ نَفْسكَ أو تُشقيها، ولن تسْعدَها باقتناء الجديد من الثياب ولا بشرب المعتّق من الخَمر، ولا بأكل الشّهيّ الفاخر من الطّعام، فإن النّفْس التي تقف رغباتها عند هذا الحَدّ ليست بالنّفْس الرّاقية.

إنّما السعيد من قَدَر أنْ يجعل غيره سعيداً؛ وأيّ إنسان لا يَقْدِر على هذا الأمر؛ ألا وهو أمْر إسعاد جميع النّاس إذا هو شاء..! إذن فخير ما نتمنّاه لكُلّ إنسان في الأرض أن يكون قادراً على إسعاد نفسه بإسعاد سواه.

سنة مباركة على الجميع إنْ شاء الله.

نيويورك كانون أوّل ١٩٣٠

(1) الأدران: الأوْساخ والدّرَن الوَسَخ.

- الأدب القومي -
- والأدب العام -

أدب الأُمَّة هو الذي تتجلّى فيه حياتها، وما في تلك الحياة من صور الجمال والقُبْح، والحبُّ، والبُغض، والفرح، والحزن، والكرم، والبخل، والشجاعة، والخوف، والجِدُّ، والهَزْل، والإيمان، والكفر، وغير ذلك من الصِّفات الخُلُقيَّة والسَّجايا الفطْريَّة[1]، والتَّقاليد والعادات، والأهواء، والنَّزعات التي لا تنفرد بها أُمَّة دون أُخرى، ولكنَّها تَلْبَس في كُلِّ أُمَّة شكلاً ولوناً مختلفين عن شكلها ولونها في سواها من الأُمَم.

فَإِنَّ كُلَّ أُمَّة تحبّ وتُبْغض، وتَفْرح وتَحْزن، وتَجدُّ وتَهْزِلُ، ولَكِنَّ الفرق كبير بين ضِحْكَة المتوحِّش في أفريقيا، وضِحْكَة المتمدِّن في أوروبا! والفرق أكبر بين غاية المتوحِّش في الحياة، وغاية الإِنسان الرَّاقي..

وإِنَّك لتجد الجمال في كُلِّ أُمَّة وتجد لكُلِّ أُمَّة ولعاً بالجمال ولَكِنَّ الجمال ليس واحداً عند الكُلِّ، ولا حبّ الجمال وتقديره، لاختلاف المَدَارك[2] والأفهام، وتباين الظّروف والحالات..

لَمَّا هام اليونانيّون والرُّومانيّون بالجمال الإِنسانيّ هاموا أيضاً بِإظهاره، وكشفه للعيون، فصوّروا المرأة عارية، ونصبوا لها التَّماثيل في الساحات العموميَّة، وتمادى بهم هذا الوَلَع فأبرزوا إِلَهَتَهُمْ إلى عالم الحسّ والتَّمثيل؛ أمَّا العرب فَلمَّا أَحبُّوا الجمال نشأت الرَّغبة عندهم في سَتره، فحجبوا المرأة عن العيون، وسدّوا المسالِك إِليها حتى على النَّسيم، وبلغ

(1) السَّجيَّة: الخُلق والطبيعة.
(2) المدارك: الحواس الخَمْس.

من اشتداد الغَيرة فيهم على المرأة في الجاهليّة أنّهم كـانوا يئِـدون[1] البنات وهُنَّ في المُهُود[2] لئلاّ يذهبن سبايا في الغزوات والحـروب، أو ينالهم منهنّ عارٌ إذا تزوّجن أو لم يتزوّجن!

ثم جاء الإسلام، وحرّم وأد البنات، فانقلبت تلك الغَيْرَة إلى نوع من السّيطرة العاتية صارت معها المرأة عبارة عن أسير مَسْلوب المَشيئَة، مغصوب الحرّيّة لا يَمْلك من أمْره ضَرّاً ولا نفعاً، وأصبحت المـرأة في الخِدْر في مثل القبر، وفي الملابس التي تغطّيها من رأسها إلى قـدميها في مثل الأكفان، فإذا وقع نظرك عليها حَسبتها مُومياء تمشي.. أمّا التّمثيل والتّصْدير فقد حَظّرتهما الدّيانة اليهوديّة، بل الإسلام لئلا يعود القوم إلى عبادة الأصنام، وهكذا لم تخلص إلينا من تلك العصور صـورة تامّـة للجمال اليهوديّ ولا للجمال العـربيّ إلاّ مـا نلمحـه في الأناشـيد والقصائد!

ولكُلّ أُمَّة أدبان: أدها الخاص وهو ما نـدعوه الأدب القـومِيّ، والأدب العام الشّامل الذي يصل بيننا وبين الأُمم الأُخرى ويتساوى فيه جميع النّاس.

من أمثلة الأدب القوميّ ما اتّصف به العرب من حُـبِّ العيـون السُّوْد بين دَعْجاء[3]، ووَطْفاء[4]، ونَجْلاء[5]، فقد هاموا بهذا النّوع من العيون وتغنّى شعراؤهم في التّشبيب به حتى صارت المرأة التي لم تـرزق

---

(1) وأد بنته: دفنها حَيَّةً.

(2) المَهْد: مَهْدُ الصّبي الفراش.

(3) الدَّعَج: بفتحتين شدّة سواد العين مع سَعَتِها وعينٌ دعجاء.

(4) وَطْفاء: رجل أوْطف بيّن الوَطَف بفتحتين وهو كثير شعر العينين والحاجبين.

(5) نجلاء: والنّجل بفتحتين سعة شَقّ العين والعين نجلاء والجمع نُجْل.

السّواد في عينيها تستعين "بالكُحْل" على إيجاد ما لم توجده الطّبيعة!

وبِقَدْر ما أحبّوا العيون السُّود كرهوا العيون الزّرقاء وأبغضوها حتى صارَت عندهم رمز الشّؤم والشّرّ، بل كرهوا اللّون الأزرق في كُلّ شيءٍ، وتطيّروا من رؤيته في العيون وغير العيون.. ولعلّ سبب ذلك عائد إلى بعدهم عن البحار.. فإنّ أكثر سكّان الجُزُر والشواطئ البحريّة. يجنّون بالعيون الزّرق، ومنهم الإنكليز والأميركيّون والأسوجيّون، فإذا قرأت أشعارهم رأيتهم يشبّهون عيون الحسان بالبحر لزرقته.. وبالنّجم لَمَا فيه من اللّمعان والصّفاء.. ونَدَر أنْ تجد شاعراً منهم يشبّب بالعيون السُّود، كما نَدَر أنْ ترى في الشعر العربيّ استحساناً للزُّرْقة في العيون.

ولكن كُلّ الشعراء في كُلّ أمّة متّفقون على إكبار شأنِ العين وجمال المرأة، وعلى نسبة السّحر إليها لِما فيها من التّأثير على اللُّبّ، وهكذا يتلاقى العربيّ والإنكليزيّ حيث يفترقان؛ يتلاقيان في جمال العين التّام، ويفترقان في الألوان..

وأدب الأمّة نفسه لا يبقى على وتيرة واحدة، بل يتبدّل كما تتبدّل هي إلاّ إذا نزل الجَدْب[1] في عقولها، واحتكم العُقم في أرواحها.. لا يمكن أن يكون الأدَب ضاحكاً طروباً إذا كانت الأمّة باكية، نائحة، ولا يكون قويّاً نشيطاً إذا كانت هي ضعيفة خاملة.. ولا عالياً سامياً وهي جاهلة منحَطّة..

ولا مستقلاً حُرّاً وهي خانعَة مستَعْبَدَة!

ولذلك نرى الشعر العربيّ أدواراً مختلفة، كُلّ دور يَدُلُّ على دَوْر

---

(1) الجَدْب: ضِدُّ الخِصْب.

من أدوار التّاريخ العربي.. ومثله شعر كُلّ أمّة أخرى.

أمّا الأدب العام المشترك بين اثنين قاطبةً[1]، فهو ما اجتمعت فيه صور الحياة وأظلال المشاعر الإنسانيّة، فالشعور بالميل إلى الجمال مثلاً، واحد في جميع الخَلْقِ، وَكُلّ الطّبقات، وسائر العصور، ولذلك كثيراً ما تواردت المعاني بين شاعرين في أمّتين مُختلفتين لغةً وعقيدةً، ولا صِلة جغرافيّة بينهما، ولا رابطة معنويّة..

فلنرجع إلى المتنبّي الذي يجمع شعره الأدب الخاص، والأدب العام؛ فإنّه عندما يقول:

مِنَ الجآذر في زِيِّ الأعاريبِ   حُمْر الحُلَى والَمطايا والجَلابيبِ[2]

يعرض أمامنا صورة من صور الحياة العربيّة في زمانه فنرى نساءً متقلّدات حُلِيّاً حمراءَ بين دمالج وأساور وخواتم، مرتديات جلابيب حمراء، ممتطيات خيولاً أو جِمالاً حمراء.. فنعرف من خلال هذه الصورة أنّ العرب كانوا يحبّون اللّون الأحمر في اللّباس والركائب والحُلِيّ، وقد افتتن المتنبّي بهذا المشهد حتى كَبُرَ[3] عليه أنْ يعتقد أنّ هذه الحسان نساء فقط فقال: إنهُنَّ ظَبَيات[4] في زيّ نساء عربيات؛ وفي هذا برهان على حُبِّ العرب للظّباء لِما في عيونها من سواد واتّساع وفي أعناقها من طول ودَمْلَجَة[5] وفي مشيتها من خِفّة ورشاقة وغير ذلك من المحاسِن!

---

(1) قاطبة: جميعاً وهو اسم يدلّ على العموم.

(2) الجؤذُر ولد البقرة الوحشيّة والجمع جآذر.

(3) كَبُرَ عليه الأمر شقّ وثَقُلَ.

(4) الظّبية والظبي: الغزال.

(5) الدّملَجة: الإتقان والتسوِيَة. والدُمْلُج حلية تحيط بمِعْصَم اليد، جمْعُها دَمالج.

ومثل ذلك عندما يقول:

لا تشتر العبد إلاّ والعصا معه ... إنّ العبيدَ لأنجاسٌ مناكيدُ[1]

فهو يرينا في هذا البيت ما كان عليه العبيد في عصره من المهانة والذّلّ، وما كان يجول في نفوس النّاس من الاحتقار للعبد والنّقمة عليه، والخوف من غدره لانحطاط أخلاقه، ولكن إذا قرأت للمتنبّي قوله:

ومِنَ العَداوَة ما ينالكَ نَفْعُهُ ... ومِنَ الصَّداقة ما يَضُرّ ويَنْفعُ

رأيته ينطلق من ساحة الأدب القوميّ إلى فضاء الأدب العام الشّامل، وينتقل من قومه إلى كُلّ قوم، ومن زمانه إلى كُلّ زمان، لأنّ الصّداقة الماذقة[2] التي كانت تضرّ وتؤلم في زمنه تضرّ وتؤلم في كُلّ زمن، والعداوة التي كان فيها للمَرْءِ نَفْعٌ في بَعْضِ الأَحيان لم تفارقْ هذه الدُّنيا وستبقى فيها إلى الأبد.

والنّماذج في شعر المتنبّي كثيرة لمن أراد أنْ يستقصي ماهيَّة الأدب، من ناحيتَيه الخاصَّة والعامَّة.

ومن يطالع روايات شكسبير الشّاعر الإنكليزي يجد أنّها ليست كُلّها أدباً خاصّاً، بل يصحّ القول إنّها ليست أدباً خاصّاً إلاّ في القليل النّزْر[3] منها، لأنّ معظمها يدخل في باب الأدب العام والاهتداء إلى الأحوال النفسيَّة التي يَلْمُسُها المَرْءُ أيّان سار في الأَرض، وهذا هو السرّ

---

(1) مَناكيد: المَنكود قليل الخير والعطاء، لَجوجٌ مِلْحاح.

(2) ماذقة: مَذَق الوُدَّ أي لم يُخلصْهُ.

(3) النّزْر: القليل.

في تهافت[1] الأمم الأُخرى على نقل مؤلَّفات شكسبير إلى لغاتها..

فلو شاء الإنكليز اليوم أنْ يحرِّروا أدبهم القومي من الأدب العام لَمَا بقي من الأدب العالمي الضَّخم الذي لهم إلاّ ما يبقى من الماء الموضوع في الغِرْبال[٢].

نيويورك في ١ شباط ١٩٣٠

عُمَرُ الخيَّام

كوكب متألّق طلع في سماء الشَّرق، وأفَل نوره، وأبناء الشرق نائمون.

حار النَّاس فيه حَيْرته في الوجود، فرماه قومٌ بالجنُون، ورماه العَصَبَة[٣] بالمروق والجُحُود[٤]، ونظر إليه الرَّاسخون في العلم نظرةً ذاتَ معنى ثم أمسكوا عن الكلام مخافة أن يُقال فيهم ما قيل فيه!

والحكيم في ذلك العصر من صرف عنه ألسنة الغَوْغاء[٥] والجهَّال، على أنَّ الرَّجل لم يكن بالجاحد الذي يُخْشى شَرُّه، ولا بالزاهد الذي يَستَشْفي النَّاس بلَثم أذياله، ولكنّه كان حكيماً مفكّراً، ينتهي به الشّعرُ إلى الفلسفة، والفلسفة إلى الشّعر! فيكون كُلّ شيءٍ كأنَّه في كُلّ شيءٍ،

---

(1) تهافت: التَّهافُت التَّتابُع.

(2) الغِرْبال: أداة تشبه الدّفّ ذات ثقوب ينقّى بها الحب من الشّوائب.

(3) العَصَبَة: قوم الإنسان الذين يتعصبون له وينصرونه. الواحدة عَصَبٌ.

(4) الجُحُود: الإنكار والجَحْد قلّة الخير.

(5) الغَوْغاء: من النَّاس الكثير المختلطون، والسَّفَلَة.

وينظر إلى نفسه كأنّه ينظر إلى النّاس كُلّهم!

ولد عمر الخيّام في نيسابور من أعمال خراسان في أوائل القرن الحادي عشَر، ومات في نيسابور في الرّبع الأوّل من القرن الثاني عَشَر.

كان يتطلّع إلى ما وراء حدود البَصَر، ويَشعُر بما هو فوق الشعور، ويفتكر بما يقف عنده الفِكْر، فهو كان حَسيراً[1]، حتى إذا غُلِبَ على أمره عاد فرأى كُلّ شيءٍ باطلاً، وأنّ من العَبَث أن تذهب هذه الحياة القصيرة في غير المَسَرّات!

كان في الحانة يسمع رنين الكؤوس وهو ذاهل، ويراها تُفرَغُ وتَمْتلِئُ والسّاقيّ يروح بها ويغدو صفراء كالتِّبْر[2]، أو حمراء كالشَّفق أو باهرة كالشُّعاع، فلا يزداد إلاّ ذُهُولاً وتَفكيراً.

كان يَسيرُ في الأرض بين الورود والرِّياض، ولكن لا كما يسير النّاس للتفرُّج والنُّزْهة. يرى البنفسجة فيحسَبها مُهجةَ عاشق ملّت البقاء دفينةً، فخرجت مِنْ بطن الأرْض إلى ظهرها، لكي تتمتّع بالهَوَاء والنُّور، ويطأ النّبات النّامي وكأنّه يطأ قلوباً وأرْواحاً..

كان يقف على ضِفّة النّهر فلا يَقْنَعُ بالنّظر إلى حواشيه المخضرّة، ولا يستقرُّ بِفكْره عند شاطئَيه، بل يسير معه وهو يقول في نفسه: مِنْ أين؟ وإلى أين؟

كان ينظر وهو في حُجْرته بين الأوراق والمحابر إلى المَحْسوسات المَرئيّات فلا يرى بينها وبين الأحلام والأحاييل فَرْقاً؛ كلاهما للزّوال والاضمحلال.

فيَحَارُ ويَحارُ حتى يَضِيقَ به المكانُ، أو يَضِيقَ بالمكان ذَرْعاً

---

(1) الحَسير: الضعيف البصَر.

(2) التِّبر: الذّهَب.

فيخرج إلى المكان الفضاء لعلّه ينتشي!

ولكنَّ هذا المكان لم يكن ليبدّل سوى الأعْيُن، فالبُلْبُل الذي تعوَّد التّغريد سواء عليه أطلقته أم سجنته! والأسد في القفص مثله في العَرين[1] يحبّ الزّئير ويطلب فريسته. إنّ النّفس التي تتألّم وهي مع النّاس، تتألّم وهي وَحْدَها أيضاً!

لذلك كان عُمَرُ الخَيّام يقف عابساً حتى أمام المناظر التي تَخلُق الابتسامة في ثَغر اليَتيم، وكذلك كُلّ مَنْ وَجَدَ نَفْسَهُ أسيرَ هذين السّؤالين:

منْ أين؟ وإلى أين؟

إنّي لأتخيّل ذلك القَبَس[2] الإنسان جالساً في حَلْقَة التّدريس في رِواق[3] الجامع، يسمع ما يدور بين الأُستاذ النيسابوري والطّلبة، وهو شاخص الطّرف كُلّما حاول الاعتراض على قضيَّة أمسكت لسانه التّقاليد التي أطلقت لِسَان الأستاذ، ها هو قد اضطرب في مكانه، وتَمَلْمَل من التّعليلات الواهية التي تلقى على رفقائه وأترابه، ثم أتخيّله وقد غلبت عليه الحَيْرَة، فأطْبق كتابه، وأغمض عينيه، والتفت إلى نفسه يخاطبها هَمْساً: [الخفيف]

صاحِ دَعْهُمْ يعلّلون الوُجُودا ... ويحارون قُوَّماً وقُعُودا

إنّ أتعابهم بغير ثِمارٍ ... وأُصولاً تُعَدُّ للأشجارِ[4]

---

(1) العَرين: مأوى الأسد والضّبعُ والذّئب والحيَّة وجماعة الشّجر ج عُرُنٌ.

(2) القَبَس: شُعْلَة من نار. واقتبس منه ناراً وعِلْماً أي استفاد.

(3) رِواق: سقف في مقدّم البيت. ستر يُمَدّ دون السّقف.

(4) أَصْل الشيء أساسه الذي يقوم عليه.

وأتخيلّه في مجالس بنيسابور يحارب الخُرافات[1] والأوهـام بقـوّة المَنْطق والبيان[2]، ويحاربه أهلها بالغَوْغاء الذين يتوكّأ عليهم الباطـل في الشَّرْق فيتوكّأ على قُوّة عمياءَ، تندفع كـالفَرس الجَمـوح، فتقتـل، وتخرِّب، ثم نعود فتُخلَع عليها الخِلَع[3] وتُنْثر عليها الدَّنانير، كما تُنْثـر على العروس!

عُمَرُ الخَيّام وردة نبتت في غابة من الشَّوْك، ولكنَّهـا لم تختنـق. عَصَب قومُه أعينهم طواعِيَة، وشاؤوا أنْ يَعصبوا عينيه أيضاً، فـأبى أن يسير أعمى، فقال: لَكم دينكُم، ولي دِيني، دَعُوا يا قوم مثال الله، يفكر في صِنْوِ[4] الله، دَعُوه يفكّر في مَحْياه، ومَماته، ومبدإه، ومَعَادِه[5]! أنـا محقٌّ وأنتم في ضلال مُبين، فلماذا تلومونني ولستم علـى يقـين ممّـا تزعُمون، ذروني وشأْني مؤمناً كنتُ أو كافراً، فما أنتم وكلاءَ الله على الأرض، خُلقتم من ماء وطين، وخُلقْت من ماء وطين، وكما أذهـب سوف تذهبون فلا تتوقّعوا منّي أنْ أُداجيكم[6] وأُوارِبَكم[7] لأنّـي لا أريد أن أعيش مُعَذّباً، لا اريد أنْ أكون مقيَّداً، فإن أكن مصيباً فـذلك ما أسعى إليه، وإن أكن مذنباً فالله غفورٌ رحيم.

---

(1) الخُرافة وخُرَافة اسم رجل من عُذْرَة استهوته الجِنُّ فكان يحدِّث بما راى فكذّبوه وقالوا حديث خُرافَة...

(2) البَيان: الحُجّة – المَنْطِق الفَصيح.

(3) الخِلَع: الخِلْعة ما تخلعه من الثياب ونحوها. ويقال: خَلَع عليه خِلْعَةً أعطاه أو ألبَسه إيّاها ج خِلَعٌ.

(4) الصِّنْو: الشّقيق، الشّبيه.

(5) المَعَاد: الحياة الآخرة– والمَرْجع والمصير.

(6) داجى: المُدَاجاة المداراة سَتْرُ العداوة.

(7) واربه: مُوارَبَة خدَعةُ وداهاهُ.

ورأوْك يا عمرُ تنظر إليهم تارَةً ضاحكاً، وتارَةً عابساً، فأدركوا أنّك لستَ منهم، ومع ذلك لم يعرضوا عَنك بل أعرض عنهم أنصارهم، فهانت مبادِؤهم وهانوا، فقالوا: خَلِيع مُتَهَتِّك[١] فقلت: خليع وابن خليع، يشهد الله أنّي سكّير.

قالوا: مجنون به مَسٌّ[٢] من الشّيطان.

فقلت: نَعَم، مجنون به مَسٌّ من الشّيطان فابتعدوا عَنّي أو ابتعد عنكم. وخشيت أنْ يكيدوا لَك كَيْداً، ففررتَ إلى الفضاء الرَّحب، تُغنّي مع الطَّير، وتميل مع الزَّهْر، وتَسْهر مع الكواكب وتَعْصِرُ نَفْسكَ في الكأس ثم تشربها مع الخَمْر.

لله، أنت يا عمر، ألم يَرَ الخَزَّاف[٣] غَيْرَك؟ فلماذا لم يقولوا كما قلت له: [الخفيف]

أيّهاذا الخَزَّافُ قد فُقْتَ حِذْقاً	ولقد نلتَ في النُّعومة سَبْقا[٤]
لَك صيتٌ يَذيع غَرْباً وشَرقاً	إنّما ارْفُقْ فَسَوف تَطْلب رِفْقا
من خَرِيف تزول أنت	فبقايا الأَسْلاف ما أنت مِنْهُ[٥]

صانعٌ ما يُحَيِّرُ الأَلْبابا[6]

وكما قال المَعَرِّيّ:

---

(1) هَتَك: وتَهَتّك جاوزَ حدود الاحتشام فهو متهتّك.
(2) المَسُّ: الجنُون ومُسّ بالضَّمّ فهو مَمْسُوس.
(3) الخَزّاف: صانع الخَزَف أي الفخّار وبائعه.
(4) الحِذْق: الإتْقانَ.
(5) من خريف: أي خريف العمر..
(6) اللُّبُّ: العقل وجمعه ألباب.

سِرْ إنِ اسْطَعْتَ في الهواءِ رويداً لا اختيالاً على رُفاتِ العِبادِ

هل نفخ أبو العلاء من روحه فيكَ، ونفختَ فيه من روحِك؟ فقد تشابهتما حتى كِدْتُ أظنكما واحداً؛ كذلك تتماثل الأرواح، كما تتشابه الوجوه!

كانوا يَشْرَبون الخمر، فيُعَرْبِدُون[1] كالمجانين، وكنت تَشْربها فترتفعُ بك إلى المَلأ الأعلى[2]، وتَصعد بك إلى ما فَوْق الأجرام، فترى بعينيك ما لا تستطيع أن تعبِّر عنه بلسانكَ، وما هكذا يكون الجاحد! كنت تبكي وأنت بين الكأس والحبيب لأنّك تجد نفسك والكأس والحبيب أوهاماً باطلة، وخيالاتٍ زائلة، وما هكذا يكون الخليع! لولا اعوجاجٌ في أبصارهم لرأوك مستقيماً، لولا ظُلْمة في قلوبهم لرأَوْك نيِّراً، ولولا صممٌ في أذهانهم لسمعوا أغاريدك، ولكنه الشَّرق لا يعرف لأبنائه قَدْراً حتى يَغْتربوا عنه، كنت في سُكْرِكَ أفضلَ منهم في صَحْوهم، وفي سُكوتِكَ أحسن منهم متكلِّمين! وها أنت في القَبْرِ أغلى وأَرْفع منهم، وهم في القصور، كثُرَ عُشَّاقُكَ في الغرب لأنَّ في الغرب عيوناً تنظر ما وراءَ العيون، وقلوباً تَخْفِقُ مع القلوب الخافِقَة؛ فسلام الله عليك يا عُمَرُ، وسلام على الشَّرق وإن تعامى عَنْك!

هذا هو الرَّجل الخالد الآثار الذي طار ذِكْره في أوروبا وأميركا، فعرفه المؤرِّخ، والصَّحَفِيّ، والشَّاعر، والحاكم، والعاميّ، وأَحَلُّوه المكان الأوَّل في ديوان الأدب، وأنزلوه أَحْسَنَ منازل الفِكر.

---

(1) عَرْبَد: ساء خُلُقُه على النَّاسِ آذاهم.

(2) المَلأ الأعلى: عالَمُ العقول المجرّدة والنُّفوس الكُلّية.

هكذا يُحيي الغربيّون آثار مشاهير الشّرْق، ونحن في غَفْلة مُعْرِضُون، يعيش المفكّر بيننا فلا يكاد ينتشر ظلّه حتى يتقلّص كما يتقلّص الظّلّ. ويموت فيموت كُلّ شيء معه لأنّ الكاتب عندنا شَخْصُه، وهذا أحد ملوك الفِكْر في الشّرْق نام عنه الملوك حتى كاد يَطْمع به السُّوقَة[1] ورأى من تعنّت الجَهَلة ما حمله على الإعتزال والتّزهّد. مَسَخ بعضُهم بعضَ آياته، وشوّه البعضُ الآخرُ بَعْضها الثاني؛ حَسبوا أنّهم يلاشون ذكره فابت سُنّة البقَاء أنْ يتلاشى..

ذهب كسرى وإيوانه، وتمزّقت مملكة الشّاه، والرَّبيب[2] الخيّام باقية آثاره لتُذَكّرَ الغرب بالشّرْق.

وما أَجمل الذّكرى!

جَوْلَةٌ قصيرة
الشّتاء في الأَرْض الخَلاء

انْطلقتْ السّيّارة انْطلاقة الطائرِ إلى مَرْتَع خِصْب ذاهبةً بنا إلى مدينة بتسفيلد ماس، في يوم شاحب السَّماء، باردِ الهواء، فكُنّا نَمُرّ بالتّلال والسهول، فنراها لابسةً من الثلج حُلَلاً بيضاء ناصعة لامعة، لا تَقْصُر عنها ولا تَطُول، وننظر إلى السَّواقي والجداول والبُحَيْرات، فإذا هي باهتة جامدة، كأنّها تستحضر ذكريات قديمةً أو تتهيّب أسوداً آتية،

(1) السُّوقة أوساط النّاس والرَّعيّة.

(2) والرَّبيب المَلك. وهو ابنُ امرأة الرَّجُل من غيرِه.

تلاصقت دُقَاق[١] الماء فيها، وتلاحمت حتى صارت كألواح الصَّحائف، لا يسرب بينها الهواء السَّاري، ويَزِلُّ عنها الماء الجاري! وتــدلّت مــن الأشجار العارية عناقيد من الجَمْد[٢] كأنّها ثريَّات من البِلّــوْرِ عُلّقــتْ هناك لهِدِاية الأرواح التَّائِهة في الفضاء!

ضياء ولا حرارة، وشراب ولا كؤوس، وحبال وأمراس ليــست حبالاً ولا أمراساً.

هكذا تبتدع الطبيعة الصُّوَرَ الجميلة البَدِيعة، وتَخلُــقُ المــشاهد السَّاحرة الخالبة[٣]، ولا تبالي أن تقع العيون عليها ولا أن تدوم وتَخلُدُ، بل كُلّ ما يهمّها أنْ تَخلُقَ دائما وتبتدع أبداً..

إنَّها الشَّاعر الأكبر والرَّسَّام الأعظم!

وكلنا عيال على هذا الرَّسَّام!

في هذا اليوم – وهو يَوْمُ شتاء – يعلّق هذا الفنَّــان الحــاذق في الأشجار قناديلِ تَشِعُّ وتَسْطَعُ وحولها عناقيد من الجَمْد تَبْرُقُ وتَلْمَعُ، أو يُدَلّيه منها حبالاً " كهُدَّاب الدِّمَقْس المفتّل"[٤] تَغرّ وتخدع.

وغدا يجيءُ الرَّبيع فيتعلّق في الأغصان الوَرَقُ الأخــضر، والثَّمــر اليانِعُ[٥] ويحرّكها فتَمِيسُ[٦] كالحِسان الكواعــب[٧] المثقلــة بأمــاني

---

(1) دُقَاق: والدُّقَاقَة فُتاتُ كُلّ شيءٍ

(2) الجَمْد: الثلج، الماء الجامد.

(3) الخالب والخلاَّب: هو الخدَّاع. والمنظر هو الفاتنُ الجميل يخدع العقل والقلب.

(4) هُدَّاب الدّمَقْس المُفتَّل: أطراف الثّوب الحرير المحكمةاللَفِّ. وهذا من عجُز بيت للشاعر امرئ القيس، شبَّه فيه لحمَ وشحم ناقته الطريءَ بها.

(5) اليانع: يَنَعَ الثّمر يَنْعاً ويُنْعاً حان قِطافُهُ.

(6) ماسَ: تبختر وهي ميساء.

(7) الكواعب: الجارية الكاعب في بدء صِباها.

الشّباب، ورغائبه، اليومَ يَعْرِضُ أمامنا راكداً جامداً، فإذا هو صحائف وألواح.. وغدا يَعْرِض علينا جارياً مترقرقاً فإذا هو ألحانٌ وأنغام.. وفي الحالتين يجيئنا بالأَتمّ الأَبْدَع..

هي مشاهد رائعة، ليت القابعين في المدينة الذّاهبين الآيبين في مثل السَّراديب[1] تزوَّدوا لأنفسهم منها نَظَرات، فإنّ الشتاء الذي يكرَهُونه، فيه من الجمال شيءٌ كثير، وأَحْسَنُ جمال الأَرض الخلاء[2]!

في مطعم!

كنت وأحد الرِّفاق نتناول الغَدَاء في أحد المطاعم، ونتحدّث في شؤون لا أقول تافهة، ولا أقول مهمّة، ففي المطاعم تختلط الأُمور الجسام[3]، بالصَّغائِر[4] والهَنَات[5] كما يمتزج في القِدر الدَّسَم والماء واللّحْم والنبات، وقد تجري فيها أحاديث نَعُدُّها اليوم تافهة فلا تمضي سنوات حتى تصبح حديث الدَّهر..

ألم يكن ليون تروتسكي من المجهولين الذين يقضون أيّامهم في المطاعم، وذلك قبل أن شبَّت الثورة الحمراء في روسيا، فطار اسمه مع كُلِّ شرارة من شراراتها؟

---

(1) السِّرْداب: بناء تحت الأرض يلجأ إليه من حرّ الصَّيْف ج سَرَاديب.
(2) الخَلاء: المكان ليس فيه شيءٌ أو أحدٌ.
(3) الجُسام: جَسُم الشيءُ أي عَظُمَ فهو جسيم.
(4) الصَّغائر: ضدُّ الجسام والكبائر.
(5) الهَنَاتُ: الدّاهية ج هَنَواتٌ.

والكتّاب المشاهير - أيّ كاتب ولا سيّما الروائيّين - ألَمْ يكن للمطاعم والحانات فَضل عليهم في استخراج المشاهد، وتصوير الوقائع؟ ففيها يَلْمُس الكاتب المراقب نفسيات النّاس ويتعرّف على عقلياتهم، ويَطّلِع على شخصياتهم وما في تلك الشخصيات من أسرار وألغاز. فالإنسان الجالس إلى المائدة في المطعم، غيره في بيته أو بيت سواه، حديثه لا كُلْفَةَ[1] فيه، وحركاته لا مسيطر عليها، ونفسه في جَوّ يحسَبه حُرّاً، وإن لم يكن في الواقع بالجَوّ الحُرّ.

وإنّنا لفي الحديث؛ من خبر رَجُلٍ غريب، إلى نادرة مستملَحة إلى رأي في أمْرٍ مِنَ أُمور المعاش، إذ دخل مُحتَشِمٌ في مشْيَته وحركاته، فلمّا رآنا أومأ إلينا بمؤخّرة طَرْفِه كأنّه يحيّينا، وجلس قُبالَتَنا[2] إلى مائدة قريبة من مائدتنا، فإذا بصديقي يترك كُلّ حديث كُنّا فيه، ويُقبل عَليّ ليحدّثني عن ذلك الزّائر، فقال:

أتعرف هذا الرّجل؟

فقلت: رأيته، مراراً منْ قَبْلُ، وسمعت به قَبْل أنْ رأيته إلاّ أنّي لم أتعرّف إليه بالذّات؛ يظهر أنّك تعرفه جيّداً!

قال: أجَل، أعرفه عندما كان فقيراً لا يَمْلِكُ إلاّ أحلامَه! قلت: والآن؟

---

(1) الكُلْفَة: التَصنّع ضدّ الطبيعي.

(2) قبالَة: وجلس قُبالَتَهُ أي تُجاهه وما استقبَلَكَ منه.

قال: أمّا الآن فقد أصبح هو لا يعرفني، ولا يذكرني إلاّ كما يذكر المرء هَفْوة[1] ارتكبها في شبابه، فهو الآن غنيٌّ تُقدَّر ثروته بمائة ألف دولار!

قلت: ولكن لم تحاول سَلْبه ثروته، فلماذا يتحاماك ويتحاشاك؟

قال: لعلّ ذلك لأنّه يتذكّر أيّام الفَقْر والخَصاصة[2] كلّما رآني..

قلت: ولكنّه غير فَقير الآن.

قال صديقي: ولَكِنْ أنا فقير!

وضحك: فضحكت لجوابه وما انطوى تحت جوابه من التّهكّم الجارح وقلت: إذن، يجب أن تتملّى مِن صُحْبتي فقد أصير غَنيّاً بين ليلة وضحاها.

فأجابني وهو هادئ مطمئن: هذا أمْرٌ لا أخافه لأنّه لن يحدث إلاّ إذا جَنّ[3] اللّيل والنّهار، لا تصير أنت غنيّاً إلاّ إذا صرتُ أنا قَبْلَك!

قلت: لا تَجْزمْ، فلا يشبه شَخْصٌ شخصاً، ولا حالةٌ كحالته.. فالحياة كالمرآة قد تجد الزِّينة في أنْ يكون لها زينة، فتهونُ الجواهر الكريمة ويَرْخُصُ قَدْرها.

فلا أدري أيُّ شيءٍ حرّك لِسانيّ فقُلت لصاحبي: هل لَك أن تعرّفني إلى صاحبك الغَنيّ؟

قال: بربّك حَوِّل هذه الكأس عَنّي.. فإنّ ما بي من غناه مثلُ الذي به من فقري.. استوى الماء والخَشَبة.

---

(1) الهَفوَة: الزلّة.

(2) الخصاصة: والخَصاص الفَقر.

(3) جَنَّ اللّيل: أظلَم.

وكُنّا قد فرغنا من الأكل، فألححتُ عليه أن يكون سفيري إلى صاحبه، فلم يجد مَناصاً، فتَكلّفَ الابتسام، ثم دنا بي منه، فسلّم عليه، فقدّمني إليه حَسَبَ المُعْتاد. ولم يَنسَ أن يقول لي على مسمعه إنّه التّاجر الشّهير، والوجيه الكبير. فتحرّك الرّجل في مقعده كما تتحرّك القصبة في الرّيح، وكانت يداه على الطّاولة، فردّهما إلى الوراء واعتدل في جلوسه ونظر إليَّ، وكأنّه لم يكن قد استوعب آسْمي بَعْدُ، وذلك بعد نظْرة واسعة المَدَى، ذكرتُ بدَوري معها مقالة نابليون لجنوده لدى وقوفه أمام أبي الهول في مصْرَ: إنّ أربعة آلاف قرن تنظر إليكم.. فما كان منّي إلاّ أن بدأت أُحَدِّق في وجهه وكأنّ مائة ألف دولار تنظر إليَّ من خلال أجفانه.. ثم مددت يدي أُصافحه، فوقعت يدي في يد باردة ناعمة كأنّما القلب قد أضرب عن إمدادها بالدَّم الكافي.. فكدت أترنّح من هذه المفاجأة لأنّي لم أكن أحلم قَطّ أنْ أُصافح في حياتي مائة ألف دولار مَرَّة واحدة.. إنّ للثروة جلالتها ومهابتها، قد لا تراها ماثلةً أمام عينيك، ولكن حَسْبُكَ[1] أن تسمع بأنّ فلاناً "يسوى" نصف مليون دولار مثلاً. فيتبادر إلى ذهنك خطأً أم صواباً أنّ فلاناً رجل كبير.. وتتصوّر في الحال شخصية ممتازة، وقد يصدق حَدْسُك[2] حتى ولَو كان يوجد بين الأغنياء في كثير من الأحيان، من لا يحسن الكتابة من بينهم ولا القراءَة ولا يملأُ في الأَرض غير الجسد الذي يملأ جسمه.

فجلست بدَوري، وجلس بقربي صديقي وهو يتململ ضجراً وتأفّفاً، ثم أخذت في الحديث مع ذلك الغنيّ الكبير؛ ومن مِنّا لا يَلَذّ له

---

(1) حَسْب: حَسْبُكَ دِرْهمٌ أي كفاك.

(2) الحَدْسُ: الظنّ والتخمين.

أنْ يتحدّث إلى مائة ألف دولار ولا سيّما في مكان عمومي قد يتساوى فيه الخطير والحقير عند النّاظر.

قلت: لا شَكَّ أنَّ الأُمَّة تفتخر بأن يكون فيها عِصاميّون[١] مثلك، ويا حبَّذا لو تيَسَّر للوطن الأوَّل أن يستفيد من تَجاربك واختباراتك وثروتك، فهو محتاج إلى الأغنياء الذين ينعشون المشاريع الاقتصادية فيه!

فقلب صاحبنا شفتيه ساخراً، وقال: الوطن الأوَّل! قَهْ، قَهْ[٢]، إنّي لا أشتريه بكُلّ أرضه وسمائه بدولار..! أنا لا أقدر أن أعيش بين قوم غير متمدّنين!

وكان وهو يتكلَّم قد تناول الشَّوكة وغرسها في صحن المجدَّرة الذي أمامه وهو ذاهل، فعلمت للحال أنَّ المئة ألف دولار هي التي تكلّمني، ولَكِنْ لم تكن هناك و لم أقدر أن استحضر في ذهني صورها وذلك لأنّني لم أرها بعيني من قَبْلُ، فلم يَبْق أمامي إذن من صورها البهيَّة سوى صورة هذا الرَّجل الألمعيّ الذي أدهشني حينما رأيته يأكل المجدَّرة بالشَّوكة.

ولَمَّا نظرت إلى صديقي رأيت وجهه قد غابت نَضَارَتُه وراء بَشرَة شاحبة، كأنَّما طلعت عليه أفعى...

وكاد ما أصابه أن يصيبني، غير أنّي تجلَّدت، فقلت: لا رَيْب عندي في أنَّ رجلاً مثلك - قضى معظم حياته بين الأميركيّين وألف حياةَ الزِّحَام والنِّضال - لا يَلَذّ له أن يعود إلى حياة السَّكينة والاسترخاء، ولكنْ ألا تظنّ أنَّ وجهاً كبيراً كوجهك ينال من الاحترام في وطنه ما لا يناله في غير وطنه..

---

(1) العصاميّ: مَن ساد بشرف نفسه لا بشرف أبائه.

(2) قَهْ قَهْ: قَهْقَهَ رجَّع في ضحكه أو اشتدّ ضَحكهُ. فإذا كرَّره قِيل قَهْقَه.

قال وقد ازداد احتشامه: يظهر أنّك قد هبطت المدينة حديثاً فلم تعرف بعد أهلها، والوجهاء فيها، إنّ من كان مثلي لا يغترب عن مكان، فالدُّنيا كلّها وطن الأغنياء، ولَوْ وَقفت على زاوية الشّارع في الصَّباح لرأيت الشرطيّ يحيّيني قبل أنْ أصِلَ إليه. وإذا ما تحدّثت إليه فهو يحدّثني بأدب واحترام، وكأنّني أحد أنسبائه، أو أصدقائه..

فبالأمس سِيق أحد أبناء الوطن من معارفي إلى السّجن وذلك بسبب مخالفة ارتكبها، فذهبت إلى القاضي وكلّمته بشأنه فأخرجه من السّجن في الحال بكفالة زهيدة.

وكم لي من الخَدَمات في سبيل أبناء بلادي، ولكنهم قلّما يذكرون فضل ذي الفَضْل.. إلاّ إذا كان غريباً عنهم.. وبعد هذا تسألني العودة إلى سوريّا..

وكان كُلّما استغرق في حديثه معي كلما خُيِّل إِلَيَّ أنّ ثروته تضمحل وتتلاشى.

ولَمَّا ختم حديثه معي نَهَضْتُ فمدَّ يَدَهُ ليودّعني فمددتُ إليه يدي متثاقلاً، وقُلْتُ: آسِفٌ لحِرْمان الأُمَّة السّوريَّة لا من ثروتك وحدها بل من علمك الفيَّاض.. حقيقة أنّ مدرسة الحياة أعظم مدرسة!

قال: إنّك شابٌّ متنوّر، ولطيف. فهل أنت مقيمٌ في نيويورك؟

قلت: بضع ليالٍ ثم أُسافر إلى سوريّا!

قال: لماذا؟ أأنتَ تذهب لتدفن شبابكَ وذكاءكَ في تلك الأرض التي لا تُنْبتُ غَيْرَ الكُسَالَى!

قلت: أنا ذاهب إلى وَطني لأُعلّم أبناء قومي كيف يأكلون المجدَّرة بالشّوكة؟

فأنتفض لهذا التّوبيخ وعَجزَتْ المائة ألف دولار أنْ تردَّ عنه هــذه اللّطمة المُؤلمة! وخرجنا وهو فاتِحٌ فَمَهُ كالأبله، متمنيّاً في قرارة نفسه لو كان كل دولاراته رصاصةً، لكي يُطْلقها علينا!

ولَمَّا صِرنا في الشّارع، قال لي صديقي: ماذا استفدت مــن هــذه المعرفة؟ قلت: استفدتُ أنَّ المال كالخَمْر، ولا يجوز أنْ يشربَ الخَمْرَ كُــلُّ النّاس لأنّها تُظْهِر المكْنونات، وليست كُلّ المكنونــات مِمَّــا يُسْتحــسن ظُهورُها!

نيويورك في أيّار ١٩٣٠

السَّهَر مع أهل الميِّت

من عاداتنا الآخذة في التقلّص والاندثار، عادة الــسَّهر مــع آل الميِّت. قد يكون منشأ هذه العادة وهمٌ قديم، أوجده الخوف أو الجهل، إلاّ أنّها نشأت وصارت عادةً، مفيدة من وجوه شتّى..

فوجود الأصدقاء والجيران مع آل الميِّت، وأحاديثهم عن الحيــاة، وما يتخلّل تلك الأحاديث من الحِكَم والعِظات، لَمِمَّا يصرف أفكــار المفجوعين ويُدْخل إلى نفوسهم الكئيبة بعض التَّعزيــة؛ فلــيس أضَــرّ

بالمحزون من الوحدة والانفراد، وهو فائر العواطف، فـائر الـشُّجون والذّكريات..

وما أكثر الذّكريات التي تتسارع إلى الخاطر أمام الجثث الهامـدة، فتبعث الأسى في الأرواح، وتكشف الرَّماد عن جَمْر مُلْتَهب!

ولا بُدّ للمصاب في سَوْرَة[1] اللّهفة والاستغاثة مـن الـشّكوى والتَّوجّع، فقد لا تكون الشّكوى للجُدران التي لا تسمع، ولا للكراسي الخالية ولا القناديل، والصّور التي تـزداد نفـس المحـزون اصـطخاباً واضطراباً كلما نظر إليها بعين الذّكرى.. وإنّما تكون الشّكوى إمّا إلى قريب أو نسيب أو صديق أو جار شـفيق.. أو بـالأحرى إلى نفس مواسية..

فالعدول عن هذه العادة لا مبرَّر لها، وإن كان بعـضهم يُـسيء استعمالها أو يغالي فيها مُغَالاةً تشوّهها، فكثيراً ما كان الشيءُ في نفسه مفيداً حتى يتناوله مَنْ لا يحسن التَّصرّف به، فيحوّله من مفيدٍ إلى مُضِرّ، أو من جميل مُسْتَحْسَن إلى قَبيحٍ مُسْتَهْجَن!

ليست عادة السَّهَر مع آل الميِّت من العادات التي تُمْدَح في محيط وتُذَمّ في محيط آخَر، لأنَّ الموت في كُلّ محيطٍ، وشعور الإنسان مع أخيه الإنسان الذي غَشيَ الموت داره، هو في المدينة مثلمـا في القريـة، وفي عصر السِّراج والشَّمعة مثله في عصر الغاز والكهرباء، وهو في لابِـس الدّمقس[2] المُهَلْهَل مثله في لابس الخَيْش، وفي أعظم فيلسوف مثلـه في راعي الضَّأن والماعِز.

---

(1) سَوْرَة اللَهفة: شدّتها وحِدّتها.

(2) الدِّمَقْس: الحرير.

وعليه لا ينبغي لنا أنْ ننبذ هذه العادة أو نَمْقُتها بحُجَّةِ أنّنا في بلادٍ غير بلادنا، أو لأنَّ بعضهم أساء استعمالها أو خرج بها عن القصد السَّوِي[1] بل علينا أن نتروَّى في درسها، فلا نسرف حيث يجب أنْ نقتصد، ولا نطيل حيث يجب أنْ نُوْجز، ولا نقهقه حيث يكون الابتسام لَمْحاً.. ولا نجهر حيث يجب أنْ نتكلّم هَمْساً.. ولا نتكلّم حيث يجب الصَّمت والإصغاء..

وبعبارة مختصرة، إنَّ كُلَّ عادَة سواء كانت موروثة أو مُكْتَسَبة ليست جميلة أو قبيحة في ذاتها.. وإنَّما نحن الذين نَقْدِرُ أنْ نجعلها جميلة محمودَةً، أو قبيحة مَمْقوتة..

وما دام النَّفْع في العادة أكثر من الضَّرر .. فهي صالحة للبقاء، ومن الفضيلة التَّمَسُّك بها، فلا تنبذوا عاداتكم وتقاليدكم قَبْلَ دَرسها وتَمْحيصها..

نيويورك ١٥ حزيران ١٩٣٠

---

(1) السَّوِيّ: المعتدل لا إفراط فيه.

أَتَلْعَبُ ؟

لا تَقُل إنَّك كبرت عن الصِّبا، وقَطَعْتَ تلك النَّاحية، وإنَّ اللَّعب للأولاد، إلاَّ إذا كنت تعني باللعب القفز والجمز والرَّكْض والتَّسلّق، فإنَّ اللَّعب أنواع مختلفة حتى ليصعُب تَحْديدُه كما يَصْعُبُ تحديد الجَمَال..

أنت تلعبُ .. وإنْ قلتَ إنَّك لا تَلْعَب سَواءٌ أكنت فتًى غَريراً[1] أو كَهْلاً وَقوراً، وستظل تَلْعَب حتى النَّفَس الأخير من حياتك! بل يجب أن تَلْعَب، وإنْ كنت مُخالفاً لسُنَّة الحياة فيك، ومَنْ يُخالفْها يَشْقَ!

إنَّ المَيْل إلى اللَّعب فطري[2]، لا في الأولاد وَحْدَهم بل في صغار الحيوانات كُلِّها؛ لأنَّها تكتَسِبُ باللَّعب عافيتها، وتَبْني قُوَّتَها وتُنَمِّي مداركها.

فالكبار يلعبون وإن كانوا لا يَقفِزُون ولا يَجْمزُون، وإنَّ المُتعمِّق في دَرْس هذه النَّاحية في أطوار البَشر، لَيَندهِشُ عندما يتَّضح له أنَّ الوَلَع باكْتشاف الأقاصي المجهولة نَوْعٌ مِنَ اللَّعب، واللَّهو، ولا سيَّما عندما يقرأ وَصْفَ الرُّوَّاد للفرَحِ الذي استحوذَ عليهم عندما لاحت لهم أرضٌ جديدة وقد شاهدوا فيها قبيلة من البشَر، فهذه اللَّذَّة هي التي تحملهم على ركوب المخاطر، لا حُبُّ الكَسْب ولا الهوَى والمَجْد..

وما يقال في الرُّوَّاد يقال في المخترعين، والشُّعراء، والمصوِّرين، والموسيقيِّين، والنَّحَّاسين، والمُهَنْدسين، والميكانيكيِّين، فإنَّ كُلَّ هؤلاء

---

(1) الغَرِير: الشَّاب لا تَجْربة له ج أغِرَّة وأغِرَاء.

(2) الفِطْرَة: الخِلْقَة التي تكون.

يجدون فيما يعملون ما يَجِدُ الولد من اللَّذَّة في اللَّعِب..!

وكما يستفيد الوَلد مِنَ اللَّعب قوَّةً ومعرفةً، كذلك يستفيد هؤلاء الشُّهْرة والغنَى دون أَنْ تكون الشُّهْرةُ والغِنى من غاياتهم الأَوَّليَّة فيما انصرفوا إِليه من الشؤون..!

كلّنا مفتقرون إِلى اللَّعب، لأَنّنا كلّنا مفتقرون إِلى الحريَّة نزَّاعون إِليها، وإِنَّما اللَّعب مثل كُلّ شيءٍ آخَر، إِذا جاوز الحَدَّ انقلب إِلى الضدّ.. خَيْرُ الأمور الوَسط..!

نيويورك ١٥ حزيران ١٩٣٠

صُورة قلميَّة

أخذتُ القلم لأَرْسُمَ صورة إِنسان أَو مكان، فتسارعت الصّور إِلى مخيّلتي كالأَسماك التي وقع إِليها شيءٌ من الطَّعام، وأَنا أَجد لكُلّ صورة معناها، وأَستشعر وَقْعه في نفوس النَّاس، وأَهُمُّ أَنْ أَرسمها على القُرْطاس، فإِذا بالقلم يُعاصيني فكأَنَّه الزَّورق في النَّهْر يَدْفَعه النُّوتي[1] من ناحية، فيذهب به التَّيار في ناحية أُخرى..

وإِنّي لكذلك، إِذ أَقبل عليَّ صديقي، فقال: ما بالُكَ في ٱرْتباك؟ قلت:

تكاثرت الظّباء على خراشٍ فما يدري خراشٌ ما يصيدُ[2]

وَقصصت عليه حكاية ما أَنا فيه مِنَ الحَيْرَة فَلمَّا انتهيت، قال:

---

(1) النُّوتي: النَّواتيّ الملاحون في البحر الواحد نوتيٌّ.

(2) الخِراش: ما يخدش ويعضُ (السِّباع والضّواري). صاحبُ هذا البيت هو الشَّاعر أبو خِراش واسمه عبد الرَّحمن بن محمَّد بن خراش

- علاجك عندي.
- ما هو ؟
- فإذا حرْت ماذا تكتب، فلا تكتبْ!

ولكن الشّاعر، يقول:

- إذا مَرَّ بي يومٌ و لم أكتسب يداً[1]...فما ذاك من عمري!
- أما يمكن أنْ تكتسب يداً بالإصغاء ؟
- لم أفهم قَصْدَك!
- أنا أُملي عليك قِصّة تخرج بك من هذه الوَرْطة، فهل تسمع؟
- بل أسمع، وأكتب.. هاتها.

وقدّمت إليه سيكارة، فأشعلها، واقترب بكرسيّه مِنّي، وشرع في الحديث، فقال:

التقيتُ به منذ اثنتي عشرة سنة في المدينة التي تمشي فيها الجرائمِ سافرة متبخترة في ظلّ الأبراج والقِباب، وتسير الفضائل مستحية مُنْكَمِشةً كأنّما تتهيّب أنْ تَلْمَسَ أقدامُها التُّراب..

هو تاجر كبير، مرّت عليه طوال السِّنين في أميركا، وهو مَشْلُول المَواهِب خامل الذِّكر. فَلمَّا شبَّت الحرب الكبرى أفاض على الدُّنيا كُلّ ذكائه ودهائه. وأصبح في سنة واحدة من كبار الأغنياء..

بالطّبع إنّ كثيرين أثْرَوْا في تلك الأيّام كما أثْرى.. ولكنّ الفضل في إثرائِهم للظُّروف، أمَّا هو فلا فَضْل في إثرائه لغير ذكائه..

---

(1) اليد: أكتسب يداً أي حمداً من أجل عَمَلٍ صالح أحمد عليه عند النّاس. (والتعبير مجازي)

وكثر المال بين يديه، فظهرت رائحته في كلامه، ولمعانه في ابتساماته، وقوّته في نظراته، وصار العالم كُلّه ميزاناً هو منه في كفّة والنّاس كلُّهم في الكفّة الأُخرى..

وعرفت الجرائد قدره في تلك الأيّام، فكان لا يُصاب بالزُّكام إلاّ أسرعت بإخبار النّاس بأنّ الأرض مُعتَلّة لاعتلاله، ولا آب من سفَرٍ إلاّ وسُيِّرَت المواكب لاستقباله.. ولا ذهب في الصّيف لزيارة عميل أو قضاء حاجة إلاّ عرف كُلّ إنسان في كُلّ مكان أنّه ذاهبٌ للاصطياف..

ولا تبرَّع بدولار إلاّ سَمِعت كُلّ أُذن حَسيسَهُ[1] وهو مُنْطلق من يَده، مع أنّ الرّاديو لم يكن ظهر إلى الوجود بَعْدُ! وإذا دعا بعض الأَصحاب إلى العشَاء في دارِه، صار العشاء في اليوم التّالي وليمةً.. ونشر حاتم طيّ من رَمْسِهِ، وبعثت معه أريحيّته[2] وكرمه، وصارت الدّار سَمَاءً تتألّق فيها النُّجوم.. وصارت اللّيلة "ليلة قَدْر"[3] في ذلك المترل فقط!

على أنّ ذلك التّاجر النّابغة كان بالرّغم من إطراء الأَقلام إيَّاه.. يحتقر كُلّ مشتغل بالقَلَم، فما جرى أمامه ذِكْرُ الكُتّاب والشعراء والفلاسفة إلاّ ضَحِكَ منهم استخفافاً بهم، ورماهم بالنَّقْص في المدارك والعقول، قائلا في نفسه: إنّهم لو كانوا على شيءٍ من الفَهْم لصاروا من الأغنياء.

---

(1) الحَسيس: الصّوت الخفيّ.

(2) الأريحيّة: والأَريحيّ الواسع الخُلُق.

(3) ليلة القَدْر: هي الليلة التي نَزلَ فيها القرآن، وموصوفةٌ بأنّها [خيرٌ مِن أَلفِ شَهْرٍ] سورة القَدْر ٩٧/٣.

سمعته مرّة يتنقص أقدارهم، فحزنت أشدَّ الحزن، لأنّني ممن بلاهم الله بحبِّ الأدب، وكنت أنقم على الحياة لأنها لم تحبّب إليَّ الغنى فأسعى في طلابه وأحوزه، وأحظى بصحبة هذا الرّجل بالفعل..

وبلغ من حزني أنّي كنتُ أحْسَبُ كُلَّ من رزقه الله ثروة مثلُ هذا الرّجل في رأيه، فصرت أخشى الدُّنُوّ منهم - ولي فيهم عَدَدٌ مَن الأصدقاء - لئلا أسمع منهم ما سمعته منه، بل صِرْتُ أخشى أن أصير أنا نفسي غنيّاً لئلا تتبدّل عقليّتي ونفسيّتي!

أجل، حزنت كثيراً، ولكن لم أنقم على هذا الرَّجُل بل كنت أحْمَدُ الله في سرّي أنّه يَمْلك ثروة، وأنّه سعيد، لأنّه قَدَر أنْ يكون صاحب ثروة! ولطالما رَجَعْت إلى نَفسي الثّائرة، فقلت لها: يا هذه، إنّ غاية الأدب والفنّ والفلسفة جعْلُ الحياة جميلةً محبوبةً، وجعلُ النّاس سعداء، فإذا كان المال وَحْدَهُ يؤدّي هذه الوظيفة، فلتكنْ له السّيادة في الأرض، وليكن الكُلُّ مِنْ جنوده بل من عبيده!

وهكذا أقنعت نفسي بأنَّ ذلك الرّجل مُصِيبٌ أو على الأقل مَعْذور فيما يذهب إليه من الآراء!

ومضيت ألتمس له الأعذار، فإذا ضَحك منّي قلت: إنّه يضحك لي، وإذا نظر إليَّ بمؤخّرة طرْفه، قلت: لعلّ الأدب العالي هو أنْ يُحَيّي المرء صاحبه بمؤخرة طَرْفه، وإذا حيّيته في الشّارع فتكلّف رَدَّ التّحيّة أو تشاغل عن رَدّها قلت: إنّه رجل أذْهَله التّفكير في تجارته الواسعة النّطاق فذهب بما فيه مِنْ يقظة وانتباه، وإنّما يَخِف[1] للتّحيّة من لا يَشْغَلُهُ عنها شيء

---

(1) خفَّ إليه أسرع ونشط.

آخر.. إذ لا يَعْقِل أنْ يكون هذا الرَّجل الذي تترنَّم الجرائد بمدحه بُكْرَةً[1] وأصيلاً[2]، قليل الأدب..!

وهنا توقَّف صاحبي عن الكلام ليُشعِل سيكارة أُخرى ثم مضى في الحديث، فقال:

وكانت الحَرْبُ مُوشِكَةً أنْ تَضَعَ أَوْزارَها[3]، وتَهْمُدَ نارُها، فَخَبا اسمُ ذلكَ التَّاجر العِصَامِيِّ[4] الكبير من الصُّحُف فجأةً كما يخبو قنديل، وكما تضمحلّ مَوجةٌ، فلم أعد أقرأ أنّه سافر إلى أوروبا، أو ذهب إلى المصايف الجميلة، أو أقام وليمة، أو تبرّع لمشروع، حتى كدت أحسَبُه قد مات، ولكن كيف تغتال المنيَّة رجلاً عظيماً كالذي عَرَفْتُ، ولا يدوّي نعيه في طول البلاد وعَرضِها، ولا تنشر الصّحف سيرة حياته مطوَّقة بالسَّواد. إنَّ في الأمر لسرّاً عجيباً ما زلت أجهله، حتى ذهبت بالأمس إلى حفلة عموميَّة فرأيته هناك، رأيته جالساً على انفراد يمرّ به أصحابه فلا يسلّمون عليه وينظر هو إليهم فلا يلتفتون إليه، فهاج بي الفضول، وشاقني أنْ أعرف سرّ هذا الإعراض في القوم عن رجلٍ كان مَعْدُوداً إلى عهد قريب من عِلْيَة القوم، وراعني أنْ يخلع النَّاس مودَّاتهم وصداقاتهم كما يَخْلعون جواربهم وأحذيتهم؟!

ذهبت أسأل وأسْتخبر، فقال لي أَحَدُهم: إنَّ الرَّجُل خَسِر منزلته منذ خَسِر ثروته..

قلت: وهل خَسِر ثروته؟

---

(1) بُكْرَةً: أي باكراً.

(2) الأصيل: الوقت بعد العَصْر إلى المغرب.

(3) الأوزار: الوِزْر الإثم والثّقل.

(4) العِصامِيّ: من ساد بشرف نَفْسِه.

قال: أكثرها لا، بل كُلّها!

فلم يقنعني هذا الجواب، لأنّي أعرف كثيرين من النَّاس أضاعوا كُلَّ ثروتهم وبقيت لهم مكانتهم في القلوب، كما أنّي أعرف كثيرين لهم مكانة، ولا مال معهم؟

وقال آخَر: ربّما كان هو الذي طابت له الوحدة والانفراد، فإنَّ قوَّة النَّسْر تتجلّى في وَحْدَته..

قلت: ولكِنَّ مجيئه اللّيلة إلى هذه الحفلة لا يؤيِّد رأيك فيه بل ينفيه!

وكدنا نقف بالحديث عند هذا الحَدِّ، وإذا برفيق لنا يقول: أنا أُطْلِعُكم على دخيلة هذا الرَّجل! فهو لم يعتزل النَّاس زهداً، ولا جاء اللّيلة لكي يثبت للمَلأ أنّه موجود وإنّما لإعراض أصدقائه عنه سبب، وأعني بأصدقائه القوم الذين كان معهم في حومة التِّجارة من قَبْلُ، أمَّا السَّبب فهو أنَّ هذا الرَّجل عقد شِرْكة مع بعض التّجار، وكان هو مديرها فلم يقنع بحصَّته وحدها من الأرباح بل تناول أكثر من حِصَّته، ولا شكّ أنّه وجد لذلك مُسَوِّغاً[1]؛ فقد كان الدِّماغ المفكّر في الشركة، والرَّأس المدَبِّر، ولكنّه أخطأ التَّقدير فلم يشاور شركاءَه في الأمر ولا أقنعهم بأنّه أحق منهم بالذي أخذه.. فَلمَّا جاء وقت الحساب نقموا عليه واتّهموه باللّصوصيَّة والاختلاس، فعظم عليه الأمر، وأصابه عارضٌ كاد يذهب بحياته، ولكنّه لم يذهب إلاّ بشرفه فقط!

بالطَّبع إنَّ هذه التُّهمَة لا أَساس لها، ولكِنَّ الصّحف انقطعت بعد ذلك الحادث عن ذكر التَّاجر العِصاميّ.. كما انقطع هو عن إلقاء الدّروس على النَّاس في التِّجارة والاقتصاد والفلسفة!

---

(1) مُسَوِّغ: سوَّغه له تسويغاً جوَّزه.

فَلمَّا سمعت هذه القصَّة زاد ما أَلَمَّ بي من الوسواس وسوء الظَّنِّ بالنَّاس، وقلت في سرِّي: صحيحٌ أَنَّ حِرْفة الأَدب لا تُغْني من فَقْرٍ ولا تُسْمِن من جوع، ولكِنَّ صاحبها لا يضطرّ إِلى الاختلاس..!

ولَمَّا وصل صاحبي إِلى نهاية هذه الحكاية التي قصَّها على مَسْمَعي زفر زَفْرةً حارَّة، فلم أَدرِ أَكان منه إِشفاقاً على نَفْسه أَم على بطل قِصَّته، ثم ودَّعني ومَضَى، وبوُدِّي لَوْ أَنَّه بقي..!

نيويورك ١ تموز ١٩٣٠

الجيرانُ

قالوا.. ويقولون.. وسيقولون!

الجيران جماعة من النَّاس كلّهم ظالم، وكلّهم مظلوم. أَنت إِذا عُدْتَ إِلى بيتك لا تسأَلْ عن سكَّان الصِّين، ولا سكان أَفريقيا، بل أَنت لا تسأَل إِذا كنت في بروكلين عن سكَّان نيويورك، لأَنَّك لا تعرفهم، ولا صلة لَك بهم، وإِنَّما تسأَل عَمَّن حولك من النَّاس، عن جيرانك الذين يَرَوْنك وأَنت ذاهب إِلى عملك، وأَنت عائد إِلى بيتك، ويعرفون ذلك من خلال سلوكك جميع ما أَنت فيه من أَحوال، أَغنيّاً كنت أَم فقيراً، أَم تاجراً كبيراً، أَم مستخدماً بسيطاً، فطَوْراً يَبْخَسُونَك[1] حَقَّك ويُنْزلون من مكانتك، وحيناً يعطونك أَكثر من حَقّك، ويرتفعون بك إِلى حيث لا تَحْلُمُ، ولا تَوَدّ أَنْ تكون، ولا قِبَلَ[2] لك، وليس في وُسْعك أَنْ تخرج من

---

(1) بَخَس فلاناً حَقَّه: لم يُوَفّه إِيَّاه.

(2) ولا قِبَل: القِبَل الطَّاقة والمَقْدِرة.

هذه الدَّوائِر، فأنت محكوم من جيرانك، أردت أم لم تُردْ، ولهم آراؤهم فيك وأحكامهم عليك، عرفت أم لم تعرف، وأنت أياً كُنْتَ أحدُ اثْنين: إمَّا رجل لا يبالي بالجيران، فهو أبداً يجافيهم مُعْرِضاً عنهم وكأنَّهم في غير هذه الدُّنيا..! أو رجل يَحْسُب لِمَا يقوله الجيران ألف حساب، فلا يأتي أمراً إلاَّ إذا كان فيه رضاهم؛ فلم تعد تلبس ثيابك إلاَّ إذا كانت على أذواقهم، ولا تفرش منزلك إلاَّ وأنت تفكِّر بالجيران وما يعجبهم من أنواع الأثاث، ولا تسمح لأولادِك بأن يلعبوا في الشَّارع إلاَّ إذا كان أولاد الجيران أيضاً يلعبون..

ولَكِنْ سَوَاءٌ كنتَ الرَّجل الأوَّل أو الثاني، فلا نجاة لَك من ألسنة الجيران، فهم هناك دائماً.. وهم هناك لكي يكون لهم رأي فيك وحديث عنك، إمَّا خيراً وإمَّا شرّاً. ولا تنس أنَّك في الحالتين مدفوع إلى ما تعمل بعامل الخوف من أقاويل الجيران، وأنَّك أخيراً لا غنى لك عن الجيران، وإن كرهوك أو كرهتهم، فيجب والحالة هذه أنْ تتَّخذ معهم خطَّة وُسْطى، فتسايرهم إلى حَدّ محدود، وتستقلّ بنفسك وأمورك استقلالاً لا أقول ناجزاً فهذا أمْرٌ مستحيل، وإنَّما يكون لك استقلال واسع؛ هذا إذا لم يتسلَّط عليك الخوف مِمَّا سيقولون أو يتقوَّلون.. فإنَّ الخوف هو الآفة الكُبْرى التي تَشُلُّ إرادة المرء، فيصبح عبداً لجيرانه..

ولا يزول الخوف من نفسكَ حتى تعلم أنَّ المرء مَهْما صَنَع، وكيف سلك، لا بُدَّ أنْ يتناوله النَّاس بالبَحْث والنَّقد.. وأنْ ليس في قِدْرة أيّ إنسان أنْ يُرْضي كُلَّ النَّاس..

وتحت كُلِّ الظروف لا بُدَّ من أنْ يظنَّ بعضهم بنا أنَّنا لا نخرج من البيت إلاَّ نادراً.. وأنْ يقول آخرون: إنَّنا قلَّما نكون في البيت، وأن يزعم هؤلاء أنَّنا مسرفون، ويدّعي غيرهم أنَّنا بخلاء، ويعتقد آخرون أنَّنا ندلّع

أولادنا.. ويُبَرْهن غيرهم أنّا قساة القلوب وأنّنا لا يجب أنْ يكون لنا أولاد، لأنّنا لا نعرف قيمتهم..

أمّا إذا اقتنينا سيّارة فيعجب قوم كيف قَدَرْنا أن نَقْتَنيها؟

وإذا لم يكن لنا سيّارة فيتساءَل آخرون: لماذا لا نقتني سيّارة؟ وإذا كان منزلنا مرتّباً هادئاً زعم قوم أنّ حياتنا الزّوجيّة مثال للحياة الهانئة السّعيدة، وقال آخرون: إنّما هذه مظاهر غشّاشة، وهكذا يمضي الجيران يتحدّثون بنا صِدْقاً أو كَذباً، كما نتحدّث نحن بهم، فكلّنا في الهوى سواء.

إذن فالطريقة المُثلى لمعالجة هذه القضيَّة هو الرجوع إلى الحكيم الهولندي والنّسْج على مِنواله[1].

قيل إنّ تاجراً هولنديّاً أصاب ثروة طائلة فَجْأة، وكان يعلم أنّ جيرانه وأصحابه سيُكثرون الأقاويل حَوْل مصدر هذه الثروة. فبنى قصراً فخماً، ونقش على بابه العبارة التالية: قالوا، ويقولون.. وسيقولون.. ألا فليقولوا ما يشاؤون!

وشرّ ما في الخوف من "قال النّاس ويقولون" أنّ عائلات كثيرة تنفق فوق طاقتها مماشاةً للجيران، وتفادياً لانتقاداتهم.. فكَمْ مِن عائلة اقتنت سيّارة وليس في طاقتها أنْ تقتنيها ولم تكن لها رغبة فيها، ولكن الجيران عندهم سيّارة فيجب أن يكون لنا مثل ما لهم وإلاّ قيل عنّا: إنّنا فقراء أو بُخَلاء..

وإذا ما سمعنا أنّ جيراناً لنا صنعوا وليمةً أو عملوا سهرة، فما علينا نحن بدَورنا إلاّ أنْ نَحْذُو حَذْوَهم[2] وإلاّ أخرجنا النّاس من عِدادِ الأخيار

---

(1) المِنوال والنّول: آلة الحياكة قديماً. والمعنى هو المُحاكاة والعمل بالمِثْل.

(2) وحذا حذوهم: أيْ فعل مثلهم.

المتمدّنين.. يجب أن نقلّد جيراننا في ملابسهم، ، وأحوالهم، ولو اقترضنا المال ورهنّا العَقار!

فيا أيّها الخوف من الجيران، ما أعظمَ سلطانَكَ على نفوس الضُّعفاء الذين لا يقوَون على مقاومة تيّاركَ فيندفعون مع كُلّ تيّار!

لا تَذُمّ الجيران ولا تتأفّف منهم ومن أقاويلهم، فهذا لا يُجديك فتيلاً[1]، وإنّما الذي يفيدك ويعيد إليك حرّيتك واستقلالك هو أن تكون لَك شجاعة، فتختار من الأعمال ما يوافق طبيعتَكَ، وتمدّ بساطك على قَدْر رجلَيك، فإنّك إذا فعلت لا تلبث أنْ تسمع الجيران يمتدحون قناعتك، وبساطتك، وصراحتك، وقوّة آرائك، وحسن تدبيرك. أمّا إذا ادّعَيت بما ليس فيك ولجأت إلى التّصنّع فتظاهرت بأكثر ممّا في طاقتك، فإنّك لا تلبث أنْ تنفضح وتسقط كبيت "من ورق" وتصبح مُضْغة في أفواه جيرانك وغير جيرانك! ثم يجيءُ يوم تَعضُّ فيه أناملك ندماً، وتسخر من نفسك أكثر ممّا يَسْخَر الجيران...

عشْ على قَدْر ما يمتدّ دخلُكَ، لا على قَدْر ما تمتدّ رغائبكَ وأحلامك، تَعِشْ مُسْتريحاً..!

١٥ سبتمبر ١٩٣٠

---

(1) الفتيل: نفعاً أو شيئاً.

مذكّرات أحمق

الحَرّ اليوم شديد حتى إنّ جارتي "ج" لم تخرج من دارها لِئَلاّ تتعرَّض للحَرّ فَتَعْرَق، فيفتح العرق في وجهها أقنيةً، وخُلجاناً، وحفراً لا تطمسها علبة البودرة الصغيرة التي تحملها، كلّما خرجت من المنزل..

أمّا أنا فقضيت ساعة أبحث عن برنيطة القشّ التي اشتريتُها في آخر الصّيف الماضي، لأنّ برنيطة الجوخ لا تطاق - وإنْ كانت ليست أثقل - والعادة المتّبعة هي أن يَلْبَس المرء في الصَّيف برنيطة قشّ فإذا لم يفعل عدَّه النّاس بخيلاً أو مُفَلّساً، أو جهولاً!

لم أجد البرنيطة في الخزانة، ولا وراء الباب، ولا على الرَّفّ، فضاق صدري، ودار لساني يفتِّش عن كلمات تفرّج كربي[1]، فلم يعثر إلاّ بالمفرقعات النّاريَّة، ولَمَّا تضايقت خرجت إِلى الشّارع حاسِرَ الرّأس، وأَنا أنوي أنْ أُسرع إِلى حانوت لابتياع برنيطة جديدة!

وشدّ ما كان استغرابي عندما التفتّ، فرأيت الرِّجال والشُّبَّان يمرّون أمامي، وكلّهم حاسرٌ عن رأْسه، فتعجّبت لهذا الاتفاق، وقلت في نفسي: إذن لست أنا وحدي الذي أَضاع برنيطة القشّ. ولَمَّا وصلت إِلى حانوت البَرَانيط، وقفت أمام الشّبّاك ناظراً إِليها، بل قُلْ في أثمانها، وكنت أعتقد أنّي لن استطيع الدّخول لشدَّة الزّحام، فإِذا بالقوم يمرُون أَمام الحانوت دون أنْ يلقوا عليه نظرة، وليس على رأس واحد منهم برنيطة..

أيّ شيءٍ في هذا الحانوت يمنع النّاس من الدخول إِليه؟ أصاحِبه مريض بالجُدَرِيّ[2] أم داخله عُصْبَة من الأَشقياء؟

---

(1) الكَرْبُ: الحزن والغَمّ ج كُرُوب.

(2) الجُدَرِيّ حُمّى مُعْدِيَة تتميَّز بطَفَح حُلَيْميّ على الجلد يتقيَّح ويعقبه قِشر.

وإنّي لكذلك أضرب أخماساً لأسداس إذ شعرب بيدٍ تُلقى على كتفي، فإذا أنا بصديق لي يقول: ما بالك واقفاً هنا؟

قلت: أريد أن أشتري برنيطة قش، فشدّني من يدي وقال: أتظلّ كلّ حياتك على الموضة العتيقة؟ أما ترى النّاس كلّهم بلا برانيطا أما قرأت أنّ لُبس البرنيطة يورث الصّلع والشّيب، لأنّه يَحجب نورَ الشّمس عن الشّعر؟

قلت: إذن، لا حاجةَ بي إلى البرْنيطة.

قال: كَلاَّ.

قلت: وهل حقيقةٌ أنّ البرنيطة تجلب الصّلع والشّيب؟

قال: هذا ما لا شكّ فيه.

قلت: إذن، لن أشتريها.

١٥ سبتمبر ١٩٣٠

—الثلاثاء—

كادت المدينة أن تخلُوَ بعدما ترك النّاس أشغالهم، وفرّوا إلى الشاطئ من وجه الحَرّ المذيب، وكنت أشعر بوطأته، ولكن لم أتضايق إلاّ عندما تناولت الجريدة، وقرأت فيها أنّ بعضهم قلى البيض على بلاط الشّارع، وأنّ بعض المارّة سقطوا مغشيّاً عليهم، وبعضهم فارق الحياة، وأنّ التّفّاح على الشجر، أصبح لشدّة الحرارة كأنّه مطبوخٌ بالأفران. فقلت لِنفسي: إلى متى أبقى في المترل، وأنا كُلّما شربت كأساً من الماء البارد، غسلني العرق الحارّ.

وخرجت أمشي إلى الشاطئ القريب، ولكنّي لم أسِر غير مائة ذراع حتى أصابني صُداع شديد، فملتُ إلى حانوت مرطّبات وطلبت كأساً من عصير البرتقال، فما أفادتني شيئاً، ثم ابتعت قطعة من الجليد وجعلت أفرك بها جبيني وصُدغي[1]، وكنت أحسَب أنّ الصّداع سيفارقني عند وصولي إلى البحر، ولمّا وصلتُ زال عنّي، وإنما حلّت مكانه قشعريرة شديدة رَعَشَ لها جسمي كُلّه فأدركت أنّي مصاب بالحُمّى، فاكتريت سيّارةً، وعدت إلى المنزل مُسْرِعاً.

-الأربعاء-

أنا اليومَ طريحُ الفِراش، زارني الطّبيب في المساء فسألته عن عِلّتي فقال إنّها من ضربة الشّمس، وإنّي لو لم أخرج مكشوف الرّأس لما ألزمتني الحُمّى الفراش.

وهكذا يصيب ما أصابني كُلّ من يندفع في تيّار الموضة ويقلّد الجُمْهور بلا رويّة ولا تبصّر.

حَقّاً، إنّي ضعيف الإرادة، لو اشتريت برنيطة لوفّرت ما دفعت من مال للطبيب والصّيدلي والسّيّارة وبائع المرطّبات، وكنت على الأقل أُعفيت من لزوم الفراش لمدّة يومين..

---

(1) الصُدْغ: ما بين العين والأُذُن من جانب الوجه وهو أيضاً الشعر المتدلّي عليه صُدْغاً يقال: صُدْغٌ مُعَقرَب.

-الخميس-

هممتُ اليوم على ابتياع برنيطة قشّ غير مكترث للجماعات التي أراها بلا برانيط، فدخلت حانوتاً، واشتريت منه بُرْنيطة جميلة خَفَّض التَّاجر سعرها من خمسة دولارات إلى دولارين ونصف، لوقوف الأحوال وإِضراب الرِّجال عن لُبْس البَرانيط..

-الجمعة-

لَبِسْتُ بُرْنيطتي الجديدة، وخرجت أتمشَّى وأنا فخور بها، ما سألني أحد إِلاَّ وقلت له: إِنَّ ثمنها خمسة دولارات وإِن كانت تُباعُ مِنْ قَبْلُ بثمانية عشر دولاراً..

ولَكِن التَّاجر الذي باعها خفَّض سِعْرها لكونه قد كان مُضْطرّاً إِلى تصريف بضاعته، ولولا ذلك لظلّ محافظاً على سِعْرها القديم.

وهي تساوي في نظري عشرين دولاراً بل أكثر، وذلك لأنَّها قد حفظتني مُبْعِدَةً ضربة الشَّمس عَنِّي.

-السَّبْت-

صدق من قال: في العَجلة النَّدامة، فربّما كانت السَّعادة كلّها متوقّفة على صَبْرِ ساعة أو نهار!

مررت في هذا النَّهار من أمام الحانوت الذي ابتعت منه بُرْنيطتي الجميلة الغالية، فرأيت في الشّبّاك مئات مثلها وعليه مكتوب وذلك بخطّ ضخم أحمر:

كُلّ بُرْنيطة في هذا الحانوت للبيع - السّعر نِصْف دولار!

نيويورك ١٥ سبتمبر ١٩٣٠

مُذَكّرات أَحْمق

كلب يَخْطب وعجوز تَغْضَب.

كان في الحيّ الذي أسكنه رجل غير نبيّ ولا فيلسوف، ولكنّه يفهم لغات الحيوانات كصاحب البِساط..

حدّثني قال: أَقبل المساء، وكانت اللّيلة مُمْطِرَة، فجلست أستمع إلى الرّاديو، هذه الآلة التي أسقطت الفونوغراف عن عرشه، وتبوَّأت صدر المجلس في كُلّ بيت تقريباً، فصار والبيانو كأنّهما من العاديات[1] القديمة.

ارتفع صوتٌ أَجَشّ[2] جَهِير[3]، فقال: يتكلّم الآن كلب من كلاب المدينة قدّمه قومه ليرفع شكواهم إلى الجُمْهور..

هو كلب نشأ في زُقاق حقير من أزقّة البلد، وقاسى في صِغَره الفَقْر والمَسْكَنة، وقضى زمناً متشرّداً كغيره مِنَ الكلاب.

خرج ليلة إلى الأرض الفضاء فطلع عليه القمر وهو يسير وَحْدَه في الطريق فطَفِق يَنْبح نُباحاً شديداً ردَّدت الأَودية صَداه، وإذا بثلاثة شخوص تركض مسرعةً، فازداد نُباحاً، وعلى الأثر جاءَت سيَّارة فخمة،

---

(1) العادية: ما يشغل الإنسان عن الشيْء. الظُّلمْ والشرّ.

(2) الأَجَش: الغليظ.

(3) الجهير: العالي.

ووقفت إلى جانبه، فانقطع عن النباح، وسكن جأشه[1]، ونزل منه رجل حسن الهِندام[2]، فجعل يلاطفه ثم حمله في سيارته وكأنه قد كان معه على موعد.

فأمّا أولئك الثلاثة فلم يكونوا غير لصوص أشقياء كمنوا للفتى صاحب السيّارة لكي يسلبوه المال وحياته، فلمّا سمعوا النُّباح العالي خافوا الفضيحة فلاذوا بالفِرار! فعرف ذلك الفتى للكلب فضله وكافأه على صنيعه بأن أسكنه معه في قصره، وطوّق عنقَهُ بقلادة من ذهب وهو الذي جاء به الليلة بالسيّارة إلى هذا المكان، ليلقي عليكم خُطْبته. وسكت العريف. فسمعت هريراً، وشيئاً كالنُّباح ثم سمعت الكلب السّريّ[3]، يقول:

أيّها النّاس

إنّ الشكوى إليكم منكم، فأنتم الخَصْم والحَكَم، فنحن وإيّاكم أبناء الحياة، تعاقبت الأجيال ونحن بعضنا لبعضٍ رفيق.. والكلب أوفى ما يكون للإنسان، والإنسان أعطف ما يكون على الكلب. إذا كان لكم علينا أيادٍ تشكر، فلَنا عندكم خدمات لا تُنكر ولا تُستر..

فمنّا الكلاب التي تدُلّ الصّيادين منكم على الطّرائد.

ومنّا الكلاب التي تحمي ماشِيَتكم من الكلاب الضّارية.

ومنّا الكلاب التي تحرس منازلكم من اللّصوص.

ومنّا الكلاب التي تهدي رجال البوليس إلى القتلة الأشقياء.

---

(1) الجأش: رُوَاع القلب إذا اضطرب عند الفزع.

(2) الهندام: القدّ، وتنظيم الملابس مع ذوقٍ وحُسْنِ اختيار.

(3) السّرِيّ: السيّد الشريف. الكريم.

ومنّا الكلاب التي تحمل العقاقير والضّمائد إلى الجرحى في ساحات الحرب.

ومنّا الكلاب التي تلعب مع أولادكم، وتدافع عنهم مِنَ الذين يحاولون الاعتداء عليهم!

ومنّا الكلاب التي تجرّ زحّافاتكم على الجليد في الأصقاع المتجمّدَة.

ولكنّكم ما برحتم تنظرون إلينا شزْراً[1]، فتقولون فينا شرّاً، فإذا أردتم أن تُهينوا رجلاً دنيئاً قلتم عنه إنّه كالكلب. وإذا عيّرتم سفيهاً قلتم إنّه عضّاض "كالكَلْب". وإذا بالغتم في تحقير جبّان شبّهتموه بـ"الكلب". فهلاّ خطر لكم مرَّةً في الدّهر أنْ تقولوا "شجاع كالكَلْب"! و"أمين كالكلب"، وباذلٌ نفسَه في سبيل سواه "كالكلب"!

بلغني أنّ شاعراً عربيّاً شبَّه ممدوحه مرَّة بالكلب الوفيّ فغضب الممدوح، وسَخِرَ النَّاس، وما زالوا إلى اليوم يَسْخَرُوْن من ذلك الشّاعر ويضحكون..

ولقد كُنّا من قَبْلُ صابرين على الهَوان والذّلّ لأنّ السّيادة فيما مضى من القرون كانت للقوَّة الغاشمة، فلم يقتصر ظلم الإنسان القويّ على الكلاب وحدها بل شمل الإنسان الضَّعيف أيضاً..

ولكنْ تلك العصور المظلمة قد انقضت لا أعادها الله.. وأنْتم اليومَ تباهُون الأجيال السَّالفة باختراعاتكم وصناعاتكم وعلومكم وآدابكم، وتفاخرون بأنّكم أكبر عقولاً وقلوباً، وأسمى أرواحاً، وتعجبون من أجدادكم، وكيف لم يفهموا الحياة كما تفهمونَها.

---

(1) شزْراً: وهو نظر الغضبان بطرف عَيْنِه.

ونحن أيضا قد ارْتقينا معكم، وصِرْنا نَعْجَبُ مِنْ أجدادِنا، كيف احتملوا الظُّلْمَ..

لا نُنكر أنَّا اليومَ في رفاهيَة من العيش، وأمامنا جماعة يسكنون القصور، ويركبون السَّيارات، ويَلْبسون الحرير، ويقبّلون ثغور الحِسان، ويخرج هم الخدم للنُّزهة، وأن الذي يقتل كلباً يرتكب جريمة كالذي يقتل الإنسان، وقد ينجو قاتل الإنسان من العِقاب ولا ينجو قاتل الكلب!

إلاَّ أنَّ هذا القانون نفسه يوجب على الكلب أنْ يكون مَكْمُوم الفَمِ لئَلاَّ يعضّ الإنسان، ويُتْرك الإنسان حُرّ اليَدِ والرِّجل ليضربَ الكلب، ويَرْفسه.

إنّنا نحتجّ على هذه الحالة التي لا يرضى عنها مُنْصِف.. ولكي نصبح جديرين بالوفاء وخليقين بأن نؤتمن، يجب أنْ نكون طُلقاءَ أحراراً. وإن كُنَّا غير جديرين بصحبتكم فيجب أنْ نفترق، فتلبثوا في قصوركم ودوركم، ونرجع نحن إلى الغابات والأحراج.. هنا سمعت صرير[1] الاستحسان يتعالى من الذين يسمعون الخطيب مباشرةً، ثم سادت السَّكينة فعاد إلى الكلام وقد اشتدَّت نبراته، فقال:

عَجَباً لكم، يكون أحدنا ماشياً مع صاحبه الإنسان في وداعة الحمل، فلا تقع عليه عين حتى تَبادره قائلة: لماذا لا تكُمّ كلْبَكَ؟ ويكون أحدكم ذاهباً في مهمة بسرعة العُصْفور الخائف، فإذا رأى كلباً ماشياً وحْدَه في السّوق وقف ناسياً حاجته لكي يَنبّه الشرطي إلى أنَّ ذلك الكَلْب الشَرِيْد لا صاحب له؛ لأنّه غير مَكْموم!

---

(1) صَرَّ القلم والباب (يصِرّ بالكسر) صريراً: صَوّتَ.

ما بالكم لا تَكتُمُون البعوض الذي يلدغ جلودكم، وتبعث فيها المكروبات المُضِرَّة؟

ما بالُكُم لا تَكتُمُون الذُّبّان الذين يقتلون منكم كُلَّ سنة ألوفاً من الأرواح البريئة؟

ما بالكم لا تَكتُمُون الجرائد الخلاعيَّة التي تفسد أخلاق شبَّانكم وبناتكم؟

ما بالكم لا تَكتُمُون أفواه السُّفهاء الذين يتطاولون على محارمكم وكراماتكم؟

ما بالكم لا تكمّون النِّساء السَّليطات، والعجائز الوائِليَّات[1] اللَّواتي توقظ واحدةٌ منهُنَّ فتنةً طويلة عريضة، في ليلة وضحاها؟!

هنا انقطع الصَّوت بَغْتة ولم أعد أسمع شيئاً، فقضيت تلك اللَّيلة أتعجَّب من انقطاعِه على تلك الصورة!

وكان الصَّباح التَّالي، فقرأت في الجريدة أنَّ عجوزاً في الجمهور الذي كان يستمع إِلى خطيب الكلاب غضبت من تعريضه بالعجائز، فشكَته إِلى الشرطة بحُجَّة أنَّه كَلْب شاتم غير مَكْمُوم، فجاءوا وأنزلوه عن المِنَصَّة، وضربوه ضرباً مبرِّحاً، وجوزيَ صاحبه بغرامة ماليَّة وأُكره على شراء كمَّامة له..

فسجَّلت هذه الحكاية التي قصَّها عليّ جاري في مذكَّراتي، ثم رأى بعضهم في نشرها فائدة فنشرتها.. تاركاً العُهْدَة[2] على من رواها.

---

(1) ووائل بن قاسط أبو قبيلَة. والوائل: الشّديد.

(2) العُهْدَة: الضّمان والكفالة.

المرأة الثرْثارة

لا نعرفُ شيئاً يَشينُ[1] المرأة كالثّرثرَة؛ قد تكون حسناء الوجه رشيقة الهِنْدَام يقعُ النَّظر عليها مُحتَشِماً، ويرتدُّ عنها متهيِّباً. فإذا اندفعَتْ تتكلّم أحسَّ السَّامع كأنّ يداً غيْر منظُورة تمتدُّ إلى تلك المَلاحَة في الوجه، فتعبثُ بها، وتشوّشُ نظامها.. وإلى الكِياسَة[2] والرَّشاقَة في ذلك الهِنْدَام فتبعثرها في كُلِّ ناحيَة كأوراق الخريف في ريحٍ صرصرٍ[3] عاتيَة.

ويكون في نفس السَّامع شيءٌ مِنْ روعَة الجمال فلا تلبث أنْ تتلاشَى وتَضْمَحلّ، وتحُل مكانها وحشة كالتي يشعر بها المسافِر في أَرض جرداء خاوِيَة مُقْفِرَة، ثمَّ تنقلِبُ هذه الوَحْشة إلى ضَجَر، والضَّجر إلى آستهجَان، والاستهجان إلى اشمئزاز، حتى يتمنَّى السَّامع لو لم تكن له أُذُنان لعلّه يستريح مِن شَقْشقَة[4] ذلك اللّسان الذي لا يَتْعَبُ مِنَ الدَّوران، كأنّه مركّب فوق لَوالب.

مِن ميّزات المرأة الثرثارة أنّها كثيرة الشّكوى مِنَ الحاضر، كثيرة التلهُّفِ على الماضي، كثيرة الخوف مِنَ المستقبل، لا ترى في حاضرِها إلاّ ما يَسُوْء، ولا في الماضي إلاّ ما يهيجُ الأَسَى والشَّجَن، ولا في المستقبَل إلاّ ما يدعُو إلى الحذر والحُسْبان.

---

(1) شانَ والشّين ضِدّ الزّين.

(2) الكياسة: الكَيْس ضد الحُمق وهي العقل والفطنة.

(3) الصّرصَر: البارِدَة.

(4) شَقْشِقة: يخرجها البعير من فيه إِذا هاج. وشقشق الفحل هَدَر. والعُصفور صَوّت.

ومن علاماتها أنّها دائمة التّذمُّر منَ الجيران والأنسباء والأصدقاء، طويلة التّأفّف مِن شؤون المنزل وأعباء العائلة، وقد لا يكون في المنزل عبءٌ سواها!

وهي كثيرة التّرديد لما تسمع مِن صادق الأحاديث وكاذبها، تكرّرها على كونها مَحْضَ أحاديث، وسيّان[1] عندها كَذَبَت أم صدقَت وساءت السّامع أم سرَّته، فهي إنّما تتكلّم لأنّها لا تقدر إلاّ أنْ تتكلّم.. أمّا هل يفيد كلامها معنًى أم لا يفيد فذلك أمْر لا يخطر لها أن تفكّر به.

حَسْبُكَ أنْ تطارحها التّحيّة أو توجّه إليها سؤالاً عاديّاً مألوفاً كأنْ تقول لها: كيف صحّتك؟ أو كيف حال زوجك والأولاد؟ فتمضي تحدّثك بما أتّفق لها في يومها، وما حَدَث منَ الشّؤون في أمسها، وما يمكن أنْ يقعَ في اللّيل لو لم تكن النّوافذ مُقْفَلَة، أو في الصّباح لو لم تكن النّوافذ مَفْتُوحَة، أو في النّهار لو لم تكن هي في المنزل، وتنتقل إلى الكلام على أولادها، وما فعلوا منَ الأمور المُدْهِشَة التي يَعْجزُ عنها الرّجال الأساطين[2]، وإلى أولاد الجيران وكيف يجب أن يكونُوا، وكيف كان يُمكن أنْ يكونُوا لو أحسنَ آباؤهم وأمّهاتهم تربيتهم، ولكنّهم تاركون لهم الحَبْل على الغَارب[3]، فهُم يلعبُون في الشّارع وعلى الأرصفَة وتتعالى أصواتهم حول البيوت.. أمّا أولادها فقد خلقهُم الله لهم أفواه تزدرد الطّعام فقط أمّا الكلام فلم تخلقه أفواههم له!

وتصل الحديث عن أولاد الجيران بالحديث عن الجيران أنفسهم، فتشرح لك شرحاً مُسْهباً مفصّلاً ما صنعَ كلّ واحد منهُم في كُلّ ساعة

---

(1) سيّان: السّيّان المثلان والواحد سيٌّ.
(2) الأساطين: الثّقات المُبرّزون.
(3) الغارب الكاهل أعلَى الظّهر. ويقال: حبْلك على غاربك، اذهب حيث شئْت.

مِن ساعات النَّهار، وتنسى أنَّها أخبرتكَ في أوَّل الحديث بأنَّ شؤون البيت تستغرقُ كُلّ دقيقة مِن وقتِها، بحيث تنسَى بعض الأحيان أن تأكلَ في موعدِ الأكْل .. إنَّها تنسَى نفسها أمَّا الجيران فلا تنساهم!

وتظلُّ هي تتكلَّم ما دُمتَ أنت مُصْغياً، وليس في وُسْعِكَ إلاّ أن تُصْغي؛ إذ ليس مِن حسنِ الأدب أن تسُدَّ أُذُنيك بإصْبعيك، ولا أنْ تُعرضَ عنها بوجهك، ولا أنْ تعتذرَ بأنَّك لا تُبالِي بما ترويه لَك، وتَقُصُّه عليك.. وعَبثاً تحاول أنْ تَصْرِفَها عمَّا هي فيه إلى موضوع آخر؛ فكُلّ المواضيع عندها تتلاقى أخيراً في الموضوع الذي يَلَذّ لها الكلام فيه.

وقد يكون لَك في النَّوم نجاة مِن تلك الأحاديث التي ٱختلَطَ فيها الحابل بالنَّابل[1]، ولكن كيف ينَام المرء في العاصفَة..؟

المرأة الثرثارَة آفة كُلّ مجلس؛ لأنَّها تُفْسِدُ على القَوم مَجْرى أحاديثهُم بما تحاول هي أنْ تتحدَّث به.

وهي كابُوس على زوجِها؛ لأنَّها لا تَكْترث لما يَجْري في نفسه مِنَ الأفكار المُتعلِّقَة بشُغْله أو تجارته؛ بل كُلّ الذي يهُمُّها هو أنْ يسير مَعَها في دُنيا الأحاديث والنَّمائِم[2]، وأنْ يُصْغي إليها كما يُصْغي إلى نبيّ يتكلَّم!!

ومِنَ النساء الثرثارات من لا شَرَّ في ثرثرتهنَّ، إذ لا قصد سيِّئاً وراءَها، وإنَّما هي عادة تملَّكتهُنَّ فصار مِنَ الصَّعب استئصالها. إنَّما هناك نساء ما تَكلَّمْنَ إلاّ خُيِّلَ إليك أنَّ هناك حيَّات هائجَة تنفث السُّمّ نفثاً،

(1) مثلٌ قديم قصَّته أن اختلاط حبائل صيادين مع نبال الآخرين أفسدَ الخطة ففرّ الغزال ولم يقع في الأحبولة – المصْيَدة.

(2) النَّميمة: نَمُّ الحَديث نشرَةُ للفتْنة والفساد بين الناس.

فهن لا يُلقينَ حكْمة إلاّ أرسلنَ معها سَهْماً، ولا حَكَيْنَ عِبارة إلاّ انْطوَت على تَعريض وتَنْكيت أو تَنْديد أو شماتة، ولا ينقلنَ حديثاً إلاَّ نقلن معه بذور الفتَن، والقلاقِل والمشاغِب بين الصَّحب والجيران والأصدقاء.

إنَّ هذا الصَّنف مِنَ النساء كالدِّيناميت ولكنَّه ديناميت ينفجرُ مِن تلقاء ذاتِه، وكالسُّمّ إلاّ أنَّه سُمٌّ يدري ما يصنع، إلاّ أنَّها نارٌ تضطرم على إرادة منها ورغبَة..

هذه هي المرأة الهادئة التي تُنْبتُ الفِتَن تحت قدميها أينَما مشَت، وتتطايَر مِن فَمِها النَّمائِم والسِّعايات[1] تطايُر الحُمَم[2] مِن فُوَّهَة بُرْكان ثائِر!

هذه هي المرأة التي يجب أنْ يفرّ منها الرَّجل فِرارهُ من الأفعى..

هذه هي المرأة التي إذا أصابَت آمناً فعلَت به ما تَفْعَل الأفعى..

ومِن حسن حظّ المجتمَع البشريّ أنَّها اليوم كالأفعَى لا وجُود لها إلاّ في الأماكِن التي تشبه الغابَات والأحراج.

قلت إن الثرثَرَة عيبٌ كبير في المرأة، وأزِيدُ على ذلك أنَّها في الرَّجل عَيْب أكبر!

---

(1) والسِّعايات: الوِشايات والنمائم.

(2) الحُمَم: ما تقذفُه البراكين من موادّ ملتهبة ذائبة.

مذكرات أحمق

- الاثنين -

سألني أحَدُهم وسِيْماء الجدِّ في وجهه ولَهْجته: لو أُتيحَ لك وقَدَرْتَ أنْ تكون غير إنسان، فماذا تحبّ أنْ تكون؟

دخل هذا السّؤال في أُذُني كلاماً، وخرج من فَمي آبتساماً. فقد ضحكتُ من حماقة صاحبي ضحكاً كاد أن يخرجه عن جدِّه ووَقاره، ويُضْحِك منه نفسه على نفسه، فَلمَّا رأى استخفافي به، انصرف عنِّي آسِفاً كئيباً..

انصرف ولَكنَّ سؤاله لم ينصرف عنِّي، بل ظلّ يَطنُّ في أُذُني. فأقمت بعد ذَهَابه أُعيد هذا السّؤال على ذاتي؛ محاولاً أن أُجيب عليه، فكان شأني كشأن أشْعب[1] الذي أراد أنْ يصرف عنه الصّبيان الرّاكضين وراءَه، فأخبرهم كذباً أنّ في الطرف الآخر من القرية عُرْساً[2]، فَلمَّا مضَوا ذهب في أثرهم لكي يحضر ذلك العرس! تمنَّيت في بادئ الأمر لو صِرْتُ طائراً غرّيداً كالحسون، والبلبل، والكناري، لما لهذه الخلائق المُجنَّحة من جمال التَّكوين.. وحُسْن التَّلوين، وما في سَجعها وتغريدها من عذوبة ورقّة وسِحْر وهُيَام، ثم لِما لها مِنَ القُوَّة المدهشة التي تساعدها على الوثب من الأرض إلى الفضاء.. والانقضاض من العالي إلى الأرض، كلمح البصر.. والسّباحة في الجوّ والدّوران فيه كما تشاء.. وقوّى هذه

---

(1) أشعب: اسم يضرب به المَثَل في الطَّمع لكثرة نوادِرِه فيه. وهو أبو العلاء، أشْعَبُ بنُ جُبَير. من المدينة، أدرك عثمان. صاحبُ صوتٍ، ونوادرَ، ومعرفةٍ بحُجَجِ المعتزِلة. مات في خلافة المَهدي.

(2) العُرْس الزّفاف والتّزْويج ج أعْراس.

الرَّغْبَة في نفسي أنّي تمثّلتها على ضِفاف الجداول والسَّواقي، مسحوراً بمرآها، وجريها، وخريرها.. متنقلة في الرِّياض التي تستهويني دائماً وأبداً ألوانها ويُسْكِرني عَبيرُها..

وتمادى بِيَ الخيال حتى كدت أحْسَبُني قد تحوَّلت إلى طائر شاد، وأحْسَب كُلّ ما تمثّلته وتخيّلته حقائق لا رَيْب فيها.. ولكنّني لم أَدْرِ بأيِّ شيءٍ اصْطدم خيالي، فنكص على عَقِبَيه[1] مُنْكَمشاً، وجعلت - بعد الذي كنت فيه من نعيم - أُفكر في حياة الطّيور، وما تتعرَّض له من أخطار في رواحِها وغَدَواتها[2]، وسُكونها وحِراكها.. وما بليت به من أعداء، بين مجنَّحين وغير مُجَنَّحِين الذين لا يَنْفكّون دائماً وأبداً يطلبون دمها..

فأخذت تتلاشى رغبتي في أنْ أكون طائراً، لأنّي وجدت الطّيور الغِرِّيدَة التي خُلِقَت لِتَسْكُنَ المروج والرِّياض، وتَسْتَحِمَّ بنور الضُّحَى[3] وماء الغَدير، تذهب أغاريدها ضَيَاعاً وهي في أوطانها، فإذا صارت في العُمْران[4]، حيث يستمع إليها النَّاس، حُرِمت الماءَ والفَيْءَ والشَّجَر، وربما نور الشَّمس، وباتت في أَسْرٍ مَهين.

ولَمَّا بلغت إلى هذه النقطة من التَّفكير، أدركت أنّي لَمَّا وَدِدْتُ أن أكون طائراً غرِّيداً لم أكن صادقاً في زَعْمي، بل الذي أردته أن يكون لي طَرَبُ الطّائِر، وصوته الشَّجيّ، وجمال شكله، وأن أبقى بعد ذلك إنساناً يصطاد الطائر ويلذّ لي غِناؤُه ونُوَاحه!!

---

(1) نكص على عَقِبَيْه: تَراجَع على مؤخّرة قدمَيه.

(2) روحها وغدواتها: ذهابها مساءً وصباحاً.

(3) الضُّحَى: حين تُشرِق الشَّمْسُ.

(4) العُمْران: المدُن، الأماكن المسكونة.

– الثلاثاء –

قرأت اليوم ما نَشرته مجلّة "السَّمير" عَنِ الجواد العربيّ الأصيل وما امتاز به من الصِّفات العالية، فأـ ته.. وإنَّما لم يخطر لي أن أكونه؛ إذ لا بد للجَواد - كريماً أو غير كريم - انْ يكونَ مطيَّة إنسان أو ملْكاً لإنسان ما، وأنا إنَّما أودّ الخروج من انسانيتي لعلّي أنجو ممَّا في الإنسان من عُيوب، ومساوئ لَزمَته كُلّ القرون والأدْهار التي مرَّت عليه.. لا، لا، لا أُحبّ أنْ يَمْسَخَني[1] الله حِصاناً.. قد تعهدَّه جميع النَّاس بالعطف والحنان؛ فالشفقة في النَّاس معناها أنَّهم أقوياء وأنَّ المشْفَقَ عليه ضعيف مِسْكين، لا حَول له ولا قوَّة.. وإنَّما هو أحمقُ من يرضى أن يقول النَّاس عنه: إنَّه مِسْكين!

– الأربعاء –

خرجت اليوم إلى الحديقة العُموميَّة الكبرى في المدينة، وذلك السّؤال يمشي على أَثري كالخيال الذي كان يتبع هَمْلت! فَلمَّا رأيت الأشجار الضَّخمة المُعَمِّرَة، قلت في نَفْسي: كم جيل من النَّاس انقضى، وهذه الأَشجار يتجدّد شبابها في كُلّ رَبيع! ما كان أسعدني لو أنَّني شجرة، وتَلْبَس في كُلّ فصل حُلّة جديدة جميلة، إمَّا من الورق الأَخضر في الصَّيف، أو الورق الأَحمر الملتهب في الخريف، أو من الثّلج النَّاصع في الشِّتاء!

يجيءُ الأَولاد في النَّهار، فيلعبون حَوْلَها، ويَمْرحون، ويختبئ بعضهُم عن بَعْضٍ وراءَها، وفي المساء يجلس العُشَّاق يتناجَوْنَ، ويتهامَسُون في

---

(1) المَسْخ تحويل صورة إلى ما هو أقبح منها.

ضَوْء القَمَرِ أو يَرْقُبُون وَجْه السَّماء؛ وذلك من خلال الغصون والأوراق، أو يَغْلبهُم الوَجْد فينْسَوْن كُلَّ قَمَر وكُلَّ سَماء!

ولَكِنْ، قالت نفسي لنفسي: لو كنت شجرة أأرضى يا تُرَى أن تسلقني النِّمال، والحَشَرات؛ وأن يتسلَّق السِّنْجاب[1] جذعي ليقفز فوق أغصاني؟ وهل أرضى أن يرشقني الأولاد بالحجارة ويَتَعلَّقوا بأطراف غصوني، ويَتَمَرجحوا، ويَدُقُّوا المَسامير في جَسَدي، ويَحْفِرُ الحَمْقى أسماءَهم في بدني بالسَّكاكين!

وهل أرضى إذا نجوت من هذه كُلّها، أن يتمتَّع الإنسان بفَيْئي وثَمَري ونسيمي، حتى إذا أدركتني الشَّيْخوخة ودبَّ فِيَّ الهَرَمُ أتى بالفأس فاستأصلني من عُرُوقي؟!

وهل أرضى أن أقطع العُمرَ كُلَّه مَشْدوداً إلى الأرض؛ لا أنتقل من مكاني شبراً، ولا أعرف شيئاً مِمَّا يجري على مسافة أمتارٍ مِنِّي!

لا أُنكر أنَّ العقل يَجْلُبَ الأَلَم؛ ولكنَّه يجلب اللَّذَّةَ أَيضاً، فالحياة لا قيمة لها حيث لا أَلَمٌ ولا لَذَّة!

من يدري؟ ربّما كان للشَّجرة عقل وإِدراك، ولكن لا أبيع معلوماً بمجهول، ولا أُريد أن أكون شجرة، ولو سَجَد النَّاس لي..

— الخميس —

لا يزال ذلك السّؤال يواجهني أينما ذهبت، ولا أزال مَعَ عِلْمي أنا لا أَقْدِرُ أَنْ أكون غير نفسي، محاولاً أن أتمثّل كياناً غير كياني وذاتاً غير ذاتي.

---

(1) السّنجاب: حيوان أكبر من الجُرَذ له ذنب طويلٌ كثيف الشَّعَر يُضرَب به المَثلَ في خِفَّة الصُّعود ولونه أزرق رَمَاديٌّ ومنه اللَّون السِّنْجابيّ.

أعتقد ذلك السّائل قد نسي سُؤاله بعدما طرحه عليّ، ومضى بعيداً عنّي. فكثيراً ما رأيت أناساً يسألون أسئلة لا أثر لها في أرواحهم، بل ربّما أكثر النّاس سؤالاً أقلّهم تفكيراً!

أمّا أنا فما برِح هذا السّؤال طافياً كالسفينة في بُحَيرة نَفسي.. فكأنّه نسمة خفيفة هبّت على غدير، فحرّكته فتماوج أوّله، وامتدّت الرّعشة في دقائق الماء وستظلّ تترامى وتمتدّ حتى تنتهي في آخرِه.

- الجُمُعَة -

اليوم انعكست صورة السُّؤال في مِرْآة ذِهني، فقلتُ لذاتي:

لماذا أتمنّى أنْ أكون غيرَ إنسان؟

أيُّ شيءٍ في العالم أسمى من الإنسان؟

وأيّ شيء ليس في الإنسان؟

إنّه مَجْمعُ الغرائب والعجائب، وملتقى الأحاجي[1] والأسرار! فيه من الحيوان شيءٌ، ومن النّبات شيء، ومن الجَماد شيء، وأعظم من هذا كلّه فيه شيءٌ من الإلَه.

وهو بعد ذلك صائر إلى حيوان ونبات وجماد، وأمّا السرُّ الذي فيه، فلا رَيب أنّه عائد إلى ربِّ السِّرّ والجَهْر..والخلاصة أنّي لَمّا تمنّيت أن أكون شيئاً غير الإنسان لم أطلب أمراً غير حاصِل؛ لأنّ كلّ شيءٍ في هذا الكائن الصّغير.. إذاً، يا ضيعة الوقت الذي صرفته في التّمنّي، ولكن.. لا.. إنّ ذلك الوَقْت لم يذهب ضَياعاً، فلولاه لَمَا اهتديتُ إلى هذه الحَقيقة ولو لم أشتغل بهذا السُّؤال، فَكان شأني كشأن جاري الذي ألقاهُ في الصّباح، فيستوقفني ليذكر لي السبب الذي جعله لم يتمكن من الرُّقاد، لأنّه قد حَلَمَ أثناء نومه حُلما مُزْعجاً عند منتصَف اللّيل..

---

(1) الأُحْجِيَّة: لُغز يتبارى النّاس في حَلّه. الجمع أحاجيُّ وأحاجٍ.

ويلقاني في الظُّهر فيخبرني عن ثوبه الجديد الذي اشتراه، أو ثوبه العَتيق الذي كواه. وألقاه مساءً فيُخبِرُني أنّه دُعي إلى سَهْرةٍ أو لُعْبَةِ "التويست" أو "البينكل" أو "البوكر"..

ومن يعلم فقد يكون المَيْل في بعضهم إلى اللّعب أفيد من التّفكير، أليس من يفكّر إنساناً، ومن يَلْعَب إنساناً؟

-السّبت-

قضيت أُسبوعاً وأنا أحاول أنْ أجاوب على سؤال طُرِح عَلَيَّ عَرَضاً[1]، فولّدَ في نَفْسي أَلْفَ سؤَال؟! وها أنا الآن في يوم السبت فيجب عليَّ أن أستريح، ولَكِنْ أنّى لي ذلك وأنا كالغَريق أُصارِعُ الأَمْواج مَوْجةً بَعْدَ مَوْجة..

ظننت أنّني أَقْنَعْت نَفْسي بما قلته لها، وزَيَّنْته، ولكِنَّ نفسي التي سكنت واستكانت حدَّثتني قائلة: لقد زَعَمت أنّ الإنسان أسمى الكائنات، وأنّك لذلك تأبى أنْ تكون طائراً أو شجراً أو حِصاناً أو جَبَلاً، حَسَنٌ جدّاً.. ولكنْ ما قولك لو سأَلْتَ الطّيور والأشجار والجماد - وكان بوُسْعها أنْ تَفْهم لُغَتَكَ وتجيبَ على سؤالكَ - أكانت ترضى أنْ تكون إنساناً أَوَّله نُطْفة وآخره جيفة!!

فَلمّا سمعتها أدركتْ أنّ عدُوّي بين أضلاعي!

نيويورك ١٥ تشرين الثاني ١٩٣٠

---

(1) عَرَضاً: العَرَض ما يطرأ ويزول بلا قصْد.

أتطالع؟

لا تَقُل: ليس لديك وَقْتٌ للمُطالعة.

إنَّ رؤساء البنوك، والدَّوائِر الصِّناعيَّة، وكبار المُخترعين، والمؤلّفين والحُكَّام، والقُضاة، والأطبَّاء، يجدون وقتاً لمطالعة الصُّحُف والمجلاّت، على كثرة ما لديهم من المَهام والشؤون، فلو لم تكن المطالعة مفيدة لَمَا كان كُلّ هؤلاء يطالعون. أتظنّ يا صاحبي أنّ هؤلاء كلّهم مخطئون وأنت وَحْدك المُصيب..؟

لا نَحْسَبك قد عرفت كُلّ شيء، ولا قرأْت كُلّ شيء. ولا ينبغي لَك هذا كُلّه، وإنَّما مِنْ الضّروريّ أَن تعرف ما يجري حولك وما له علاقة بِكَ أو بمحيطك من الشؤون؛ لأنّك إذا جهلتها أعياك أنْ تتجاذب الحديث مع النّاس.. ولا غِنى لَك عن التّحدّث إلى النّاس..

وإذا قلتَ إنّك تاجرٌ أَوْ عاملٌ، وإنّ أوقاتك موزَّعة وأفكارك كلّها مستغرقة في تجارتك، أو صناعتك، قلنا لَك هل منعك هذا الاستغراق أنْ تأكل وتشرب وتَتَنشَّق الهواء..

إنّ المطالعة ضروريَّة كالغذاء والشَّراب واستنشاق الهواء، والاستمرار عليها واجبٌ ليستمرّ العقل في نُموّ مُطّرِدٍ[١]، فمَن قرأ في صباه بعض الكتب وانقطع عن المطالعة بعد ذلك، أَصابه ما يصيب الشَّجرة زُرِعَت ثم أُهْمِلَتْ فلم تُشَذَّب[٢] غصونها، ولم تقلّم أَطْرافُها.. ولم تُقْتَلعُ الأَعشاب المُضِرَّة التي نبتت تحتها.. ولم تكافَح الحَشَرات التي عَدَتْ عليها تلتهم أوراقها وتَنْخَرُ جسمها.

---

(1) اطَّرَد الشيءُ اطّراداً: تبع بعضُه بَعْضاً.

(2) شَذَّب: اللّحاء والعود والشَّجَر: قشرَهُ، هذّبه.

إهمال الشَّجر على هذه الصورة يعيده إلى طور الهَمَجيَّة الأوَّل فيصبح شجراً برّياً لا خير فيه..

وتَرْك المرء المطالعة يقف به، في حين أنَّ الزَّمَن يسير وكُلّ ما حَوْله يتحرَّك، فمن أراد أنْ يجني على نَفْسه فَلْيَهْجرِ المُطالعة.. أمَّا من شاء أنْ يزداد بالنَّاس عِلْماً، وأن يسير بينهم بفَهْم صحيح ولُبّ رجيح فليعَوِّد نفسه على المطالعة. لا تَقُلْ: إنَّك كَبِرْتَ عن الصِّبا، وقطعت تلك النَّاحية، فإنَّ أفْيَد ما تكون المطالعة بعد سكون عواطف الأهواء في النَّفْس وعند استيقاظ العقل، وجنوحه إلى التَّفكير، والتَّعليل، والتَّفسير. وليس من اللاَّزم أن تكون الحافظة طريَّة كالشَّمْع تَقْبل كُلّ طابع.. فالكثير ممَّا يقرأه المرء، يقرأه لِيَطْرَحَهُ لا لِيَسْتبقيَه، وأنت لا تطالع لكي تَنْبُغَ في فنّ أو عِلْم أو صناعة.. بل لتروّض ذهْنك وتَصْقُلَ روحك وتُدخلَ إلى قلبك بعض اللَّذَّة. فإذا كنت لا تَقْدر أنْ تنصرف إلى المطالعة فلا شَكَّ أنَّك تستطيع أنْ تطالع أحياناً. أمَّا إذا أعياك هذا فاسْمَحْ لنا أنْ نَنْصَحَ لكَ بأن تذهبَ إلى المَدْرسة، وتتعلَّمَ القراءَة.. فمن المستحيل أنْ يكون في الدُّنيا إنسان يحسن القراءَة، ولا يجد لذَّة في المطالعة..

فمن لا يطالع فهو أحد اثنين: إمَّا رجل صرف الحياة كلّها يطالع حتى بات لا يجد ما يستحقّ أنْ يطالعه، وهذا رجلٌ لم يُخْلَق بَعْدُ، بل قُلْ لن يُخْلَق! وإمَّا رجل أُمِّيّ.. ومن أكبر العار أن يكون الرجل أُمِّيّاً في هذا العصر، ولو كانت له أَلْفُ فَضيلة!

نيويورك ١٥ كانون أوَّل ١٩٣٠

بين الماضي والمُستَقبل

انطوت ورقة أُخرى في كتاب الزَّمَن، وتلاشت مَوْجَته في بحر الحياة.. وصار ما كان في حَيِّز الحاضر في حَيِّز الماضي..

وظهر إلى الوجود ما كان في حَيِّز العَدَم.

فنحن نودِّع السَّنة الرَّاحلة متهلّلين لذَهَابها، بل لعلْمنا أنّنا سنستقبل سنةً أُخرى، ونحقّق فيها من الآمال ما لَم يتحقّق من قَبْلُ، أو نستردّ من خلالها ما خسرناه في خلال أُختها الغابرة..

ولولا هذا الرَّجاء لَمَا كان لنا أنْ نتهلّل، وقد ضاع مع السَّنة الماضية شيءٌ من قُوانا، وذهب بذهابها بعض العُمُر..

ويزيد السَّنة الجديدة طلاوة في العيون أنّ السَّنة التي ولّت كانت شديدة الوطأة على النَّاس، ففيها حدثت زلزلةُ البُوْرصة التَّاريخيَّة التي رَجَّت القلوب، وأطارت ما في الخزائن والجيوب وتركت في جسم التّجارة نُدوباً[1] وأيَّ نُدُوْب! فكم من مُضارِبٍ كان من أصحاب الملايين أصبح بعد تلك الزَّلْزلة لا يَمْلِك إلاّ الذِّكرَى وأوراقاً لا تزيد في قيمتها على أوراق التِّين!

وكم من عامل قضى أطيب أيَّام حياته يكدح ويتعب حتى وفَّر بضْعة أُلوف، أغواه شيطان الطَّمَع، فألقاه في بحر البُوْرصَة العَجَّاج[2] ثم هَبَّت تلك الزَّوبعة، فكان ذلك وأمثاله أوَّل الضَّحايا! سيذكر النَّاس سنة ١٩٣٠م ليقولوا إِنَّها كانت سنة بُؤْس وضَنْك في غير قَحْطٍ ولا

---

(1) النَّدَبة أثر الجرح الباقي على الجلْد.

(2) العَجَّاج: نهر أو بحر عَجَّاج لِمائه صوت. وكذا كُلّ ذي صوتٍ من قوسٍ وريح ونَحْوِهما.

جَدْب[1]. ففي أميركا أغنى بلاد العالم، وفي نيويورك التي اشتملت خزائنها على معظم الذّهب في العالم، انقلبت حركة المعامل إلى جمود وهمود وكسدت التجارة بحيث كان الأُلوف من المواطنين فيها يقفون صفوفاً صفوفاً أمام الكنائس والمعاهد الخيرية، منتظرين أن يجودوا عليهم بالغذاء والكساء والوقود لكي تظل الحياة تدبُّ في أجسادهم.

سيذكر النّاس سنة ١٩٣٠م ويتعجّبون كيف كانت الحنْطَة مكَدّسة عند الفلاحين، وكان بعضهم يُحْرِقها في المواقد بدلاً من الفَحْم والحَطَب..

وفي نيويورك وغيرها ألوف من النَّاس يتضوّرون جوعاً، في حين المواصلات مقطوعة، وليس في البلاد اضطراب، ولا الدَّولة في حرب! وإنّما هذه السَّنة التي انقلبت فيها الأُمور عاليها سافلها كانت أفيد للنَّاس من عِدَّة سنين من الرَّخاء، إذ عَلّمَتْ المرأةَ المُسْرِفَة أَنْ تقتصد، والتَّاجر المغامر أَنْ يتروَّى، والشَّاب السَّكْران بخمرة الأَحلام الغَرَّارَة أن يستفيق؛ والعامل الذي كان يطاول الأغنياء في لِباسه، ومعاشه ويُنْفِق وكأنَّه واحدٌ منهم، أَنْ يعودَ إِلى صوابِه، فلا يوسِّع خطاه ولا يُجْهِد نفسه في الرَّكض..

وأخيراً تَعَلّم الكُلّ أَنَّ هذه البلادَ على غِناها المُدْهِش عُرْضة للأَزمات والشّدائد كغيرها من بلدان الدُّنيا..

وهذه أمورٌ ما كان للنَّاس أن يُدْركوها لو استمرَّت المعامل دائرةً والمتاجر رائِجة، وأَثمان الأَشياء ترتفع، وقيمة العقار والسَّندات تتورَّم

---

(1) القَحْط: الجَدْب وجَدب المكان يَبِس لاحتباس الماء عنه. والجدب ضد الخِصْب.

وتتضخّم، فإنّ الرّخاء لا يَشْنُفُ[1] الإنسان، وإنّما تشنُفُهُ الشدائد والنّكبات.. ففي أيّام اليُسْر يسود الغُرُور والبَطَر فيقف المرء عن التّفكير، ويذهب يحسَبُ الحياة كُلّها لَهْواً ولَعباً..

ولكنْ في الأزْمات يستجمع قُواه العَقْليَّة كلّها ويحرّكها، كما يستجمع اللّيْث نفسه للوثوب إذا أُحْرج ثم يَثِب لِيَنْجوَ بنفسه!

فعسى أن لا تزول هذه العظات من النّفوس مع السَّنة الماضية، لكي ينتفع بها الجميع في المستقبل الذي نأمل أنْ يكون كُلّه رخاءً وهناء، وسلاماً للنّاس كلّهم في كُلّ مكان، وهكذا يَغْفِرُون لسنة ١٩٣٠م سيِّئاتها..!

بل هكذا يستطيعون أنْ ينفقوا في السَّنة الجديدة ما عجزوا عن إنفاقه في السَّنة الغابرة.

فإنَّ أميركا الفتيَّة القويَّة لم تَهْرَمْ في ليلة ونَهار لِتَعْجزَ عن الخروج من هذه الضَّائقة، فكم خرجت من أزْمة قبلها؛ وهي أقوى من ذي قبل، وأجمل، وأعظم!

فلا يَدَعَنَّ أحَدٌ اليأس لكي يشقّ طريقه إلى نفسه، فإنَّ أميركا التي أغاثت العالم كُلّه في الحرب وأعانته على اسْتِرْجاع قوَّته وجماله، لا تَغْلبها على نفسها أزْمة اقتصاديَّة هي أشبه بغَمَامة صَيْف.. ستعود الحَرَكَةُ إلى نشاطها السَّابق، وإنّني لألْمَح تباشيرها وهي تُطِلّ علينا من خلال الأُفُق؛ فَلْنَسِر إلى الأمام ولْنَتَطلّع دائما إلى النَّاحية المُنيرة في الحياة..

وكُلّ عامٍ وأنتم سالمون..

نيويورك في كانون أوَّل ١٩٣٠

---

(1) الشَّنَف والقُرْطُ: حلْيتان تزينان أُذُنَ المرأة من أعْلى ومن أسْفل. ومعنى شَنِف شَنَفاً: فَطِنَ. شَنَفَ يَشْنُفُ: نظرَ إليه كالمعترِض أو المتعجّب.

آخِر وَرَقة

زارني في أُسبوع الميلاد صديق أديب، وقال: لو سألتَك منذ كم نحن أصدقاء، هل تقدر أن تجيبني؟

قلت: منذ تعارفنا

قال: أتدري متى تعارفنا؟

قلت: إنِّي عرفتك يوم كذا.

فقال: أمَّا أنا فقد عرفتك منذ عشر سَنواتٍ، عندما قرأتُ لَك هذا المَقَال!

وناولنا مقالاً كتبناه منذ عشر سنوات مقترحاً علينا نشرَهُ في مَطْلَعِ العام الجديد، فنزلنا عند رغبته لعلنا نكسب به صديقاً وفيّاً كهذا الصَّديق.

عند السّاعة الثانية عشرة من هذا المساء، ينتزع النَّاس آخر ورقة من الرّوزنامة، ويطرحونها إلى الأرض فيَلْفِظ عام ١٩٣٠م آخِر أنْفاسه. ينتزع الشيخ هذه الورقة الأَخيرة التي كانت تحت ٣٦٥ ورقة مثلها.. ويداه ترتعشان، وقلبه تتسارع دقّاتُه، لأنَّه لا يقدر أن يستبقيها، وإِنَّه ليتمنَّى لو استطاع أنْ يوقف الزَّمان عن المسير..

يرتعش لأنَّه يَعْلَم أنَّ الزّيادة في أيَّامه نقص في قوَّته!

لأنَّه يتلاشى وذلك مع كُلّ ساعة تتلاشى وتنقضي!

لأنَّه، وقد انحطت قُواه، وثَقُلَت خطاه، أصبح يشعر بمرور الزَّمان السَّريع ورَكْضه..

لأنَّه وقد خارت عزيمته، وذهبت نَضَارته، واشتعل رأسه شيباً،

وبليت ديباجته أصبح يشعر ببطش الوقت الجبّار، وبأسه وَقساوته واستبداده، لأنّه يَعْتقد مع الشَّيْخ ناصيف اليازجيّ أنّه:

"كالظّلّ تحت الشَّمْس يَمْشي القَهْقرى"

لأنّه يُؤمن بحكمة المتنبّي البليغة: [الخفيف]

إنّما العَيْـــش صِحّةٌ وشَبابٌ فإذا ولّيا عــن الــمرءِ وَلّى

لأنّه يرى وراء تلك الورقة شبح الموت المخيف ولكنّه مع هذا كلّه لا يستطيع إلاّ أنْ ينزع الورقة الأخيرة..

إنّ الفتى الممتلئ عافيةً ونضارةً وأملاً، يَنْزِعُ تلك الورَقة وهو متهلّل طروب، يَنْزعها بسُرْعة لأنّه يشعر أنّ الوقت يسير بطيئاً متمهّلاً.

لأنّه يطمح ويشتاق إلى معرفة ما في الغَد.

لأنّ المرءَ ولا سيما الفتى توّاق إلى الاسْتطلاع، والوُقُوفِ على المَجْهول المَحْجوب..

لأنّ الشَّبيبَة تُحِبّ العَيش حتى بَطَرَه الزّمان الجبّار..

لأنّه يَعْلَمُ أنّه يَسير مع الزّمان السّائِر ولا يريد أن يعلم!

لأنّه يعتقد أنّ المُسْتقبل له..

لأنّ الأشباح التي تتراءَى له وراء الأُفُق جميلةٌ ساحِرة.. وهو يحبّ الجمال ويستهويه السِّحْر..

لأنّه يَحْسَب السِّنين واقفةً حاجزاً بينه وبين الشُّهرة.. والعظمة، والثروة، والسَّعادة، والحبيب الذي يهوى، فهو يفرح كُلّما سَقَط حَجَرٌ من هذا إلى السُّور؛ لأنّه في أوّل الطّريق.. وكُلّ مسافرٍ يكون في أوّل الطّريق، سريع الخُطَى، كبير الثّقَة عظيم الرّجاء..

لأنّه يحسب العُمُرَ كُلّه شباباً، والحياةَ كُلّها لذاذاتٍ، ولا يَحْسَب

لطارقات[1] اللّيالي حساباً..

يترِعُ آخر ورقة وهو يَحُثُّ الزّمان ويَستَعجله ليُحَقّق له أمانيه..

فالزّمان لا يحتاج إلى سائِق ولا حادٍ، ولكِنَّ الشّباب كثير الغُرُور، كثير الأحلام..

وبين الشّيخ الذي تَرتَعش مُهجته ويداه، والفتى الذي تَبرُق أساريره وعيناه، يُسمَع في جوف اللّيل هاتف يقول:

أوّاهُ لو عَلِم الشّبابُ وآهِ لو قَدَرَ المشيب[2]

نيويورك كانون أوّل ١٩٣٠

هل عندنا تجارة سوريَّة

التجارة السوريَّة، اسْمٌ دَرَجت عليه الأقلام، وردّدته زمناً طويلاً، حتى استقرّ في الأذهان أنّ لنا تجارة خاصَّة انفردنا بها دون النَّاس.. وأنّ هذه التّجارة سوريَّة بسماتها وصفاتها، وأُصُولها، وفُروعها، وكُلّ شيءٍ فيها! مع أنّ قولنا التّجارة السُّوريَّة، لا يفيد في الواقع أكثر ممَّا يفيد إطلاقنا الحيّ السُّوريّ على شارِع وشنطون في منهاتن أو أتلنتك أفنيو في بروكلن..

فالسّوريّون في شارع وشنطن الممتد إلى أميال، لا يَشْغَلُون سوى مِنطَقَة صغيرة لا تزيد عن ثلاثة مربَّعات.. بل هم لا يشغلون هذه المِنطَقة

(1) الطّارق: الحادث ليلاً.

(2) هذا البيت لأبي ماضي نفسه.

الصَّغيرة كُلّها..

أمّا الحيّ السّوري في أتلنتك أفنيو فهو قسم صغير جدّاً، وهو في ذلك السّوق كالإصبع في الذّراع.. فالسّوريُّون الموجودون في هاتين البُقْعتين من هذين الشّارعين ليسوا أكثر عدداً من سواهم فيها.. وإن كانوا أكثر من كُلّ جنْس آخر مُنْفَرداً..

إنّما وجود جمْهور كبير فيهما يبرّر اعتبارنا إيّاهما حيَّين سوريّيْن، ولكننا لا نستطيع القول إنّ لنا تجارة سوريَّة إلاّ إذا جازَت نسبة التجارة إلى أوطان الذين يزاولونها، ويُمارسونها، فيقال مثلاً من محصولات أميركا.. فأنت ترى بعد الذي أوضحنا أنّه ليس لنا تجارة سوريَّة، ولا غضاضة[1] في ذلك على المُهاجرين السُّوريّين، فبلادهم نَفْسُها تُعَوِّل على مَصْنوعات الأُمَم الأُخرى ومَحْصُولاتها.. وتستورد حتى حاجاتها الضَّروريَّة مِنَ الخارج، بل هي اليوم تستورد أكثر من ذلك.. إنّها تَسْتَورد الأخلاق والشّيم، والعادات والشرائِع، فكيف - وهذه حالتها - يتسنَّى لأبنائها المهاجرين أن يُوْجِدوا لها تجارة في بلاد النَّاس؟!

ليس عندنا تجارة سوريَّة بالمعنى الذي يَتَبادر إلى الأفهام من العبارة التي دَرَجت الأَقلام على آستعمالها.. ولكِنْ عندنا تُجّار سوريّون أذكياء، مُقْتدرون فَتَحوا لأنفسهم وللاسم السوريّ طريقاً واسعاً في المعترك الإميركي الخاصّ، وأنشأوا بيوتاً تجاريَّةً كُبْرى يشار إليها بالبَنان[2]، على ما بينهم وبين هذا المحيط من التفاوت في العادات واللّسان، ومناحي الطِّباع والنُّفوس، ولكن عِصَاميّتهم تغلَّبت على هذه العراقيل كلّها ومهَّدت عَقَبات كثيرة غيرها..

---

(1) لا غضاضة: يقال ليس عليه في هذا الأمر غَضَاضة: أي ذلّة ومَنْقصة.

(2) البَنَانَة: واحدة البَنان وهي أطراف الأصابع كناية عن الشُّهرة.

ولا نُبالي إذا قلنا إنّ الفضل يَرجع إليهم وحِذقهم في إيجاد هذه المطرّزات الجميلة التي تزدان بها اليوم قصور الأغنياء وبيوت الفقراء في الولايات المتحدة وكندا..

نكتب هذه الكلمة لكثرة ما نسمع القوم يتساءلون عن مصير هذه التجارة، وقول بعضهم إنّها ستصير كتجارة "الخرْجة" أثراً بعد عَين[1]. لأنها بضاعة كماليّة، والناس في هذه الأزمة الاقتصاديّة، وعندنا إذا صحّ هذا الاستنتاج الذي يلجأ إليه المتشائمون قصار النّظر.

أيَسْلم من الاندثار شيءٌ من الحُلي، والرِّياش والمصنوعات الفنّيّة ومظاهر الحضارة والتمدّن؟ فالأزمات تُعرْقل التّجارة، وتَشُلُّ أعصاب الصّناعة، ولكنّها لا تقتلها ولا تُلاشيها، فالحياة كُلّها حراكٌ وسُكون.. والذي نراه نحن هو أنّ مصير هذه التجارة في حالتي اليُسْر والعُسْر متوقّف على أربابها وحِذْقهم، فإنْ أحْسنوا التّدبير بقيت وظلّت تنمو وتتسع وتنتشر، وإن أساءوا فلا تلبث أن تندثر وتنزل عليها غيوم الحُجُب أو أنّها تنتقل من أيديهم إلى أيدي غيرهم.. فعليهم أن يتدبّروا الأمر بأنفسهم، لتسْلَمَ لهم هذه التّجارة التي نفحتهم بالدّور الشاهقة، والقصور الأنيقة، والسيّارات الفَخْمة، وهم اليوم قادرون على صيانتها لأنّ أعِنّتها[2] في قبضتهم يصرّفونها كيفما يشاؤون من غير أنْ يخشوا منافسة منافس أو مزاحمة مزاحم عليها. وذلك لأنّ هؤلاء المنافسين المزاحمين ليس لديهم في هذه الصناعة خبْرة كخبْرتهم أو هم أقلّ منهم عَدَداً وأصغر شأناً..

سمعنا مرّة أحدهم ينعَى على الصّحافة نومها أو تناومها عن معالجة هذه القضيّة التي تَهمُّ التجّار، ناسياً أنّ الصّحَفيّ مهما غزُرَ عِلْمهُ

---

(1) أثرٌ بعد عَين: ما بقي من رَسْم الشيء.

(2) الأعِنّة: والعِنان للفرس مِقْوَدُه.

ولا نُبالي إذا قلنا إنّ الفضل يَرْجع إليهم وَجِدّهم في إيجاد هذه المُطَرَّزات الجميلة التي تزدان بها اليوم قصُور الأغنياء وبيوت الفقراء في الولايات المتحدة وكندا..

نكتب هذه الكلمة لكثرة ما نسمع القوم يتساءلون عن مصير هذه التجارة، وقول بعضهم إنّها ستصير كتجارة "الخرْجة" أثراً بعد عَيْن[1]. لأنّها بضاعة كماليَّة، والناس في هذه الأزْمة الاقتصاديّة، وعندنا إذا صَحّ هذا الاستنتاج الذي يلجأ إليه المتشائمون قصار النّظر.

أيَسْلَم من الاندثار شيءٌ من الحَلي، والرِّياش والمَصْنوعات الفنيّة ومظاهر الحضارة والتمدّن؟ فالأزمات تُعَرْقل التّجارة، وتَشُلُّ أعصاب الصِّناعة، ولكنّها لا تقتلها ولا تُلاشيها، فالحياة كُلُّها حِراك وسُكُون.. والذي نراه نحن هو أنّ مصير هذه التجارة في حالتي اليُسْر والعُسْر متوقّف على أربابها وجَدِّهم، فإنْ أحْسنوا التَّدبير بقيت وظلّت تنمو وتَتسعُ وتنتشرُ، وإن أساءوا فلا تلبث أن تَنْدثر وتنزل عليها غيوم الحُجُب أو أنّها تنتقل من أيديهم إلى أيدي غيرهم.. فعليهم أن يتدبَّروا الأمر بأنفسهم، لِتَسْلَمَ لهم هذه التّجارة التي نفحتهم بالدّور الشاهقة، والقصور الأنيقة، والسيّارات الفَخْمة، وهم اليوم قادرون على صيانتها لأنّ أعِنّتها[2] في قَبْضتهم يصرّفونها كيفما يشاؤون من غير أنْ يخشوا منافسة منافس أو مزاحمة مزاحم عليها. وذلك لأنّ هؤلاء المنافسين المزاحمين ليس لديهم في هذه الصناعة خبْرة كخبْرتهم أو هم أقلّ منهم عَدَداً وأصغر شأْناً..

سمعنا مرّةً أحدهم ينعَى على الصَّحافة نومها أو تناومها عن معالجة هذه القضيَّة التي تَهُمُّ التّجّار، ناسياً أنّ الصَّحَفِيَّ مهما غَزُرَ عِلْمَهُ

---

(1) أثرٌ بعد عَيْن: ما بقي من رَسْم الشيء.

(2) الأعِنَّة: والعِنان للفرس مِقْوَدُه.

ونضحت آراؤه لا يَقْدِر أنْ يطّلع على عِلل التجارة الخفيَّة التي يلامسها التّاجر في صَباحه ومسائه، بل لو اجتمع فلاسفة الأرض وجهابذتها[1] وكان بعضهم لبعض ظهيراً.. على أنْ يسيروا بهذه التجارة خُطْوةً واحدةً إلى الأمام أو الوراء لَما عادوا بغير الحَسَرات!

إنّ أمر هذه التّجارة منوطٌ بأهلها الذين شبّوا فيها أو معها، ومن العبث أن يَذْهَبوا في الأرض يبحثون عن طبيب لها، بينما هُمْ أطبّاؤها، وعندهم لا عند سواهم دَواؤها!

"ما حَكّ جلدَك غيرُ ظُفْرِكَ".. فلا تَسْتعيروا لها الأظفار!

نيويورك ١ شباط ١٩٣١

خُضْرَة الدِّمَن[2]

لا يصل إلى اللآلئ في البحر إلاّ من خاض فيه مغامراً بنفسه.. إنَّ الذي يقف على الشَّاطئ، فلا تقع عيناه إلاّ على الأمواج فلن يَرْجِع إلاّ بالهَدير في أُذُنيه، والرِّمال في نَعليه، وإذا أصابت يده شيئاً فبعض الأَصداف التي لا قيمة لها..

أكثر النَّاس يكتفون من البحر بالوقوف في السَّاحل، حيث يتلَهَّوْن بالنَّظر إلى الأمواج، تُقْبل وتُدْبِر، وتَنْعقد وتَنْحَلّ، أو بمراقبة القوارب تمرّ من هنا وهناك مُسرعة أو متمهِّلة، أو التفرّج على الحسان رائحات ذاهبات في الماء، يتبَرّدن في الحَرّ، أو مُضْطجعات على الرّمال

---

(1) الجهْبِذ والجهْباذ: النَّقَاد الخبير بغوامض الأمور ج جهابِذَة.

(2) الدِّمَن: الدِّمْنة آثار الدَّار والمَزْبَلَة ج دِمَن.

كحُوريات[1] الماء..

وربّما وجد بعضهم لَذّة وسروراً في مشاهدة الأولاد، يَقفزُون ويَخمزون فوق الرّمل، أو يرْشُقون البَحْر بالحَصَى، أو يَمُدُّون في الرّمال دروباً ومسالك، أو يرفعون منه هُضَيبات صغيرة أويَحتفِرُون فيها أنفاقاً وسراديبَ وما شاكل ذلك.

هذا في الغالب حلّ ما يراه الَكثيرون من البَحْر ذي الكُنوز والأسْرار عندما يرتادون سواحله، وبعضهم لا يُحْسِن حتى رؤية هذه الأمور، ولكنّك إذا سمعتهم يتحدّثون عن البَحْر خِلْتَهم من الذين اطّلعوا على كُلّ سِرّ فيه، وبأنّ لَهُم كُلّ الذي في أعماقه كأنّما هي في حواشيه.. في حين أنّهم لا يحدّثونك إلاّ عن رحل بَصُرُوا به يَغْطِس ويَعُوم، أو قارب صدمته مَوْجةٌ شديدةٌ فلم يَنْقَلِب أو كاد ينقلب لولا مَهارِة المجدّفين. ويمضون في الحديث عن هذه المشاهد على هذه الوَتيرة[2] في لَهْفَة عميقةٍ عليك، لأنّك لم تُبْصر ما أبصروا، ولا سمعت ما سَمِعوا، ويتوهّمون أنّهم يحدّثونكَ عن البَحْر!

فإذا لم يستخفّك الطّرَب لِحَديثهم اعْتذروا عنكَ، بأنّك رَجُلٌ لم تَرَ البِئر..

كُلّ إنسان كالبحر، إنْ لم نقل أغرب من البحر، فيه أصداف ودُرَرٌ وله هَدير وزئير وسُكون وهياج، فإذا أنت قَنِعْت منه بما تراه من حُسْن ثيابه، أو بما تسمع عنه من أصحابه وأترابه.. كنت كمن يَقْنَع من الطّائر بريشه أو بصورته في اللّوْح.. لا تعرف إنساناً معرفة صادقة حتى تبلو أخلاقه وأطواره، ولا تُدْرك هذه الغاية إلاّ إذا لم يكن في اتصالكما

(1) الحوريّة: فتاة اسطوريّة تتراءَى في البحار والأنهار والغابات — والحَسْناء.

(2) الوَتيرة: الطّريقة.

مَصْلحة، كان التقاؤكما كالتقاء الطَّيْف بالطَّيف في رقعة السينما..

حدَّثنا أحدهم قال: كنت أُقيم في بلدٍ بعيدٍ عن نُيويورك أقرأ الجرائد فأراها تُكْثر من الإشادة باسم بطرس الخطّابي والامتداح مِنْ أخلاقه العالية.. وتكيل له النعوت الطّنّانة بلا حساب، مثل الوجيه والأريحيّ والعصاميّ، ناهيك عن النّعوت الأُخرى التي صارت مُبْتذلة لكثرة الاستعمال كالفاضل والغيور والكريم.. إلخ فكنت كُلّما رأيت اسْمَه مطوّقاً بهذه النُّعوت الخلاّبة، تصورّت الرَّجل بطلاً من أبطال المُرؤة والنَّخوة، وخِلْته فيلسوف الأخلاق والأطوار يستعبد المال ويسخّره لخدمة بلاده وأُمَّته وتعزيز العِلْم والأدَب، لا كبعض الحَمْقى الذين استعبد المال نفوسهم، فصاروا كلّما كثر في صناديقهم اشتدّ خوفهم من الفقر والفاقة..

ولطالما رفعت رأسي تيهاً واعتزازاً لوجود أمثال بطرس الخطّابي بيننا ووجود جرائد لا تضنّ بالثناء على رجل يستحقّ الثّناء.

وظلّت هذه الصّورة الجميلة المشرقة النَّواحي منطبعة في ذهني إلى أنْ ساقتني رياح الأقدار إلى المدينة العظمى، فخطر لي أن أزور بطرس الخطّابي وأشكره على ما أسدى إلى الأُمَّة من أياد بيضاء.. وحسنات غرَّاء، وأعود فأحدّث عن البحرِ ولا حَرَج. كنتُ أتوقع أن أشاهد رجلاً بَشُوش الوَجْه، رقيق الجانب عليه هيئَة التّواضع والاحتشام، يتحاشى أنْ يظهر من أقواله أو حركاته ما ينمّ عن كونه فخوراً بالمنزلة التي وصل إليها عند النَّاس، أو أنَّه قانع بما أغدقته عليه الجرائد من النّعوت..

كنت أتوهّم أنَّ الجرائد لم تنقل إلاَّ صورة باهتة لمزاياه؛ لأَنَّ اللّغة كثيراً ما أدركها العجز عن تصوير الأشياء كما هي.. فَلمَّا دخلتُ إلى محلّه الكبير قابلني عند الباب رجل متجهّم الخلقة كأنَّما هو هناك ليطرد

الناس لا ليستقبلهم، فقلت في نفسي لا شكّ أنّه مُستخدِم معتدّ بنفسه لأنّه يشتغل في محلّ هذا الثريّ الكبير، فكثيراً ما رأيت صغار المستخدمين أكثر اعتداداً بمال أسيادهم من أسيادهم.. قلتُ له: وأنا أحتشم وأخفض من صوتي لئلاّ أزعجه:

هل السيّد بطرس الخطّابي موجود؟

فأجابني بلهجة خشنة قاسية: ماذا تريد منه؟

فتذكّرت في تلك اللّحظة ما كان يعانيه الشعراء في العصور الماضية من عَنَت الحجّاب الواقفين على أبواب الملوك والأمراء، وعقدتُ النّية على رؤية بطرس الخطّابي مهما لقيت في طريقي إليه من العراقيل والمصاعب، إذ "لا بُدّ دون الشّهد من إبَرِ النّحْل".

وما لبثتُ أنْ أخرجت من جيبي بطاقة فيها اسمي وناولته إيّاها قائلاً: أنا رجل غريب عن البلد، أحبّ أن أرى السيّد بطرس الخطّابي لأمر يهمّه أكثر ممّا يهمّني.. ولكنّ الرّجل لم يتناول البطاقة من يدي بل لبث يحدّق بي من رأسي إلى قدمي وهو يردّد هذه العبارة: قل ما الذي تريده؟

وكأنّ القدر أراد إنقاذي من ذلك الموقف فأرسل صديقاً تعرّفت اليه في الصّباح، فلما رآني والبطاقة في يدي اقترب، وقال:

ماذا تعمل عند السيّد بطرس الخطّابي، لا شكّ أنّك تعرفه من قَبْلُ!

قلتُ: كَلاّ، ولم أره بَعْدُ، ولَكِنّني أُحبّ أن أراه..

فضحك صديقي، وقال: ويحك[1]، إنّك الآن واقفٌ معه.

فكدت أصعق في مكاني.. وقرأ صديقي حكايتي من جرّاءِ انذهالي وحيرتي، فتدارك الموقف بأن عَرّفني إلى الرّجل وعَرّفه إليّ فإذا هو بطرس

---

(1) وَيْحك: "وَيْحَ" كلمةُ تَرحُّمٍ وتَوَجُّعٍ، بمعنى "وَيْل".

الخطّابي بِعَيْنه!

وبعد خروجنا من عنده، سألت صديقي: لماذا لم يتناول البطاقة من يدي؟ فقَهْقه عالياً، وقال: إنّ لذلك سبباً، وهو أن الخطّابي رجل أُمّيّ!

إذا غُصْتَ في البحر لتلتقط الدرر فابتلعك حُوت أَو خانتك قُواك، فهويت إلى القاع، ورسبت فيه كالحَجَر.. فلا تَلُمِ البَحْرَ، فإِنّه ما زال يحوي الدّرر، ولَكِنْ أنت مَنْحوس!

أنا بدَوري غير عاتب على الجرائد ولا آخذ عليها إلاّ أمراً واحداً، وهو أنّها نسيت وهي تكيل النُّعوت الساحرة لهذا الرَّجل الوجيه العظيم أن تقول عنه: إنّه رجُلٌ أُمّيّ.

وهنا تنهَّد محدِّثي قليلاً، وقال: وتراني من بعد الذي عرفته بنفسي، كلّما رأيت اسم بطرس الخطّابي منشوراً في الجرائد، أُعَزّي نفسي الخائبة، وأُسكّن عقلي الثّائِر بقول الشّاعر:

ما أنــت أوَّل سارٍ غــرَّه قَمَرٌ   ورائدٍ أعْجــبته خُضْرَة الدِّمَنِ

نيويورك ١٥ شباط ١٩٣١

أنقيم أم نرْحل

أليس من الأفضل للمهاجر السّوري أنْ يعود الى وطنه؟

إِذا ركب أحدنا زورقاً وانطلق به في البحر فإِنّه يستمرّ مندفعاً في

السَّير متهلّلاً طروباً، ما دام البَحْر زهواً[1]، والطَّقس صَحْواً، والنسيم عليلاً والموج ساجياً وادعاً. أمَّا إذا تلبَّد الأُفق بالغيوم الدَّكناء وهبَّت الرِّياح شديدةً نَكْباء[2]، وتعالى الموج، وتتالى يلطم بَعْضه بعضاً، وسار سكونه هياجاً وحفيفه صَرْصَرَة[3] وزمجرة، فلا بدّ أنْ ينقلبَ التَّهليل إلى وَجَل والطّمأنينة إلى جزع، والابتسام إلى عبوسة وتجهّم وانقباض، والرَّغبة في الإقدام رغبة في الرّجوع إلى الشَّاطئ، حيث السَّكينة والأَمْن والسَّلامة..

حُبّ السَّلامة يَثْني عزم صاحبِهِ عن المعالي ويُغري المرءَ بالكَسَلِ

أَمْس ضَمَّني وأحد الشبّان النَّاهين مجلس، فما استقرّ بنا المُقام حتى فاجأني قائلاً: ألا تظنّ أنّ رجوع المهاجرين السوريّين إلى بلادهم خَيْرٌ لهم من البَقَاء في الولايات المتحدّة؟!

قلت: من التسرّع أنْ يجاوب المرء على هذا السّؤال نفياً أو إيجاباً قبل درسه مليّاً، لأنّه سؤال خطير لا يكفي فيه الجواب بـــ "لا" أو"نَعَم". فما هي الأسباب التي حملتك على هذا السّؤال..؟

قال: إنّي قد طُفْت الولايات المتحدّة الأميركيَّة مؤَخّراً، وزرت أكثر الجوالي الكبرى، فوجدت السّوريّ يكافح بلا سلاح في معترك كُلّه أسلحة.. فهو إمَّا عامل يشتغل إذا دارت المصانع، فإذا لم تدرِ فهو بطَّال، وإمَّا صاحب حانوت للسّمانة أو المُرَطَّبات له في هذا الميدان مزاحمون

(1) الزَّهْوُ: الكِبْرُ.
(2) النَّكباء: كلُّ ريح انحرفت ووقعت بين ريَحين.
(3) الصَّرْصَرَة: رِيحٌ صَرْصر شديدة البرودَة أو شديدة الصَّوْت.

جبابرة لا قِبَل له[1] بمقاومتهم، فحيثما وُجِد حانوت لرجل فَرْد، وجدت حوله عِدَّة حوانيت من نوعه للشركات التي تَبيع الحاجات والسِّلَع بأرخص مِمَّا يشتريها صاحب الحانوت المستقلّ، فترى النَّاس لا يلجأون إلى حانوته إلاَّ قبل أن تفتح تلك الحوانيت أبوابها في الصَّباح أو بعد إقفالها في المساء. وبعبارة ثانية، إنَّ ما يبيعه صاحب الحانوت المستقلّ يبيعه في غَفْلة من هؤلاء المزاحمين، ولذلك تراه يبكّر إلى حانوته بُكور الغراب، ويبقى فيه حتى يكاد اللَّيل أن ينتصف، ومع ذلك لا يفي بدَخل نفقَاته، فهوَ غير مستريح البال.

إنَّه يكدّ ويكدح، على غير طائِل، فكأنَّه دولاب النَّاعورة، يستخرج الماء ويصبّه، وليس له منه شيءٌ.

أفليس من الخطأ أن يصرف حياته على هذه الوتيرة؟ في حين أنَّه لو رجع إلى بلاده لاستطاع أن يَكْسَب رزقَهُ بأَقَلّ من هذا العناء والجَهْد.. وهناك الباعة المتجوّلون، فقد كان هؤلاء يذهبون إلى القُرَى والدَّساكر[2] فيبيعون للفلاَّحين والقرويِّين سِلَعاً وأشياء يجهل القروي قيمتها، فيدفع الثمن الذي يطلبه البائِع أو البائعة.. وفي أكثر الأحيان كانت هذه السِّلع الصّغيرة مَصْدَر ثراء عظيم؛ لأنَّ ما يَدْفعه القروي ثمن واحدة منها يساوي كُلّ ما في "كشَّة" البيَّاع..

ولكِنَّ ذلك العهد انقضى وانطوى، وانتشرت حوانيت الشركات في كُلّ قرية ودسكرة، وصار القَرَويّ يشتري بعشرة سنوت ما كان يشتريه من البيَّاع من قَبْلُ بعشرة دولارات، وبعشرة دولارات ما كان يكلّفه مائة

(1) لا قِبَل له: لا طاقة وقُدرة.
(2) الدَّسَاكر: القرى العظيمة وبناء كالقصر حوله بيوت فيها الشَّراب والملاهي يكون للملوك. المفرد دَسْكَرَة.

دولار.

فأنت ترى أنّ السّيْلَ قد سُدّت في وجه العامل، والدّوّار وصاحب الحانوت الصّغير! وهؤلاء خمسة وتسعون بالمائة من المجموع السّوري في الولايات المتّحدة..

فالعامل السّوريّ لا يقدر أن يزاحم العامل الأميركي لأنّه غير خبير والأميركي خبير. وهو يَجْهل أسرار الآلات التي تَرْبطُه إليها الحاجة، والعامل الأميركيّ يعرف عنها الكثير.. وأرباب العقول المُبْدعة لا ينفكّون يَستنبطون الآلات التي يستغنى بها عن الأيدي البشريّة، ولا سيما الأيديّ التي خلقت لتعوّل على سواها وتقضي الدّهر مأجورة.

وصاحب الحانوت مغلوب على أمره أمام الشّرِكات الكبرى التي يراها عن يمينه، وعن شماله.

والبائع الدّوّار قد خَسِر مكانه تحت الشّمْس. وقد صارت أميركا في حالة من التّيْه الفكريّ والعقليّ لا يمكن معها الاتكال على الحظّ وَحْدَه.. أفليس الأفضل للمهاجرين الذين يَصْرِفُونَ الأيّام في هذه البلاد في الكَدّ والكَدْح على غير طائل أنْ يعودوا إلى بلادهم فتستفيد مِنْ وجودهم؟

وكانت لهجة محدّثي كلهجة قاضٍ يُصدر حكماً في قضيّة وقف على أسرارها ودرسها من جميع نواحيها، فهو واثقٌ من أنّه يقول الكلمة الفاصلة الحاسمة التي لا نقض بعدها ولا إبرام[1]..

---

(1) النّقض: ضدّ الإبرام الذي هو إحكام الرّبط أو العقد بين المتعاقدين.

فَلمَّا انتهى قلت له: إنّ كُلّ ما ذكرت صَحيحٌ، ولكنه مع صِحته لا يَدْعُو السوريِّين المهاجرين إلى تقويض خيامهم، والارتحال عن هذه البلاد بقضِّهم وقضيْضِهم[١]، ولا هو بالأمر الميسور!

لَمَّا هاجر السوريّون إلى أميركا لم يهاجروا فراراً من الظُّلْم - كما يقال - بل انتجاعاً للرِّزق، وطلباً للمعاش، لأنّ هجرتهم لم تقع بعَد نكبة سياسيَّة أو فَشَل ثورة إصلاحيَّة كما حدث للذين هاجروا من ألمانيا وهولندا وفرنسا.. ولم تكن لهم غاية سياسيَّة نصبوا لها النُّفوس ووقفوا عليها السَّعي، وإنّما كان الواحد منهم يهاجر لِيَغْتني كجاره أو نسيبه، أو ابن قريته، فإذا حصل على بُغْيَته ركب البحر راجعاً إلى وطنه، وبقيت المهاجَرة على هذه الوَتيْرَة حتى اشتعلت الحرب الكبرى الطّاحنة، وكان في سوريا ما كان من خُطُوب[٢]، وكُرُوب[٣]، وتَضْوير[٤]، وتنكيل[٥].. وكان في أميركا ما كان من رخاء ورواج وتوفيق وإقبال.. فتهافت السوريّون على شراء البيوت والأراضي، وتوسَّعوا في حَوْمة التِّجارة، وتسارعوا إلى اعتناق الجنسيَّة الأميركيَّة بصورة لم يعد معها أثر للرَّيب في أنّهم عقدوا النِّيَّة على البقاء في أرض كولمبوس، والاندماج في هذه الأُمَّة الكبيرة النَّشيطة الرَّاقية التي اقْتبسوا الكثير من عاداتها وأطوارها،

---

(1) القضُّ: صغار الحصى. القضيض مكانٌ فيه صغار الحصى. والمقصودُ القومُ "جميعُهم"..

(2) الخُطوب: الخَطْب الشّدَّة والمَكْروه.

(3) الكُروب: والكَرْب والكُرْبة أي الحزن الشّديد.

(4) التّضوير: والتّضوّر الصِّياح والتّلوِّي عند الضَرْب أو الجُوْع.

(5) التّنكيل: نَكّل به تنكيلاً أي عاقَبهُ عِقاباً جعله عِبْرَة لغيره.

واشتبكت خيوط أمانيهم اشتباكاً لا يزول إِلاّ إِذا انقطعت تلك الخيوط أو التهمتها نارٌ آكلة!

لكنَّ بعضهم يتذمَّر اليوم من وقوف حركة الأشغال ويتمنَّى لو كان في وُسْعه الرّحوع إِلى سوريّا، مِمَّا يدلّ على أنّ روح الشرقيَّة لا يزال الاستسلام هو العنصر الغالب فيها.

في الولايات المتحدَّة اليوم أزمة اقتصاديَّة خانقة، إِلاّ أنّها ستزول كغيرها من الأزمات والشَّدائد، فيعود إِلى سماء التّجارة إِشراقها وبهاؤها، وتظلّ سوريا كما فارقها المهاجر. وإِذا كانت هذه الأزمة قد تناولت السوريّين فقد تناولت سواهم من عناصر هذه الأُمَّة، فما بال هؤلاء لا يفكرون بالرَّحيل الذي معناه الفِرار والانهزام؟

ناهيك عن الأسباب الأُخرى التي يَعْسُرُ معها على أيّ رجل مفكّر أنْ ينصح السوريِّين المهاجرين بالرُّجوع.. فإِنّ المهاجر الذي جاء إِلى هذه البلاد فتًى، غريراً[1] أمرَد[2]، قد صار رجلاً وتزوَّج. والذي جاءَها متزوِّجاً قد صار ربَّ عائلة. والذي كان في أوَّل أمره بيَّاعاً بسيطاً، أصبح صاحب حانوت. والذي كان صاحب حانوت، فقد صار اليوم صاحب تجارة واسعة..

وفوق ذلك، إِنّ العامل البسيط لن يصير خبيراً إِذا رجع إِلى سوريا، بل هو لن يجد فيها لنفسه عملاً كالعمل الذي يزاوله اليوم..

وصاحب الحانوت الذي يتمشَّى في البيع والشِّراء على القواعد الأميركيَّة، يصعب عليه بعد السِّنين التي قضاها في هذا المحيط أنْ يزاحم أمثاله في سوريّا؛ لأنّ لهم قواعد وطرائق تختلف كثيراً عمَّا عَرَفَهُ وأَلِفَه. أمَّا

(1) الغرير: رجُلٌ غِرٌّ غير مُجرَّب.
(2) الأمْرَد: فتى أمرد لم تنبت لحيته بعد.

صاحب الرَّأسمال الكبير، فلو طَوَّف الدُّنيا كُلّها لَما وجد بلاداً أوفق لاستثمار ماله من هذه البلاد..

ولا يجب أنْ ننسى أنَّ في العمَّال السوريِّين من كان يتناول من قَبْلُ أُجْرَةً أُسبوعيَّة تقارب المِاية دولار وهو ليس على شيءٍ من الخِبْرة، وكان العامل الخبير يساويه في الأجر..

إذن، فليس إنشاء الشركات الكبرى، ولا العمَّال الخبراء، ولا الآلات الحديثة هي السَّبَبَ الرَّئيس في تضايق العامل السُّوريّ وصاحب الحانوت الصَّغير، ولكن الأزْمة العامَّة الآخذة بخناق الكُلّ؛ من العامل الفقير إلى صاحب المعمل الكبير، إلى صاحب أصغر حانوت إلى أكبر شركة في البلاد. وهذه كُلّها كما قدَّمنا سوف تزول عاجلاً أمْ آجلاً.. فعلى السوريِّين أنْ يفكّروا ويهتمّوا، ولكن بغير الرَّحيل والجَلاء.. علّهم يحاولون الاستفادة منها بدلاً من الاستسلام لليأْس والقُنُوط..

إذا كانت الشركات الكبرى تزاحم أَصحاب الحوانيت المستقلّة فعليهم أنْ يقرعوا الحديد بالحديد، وذلك بأَن يؤلّفوا الشَّركات المنظَّمة فيوجدوا من الضَّعف قُوَّة..

فهذه فكرة عالجناها مِنْ قَبْلُ في "مرآة الغرب" عندما زرنا مدينة ديترويت ووقفنا على حالة أَصحاب الحوانيت السوريِّين فيها..

وإذا كان من الممكن الاستغناء عن العُمَّال السُّوريِّين، وذلك في مثل هذه الأَحوال القاسية لأَنّهم غير خبراء، فعليهم أنْ يتضامنوا ويعملوا على ترقية أنفسهم في عالم الصِّناعة، بحيث يصيرون من الخبراء الذين لا يمكن الاستغناء عنهم!

لا نُكران أنَّ جهوداً عظيمة تذهب منّا في غير طائل، وأوقاتاً ثمينة تضيع سُدًى. ولكن إذا كان لا بُدَّ من الجهر بالحقيقة، فعلينا أن نقول إنّنا

مسؤولون عن ضياعها لا سوانا..

مضى نحوٌ من نصف قرن ونحن في هذه البلاد. ولا هَمَّ لنا غير تأليف الجمعيَّات البلديَّة والدِّينيَّة والخيريَّة والسِّياسيَّة، فنختلف ونقتسم ونقتتل، ونوجد لأنفسنا قضايا ومشاكل لا مساس لَهَا بالحياة التي حولنا.. ولا فيها شيءٌ من الفائدة، فكأنَّنا جماعة من الصَّيَّادين يتنازعون في زَوْرقٍ على اقتسام السَّمك الذي اصطادوه أو سيصطادونه بينما البحر حولهم يهدأ ويثور.. وغيرهم من النَّاس يسيّرون فيه السّفن الكُبْرى أو يغوصون على اللآلئ والكنوز..

وأخيراً يفسد السمك ويَنْتن، والصَّيَّادون ما برحوا يتنازعون ويقتتلون وربّما طرح بعضهم بعضاً في البحر!

في الحقيقة، إنَّ الجلاء عن هذه البلاد ليس بالدَّواء الشَّافي للسّوريّ المهاجر، ولا هو بالقضيَّة الرَّابحة.. فيجب عليهم أنْ يطردوا هذه الفكرة من رؤوسهم، لأنَّها مُثبِّطة للعزائم، قاتلة للهمم، وحبَّذا لو انبرى المفكّرون إلى معالجة هذا الموضوع مقدِّمين الوسائل التي يجب على السّوريّ أنْ يستعين بها، ليكفل لنفسه الهناء والرَّاحة في المستقبل.. فأميركا على ما فيها من الاضطراب الاقتصاديّ الآن أحسن بكثير ممَّا كانت عليه يَوْمَ هاجر إليها السُّوريّون، فإذا كانوا قد وجدوا وقتئذٍ ميداناً لخيول أمانيهم ومصالحهم، فحريّ بهم أنْ يجدوا اليوم ميادين..

نيويورك ١ آذار ١٩٣١

يومان للشُّكر لا يومٌ واحدٌ!

يمرّ الشَّرقيّ بالشَّرقيّ في الصَّباح فيسأله: كيف صحّتكَ؟

فيجاوبه: الحَمْد للّه.

ويلتقيه عند الظُّهر فيسأله: كيف أحوالُك؟

فيجاوبه: كثّر خير ربّنا.

ويصادفه عند المساء فيسأله: كيف العائلة؟

فيجاوبه: بخير من فضل الله.

ويزور الشرقيّ صديقه المريض، فيسأله: كيف أنت؟

فيئنُّ المريض ويتوجَّع ويقول: الحَمْد لِلّه الذي لا يُحْمَد على مكروه سواه.

وهكذا يشكر الشرقيّ الله في كُلّ حال حتى عندما يفتقر، ويمرض، وتنزل به شدَّة أو نكبة.

يقولها عن تفكير وعن غير تفكير؛ لأنَّه يميل بطَبيعته إِلى التَّسليم، وترك التَّقادير[١] تجري في أَعِنَّتها[٢]!

فكلّ أَيَّام السَّنة عنده لشكر الله وحَمْده، سواء كان يأكل دجاجاً أو ديوكاً، أو بقولاً، أو خبزاً يابساً، أو لا يأْكل أبداً!

أَمَّا الأَميركي فله يوم واحد من أَيَّام السَّنة يأكل فيه الدّيوك الهنديَّة ويشكر الله عن السَّنة كُلِّها..

وقد كان هذا اليوم يقع من قَبْلُ في آخِرِ خميس من شهر تشرين الثاني، حتى رأى الرَّئيس روزفلت في هذه السَّنة أَنْ ينقله إِلى الثالث

---

(1) التَّقادير: القَدَر.

(2) والأَعِنَّة والعِنان للفرس وجمعه أَعِنَّة. شبَّهَ القدَرَ بالفَرس الجامحة.

والعشرين منه نزولاً على رغبات التجّار الذين يريدون أنْ تكون بين عيد الشُّكر وعيد الميلاد فسحة من الوقت خدمة لمصالحهم، فكان لهم ما أرادوا. ولكنْ تغيير العادة صعب، كما يقولون، لا سيّما وأنَّ هذا العيد قد اكتسب جلالة العيد الدّيني عند الأميركيّين وإن لم يكن بالعيد الدّيني فاعترض كثيرون، فما أجدى الاعتراض شيئاً؛ لأنَّ تعيين يوم الشُّكر موكولٌ إلى رئيس البلاد.

غير أنَّ حاكم ولاية كولورادو رأى أنْ يكون للولاية يومان، لا يوم واحد للشُّكر؛ اليوم القديم، واليوم الجديد الذي عيّنه الرئيس، ستقع فيه في الديوك الهنديّة مذبحتان لا مذبحة واحدة في تلك الولاية.. ولا يحسبنَّ القارئ حاكم ولاية كولورادو من المُغْرَمين بكثْرَة الأعياد لرغبته في البطالة كبعض الموظّفين الشرقيين، فهو من غير هذا الطّراز.. فقد رأى أن يخنقَ عيداً عندما قرَّر أن يكون عيد الشُّكر عيدين.. أمّا العيد الذي ينوي إلغاءه فهو يوم الهُدْنَة الذي يقع في الحادي عشر من شهر تشرين الثاني القادم؛ وحُجَّته في العدول عن هذا الاحتفال بهذا العيد أنّه لم يبق له معنًى بعد أن شبّت الحرب في أوروبا!

هكذا ستَشْكُر ولاية كولورادو الله مرّتين في هذه السَّنة، ويَحُقُّ لها بل لكُلِّ ولاية أنْ تَشْكُرَه كُلَّ يوم لأنّها جزءٌ من أميركا، وليست جزْءاً من العالم القديم الذي لا يكاد أهله يتصافحون حتى نراهم بعد قليل يتواثبون ويتذابحون!

ثم يدَّعُون أنّهم رُسُل المدينة والحضارة، وأنّهم سَدَنَةُ[1] الإنسانيَّة والحُرِّيَّة!

نيويورك ١ تشرين الأوَّل ١٩٣٩

---

(1) السَّدَنَة: السَّادِن خادم الكعبة، البوّاب، الحاجب.

الطِّيب الخبيث

كان لُقْمانُ[1] عبداً أسود فقال له مولاه مرَّة:

- اذبح لي شاة وجئني بأطيب مُضْغة.

فذهب وأتاه باللِّسان.

فقال له: اذْبح لي شاة أُخرى وآتني بأخْبث مُضْغة.

فمضى وأتاه باللِّسان.

فقال له: وما مَعْنى ذلك؟

فأجابه: لا شيءَ أطيب منه، ولا أخْبَثَ إذا خَبُثَ!

وليس لِسان الشَّاة هو المقصود في هذه الحكاية، فالشَّاة لها لِسانٌ ولَكنَّه لا يطيب ولا يَخْبُث، لأنَّها عجماء لا تتكلَّم؛ فهي لا تنقل وشاية، ولا تحمل سعاية[2]، ولا تَكْذِبُ، ولا تختل[3]، ولا تَمْكر، ولا تجدِّف[4] ولا تَقْذف[5].

إذن فلسانها البريءُ من الذُّنوب ليس إلاَّ رَمْزاً لبعض الألْسنة، ألسنة النَّاس التي لا تهدأ ولا تستكِنّ ولا تنقطع عن ترويج الحكايات المختلفة والشوائِع المزوَّرة، مع علم أصحابها أنَّها لا صحَّة لها!

وهناك ألسنة ليست على هذا الخُبْث، ولَكنَّها لا تملِك ذاتها عَنْ نقل

---

(1) لُقْمان: هو لُقمان بن ياعور ابن أُخت أيُّوب، أو ابنُ خالَته. كانَ من سودان مصْرَ من النُّوبة.عاشَ حتّى أدْرَكَ النّبي داوُد. آتاهُ اللهُ الحكمة. رُوِيَ عن النبيّ محمد [أنّ لُقمانَ لم يكنْ نبيًّا]

(2) السِّعايَة: الوشاية.

(3) تختل: تخدع.

(4) جدَّف: التَّجْديف الكُفْر بالنِّعَم.

(5) قَذَفَ: رمى بالحجارة،أو بالتُّهمة. المُحْصنة رماها بالزِّنَى..

القول الخبيث بدون وَعْي، فتجني وهي لا تقصد أنْ تجني، وتُسيءُ ولم يخطر لها أنْ تكون مُسيئَة.

ولقد أدركت الحكومة البريطانيَّة ما للألسنة التي لا يحسن أصحابها كبحها من الآفات والأخطار، فقامت برعاية واسعة النِّطاق تحُضّ فيها النَّاس كباراً وصغاراً ورجالاً ونساءً على أنْ يتحاشوا القيل والقال حتى في الأُمور التي يعدّونها ليست ذات شأن.

فإنَّها قد تكون ذات شأن كبير عند العدوّ.. وأمْس لَمَّا رجع المستر صومز ويلز من أوروبا، رأى أنَّ مهمَّته الكبرى التي يتوقَّف عليها السَّلام أو الحرب تقضي عليه أن لا يحاذر أحداً مثل ذاته، وأن لا يتَّقي شيئاً مثل لسانه، فعقَلهُ وعَقَل معه كثيراً من الألسنة التي كانت تتحفّز للدَّوران كاللّوالب!

وإنَّك لتلاحظ أيَّها القارئ إذا تحدَّث شخصان فإنَّ أخلاق الرَّجُل الذي يتكلّم تبدو للسَّامع في أقواله وربّما ظهر فيها أكثر من أخلاقه. أمَّا الذي يسمع ويتكلّم فلا يبدو منه إلاّ ما هو مَعْروفٌ عنه من قَبْلُ..

النَّهر لا يثرثر، أمَّا السَّاقية فأكثر ما تضجّ وتُثَرثر..

فالنَّسْر المحلّق في الفضاء العالي لا يُسْمع له صَوْت.. وهو مَلِك الفَضاء، لذلك لا يَعْرف الصَّيَّادُ مكانَه إلاّ إذا رآه.

أمَّا الجنادب فلا تنقطع عن الصِّياح والصُّداح، فهي أبداً معروفة المكان والأحوال.

واللِّسان الثرثار يؤْذي صاحِبَهُ مثلما يؤْذي الناسَ، بل ربّما كان أشدّ إيذاءً وإيلاماً لصاحبه من أيِّ إنسانٍ آخرَ..

نيويورك ٣٠ آذار سنة ١٩٤٠

كتاب الطّبيعة

ينسى التّاجر وهو قابعٌ في مَخزنه - يتوقّع الرِّبح أوْ يَخشى الخَسارَة - أنّ في الحياة رِبْحاً غير الرِّبح الذي يُنشده، كما أنّ فيها خَسارة أعظم مِنَ الخَسارة التي يخشاها، وهو أنْ يتحسَّس الجمال في الطبيعة أو لا يتحسّسه. ففي الأوّل غُنْم ليس في أيّة صَفَقة تجاريَّة رابحة. وفي عدم تحسّس هذا الجمال الذي يحيط به مِنْ كُلّ ناحية خسارة أعظم من كُلّ خسارة ماديَّة..

إنّ إنساناً لا يُبصر الجمال في ما حوله هو أعمى الرُّوح، وعلى عقله غشاوة سوداء..

ومثل هذا التّاجر الضَّيِّق الدُّنيا ذلك السِّياسيُّ الذي يقضي وقته في خلق المعاثر[1] لخصومِهِ، أو استنباط الحِيَل للوصول إلى غاياته، فيذهل عَمَّا في النَّاس من جمال، بل يذهل عَمَّا في نفسه من جمال مكنون. فإِذا هو ثعبان في زِيِّ إِنسان.

ومثل التّاجر والسِّياسيّ كُلّ شخصٍ آخَرَ، يعيش ليأْكل ويشرب وينام. وإِذا اهتمّ يكون طعامه أفخر من طعام جارِه.. وشرابه أغلى، وفراشه أنعم وأطرى، وما خلا ذلك فهو عنده فضول!

ومع ذلك لا يستشعر واحدهم القَحْط الصَّارخ في حقل حياته.

لا علاجَ لهذه الحالة إلاّ بعَوْدَة الإِنسان إِلى كتاب الطّبيعة يطالعه، فإِنّه الكتاب الأعظم الذي يَشتَمل على السِّحر المتجدِّد والحكمة التي لا تنفد.. وهي المعلّم الأكبر الذي لا يحتاج المرء إِلى غير الإِصغاء إِليه، ليهتدي إِلى السَّعادة الخالصة من الشّوائِب..

---

(1) المَعَاثر: العقبات التي يزلُّ عندها المرءُ ويسقط.

فأين نحن من الطّبيعة؟ إِنّنا نشقى لأنّنا لا نقترب منها. وننسى أن ابتعادنا عنها ابتعاد عن الجمال الحقّ والخير المَحْض، وعن الله..

نيويورك ١٤ تشرين أوّل ١٩٥٣ العدد ٥٢٣

عيد الطّفل

لم يشعر الكبار في هذه السّنة بالمسرّة التي كانوا يشعرون بها في عيد الميلاد.

ولكنهم مع ذلك من الصعب عليهم أن لا يَفْرَح الأولاد في العيد، فكظموا ما في نفوسهم من هَمّ وكدر، وكتموا ما يخامرهم من وَساوس، ومضت الأمّ إلى السُّوق كعادتها تدور في الحوانيت باحثة مفتّشة عن اللعبة التي عرفت أنّ ابنها يحبّها.. عن الفستان الذي اشتهت طفلتها أن يكون لها..

ومضى الأَبُ مثلها يفكّر في جلب الأشياء التي تعوّد جلبها في العيد لصغاره. وهكذا سطعت أنوار الكهرباء في الأشجار مخضرّة في البيوت وابتسم الصّغار فرحاً بالعيد، فنسي الكبار همومهم وهواجسهم[1] عندما رأوهم يبتسمون. ويطربون..

فأنت ترى أنّ الإِنسان عندما يسعى لإِدخال الفرح إِلى قلب سواه يحصد هو فرحاً لذاته في النّهاية.

---

(1) الهاجس: هَجَس الشيءُ في صدره خطر بباله، وأهَمَّهُ بتصوُّرات يصعبُ التخلُّصُ منها.

كذلك يتّضح لنا ممّا تقدّم أنّ المرء لا يسترجع نفسه جديدة صقيلة إلاّ إذا نسيها قليلاً ليتسنّى له الاتّصال بالنُّفوس..

ولنضرب لذلك مثلاً الماء الجاري؛ فهو إذا ظلّ واقفاً راكداً تطرّق إليه الفساد فتبدّل لونه وتغيّر طعمه. ولكنّه إذا جرى في الأرض فروى الأعشاب والمغارس، تحوّل إلى خضرةٍ ونُضْرَةٍ وأريج فَنَعِش وازدهر هو بالبذل صفاء وعذوبة.

إنّ الذين ينكمشون على أنفسهم ويَنْطَوون ويَعْتزلون عن اكتفاء أو عن استغناء توهّماً منهم أنّهم يصونون قوّتهم ومالهم، لا يَصُونون شيئاً بل يفقدون أجمل وأثمن شيءٍ في الحياة، وهو حُبُّ الغير..

إنّ هذا الصّنف من البشر هم والموميات سَواء، بل رُبَّ مومياء خير منهم في نظر كثيرين من النّاس.

أمّا السّبب في تفضيل المومياء التي لا شعور لها ولا عقل على أولئك الأحياء ذوي العقول والشّعور، فهو أنّ المُومْياء لا تَبْخل عن علم وقصد ولا تنكمش على ذاتها عن طواعيَة وعَمْد، بينما هم يبخلون وينكمشون لأنّهم يجهلون قيمة الأشياء الرُّوحيَّة العاطفيَّة، حتى ليتساوى عندهم فقاقيع الصّابون وابتسامات الأطفال في العيد..

إنّ هؤلاء النّاس لا عِيْدَ لهم يفرحون به، ولذلك لا يفرح النّاس بهم في عيد ولا موسم!

٢٦ كانون أوّل ١٩٤٤

العيونُ السُّود

سمعَت إحدى السيِّدات المنشِدَ المعروف يوسف سلوان يتغنّى بقصيدتنا التي مطلعها:

ليت الذي خلق العيون السُّوْدا   خلق القلوبَ الخافقات حديدا

فاعترضت قائلة: لماذا كُلّ هذا التَّغنِّي من الشعراءِ بالعُيون السُّوْد؟ ما بال العيونَ الزُّرق؟ أليس فيها سِحْر؟ أليس فيها جَمالٌ؟ ألا تستهوي القلوب كما تَسْتهويها تلك؟

بلى. كلّ عيونهنَّ جميلة، وكلّها فيها سحر.

العيون السّود التي تطلّ منها الأحلام سَكْرى.

والعيون البَنَفسجيَّة التي تتمشى في جوانبها الحَيْرَة.!

والعيون العَسَليَّة التي تطفو الأسرار فيها وتغيب. والعيون التي يثب قلبك إلى عينيك عندما تراها. والعُيُون التي تحوم عليك كأنّها نُسُورٌ جبَّارة.

والعيون التي يتراقص فيها الهَوَى ويكاد يُعَرْبد.

والعيون التي ينسحب فيها الأمل الذّاوي كالعليل المَضْنوك.

والعيون التي يبدو فيها الأمل مُسْتَتراً باليأس، واليأس مستتراً بالأمل.

والعيون التي استغرقت في الحَيْرَة، فلا أمل بادٍ فيها، ولا يأس..

والعيون التي تلوح لَك كأنّها ملجأك الوحيد من عواصف الحياة.

والعيون التي تنظر إليك كأنّك أنت الملجأ الوحيد لها..

العيون.. كُلّ العيون..

التي تفيض حناناً.

والتي تتدفّق مهابةً.
والتي أمسكها الخوف من الغَدْرِ فلم تتدفّق.
العيون التي تخترق قلبك كالسِّهام.
العيون التي تمزّك كأنّها تيّار كَهربائيّ قويّ..
أجل! كُلّ العيون فيها سِحْر، وكُلّها فيها قوّة على الإخضاع والفَتْك..
وإنّما الشّاعر – لسوء الحظّ أو حُسْنه- عندما نظم تلك القصيدة كان تحت تأثير ... العيون السُّوْد وَحْدَها..!!

نيويورك – الخميس ٤ شباط ١٩٣٧

الصَّداقة والعداوَة

من يَكْتسبْ صاحباً تبـق مودّتــهُ فهـو الغَنِـيُّ بـه لا ذو الملايين

أَجل إِنّ الصاحب الذي تبقى مودَّته هو كنز ثمين، ومعقل حصين. فإذا كان لك هذا الصَّاحب أَيُّها القارئُ العَزيز، فتمسَّك به، وحاذر أَنْ يتحوَّل عنك إِلى غَيْرِك.. وهو لن يتحوَّل إِلاَّ إِذا تبدَّلت أَنت فلم تَحْرِص على مودَّته كما حَرَص هو على مودَّتَك، ولم تَصُن سِرَّه كما صان سِرَّك، ولم تَمْسَحْ دمعته عندما بكى.
ولم يغْمر وجهك الابتسام عندما ضحك.
بل حدَّثتك النَّفس أن تتجنَّى عليه، فتصطنع له العيوب والمساوئ في حين كان يصطنع لَك الحَسَنات والمُمَيِّزات، أَو أَنْ يغتابه أَحدٌ عندك فتغتابه معه، أَو أَنْ تُسيءَ إِليه فتدّعي لِسَتْر عَيْبك أَنّه هو الذي أَساءَ

إليك.!

إنّ تصرّفاتك هذه لن تستبقي لَك ذلك الصّديق.

ولسنا الآن نحدّث شخصاً بعينه، بل كُلّ شخص، فالموضوع أكبر من أن يَنحَصِرَ في إنسانٍ بعينه.

وإذا حرصت على مودّته، وصنت سِرّه، وحفظت كرامته غائباً وحاضراً، وأغضيت عن سيّئاته، ولم تلتفت إلى هفواته، وقبلتَهُ على علاّته، فلم يحفظْ عهدك، ولم يَرْعَ وُدّك، فأنت في حِلّ من كُلّ عَهْد..

ولا لوم عليك إذا هجرته، أو نبذته، أو نسيت أنّه في الوجود، ولا نقول أنْ تعاديه، فمن كان غير جدير بصداقتك فهو غير جدير بعداوتك.. أنت لا تمنح إنساناً وُدّك إلاّ إذا كنت تعتقد أنّه نَدٌّ لَكَ.!

وأنّ عنده مثل الذي عندك من شمائِل ومزايا، وأنّ صفاته مجانسة لصفاتِك. فإن لم يكن على شيءٍ مِن الصّفات الحميدة، والأعمال الرّشيدة المطلوبة في الرّجُل، فأنت تبغي على ذاتِكَ، وتَجُوْر على سُمْعَتِكَ، إذا اتّخذته صديقاً..

ولَكِنْ إذا كان لا يحسن بك أنْ تؤاخيه، فمن غير الحكمة أنْ تعاديه. لأنّك إذا نصبت من نفسك له خَصْماً، رفعته إلى منزلتك وساويته بنفسك، مع أنّ الواجب يقضي عليك مع مثله أنْ تحتقره وتبتعد عنه كما تبتعد عن أجْرب، وأن تُعْرِض عنه كما تُعْرِضُ بأنفكَ عن رائحة كريهة مؤذية.

ولا تقل في نفسك إنّي سأشهّره بين المَلأ[1]، وأجعله حديث الرائح والغادي. فإنّك مهما بلغ من نُفوذك واتّساع سلطانك، لن تقدر أن

(1) المَلأ: الجماعة وهو الخَلق من البشَر.

تسيءَ إليه أكثر مِمّا أساء هو إلى نَفسه، ولن تستطيعَ أن تزيد في هوانه هواناً ولا في شحوب أخلاقه شُحُوباً..

وأنّى لَك أن تصلح إنساناً يَضَعه النّاس بين الأُدباء فيأبى إلاّ أن يضع نفسه بين الغَوْغاء.. وتشدّه إلى أعلى فتشدّه أخلاقه إلى أسْفل..

وتَستُرُ عيوبَه عن النّاس فيأبى إلاّ أنْ يَكْشفَها بيده لكُلّ عابرِ سَبيل.

إذن فالطّريقة المُثلى والخطّة الفُضْلى، هي أنْ تعمَلَ بنصيحتنا المشتمل عليها هذا البيت:

فاْخترْ صحابَكَ وانْظُر في اختيارهِمْ ... إلى الخلائقِ قبل اللّون والــــدّينِ

فإذا أحسنت اختيار أصدقائِك أمِنْتَ الخَيْبَة، وسَلِمْتَ مِنَ النّدامة في النّهاية.

١٤ أيّار ١٩٥٤ العدد ١٣

المُخَدِّر الفتّاك

تُوالي الحكومات في كُلّ بلد راقٍ مكافحة المُخَدِّرات ومطاردة تجّارها وزرّاع شجرها؛ لأنّ هذه المخدِّرات آفات ذات فتك مُهْلك في الجُسُوم والعقول. ومن واجب كُلّ حكومة تَحْرِص على صِحَّة شَعْبها، أن تَسْهَرَ على سلامته من هذا الخطر مثل سَهَرها لوقايته من كُلّ خطَر آخَر..

إنّما في الشَّرق العربيّ - ونعني به كُلّ بلاد ينطق أهلها بالضّاد - نوع من المُخَدِّرات لا يُزْرع في أرْض، ولا يُحْمل في سَفَط، ولا يُنْقَل في

حقيبة أو صندوق، ولا يُنشق كالذَّرور[1]، ولا يُحرق في سيكارة أو غليون كالتّبغ، ولا يشرب في كأسٍ أو أيّ إناء كالخمور. وليس له طعمٌ ولا لون ولكنّه في الواقع أضرّ من كُلّ مخدّر يتعاطاه المبتلون بهذه الآفة انتشاقاً، وتدخيناً، وشراباً..

هو سُمٌّ زُعاف للعقول والأرواح والهِمَم، يقدّمه تُجّاره إلى الجماهير عَلَناً كأنّه الترياق الشّافي، ولا يخشَوْن رقيباً، ولا حسيباً، ولا لوماً، ولا تبكيتاً.

إنّه هذا النّوع من الأدب الذي يُزهِّدُ الإنسان في كُلّ ما في الدُّنيا من متاع. ويصوِّر له أنّ الزُّهْد هو الطّريق القويم للسّلامة والسّعادة، وأنّ الغِنَى شرٌّ مُستطير وإثم لا غافر له..

ولأصحاب هذا المُخدِّر السّام منطقٌ عجيبٌ في زَخْرَفَة هذه الفلسفة السّلْبيّة القاتلة لكُلّ طموح. فإذا ذُكِر ركفلر مثلاً، وأُحْصيت ثروتُه العظيمة قالوا إنّ هذا الغنيّ مريض، فهو تَعِسٌ، أو إنّه على خلاف مع زوجته فهو غير مُستريح، كأنّ الفقير لا يختلف مع زوجته وكأنّه في حرزٍ حريز من الأمْراض!

إنّ الواقع الذي يتعامى عنه تجّار هذه الفَلْسفة الهدّامة هو أنّ إنساناً مثل ركفلر كان في أوّل أمْره فقيراً فلم يُعجبْه الفقْر. ولم يجد السّعادة ولا الرّاحة مع هذا الصّاحب! فطَمِع إلى حالة أفضل، وعيشٍ أرقى وأجمل. ولَمّا طَمَح جاهد، ولَمّا جاهد أفلح، وهبّت رياح الحَظّ موافقةً، فصار من جبابرة المال، عَصَب الحَرْب، وعَصَب السّلْم. قد يكون هذا البشريّ

(1) الذَّرور: ما يُذَرّ - يُنثَرُ - في العين وعلى الجرح من دواءٍ يابس، وعلى الطّعام من ملحٍ مسحوق.

القاروني[1] لقي عَناءً وشقاءً في جهاده، وقد يكون الآن يَحْزن ويَفْرح كما يَحْزن ويَفرح كُلّ إنسان، ويَرْجو ويخشى مثلَكَ ومثلي. وهو عُرْضة مثلك ومثلي للمرض والخوف، والحزن والقلق والغَمّ، ويجب أنْ يكون كذلك، إذْ لا يقلق ولا يغتمّ، ولا يتألّم إلاّ النَّاس الذين احتوتهم المقابر.

إذن، ليس صحيحاً قول أحدهم في جريدة "الأيَّام" الدِّمشقيَّة إنّ العَظَمَةَ والغِنَى والجاه والسُّلطان أحقر ما في الدُّنيا إذا كان الإنسان لا يعرف راحَة البال، ولا يدري كيف يَشْتريها..

وقوله: لعلّ الفقراء المساكين أمثالي يهنأون عندما يعلمون أنّ راحة بالهم كنز فاق كَنْزَ روكفلر!

هذا هو المُخَدِّر الفتَّاك الذي أشلّ قوى الأُمَّة العربيَّة طيلة الأجيال الغابرة، فإنَّها عندما صارت تصغي إلى أقوال سفسطائيَّة كهذه وتأخذ بها كأنَّها حقائق لا رَيْبَ فيها، ران عليها الكسل والخمول والجمود فتَقَهْقَرت، وصارت تنظر إلى الأشياء التي تشتهيها وتعلم أنّ سعادتها فيها، كما نظر الثعلب إلى الدَّالية العالية، فقال عن عِنَبِها المتوهِّج: إنَّه حِصْرِم!

قد يجد زاهد متنسِّكٌ سعادة في هجر العالم، ولكن أَن تُدْعى أُمَّة بكاملها أو السَّواد الأعظم فيها إلى الزُّهد بالحياة، فهذه جريمة يجب أنْ يُقْبَض على صاحبها مِنْ عُنقِهِ وأَن يُزَجَّ في أَعْمقِ سجن لوقاية النَّاس منه!

ليت أصحاب هذه السفسطة دَرَسوا حياة روكفلر لعلّهم يدركون كَمْ له من الأيادي البيضاء على المعاهد العلميَّة والمؤسَّسات الخيريَّة والمستشفيات والكنائس، فقد فَعَل في هذا السَّبيل ما لم تفعله مجموعة من

---

(1) القاروني: المنسوب إلى الملك قارون. يضرب به المَثَل في الغِنى. وهو ابنُ عمِّ النَّبيّ موسى.

الدُّوَل. إذا لم يكن له من مأثُرَة[1] غير المعهد المسمَّى باسمه، لكان هذا وَحْدَه سبباً كافياً لتمجيده وتخليده، وداعياً إلى شكر الإنسانيَّة إيَّاه.

أجل، هذا ما فعله هذا الرَّجُل الفاقد راحة البال. فماذا فعل أصحاب هذه الفلسفة المرتاحو البال؟

أيّ مريض جاءوه بدواء؟

أيّ طالب أسعفوهُ بمنْحَة؟

أيّ معهدٍ أسَّسُوا؟

وأيّ علم نَفعوا؟

وأيّة صناعة رَقَّوا؟

وأيّة نكبة أسعفوا ضحاياها بِقُوتٍ أو كساءٍ أو مَال؟

إنّنا نريد أنْ نُضْرِم نار الطموح في أرواحِ قومنا لا أن نُخْمِدَها.

ونريد أن يعرفوا أنَّ هذه الحضارة الجميلة لم يشيّدها الخاملون القانعون اللاصقون بالأرْضِ، بل أصحاب الطّموح الذين نفعوا أنفسهم، ونفعوا أوطانهم، ولم ينصرهم حسبٌ، ولا عشيرة، ولا جاه، ولا دين، بل كان ناصرهم الطّموح وحده واعتقادهم بأنَّ المجال رحيبٌ للمجتهدين..

ولو أنَّ هؤلاء شربوا هذا المُخَدِّر الفتَّاك، مخدِّر الزُّهد والقناعة.. والرِّضى بالعيش الخبيث، لَمَا كانوا اليوم أَحسن حالة من هؤلاء الذين يدّعون راحة البال وليس لهم منها شيءٌ!

١١ آذار ١٩٥٤ العدد ٨٧

---

(1) مأثرَة: المَكْرُمة المُتوارَثة.

المعرفة والمسؤوليّة

يسألني البعض كيف أختار مواضيعي؟ فجوابي هو أنّي لا أختار ولا أنتقي، بل أتناول ما يعرض لي من حوادث أو شؤون، وما أكثر الشؤون والحوادث التي يقدر الكاتب أنْ يستخرج منها عظة أو عِبْرَة أو فكاهة!

مثال ذلك: لقد جئت إلى مكتبي في هذا الصّباح وليس في ذهني أي موضوع. فوقع نظري وأنا أطالع جريدة التايمس على عبارة أعجبتني لصدقها، فوقفت عندها ووجدتُ فيها باباً إلى موضوع خطير..

هي عبارة وردت في خطاب ألقاه عالم دانمركيّ - وهو من أعظم علماء الذرَّة في العالم - وهي أنّ مسئوليّة الإنسان تزداد كلما ازدادت معرفته.

وما أصدق هذه العبارة! فإنّنا نتجاوز عن هفوات الطّفْل لأنّه لا يعرف ونحن نعرف! ولا نحمّله مسئوليّة لأنّ معرفته بالأُمور ضئيلة..

فهو عندما يقصف غرسة يجهل أنّه يوْدي بتعب وجهد ومال، ويقضي على مورد رزق أو مشهد جميل، إنّه لا يقصد غير العبث. ويجيءُ الرَّجل صاحب الغرسة القتيلة، فيهزّ رأسه أسفاً على جهوده ولكنّه لا ينتقم من الولد الجاني، بل يذهب إلى والديه يسألهما أنْ يُفْهما ولدهما أنّه قد أساءَ وأفسد وأنّ تلك الغرسة لو تركها تعيش لأزهرت وأثمرت، فلو كانت له أكان يرضى أنْ يتلفها أَحَد؟

إنّ الإنسان العارف يَعْذِرُ أمّا الجاهل فلا يَعْذِر ولا يَغْفِر، ولا يعترف بذنب ارتكبه.

ولهذا يصعب على العاقل أنْ يقنع جاهلاً بأنّه على خطأ، أو أنْ يحوّله عن رأيٍ اعتنقهُ. ولكنّه لا يلومه ولا ينتقم منه لأنّه يدرك أنّه غيرُ

مسؤول، وهو غير مسؤول لأنّه لا معرفة له!؟

ولكن حصر هذا الموضوع في شخص أو جماعة، ليس من الحكمة، ولا سيّما بعد أنْ بات العالم ينام ويفيق، وهو خائفٌ من القنابل الذّريّة.. من إنسان غير مسؤول يلذّ له أن يمتحن فعلها في البشريّة..

هذا ما حمل العالم الدّانمركيّ على إلقاء خطابه داعياً الدُّول إلى التّفاهم بشأن هذا المارد الرّابض على صدر الإنسانيّة كالكابوس، واستخدام الطّاقة الذّريّة لخدمة الإنسان، لا لإبادته واستئصاله..

فالعلماء في هذا العصر هم الأنبياء الذين أُوتوا من المعرفة أكثر ممّا أُوتي سواهم من الخلق، إنّهم يتكلّمون عن معرفة، وهم النّاس الذين يجب أن يثق بهم النّاس، والخير في الإصغاء إليهم، والعمل بنصائحهم، فهم يعرفون ما ينتظر الإنسانيّة من ويْل إذا وسوس إبليس لمن يملكون القنابل الذّريّة، فاستعملوها للفتك والتّدمير لا لِمَا تجنيه من خير إذا وُجّهت إلى خدمة الإنسان في السّلم!

١٤ تشرين أوّل ١٩٥٤ العدد ٢٢٦

الخوف أصل الحرب

ما برح الإنسان منذ وجوده على الأرض في حرب مع العناصر والآفات الطّبيعيّة.

فالأصل في كُلّ حرب هو الخوف.

خوف الإنسان من الضّواري والأفاعي قاده إلى ابتداع الهراوة

والنَّبوت(١) والمقلاع، والسِّهام، والحِراب.

وخوفه من أذى العواصف والأمطار والثلوج هداه إلى النار كما قاده إلى اللّواذ(٢) بالمغاور، والكهوف، ثم إلى بناء الأكواخ والبيوت، وصُنْع الكساء من الجلد، والنَّسيج، ليقي جسمه فتكات الزَّمهرير..

خاف من الجوع، فأخذ يختزن الأثمار والحبوب واللّحوم.

وخاف من العطش وهو بعيد عن مجاري الماء، فاصطنع مِنَ الطِّين أكواباً وأباريق..

وخاف من جاره فبنى المتاريس حول دياره.

وخاف من اللّيل فأوقد النَّار عند خيمته، وزعم أنَّها لهداية المُدْلجين(٣) في الظَّلام.

وخاف أن يعبر النَّهْر سباحةً، فمدَّ فوقه جِسْراً.

هذه حروب الإنسان في بداوته، ولا يزال اليوم في حرب مع الأمراض وعناصر الطَّبيعة.

وقد كان طيلة الأجيال الغابرة - بالرَّغم ممَّا أحرزه من الانتصارات - يحسد الطّيور لأنَّها أسرع منه ولاعتقاده أنَّها أَسعد وأهنأ منه! ولكم تمنَّى لو نَبَعَت له أجنحة لعلّه يطير إلى الحبيب أو إلى الوطن البعيد. وتقدَّم مع السِّنين وارتقى واستنبَط الباخرة والقطار والتلفون والتلغراف والراديو، وأشياء أُخرى مثلها في الأهميَّة. إلاَّ أنَّ رغبته في قَهْر المسافة وتدويخ الأبعاد لم تتحَقّق إلاَّ في هذا الجيل، فقد صارت المسافة التي كان يظنّ أنَّها لا تُطْوى كأنَّها ثوب أو قِرْطاس!

---

(١) النَّبوت: العصا المُستوية. الفرع النَّابت من الشجر. جَمْعُه نبابيت.

(٢) اللّواذ: اللّجوء للاحتماء.

(٣) أدلجوا: ساروا لَيْلاً.

وهذا يبرهن أنّ كُلّ حُلُم يمرّ في خاطر الإنسان قابل التّحقيق. ومِنْ هنا استمرّ إعجاب النَّاس بمقولة نابوليون "لا مستحيل"، أجل، إنّ القوّة الكامنة في الإنسان لا يمكن أنْ يوضع لها حَدٌّ تنتهي عنده.

ولكنّ الإنسان مع كُلّ علمه وحكمته وقُدْرَته، لم يطهّر نفسه بعد من الشّوائب؛ فهو لا يزال كإنسان الكهف في نزوعه إلى الفتك، لا بحيوان بل بأخيه الإنسان.

نَعَم، إنّ الإنسان اليوم لا يخاف من شيء إلاّ من الإنسان.. ويلوح أنّ النَّاس وإن تشابهت سَحَنهم[1] وتماثلت أغراضهم في الحياة، فهم ذِئاب يلَذّ لها، لا بل من طبيعتها أنْ تفترس، وفيهم نِعاجٌ وحملان لا قُدْرة لها على ردِّ الذّئاب عن لحومها..

إنّ حضارة الإنسان مهما تبلغ من السُّمُوّ تظلّ حضارة مشوَّهةً حتى يتمكّن من الانتصار على الوَحْشِ القديم الرَّابض في كيانه، فلا يعود إنسانٌ يخشى أذًى مِنْ إنسان..

وعندئذٍ تَبْطُل الحروب ويتِمّ الإنسان..

٢٠ آب ١٩٥٤ العدد ٢٠١

الزّوبعة هايزل

انطلقت في الأرض كاسحةً جارفة تنشر الموت والخراب والهَوْلَ في طريقها، لا تُميِّز بين شجرة تفّاح وشجرة حنْظل، ولا بين كهل في السّتّين وطفل في السّادسة، ولا بين كوخ في حقل وبيت على شاطئ نهر، أو زورق في ثَغْر..

---

(1) السَّحْنَة: الهيئة.

هي تلك القوَّة الهَوْجاء التي يشاهد الإنسان مفاعيلها ويرى ضحاياها، وتَعْجز عيناه عن أنْ تراها؛ لأنَّها تسعى بلا قَدَم وتَبْطشُ بلا سيف ولا رُمْح.

هي الزَّوبعة الثامنة التي أطلقوا عليها اسم هايزل كما أسمَوا الزَّوابع السَّبع التي سبقتها بأسماء نساء. فهل تراهم تمشَّوْا بهذه الأسماء على حروف الهجاء؛ لأنَّهم يتوقَّعون حدوث ثمانٍ وعشرين زوبعة في هذه السَّنة، أم تراهم أرادوا من هذه الأسماء الجميلةِ اللَّطيفة إدخال شيءٍ من الطَّمأنينة إلى القلوب، أم ذلك مجرَّد عَبَثٍ ولَهْو؟

إنَّ تتابع هذه الأعاصير الهوجاء واحدة إثر الأُخرى ظاهرة غريبة في الطَّبيعة؛ غريبة على الأقلّ في نظر الإنسان الذي عرف شيئاً من أسرار الكون، وفاتته أشياء.. وكُلّ مجهول يبدو غريباً..

فهل تكون الغاية الخَفِيَّة من هبوب هذه الأعاصير الفتَّاكة صرف النَّاس عن التَّفكير بإضرام حرب هيدروجينيَّة أو ذَرِّيَّة أو إبليسيَّة.. إلى التَّفكير باستحداث وسائل تحميهم من غضب الطَّبيعة وثوراتها الجنونيَّة؟ فإنَّ هذا الإنسان لا ينفكّ مُغْتَرّاً بقوَّته مُعْتَزّاً بأعماله ومخترعاته، حتى تَنْزِلَ به كارثة أو جائحة[1] طبيعيَّة، ليست في حسابه، فينكشف له ما فيه من عَجْز وضَعْفٍ وَهَوان وغُرور..

بلغت ضحايا هذه الزَّوبعة مائة وخمس أنفس، أمَّا الخسائر الماليَّة فتقدَّر بمئات الملايين في هايتي وتسع ولايات أميركيَّة.

وهناك خسائر معنويَّة قلَّما تناولها إحصاء، فآستولى بسببها على النَّاس الذين في دَرْب الزَّوبعة القلق والخوف، كما استحوذ على أنسبائهم

(1) الجائِحة: المُصيبة تحلّ بالرَّجُل في ماله فتجتاحه.

وأصدقائهم الجزع عليهم..

وأخيراً تلاشت هايزل وآضمحلّت قُواها في مدينة تورنتو كندا، ولكن بعد أنْ عاثت فيها وفي ما حولها على مسافة خمسين ميلاً إفساداً وتخريباً.

فقد قتلت هناك أكثر من ستّين شخصاً، وبلغ من هولها أنّ الماء تعالى في الشّوارع من تتابع المطر وغزارته، فإذا المدينة كأنّها في طُوْفان وقد جرف الماء سبعة عشر منزلاً من أحد الشّوارع إلى النّهْر، وكان ذلك عند منتصف اللّيل..

وقذفت الزّوبعة سيّارتين بمن فيهما إلى النّهر، فآستخدمت السُّلطات طائرات الهليوكبتر لإنقاذ الغَرْقى من النّهْر الطّاغي..

هكذا كان حَرْف الهاء من هايزل مجلبةَ الهدم والهَمّ والهَوْلِ والهَلاك..

ويتطلّع النّاس الآن إلى السّماءِ فيرَوْنها تَضْحك، كأنّها خارجة من عُرْس..

٨- ١٠- ١٩٥٤ العدد ٢٢٨

عيد الميلاد

أرسلْنا من قَبْلُ كلمةً عن عيد الميلاد تذكيراً للأنْسباء والأصدقاء والرِّفاق بأنّ لهم وراء البحر أنْسباءَ وأصْدقاء ورفاقاً أعزّاءَ هُمُ الجنود، وأنّ هؤلاء النّائين لا تَختصر المسافة إليهم إلاّ رسالةٌ أو هديّةٌ يشعرون معها أنّهم غير منسيّين.

والیوم نری من واجبنا أنْ نرسل كلمةً حَوْل "عيد الشُّكْر" الذي

أصبح على الأبواب.

إنَّ كثيرين يَحْسَبُون أنَّ كُلَّ ما يتطلّبه العيد منهم هو أن تَفتُكَ سكاكينهم برقاب الدّيوك الهنديَّة، وأنْ تفتك أسنانهم بلحومها.. أو أنّهم يَحْسَبون العيد التقاءَهم في ذلك اليوم بأصحابهم وأحبابهم حَوْلَ مائدة واحدة فيشربون الخمور ويأكلون الأطايب، ويشكرون الله لأنّهم اجتمعوا وشربوا وأكَلوا.

أجل! هذا كُلّه يجري في العيد، ويرافقه في كُلّ مدينة وقرية ودَسْكَرة، وهذا كُلّه من العيد، ولكنّه ليس منه..

إنَّ الصِّحَّة شيءٌ ثمين بل هي أثمن الأشياء التي يملكها الإنسان، فشُكر الله عليها واجب.

فوجود الأهل حول المَرْء، وقلوبهم تخفق بالحُبِّ له، هو من النِّعَم والآلاء[1] ومن الواجب أن يشكر العناية الإلهيَّة من أجل ذلك. فالصَّاحب الوفيّ الصَّادق الوُدّ بركة من السَّماء، فعلى الإنسان المحظيّ بهذا الصاحب أنْ يشكر الحياة على منحتها الغالية.

ووجود الإنسان في حالة رخاء وطُمأنينة نِعمة كبرى، وشُكْر الله ضروريّ، فقد قيل وبالشُّكر تدوم النِّعَم.

إنّما الاقتصار على هذا النَّوع من التَّفكر يدُلّ على أنانيَّة طاغية، وهذا النَّوع من الأنانيَّة ليس شيئاً حَسَناً، ولا صفة مستحَبَّة..

إذن يجب علينا في عيد الشُّكر أن نفكِّر دوماً وأبداً تفكيراً عميقاً بالغير.. لكي تقوى فينا عادة التَّفكير بسوانا فنذكرهم في كُلّ يوم من أيّام السَّنة. أجَل، فَلْنُفَكِّر بالعاثرين السَّاقطين في مُعْترك الحياة، الذين

---

(1) الآلاء: النِّعَم. مفردُها الألى.

شُلّت منهم العزائم والأرواح، وأنْ نحنو عليهم كما نَحْنو على جنديّ أُصيب في المعركة فأنْعَطب. بل يجب أنْ نساعدهم، ونشكر الله لأنّنا قادرون على أنّ نساعدهم..

فلْنُفكّر في العيد بالمرضى والعَجَزة والأيتام والفقراء، ولْنَعْمل على نجدتهم بالدواء والغذاء والكِساء، ولْنَشْفع هذه كُلّها بالكلمة الطَّيِّبة التي تردّ إليهم نعمة الرَّجاء بالاهتداء إلى الحياة الفضلى، والناس الصَّادقين الأوفياء..

بالطَّبع فإنَّك بمفردك لا تستطيع أنْ تحقّق أمانيك المَرْجوَّة المبتغاة.. لأنّ لكل فرد جهداً محدوداً..

ولكنَّك إذا فعلت ما تقدر عليه، وصَنَع غيرك ما بقدرته أن يفعل، فمتى اجتمعت قدرته إلى قُدْرَتك صَنَعتا معاً الشيءَ الكثير..

فأذكر في عيد الشُّكر الجمعيَّات الخيريَّة والمؤَسَّسات الإنسانيَّة، وأمْدُد يدك إليها بالمَعُونَة مهما تَكُنْ ضئيلة..

في وطنك الأوَّل فقراء تُعساءُ وأراملُ وشيوخٌ عاجزون، فأذكرهم وأحْمِلْ غيرَك على الإشتراك مَعَكَ في تَخْفيف بَلْواهم..

وإذا نسيت فلا تنس اللاَّجئين المشرَّدين.

إنّنا نناديك لأنّنا نعرف أنّك غير بخيل؛ فقد رأيناك تنفق الألوف على الأعراس والولائم والمآتم، كما رأيناك تفتح يدك وجَيبك لمشاريع لا نَفعَ منها ولا جَدْوى.. وآخِر من يؤمن بصحّتها أو نفعها - أنت..

إذا فعلت في العيد ما ذكرناه لَك من هذه الأعمال الخيريَّة والإنسانيَّة، فمن المؤكّد أنّك ستكون أكثر غبطة وفَرَحاً عند جلوسك

أنت وأهلك وأصحابك حول المائدة في العيد.
ومن المحقّق الثابت أنّ اللُّقمة تصير في فمك ألذّ وأطيب.

٢١-١١-١٩٥٤ العدد ٧

رُوح العيد

يتحدّث النّاس منذ حوالي قرنين من الزّمن عن نجم ظهر في السّماء وقاد الرُّعاة إلى قرية "بيتَ لَحْمَ".. وهو حدث خطير في حياة البشريَّة. ولكنَّنا نؤكّد أنّ أولئك الرُّعاة لو لم يُشْرق النّجم في قلوبهم وعقولهم قبلما رفعوا أبصارهم إلى العلاء، لَمَا استطاعوا رؤْية النَّجْم الشّارق في السّماء. ولولا النّور الذي في جوانحهم لَمَا تمكّنوا من رؤية الطّريق التي تؤَدّي إلى بيت لحم..

لقد كان بالطّبع أُناس كثيرون يسهرون في تلك اللّيلة ولكنّهم لم يلمحوا النَّجم، ولا اهتدوا إلى الطّريق المؤَدّي إلى بيت لَحْم..

لم يكن على النَّجم غمامة عندما نظروا، ولم تكن عيونهم معصوبة، ولكنّهم عَجَزُوا عن رؤية النَّجم، وكَذّبَ بعضهُم الرُّعاة لأنّ نور الله لم يكن في قلوبهم بَلْ كان في قلوب أولئك الرُّعاة..

وليس اللّيل وَحْدَه هو الظّلام، فإنّ قلوباً كثيرة يمشي أصحابها في عالم الأنوار ولكنَّهم لا يُبْصرون؛ لأنّ الظّلام يكتنف أرواحهم اكتنافاً شديداً، فهم يسيرون في الأرض الفضاء وكأنّهم لعجزهم عن رؤية النور يسيرون في نَفَق مُظلم.

فهم أبداً ناقمون ساخطون لا يَرَوْن حَسَناً إلاّ واختلقوا له عَوْرَةً ولا يسمعون ثناءً على إنسان إلاّ تميّزوا حَنَقاً كأنّهم يُشْوَوْن بنار.. وهم

لكثافة طباعهم لا يبصرون نجماً ولا مصباحاً، بل ربّما زعموا أن للنّجم عيوباً واتّهموه بأنّه لا يطلّع إلاّ لنكايتهم[1]!..

وارحمتا لهم!

إنّ وجود ناس من هذا الصّنف يدلّ على أنّ الحاجة لا تزال ماسّة إلى التعاليم المسيحيّة؛ فإنّ ملكوت السّماء لا يحصُل إلاّ إذا خلت الدُّنيا من ذوي النّفوس المظلمة أو الطّباع الحيوانيّة. وعندنا أنّ أحسن خدمة يقوم بها أيّ مسيحي هي أنْ يُنقذ واحدة من هذه النّفوس، بأن يَهْدي صاحبها إلى الخير والصّلاح، وأنْ يمزّق عنها حُجُبَ الظّلام لعلّها ترى كما يرى ذوو النّفوس النّيِّرَة الخيِّرَة.

وعندئذ يُبصرون النّجم في العلاء، ويرَوْن طريق الخير في الأرض، ويَحصُلُونَ على شيء من المَسَرَّة التي يَنعَمُ بها القوم الصّالحون الفُضَلاء.

خُلاصة ما نريد أنْ نقوله أنّ الإنسان لا يَسْعَد إلاّ إذا صَفّى روحه من الأدران، ونقّى قلبه من الأضْغان، وأحبَّ لغيره ما يُحِبّ لنفسه..

عندئذ يُشرق النّجم في كيانه حتى ولو انطفأت نجوم السّماء.

إنّنا بروح العيد، وربّ العيد، نتقدّم من أنصارنا وأصدقائنا بالتّهاني القلبيّة متمنّين لهم السّعادة والهناء والتّوْفيق.

كما أنّنا نتمنّى أنْ يتدارك الله البشريّة بِرَحْمته فيُرْشدَ الذين بأيديهم مقدّرات الشّعوب إلى سُبُل الخير والسّلام كما هدى الرُّعاة إلى مَهْدِ أمير الحُبّ والسّلام.

٢٣- ١٢ ١٩٥٤

---

(١) النّكاية: الجَرْح والقتل والقهر. الفعلُ نكى ينكي.

الشيّخ.. والطّفل

يمثّل المصوّرون العام المُشرِف على النّهاية شيخاً تَعباً مَنهوكاً، شحّ قِنديل حياته، واقترب من الانطفاء. كما يمثّلون العام الطّالع من وراء الحِجاب طِفلاً صغيراً تطفح قسمات وجهه حياةً وحُبُوراً وأملاً مُنيراً.

هي رواية تتكرّر عند النّاس كلّما دارت الأرض دَوْرَةً، فيَزْعُمُون أنّ السَّنة التي انتهت قد زالت وصارت أثراً بعد عَيْن، مع أنّها لا تزال باقيةً فيهم.. فيما قالُوْا، وما عملوا في البيوت التي شادُوها، والطّرق التي عَبَّدوها، والأشجار التي غَرَسُوها، وفي الصُّور التي رَسموها، وفي الحروف التي كَتَبُوها. وإلى الناحية الأخيرة نظر الشّاعر القائل:

فلا تكتب بكفّك غير شيءٍ يَسُرُّك في القيامة أنْ تراهُ

وكان كلامه أتمّ وأعَمّ لو قال: "يسرّ النّاسَ أنْ يَرَوْه". أجل، إنّ الإنسان هو الذي يصنع سِيرَته، ويرسُم صورته للنّاس أصدق رَسم وأدقّ تصوير، بما يقول ويَفْعل.. إنّه يدلّ النّاس على مكنونات نَفْسِه، وإنْ ظنّ أنّه بما يعمل يَستُر تلك المكنونات عن العيون..

كما أنّه يدلّهم على مقدار فَهْمه أو غَباوته، وحسن أدبه أو سوء أدبه. فليس أحد سواه يُخبر عنه مثلما يُخبِر هو عن ذاته..

ولا يقدر أحدٌ أن يسيءَ إليه، كما يُسيءُ هو إذا حَمُق إلى نفسه. وإذا جاز أنْ نقول كلّما سلخنا آخِر ورقة في الرّوزنامة: "انتهت سنة"، فلا يجوز القول إنّ ما جرى في تلك السَّنة قد انتهى أو مضى بل هو باقٍ فينا وفي ما فعلنا، وعليه يَجْدُر بكُلّ إنسانٍ في هذه الفترة من الزّمن أنْ يعود إلى نفسه فيحاسِبَها، فيدَوّن لها الحسنات ويقابلها بما اقترف من

سيّئات، فإذا رجحت كفّة الحسنات حقّ له أن يستقبل السّنة الجديدة معتزّاً فخوراً.. أمّا إذا رجحت كفّة السيّئات فخليق به أنْ يستغفر ويتوب، ويستقبل السّنة الجديدة والرّغبة في الخير تملأ صدره. فإنّ الأمل في كُلّ عملٍ جميلاً كان أم قبيحاً هو رغبة المرْء فيه.

أجل! إنّ السّنة المُنصرمة سوف تبقى معنا، وإن انطوت أيّامُها فإن ما فعلناه في أيّامها لم ينطوِ معها.

ولسنا نحن الذّين نُفنُونَ الزّمن بل هو الذي نُفنينا، فما أحسن أنْ نَفنَى في ما هو خير وجمال ومحبّة!

إنّ الذين يسيرون على طريق الحقّ والخير والجمال هم السّعداء الذين تباركهم الحياة.

أمّا الأشرار فلا سعادة لهم ولا هناء.

وإذا سعدوا فلا تدوم سعادتهم أكثر ممّا يدوم زهر الزّيْزَفون[1]؟!

٢٧- ١٢- ١٩٥٤ العدد ٣٦

خواطر درْويش

إنّ المواهب المُهْملة هي كالآلة التي يعلوها الصّدأ من الإهمال، لا نَفْعَ منها. كثيراً ما ينظر المرء بعين الشّكّ إلى قدوم عَهْدِ الشّيْخوخة، ذلك لأنّ فيها نهاية ذلك العهد المرغوب فيه - عهد الشّباب - ولكن لماذا؟ أليست هي السّنوات التي نَحْصُدُ فيها ما زرعناه في عهد الشّباب؟ وبناءً على هذه القاعدة يجب أن تكون الشيخوخة أشهى وأغنى أدوار الحياة.

---

(1) الزّيْزَفون شجر حَرَجيّ أبيض الخشب طريّه له زهر أبيض لا يعقد ثمراً يتّخذ من زهره شرابٌ مُعَرّق.

يجب احترام كُلّ الأديان، لأنّها جميعاً مبنيَّة على أساس تعليم الحياة الحَقّة.. ربما أنّ جميع الأديان تبشّر بإنجيل حسن السُّلوك فكلها جديرة بالاحترام. وإذا سمح البشر لذواتهم بالانقياد إلى مراعي الحياة الصَّالحة، تحقّقت غاية الأديان مهما كان اسْمها..

لَك المجد إذا كنت نابغاً لامعاً متفوّقاً على سواك، ولكنَّ النّبوغ يجب أن ترافقه العظمة الحقيقيَّة. فمن الدَّناءة أن نجعله وسيلةً للابْتهار[١] على سواك والتَّرفع عليهم.. فتضع ذاتك في حَلْقةٍ من نور التَّظاهر ليراك النَّاس ويسدّوا عليك الثناء والإعجاب.

لماذا تتمثّل وتقلّد ما يصنعه جارُك؟ يجب أنْ تدير دواليب عجلة نجاحك الخصوصيَّة.. فأنت بها تقوم بعمل له قيمة حقيقيَّة في الحياة..

مهما كانت شراسة المرء، ومهما قَسَا قلبه، ففي الحياة دقائق عديدة تلين بها صلابته ويصير إنساً كسِواه..

ما أَقبح النَّميمة! إنَّها تمزّق الصِّيت الحسن بلا استثناء. وبما أنَّ النَّميمة هي في الواقع حشرة سامَّة علينا جميعاً تجنّبها، فليس مِمَّا يدعو إلى الفخر رؤية النَّاس لنا ونحن نسير في مَرْكبتها.

كما في كُلّ شؤون الحياة، عندما نصل إلى قِمَّة النَّجاح ننسى المرارة والمتاعب والأَوجاع السابقة، وكذلك في الحروب؛ فعند الانتصار ننسى التَّضحيات والمصائب وانكسار القلوب والجهود التي جعلت النَّصر ممكناً.

الهَمُّ سُلْطانٌ طاغية فهو يأكل حشاشة[٢] القلب، وتَدريجيّاً يَنْهَش أَعْمق خلايا الروح، ويقيم لذاته بها مَعْقلاً لا خَيْر فيه لأَحد. وعلى المرء إدراك هذه الحقيقة وطرد هذا السيِّد العاتي. إن الوَقْتَ منفسح للاهتمام

---

(1) ابتهر في الشيء: بالغ فيه وادّعى كذباً.
(2) الحُشَاشَة: بقيَّةُ الرُّوح في المُحتضر.

والقلق عندما تدهمك المصائب فعلاً، فلماذا إضاعة الحياة بالاهتمام والخوف؟ فمن الممكن أنْ لا تتحقّق مخاوفك، ولا تنزل بك المصيبة المنتظرة.

على المرء أن ينقّب ويعمل باجتهاد، لوجود نوْع العمل الذي يهواه ويميل إليه. فإذا وجده لا يعود هذا العمل عملاً بل يصير تسليةً فيها البهجة والانشراح.. كُلّ ما تنتجه الأرض فيه خير عميم، ولكنّنا نحن الذين نُحَوّل هذا الخير إلى شرّ. لم يولد أحدنا شرّيراً، إنّما مساعينا الباطلة تدفعنا إلى الشرّ!

هل فكّرت يوماً في أَهَمّيّة الدّور الذي تلعبه شفاهنا؟ إنّ الشفاه تكيّف وتلفظ الكلمات التي نقولها. ولأنّ ما ينطقه الفم يكيّف حياتنا، فإنّ شقاءَنا وهناءَنا يتوقفان على ما يَمُرّ بين شفاهنا..

ثم إنّ الكثير من هنائنا وشقائنا يتوقفان أيضاً على القبلات التي تمنحها وتأخذها شفاهنا، فإذا كُنّا ليس لنا حَقٌّ بذلك دفعنا الثمن باهظاً، وإذا كُنّا محقّين في ما نفعله امتلأت حياتنا بهجةً، ونلنا السّعادة.

فمهما كان حذْقنا ومهارتنا ومهما بلغت معارفنا من التقدّم والرُّقي والابتكار، فما علينا إلاّ متابعة السّعي قاصدين التّحسين والإتقان!

٢٦ كانون الثاني ١٩٤٤

السّنة السّادسة والعشرون

هذه مرحلة أُخرى تجتازها جريدة "السّمير" وهي في حالة من الاستقلال الرّوحيّ والماديّ تسرّ الأصدقاء، وكُنّا نقول إنّها تسوء الأعداء

لو لم نكن نعتقد أنّ حياة القلم يتساوى عندها الصَّديق والعدُوّ؛ لأنّ كُلَّ رأي يبديه أيُّ كاتب للمصلحة العامَّة يشترك في فائدته من يرى في "السَّمير" زهرة تنفح، ومن يرى فيها شوكةً تجرح.

لا يمكن حَصْر الفكْر في دائرة معيّنة. أجل، إنّ الكاتب المضطلع بخدمة قوم لا يعيش لذاته بل للنّاس. والنّاس أشكالٌ وأنواع، فإذا دعا إلى الصّدق في القول والعمل فهو في دعوته هذه ينهى الكَذّاب عن الاستمرار في الكَذب، ويحضّ الصّادق ضمناً على الاستمساك بحبل الصّدْق. فإذا اضطرب الكَذّاب واغتاظ ونَقَم فذلك أمْرٌ طبيعيٌّ، وإذا سُرَّ الصّادق فهو محِقٌّ في ابتهاجه.

إذن، فنحن لأعدائنا مثلما نحن لأصدقائنا، لمن يحبّنا ولمن يسبُّنا!

أما ونحن واقفون على عتبة سنة جديدة، فيجدر بنا أنْ نتطلّع إلى الوراء.. إلى السِّنين الماضية، لنرى ما عملناه من حسن فنستمر فيه ونستزيد منه، وما أتيناه من خطأ فنتجنّب الوقوع في مثله.

وأنْ نتطلّع إلى الأمام بنفوس مطمئنَّة وقلوب تَحنّ إلى الأحسن وتسعى إليه. وقد نكون أخطأنا في أمور كما أصبنا في أُمور، ولكنّنا في كُلّ ما مَرَّ بنا من السِّنين وما فعلناه فيها، كُنَّا دائماً حرباً على الظُّلم والبَغْي، وأنْصاراً للاستقلال وطلاّباً للحريَّة؛ استقلال قومنا، وحريَّة وطننا الأوَّل، فاَسْتَهْدفنا لنَقْمَة إخوان لنا يعيشون في أَرض الحرِّيَّة هنا، ويستحسنون العبوديَّة هناك..

ولا نَقْدر - ونحن نتحدّث عن "السَّمير" - إلاّ أنْ نتذكَّر كيف نشأت في غمْرة الأزْمة الاقتصاديَّة الخانقة.. وكيف كان كثيرون يقولون في ذلك الوقت إنَّها لن تعيش أكثر من أشهر معدودة ثم تنطوي كبارقٍ في بَلْقَع[1]. ذلك لأنَّهم شاهدوا مصارع جرائد كثيرة قبلها وكانت

---

(1) البَلْقع: الخالي من كُلّ شيء؛ الأرض والدّار ج بلاقِع.

الأزمة تشدّ بحبالها على أعناق النّاس، وتَضْغَط أرواحهم ضَغْطاً عنيفاً فلا يَرَون لنهايتها حَدّاً.

وما كُنّا لنختلف عنهم في هذا الشّعور إلاّ من ناحية واحدة، وهي أنّنا وجدنا أنفسنا مدفوعين إِلى هذه الحومة بسائق لا يُرَدّ، فمضينا في الجهاد وليس لنا رأسمال غير القلوب التي تَخْفُقُ حولنا بالحُبِّ، وغير التّصميم على أنْ تحيا "السّمير" ولو أعوزها أن نغذّيها بدم المُهْجة..

ومرَّت العواصف وبقيت "السَّمير" لِتَكْبَر وتنتشر وتزداد القلوب المتعلّقة بها حُبّاً وإِيماناً..

وكتب الله لنا الحياة لنتابع السَّير بها في السَّبيل الذي رسمناه لها، وهو نُصرَة الحَقِّ أينما كان، وتبغيض العبوديَّة إِلى كُلّ إِنسان، فلم تتقرَّب إِلى حزب يتحكّم بسياستها، ولا سلطة تضطرّ إِلى استرضائها..

فإِنَّ الخمس والعشرين سنة التي سلختها "السَّمير" تشهد في كُلّ موقفٍ من موقفها بتجدّدها، ورَغْبَتها في الإِنصاف، ونشر الفضائِل، ورعاية العهود، والاعتزار بالنّابغين من قومنا في مختلف نواحي الحياة..

ناهيك بالمشاريع الكثيرة التي ناصرتها، ولا سِيَّما المشاريع التي لها بأصحابها ثقة.

وكانت في كلّ ما تعمله تهدف إِلى قومها وسعادتهم هنا وهناك.. في هذا الوطن وفي ذاك الوطن.

لهؤلاءِ المهاجرين أُنشئت "السَّمير" ومنهم استمدَّت قوَّتها وبهم فَخرها واعتزازها، وهي في هذا النَّهار فاتحة السَّنة السادسة والعشرين ترسل إِليهم تحيّاتها، وتسوق إِليهم شكرها. كما تشكر كُلّ كاتب وشاعر نفحها بشيءٍ من نتاج قلمه، وكلّ من قال لها كلمة تشجيع، وكُلّ من قال فيها كلمة طيِّبة.

وتُعاهدهم على أنْ تكون للحقّ والحُرّيَّة والخير ما بقي في الصَّدر قلب يَنبِضُ وفي اليد قلمٌ يَتحرَّك.. وبالله نَستَعين.

٣ تشرين الثاني ١٩٥٤ العدد ١

الخمس والعشرون

ليست السُّنون الخمس والعشرون التي سلختَها "السَّمير" غير قطرة صغيرة في بحر الزَّمَن، مرَّت بالرِّمال الخرساء كما مرَّت بالنُّجوم الزَّهراء. فالأصدقاء الذين تنادَوْا إلى تكريم "السَّمير" في عيدها الفِضّي لم يقصدوا تمجيد الدَّقائق والسَّاعات والأيَّام واللَّيالي؛ بل الذي أرادوه من مساعيهم المتواصلة وأقوالهم الجميلة وأعمالهم الأجمل، تكريمَ الجهود التي بذلتها "السَّمير" في هذه الفترة من الدَّهر، وما أدَّته من الخدم لقرَّائِها من مشتركين وقارئين غير مشتركين.. وما نشرته من الفِكر وبثّته من المبادئ التي تَحسُن بها الحياة، ويصلُح بها المجتمع الإنسانيّ..

ولسنا نعدّد ما قامت به "السَّمير" من الخدم الجلّى، ولكنَّنا لا نقدر إلاَّ أنْ نذكر ما فعلته في قضيَّة زخّور، ذلك الرَّجل الذي صدر الحكم بإعدامه ونفض المحامون أيديهم من قضيّته، بعد أنْ فَشلَتْ كُلّ الذَّرائعِ والوسائلِ التي استعانوا بها لإنقاذِه من الكرسيّ الكهربائيّ أو حَبْل المِشْنقة.

في ذلك تلَقَّى صاحب "السَّمير" مخاطبة تلفونيَّة من نسيب للمحكوم عليه يقول له إنَّه لم يبق ما يستعان به غير الاسترحام من حاكم الولاية، فهبَّت "السَّمير" تكتب الفصول المؤثّرة مستنجدة قرَّاءَها مستثيرة كُلّ مُواطن إلى تطيير برقيات الاسترحام، وحضّ جيرانهم وأصدقائهم على

المبادرة إلى إرسال البرقيات والعرائض إلى الحاكم..

وغادر صاحب "السّمير" مكتبه إلى الدّاخليّة، فكان كلّما هبط قرية أو بلدةً فيها مواطنون طلب إليهم أنْ يطيّروا البرقيات باسم الجمعيّة إذا كانت لهم جمعيّة، وبأسماء الأفراد إذا لم تكن جمعيّة.!

وانهالت البرقيات على الحاكم من كُلّ حَدَب وصَوْب، وما هي بعد بضعة أسابيع حتى جاءَت البشرى بأنّ الحاكمَ أبدل حكم الإعدام بالسّجن..

لسنا نذكر هذا الحادث للمباهاة، فـ" السّمير" لم تفعل في أيّ موقف من موقفها إلاّ الواجب الذي تفرضه مهنة الصّحافة على ممارسها، وهو الأخذ بناصر المظلوم فرداً كان أم جماعة أم شعباً، وموازرة الفكرة الجميلة سواء جاءَت من فيلسوف أم من صعلوك!

وإنّما أردنا تقديم مثال للخدمات الكثيرة التي أدّتها الأقلام الرّاقية في "السّمير". فالاحتفال الذي أريد به تكريم هذه الجريدة هو إكليل غار يُوضَعُ على راسها مثلما هو قِلادَة توضع في عنقها.. وهي تعتزّ بهؤلاء الأفاضل أصحاب النفوس الكريمة والقلوب الواعية أكثر من اعتزازهم بها.

٧ كانون أوّل ١٩٥٤ العدد ٢٢

عُطْلة السّمير السّنويّة

يُرْوَى أنّ أحد الفلاسفة كان - لانهماكه في درس المسائِل العَويْصَة - يتناول طعامه وينسى بعد قليل أنّه تناوله..

هذا ما حدث للفيلسوف صاحب الحكاية، ولكن ليس لزاماً أنْ يكون الإنسان فيلسوفاً لكي يستولي عليه النِّسيان أحياناً، فيذهل عن طعام أو شراب أو موعد أو حاجة له أو عن شخص معه، أو حتى عن دفع دَيْن؛ فإنَّ هذه كُلّها أمور تحدث لأيّ إنسان مُنْهَمك في عمل يحبّه، وعنده تقديس للواجب..

أمَّا الذين لا ينسَوْن فهم أُناس لا يشغلهم شاغل مِن فِكْر أو عمل أو واجب، أو أنَّهم من ذوي العقول المحدودَة التي تعرف أشياء بعينها ولا تعرف شيئاً غيرها..

ليس النِّسيان عَيْباً، بل كثيراً ما كان نِعْمة من أكبر النِّعَم على الإنسان.

أوشك الصَّيف أنْ يَهْرَم، بل قد تمشَّى فيه الفناء، ونحن نعلّل النَّفْس بالانطلاق من المدينة التي لا تنام في صيف ولا شتاء.. لا زهداً بها وجنوحاً إلى غيرها، فالمدن كُلّها سواء في فرضها سلطانها على سكّانها.. بل شوقاً للأصدقاء الذين لا ينفكّون يطالبوننا ويُلِحُّون في المطالبة بأن نزورهم، وتطالبنا النَّفس بما يطالبوننا هم به.

الجريدة العربيَّة في المهجر غَرْسَة لا تمدّها التّربة إلاَّ بالنَّزر من الغذاء، فعلى صاحبها أنْ يغذّيها بدمه لكي يَكْفَل لها البقاء. وهي لقلّة الأَيدي العاملة لا تَقْدر أنْ تتخلّى عن أيِّ عامل فيها سواءٌ أكان مترجماً أم حاسباً أم محرّراً أم مُنَضِّداً أم طبَّاعاً أم شاحناً..

ولهذا ينقضي الصَّيف دون أنْ نتمكَّن من الانطلاق، وأحيانا لانهماكنا بمهام الجريدة وشؤونها نكاد ننسى الصَّيف والشِّتاء..

وها هي عطلة "السَّمير" تقترب بل صارت منَّا قاب قوسين أو أدنى، ونحن عنها في ذهول، كأنَّما لا عطلة أو كأنَّنا لسنا في أشدّ الحاجة إلى

الاستجمام!

أين سنصرف أيّام العطلة؟

يقترح علينا البعض أنْ نقضي أيّام العُطْلة معتزلين عن النّاس؛ إمّا في جبل، وإمّا في شاطئ، وإمّا في موضع قصيّ ناء..

هذا رأي لا بأس به، غير أنّنا نعرف بالاختبار أنّ الوحدة تحمل المرء على التّفكير، ونحن إنّما نرغب في البعد عن الجريدة لعلّنا نبعد عن التّفكير..

والعُزْلة تستدعي أن يوجِدَ الإنسان لذاته ما يلهو به. وأُلْهُوة الكاتب أن يكتب، والشّاعر أنْ ينظم، وما هذا الذي نبغيه ونحتاج إليه في العطلة، فإنّ العطلة معناها الانقطاع عَنِ العَمَل..

إذن فَلْنَغْرَقْ في النّاس لعلّنا ننسى أنفسنا، ولعلّنا نَذْهَل ولو قليلاً عَمَّا نحن فيه الآن..

١٨- ٨- ١٩٤٥ العدد ١٩٩

داء لا دواء له ولا شفاء!

لَمَّا اَنشأْنا "السَّمير" لم يَخْطرُ لنا في صَحْو ولا نَوْم أنَّ وجودها سيخلق في بعض النُّفوس حَنَقاً وغَيْظاً، ويملأ بعض القلوب حقْداً مريراً، إذ لم يكن غرضنا من إنشائها إلاّ خِدْمة قومنا الذين يقرأون اللُّغة العربيَّة، ويهمّهم أن تكون لهم جريدة تعالج القضايا التي لها اتّصال بحياتهم ومَسَاس بمقدّراتهم، وتوافيهم بأخبار العالم وأنباء الأوطان العربيَّة، وما ترشح به أقلام المفكّرين الخبراء من الآراء والنَّظريَّات، وما يفيض على ألسنة الشُّعراء من روائع وآيات.

أجل، كان غرضنا من إنشاء "السَّمير" خدمة قومنا على قدر ما بَلَغَ إليه الجَهْد، مثل مؤازرة مؤسَّساتنا الروحيَّة والأدبيَّة والاجتماعيَّة، وما يتّصل بهذه المؤسَّسات.

وكان من أغراضنا تعزيز أصحاب المواهب والفنون من أبناء أُمَّتنا، وإذاعة الحسنات، والإعراض عن السَّيِّئات..

ولم يكن من غرضنا قطّ إحناق نفس أو إيغار[1] صدر.

إنّما الأمر الذي لم يكن من أهدافنا هو اليوم واقع، كأنّما نحن تعمّدناه أن يكون.

ويشهد الله أنّنا ما أردناه أنْ يكون، وما لنا بوجوده يد، بل لو كان في قدرتنا أنْ نَغْسِلَ تلك القلوب مِمَّا فيها من أدران الحقد، وأن نطهرّها من جراثيم الحسد والنِّقْمَة لفعلنا في الحال. ولكنَّ هذا الأمر فوق طاقتنا كما هو فوق طاقة تلك النُّفوس المَغيظَة الحانقة؛ لأنَّ الحَسَد مَرَضٌ نَفْسانِيٌّ. هو أشدُّها خطراً، وأعسرها شِفاءً، بل هو أوَّل مرض ظهر مع الإنسان في الأرض.. وكان من ضحاياه المغفور له هابيل[2]!

وقد ارتقت الدُّنيا وارتقى النَّاس، واستؤْصلت شأْفة[3] أمراض كثيرة، إلاَّ أنَّ هذا المرض باق لا يزول. ولِحِكْمة خلق الله الشَّوك في النَّبات، وأوْجد العقارب والحيَّات وغيرها من الحَشرات المؤْذية للزَّرع والضَّرْع[4]..

---

(1) أوْغر صدره: أشْغَلَهُ وملأه حقداً وغيظاً وحنقاً.

(2) هابيل بن آدم عليه السَّلام: أخو قابيل الذي قتلَه بيَده.

(3) شأفة: قرحةٌ تخرج من أسفل القَدَم، والمقصود الاصْلُ.

(4) الضَّرْع: ما يدرُّ اللّبَنَ من الشّاءِ والبقر. والمقصود بالزَّرع كلُّ ما يتّخذه الإنسان للعيش من بيئته.

إذن، فالحسد لن يزول من الأرض حتى ينقرض الشوك والعوسج وتبيد الحشرات الضَّارَّة كُلّها..

بل إنَّ المرض النفسانيّ شديد الخطر وعسير الشِّفاء، ولَكِنْ من حسن حظّ البشريَّة أنَّ المبتلين به ليسوا بالعَدَد الكبير. وليس هو بالمرض الذي ينتقل بالعَدْوى، والمُصاب به أحَقّ النَّاس بالرَّحمة والعفو؛ لأنَّه في عذاب لا ينتهي.. وما ظنّك بإنسان يَحْمِلُ في جوانحه النَّار!؟

أجل. إنَّ الحسد نارٌ، ولكنَّها لا تأكل إلاَّ الحاسد.

وهذا الذي يكابده حسَّاد هذهْ الجريدة، وحسَّادنا، أعانهم الله على ما هم فيه من البَلْوى!

١ تموز ١٩٤٥ العدد ١٦٦

كلمة شُكْر

الكلمة التي ألقاها صاحب "السَّمير" في حفلة اليوبيل الفضّي لهذه الجريدة.

تزدحم الآن في نفسي وتضجّ ذكريات كثيرة، ذكريات حوادث مرّت بي وذكريات ناس مررت بهم في طريق العمر..

وأكاد أهمّ وأنتم تحتفلون بعيد "السَّمير" أن أقصّ عليكم حكاية هذه المؤسَّسة الأدبيَّة، وكيف نشأت، وكيف كانت الدُّنيا وكان الناس عندما نشأت، وحكاية الظُّروف والملابسات التي أحاطت بها من الدَّاخل والخارج، فهذه كلّها مِنَ التَّاريخ، تاريخ القلم العربيّ في المهجر الأميركيّ.

ولكنَّ المجال ضيِّق والوقت قصير، فأكتفي بالقول إنَّ "السَّمير" لم تستمدّ قوّتها على المسير من حكومة، ولا من حزب، ولا من منظّمة.

وكان الفضل الاوَّل في بقاء "السَّمير" ونموّها وازدهارها، للمُهاجر الذي أنشئت للتعبير عن أمانيه ورغائبه، فقد احتفظ بلغته العربيَّة بل تشبَّثَ بها لأنَّ هذه اللُّغة مستودع أفراح أُمَّته وأحزانها. وهي أفراحه وأحزانه، وفيها صور حياتها التي منها حياته، وهي الصِّلة بين حاضره وماضيه، وبينه وبين أبناء جنسه.

وأخيرا حرص عليها واستبقاها؛ لأنَّه إِذا أضاعها أضاع شيئاً من كِيانه بل كِيانه..

فأنا أُحيِّي هذا المهاجر أينما كان، وكيفما كان.

وأشكر لجنة اليوبيل الموقَّرة؛ رئيسها وأعضاءَها هيئَةً وأفْراداً، لِما قامت به من المساعي الطَّيِّبة لجعل عيد "السَّمير" عيد القَلَمِ..

وأتقدَّم بالشكر القلبيّ إِلى الزّعماء الرّوحيِّين القادة الهُداة الذين تلطَّفوا فشملوا اللَّجنة واليوبيل بعطفهم ورعايتهم، وشرَّفوا هذه الحفلة بحضورهم.. ومن على ضفاف الهدسن أُرسل عاطفة امتنانِي العميق إِلى دهقان العلم الكبير وإِمام الدِّين الموَقَّر صاحب الغبطة الكُلِّي الطوبَى ألكسندروس بطريرك أنطاكية وسائِر المشرق لِما أفاضه علَيَّ من محبَّته الأَبويَّة.

وإِلى رجل الله الصَّالح سيادة المطران إِيليا كرم الذي كان منذ ساعات يصلّي في لبنان من أَجلي، ومن أَجل رئيس اللَّجنة وأعضائها وأُسرة "السَّمير" ومشتركيها، وكان له الفضل في مَنْحي هذا الوسام المقدَّس من جانب غبطة البطريرك الإِسكندريّ، إِنَّه شرف كبير، ورمز

خطير سوف استمدّ منه قوّة معنويّة على مُجالدة التّجارب والتغلّب على الشرّ بالخير، لعلّي أصير له مستحقاً وبه جديراً..

ومثلَ هذا الشكر أسوق إلى رجال السّلك الدبلوماسيّ ممثّلي لبنان وسوريا الذين تلطّفوا بمشاركتنا في هذا العيد، ولا غرْوَ فهُم سفراء ووكلاء دولة العلم والأدب، مثلما هم سفراء حكومات وممثّلو شعوب، وإنّ اعتزاز الفكر بهم لا يضاهيه غير اعتزازنا نحن..

شكراً يا منائر الشّرق في الغرب ويا ألسنة الرّوح في دنيا الميكانيكيّات! وفي هذا الموقف يطيب لي أنْ أحيّي رفاقي في "السّمير"، والأيدي والأقلام التي أعانتني في جهادي؛ القريب منها والبعيد..

وأخصّ بالشكر شخصاً لم ينضّد في "السّمير" حرفاً، ولم تنشر السّمير له مقالاً، ولا قصيدة، ولكنّه كان الملاك الحارس "للسّمير" ولي.

من هو هذا الشّخص؟

هو هذه السّيّدة الجالسة إلى يميني، فلو لم تكن هي هي لَمَا استطعت أنْ أكون أنا أنا..

أعني رفيقة حياتي!

وهناك شخص آخر ذو فضل جَمّ على "السّمير" كنت أتمنّى لو أنّه حاضرٌ معنا لتحيط به هذه العواطف المحيطة بي.. أعني به شقيقي مُراد الذي منعه من الحضور توعّك صحّته..

ويلَذّ لي في هذا المُقام أنْ أحيّي الصّحافة اللّبنانيّة في شخص أحد رجالها، الكاتب القدير والمحاميّ اللاّمع الأستاذ نصري المعلوف.

وألف شكر للخطباء والشعراء فإنّ أقوالهم المشجّعة كانت إكسيرا[١] للروح يجدّد منها ما خَلُقَ[٢] من النّشاط.

شكراً لهم وللأصدقاء الذين حملهم الحُبّ الصّادق على حضور هذه الحفلة، ولا سِيّما الأصدقاء الذّين تجشّموا عناء المجيءِ من مونتريال وأطوى وكانتون وغيرها من الأماكن القريبة والبعيدة في الولايات المتّحدة، وأصحاب البرقيات الفائضة بالحُبّ فقد أضافوا إلى سابِق فضلهم فضلاً جديداً..

وماذا أقول في هذه الأنغام التي انهمرت، وتلك الحناجر الفضّيّة حناجر الذين سحرونا بأصواتهم الشّجيَّة العذبة؛ فأطربونا كما أطربتنا أنغام أوتار كمنجة الشّوّا؟

لقد باركتْ هؤلاء السّماءُ فوهبتْهم أصواتاً ملائكيَّة، وهم السادة: ألفيرا هلال، والشّاديان السّاحران المبدعان عامر وسناء خَدَّاج، والفتى الموهوب إميل قسيس الذي يغنّي ويعزف كأشهر مغنٍّ وعازف في الشرق قاطبة وهو من مواليد هذه البلاد..

وأخيراً وليس آخِراً، أشكر صديقين ورفيقين لي عزيزين هما: الأستاذ صبري أندريا الذي كان في مذياعه بوقاً لفكرة اليوبيل والأستاذ جورج دبس صاحب جريدة "الكرفان" وعريف هذه الحفلة، لِمَا بذله كأديب وكصحفِيّ في سبيل "السّمير" وسبيلي..

---

(1) الإِكْسير: شرابٌ زعموا أنّه يُطيل العُمر. ومادّة كيميائية أرادوا بها تحويل الفضة وأشباهِها إلى ذهب.

(2) خَلُقَ: الشيءُ بَلِيَ.

لقد كنت قويّ الإيمان بقومي، أمّا الآن فقد تحقّقت أنّ إيمان قومي بي قويّ كإيماني بهم!

٩ - ١٢ - ١٩٥٤ العدد ٢٤

قِفْ بالمقابر صامتاً متأمّلاً

وَقْفة بالمقابر.

فهي المنازلُ الخالية العامرة.

وهي الكُتُب الصّامتة النّاطقة.

قِفْ صامتاً متأمّلاً لترى كيف تحوّلت العزائم والهمم إلى رِمَم، وكيف اختلطت أحلام الطفولة وتمازج طموح الشّباب ورزانة الكهولة وقناعة الشيخوخة، بحيث لم يعد هناك أحلام ولا مطامح ولا رزانة ولا قناعة.. فجميعهنّ أصبحن الآن تراباً في كساءٍ من الأعشاب، أو تراباً لا زَهْرَ فوقه ولا أعشاب..

قِفْ بالمقابر خاشعاً.

في هياكلها الأبديّة التي لا يرتفع فيها لَغَط[1]، ولا ضوضاء، ولا تتلجلج[2] في جوانبها لسان محبّة، ولا لسانُ بَغضاء، فقد تلاشت هناك الأشواق والرّغائب كما اندثرت الأحقاد والمَواجد[3]..

(١) اللغط و اللغط: الصّوت والجلبة والضّجيج والضوضاء.

(٢) يتلجلج: يتردّد في كلامه ولا يُبيّنه.

(٣) المواجد: مفردها الموجدة، وهي الغضب.

قِفْ هناك حاسرَ الرَّأس إجلالاً للغابرين.. للأجداد والآباء والأَصدقاء، والعُشراء الذين كانوا مَعَنا ثم انْفصلوا، بعدما ظَلّوا فوق التّراب زمناً وهم يضحكون ويَبْتسمون، ويشتاقون ويهيمون، ويتحرّكون تحرّك الأقوياء..

فصاروا الآن لا شيءَ كأنّهم لم يكونوا من قَبْلُ شيئاً.!

قف وتذَكّر أنّ البيت الذي تأوي إليه قد شادَتْ جدرانه يدُ مَيّت الآن. وأنّ الطريق الذي تمشي فيه قد عَبَّدته يدٌ هي ميتّة الآن. وأنّ السَّيّارة التي تَحْملك في كُلّ ناحية قد أنشأها إِنْسان لتجعلها مطيَّة لَك؛ فهذا المكتشف العظيم يرقد الآن مع الرَّاقدين تحت الثّرى..

ولا يجدر بك أن يغيب عن بالك أنّ الدُّنيا العامرة حولك لم تَصِرْ عامرةً إلاّ بفضل الذين عمَّروها ثم فارقوها فراقاً أبديّاً..

إِنّهم قد قاموا أثناء حياتهم بما عليهم من حقوق وواجبات، ووفّوا قسطهم للحياة وهم فيها أحياء.. وإِذا كان من بينهم رجل فارق الحياة وذلك قبل أن يقوم بالواجب المفروض عليه، فما تَرَكَنا إلاّ وهو مُرْغَمٌ.. فمضى عَنَّا وابتعد بجسده كما تمضي الزهرة التي لفحها الهجير[1] أو نثرها الزَّمهرير، وذلك قبل أن تَهبَ أريجها كُلَّه..

فلتكن لنا بالأموات غداً عِظة بالغة، وهي أَنّنا سنصير إلى ما صاروا إليه.. فلنتذكّر أنّنا نحن المسؤولون عن تَرْك الحياة نبيلة وجميلة لمن يأتي بعدنا، كما تركها لنا جميلة ونَبيلة الرِّجال الذين مَضَوْا عَنَّا وفارقونا.

فلنذهب غداً إلى المقابر لنؤَدِّي واجب الاحترام لأولئك الذين زَرَعُوا لنأْكُلَ، وبَنَوْا لِنَسْكُنَ، وتَعِبوا لِنَسْتريح..

---

(1) الهَجير: أشتداد الحَرّ عندَ نِصْف النَّهار.

فلنَرجِعْ إلى المقابر، وكُلُّنا تصميم على أنْ نزرعَ ليأكل الآتون بَعدنا، وأنْ نبنيَ ليَسكنوا، وأنْ نتعب ليستريحوا..

وهكذا نؤدي الغاية التي أوجدتنا الحياة من أجلها، فتغتبط وتَهنأ أرواح الموتى في الفراديس؛ لأنّنا قمنا بما كانوا هم يقومون به لو كانوا أحياء!؟

٢٩ أيّار ١٩٤٢ العدد ١٧٢

طِفْـــل المِـــذْوَد[١]

منذ ألف وتسعماية وأربع وخمسين سنة، ولد طِفل مبارك في مِذْوَد حقير في قرية من قرى فلسطين اسمها "بيتَ لَحْمُ".

ومنذ ألف وتسعماية وأربع وخمسين سنة وهذا الطّفل المبارك يولد في كُلّ سنة، لا في بيتَ لَحْمَ وَحْدها، بل في آلاف وعشرات آلاف القُرَى والمُدُن في العالم..

وليس في الدُّنيا إنسان ذو صِلَة بالعالم وحوادثه، والأدوار التي مرَّت به، يستطيع أنْ يُنكر أنّ وِلاَدَة هذا الطّفل المبارك في ذلك المكان كانت فجراً جديداً وسَنِيّاً، للبشريَّة الحائرة التائهة المُستَسْلِمة للأوهام، المتعبِّدَة للأصنام، الذّاهلة بما فيها من نَزَوات[٢] وشهوات عَمَّا فيها من جمال عِلّيّ[٣] ونفحات إلَهِيَّة، فجاء ذلك الطّفل يَهديها إلى ذاتها.. إلى الكنوز

---

(١) المِذْوَد: المكانُ الذي يوضَع فيه عَلَفُ الدَّواب.

(٢) النّزْوة: مِن "نزا" به الشرُّ أي تحرَّكَ.

(٣) عِلّيّ : في الأصل عُلوي، والعِلّي أعلى مكان وأعلى درجة ج عِلّيُونَ.

الثمينة المكنونة فيها.. وأنفس هذه الكنوز وأغلاها الحبّ والإحسان، والصّفح والغفران..

" أحبّوا أعداءكم "

" باركوا لاعنيكم"

" أحسنوا إلى مُبغضيكم"

إلى غير ذلك من التّعاليم التي ترتفع بالإنسان من عالم الحيوان إلى عالَمٍ نورانيّ هو عالم الألوهيَّة، وتبدّد ما في كيانه من بقايا النّزعات الشرّيرة التي ورثها عن إنسان الكهوف والمغاور، فهو لم يكن ليمتاز آنذاك عن أيّ حيوان أعجَم..

ولقد ارتقت البشريّة كثيراً منذ وِلادة ذلك الطّفل المبارك، وكان الفضل الأكبر في ارتقائها لتعاليمه، ولَكنّها لم تصل بَعْدُ إلى المستوى الذي رسمه لها بتعاليمه، لأنّها لم تستكمل بَعْدُ قوّتها لمحو الحدود والفواصل بين الأجناس والألوان. ناهيك بالحدود والحواجز التي تفصل بين العُقُول والأرواح مِن تعاليمَ وعقائد، وعاداتٍ وتقاليد.

أجل، إنّ الإنسان لا يزال عالقاً بالأرض، ولا يزال الضّعْف فيه أكثر من القوّة.

ولكن ما دامت كلمة "الإخاء" موجودةً في كُلّ لغة، والرَّغبة في الخير كائنة في قلب كُلّ إنسان، فلا بُدَّ من وصول البشريَّة يوماً ما - مهما تأخّر ذلك اليوم - إلى حالٍ يتساوى فيها الكُلّ، ويَسْعد الكُلّ ولا يعود الإنسان يفكّر بغير الخير والجمال؛ فهو بعدما تطَهّرت نَفسُه من

جرائيم الشرّ، لم يعد يرى في الحياة غير الخير والجمال.

ولربّ قائلٍ يقول: إنّ الذين يولدون كلّ يوم - حتى بعد مماتهم - كثيرون. وهو يعني الذين تحتفل العالم بذكراهم اعترافاً بما لهم من فضل ووفاء ولما لهم من حقّ، فعلى قول هؤلاء القائلين نجيب: إنّ هؤلاء كلّهم عظماء، وكلّهم جدير بالتكريم. ولكنّ أعظمُ من هؤلاء كلّهم ذلك الطّفل المبارك ألا وهو السّيد المسيح - عليه السّلام - الذي وُلد منذُ ألف وتسعمائة وأربع وخمسين سنة في مذود حقير في بيت لحْم، فصمّلت به البشريّة جمعاء، فترقّت المجتمعات، وعمّت تعاليمه الإنسانيّة السّمحاء أقطار العالم، فتحوّل الظلام إلى نُور، والقلق إلى اطمئنان، والحرب إلى سلام والعداوة والبغضاء إلى محبّة ووئام وصلاح..

٢٠ كانون الثاني ١٩٥٤ العدد ٣١

النّسيان - نِعمة أمْ نِقْمة؟

صديقي صاحب "السّمير":

كُنّا أمْس في سهرة عائليّة خلَتْ - وألف حَمْدٍ لِلّه - من لعب الورق، ودار الحديث في شؤون السّاعة وغيرها..

وكان القوم ينتقلون مِن موضوع إلى آخرَ بأسْرعَ من انتقال العصفور من غصن إلى غصن في شجرة واحدة.. ولا أدري كيف وثب القوم من موضوع إلى آخر حتى هداهم التّفكير إلى موضوع النّسيان فقال جماعة: إنّه "نِعْمةٌ عظمى" للإنسان، وقال آخرون: إنّه "نِقمة كبرى".

وأيّد كُلّ فريقٍ نظريّته بِسَرْد حوادث اتّفقت له، ووقائع جرت لأصحابه وغيرهم.. وبعضهم روى لنا حكايات طالَعها في الكتب والجرائد..

وطال الجدل بين الفريقين حول هذا الموضوع، دون أنْ يسلّم أحدهما للآخر بأنّه صاحب الرّأي الأصَحّ، والنّظر الأصوب.

ولهذا جئت أسألكم أنْ تَبْسطوا لنا رأيكم في هذه القضيّة؛ ولكم منّا الشُكر الجَزِيل.

(بروكلن)

يوسف جُبُّور

أيُّها الصديق الفاضل:

يسعد الإنسان ويَشْقى، على مِقْدار ما يتذكّر الأمور الجميلة المُبْهِجة أو الأُمور الكريهة المُزْعِجَة.

إذن، فليس الإنسان في ذاته نِعْمةً ولا نِقْمة، ولَكِنّه يصير نِعمة كبرى إذا أحسن نسيان المساوئ والمصائب، ومحا من صفحةِ ذاكرته الصُوَر البغيضة إلى نفسه سواء كانت صور حوادث أم صور أشخاص.

فهو لا يصير نقمة عظمى، أو طامّة[1] كبرى إلاّ بعدما يعجز عن نسيان خسارة أصابته في مال له، أو متاع، أو عقار، فيقضي الوقت يتذكّر تلك الخسارة، وكُلّما تذكّر تلَهّف وتحسّر، فإذا بالخسارة تتضاعف وتتكرّر كُلّما عاودته ذِكْراها..

---

(1) الطامّة: الدّاهية والمُصيبة، والقيامة.

إنّ الإنسان العاقل هو الذي لا ينسى عند إقبال الدّنيا عليه أنّه كان قبل اليُسْر في ضنك وعُسْر؛ لأنّه نسي أنّه قد نفخ في نفسه شيطانُ الغرور، فإذا به يهزأ بالمُعْسرين من النّاس، أو يتكبّر على غير الموفّقين المحظوظين في الحياة، فيخلق في نفوس النّاس منه اشمئزازاً، وفي عيونهم منه ازوراراً، وفي قلوبهم نقمة على كُلّ مغرورٍ مثله، حديث العهد بالغِنَى..

إنّ النّسيان نعمة كبرى للمحزونين، فلولاه لَما تضاءلت مُصيبة، ولا صَغُرَت رزيئَة، ولا خَفَّ خَطْبٌ.

وهو نقمة فادحة عندما ينسى الإنسان جميلاً أُسْدِيَ إليه، وصديقاً حَنَّ عليه، ورفيقاً كان به بَرّاً شفيقاً.

وهو كارثة عندما ينسى الوطن الذي أنبته، والأُمَّة التي لحمُه لحمها ودمُه دمها.

وهو مصيبة أيضاً كُلّما تضاحك متذَكّراً أنّ الوطن وطن أُمّه وأبيه، ليس في مرتبة الولايات المتحدّة الأميركية قوّةً وعظمة، ورقيّاً، ومساحة، وسكّاناً..

وإذا حضر حفلة غناء عربيَّة رأْيته يتقزّز، كأنّه يشمّ رائحة كريهة متظاهراً بأنّ له في الموسيقى والغناء ذوقاً رفيعاً.. بينما يكون أبوه جالساً في البيت مترنّحاً على صوت العنيز[1]..

بل قد يكون هو نفسه لم يحضر في حياته كُلّها حفلة غِناء عربيَّة ولا إفرنجيَّة..

---

[1] العَنيز والعَنوز: المُصاب بمُصيبة. إنّما الأصحُ في الأصل "العَنْز" التي لها "صَوت"، وربّما صغّرها أبو ماضي فصارت "العُنَيز".

إنّ هذا النّاسي أصلَهُ، والنّاسي ذاته أيضاً، ربّما كان يتوهّم أنّه يفعل حسناً، غير أنّ النّاس الذين يعرفونه ويعرفون كيف كانت حياته من قبلُ وما هي حياته الآن، لا يتوهّمون بل يعتقدون أنّه لا يحتقر الفقيرَ بل يُهين ذاته!

النّسيان يكون بركةً إذا انسدل سِتْرُه على عيب أو هفوة أو إساءَة..

وقد يصبح آفة كبرى إذا محت يدُه حسنةً، أو طوت فضيلة، أو غطّت مأثرة. أو كفّنتْ جمالاً.. فالنّسيان قد يكون عنده نعمة وذلك إذا عرف كيف ينسى، وما يجب عليه أنْ ينسى..

أمّا إذا لم يعرف كيف ينسى، وما هي الأشياء أو الحوادث أو الذكريات التي يجب عليه أن ينساها، فإنّه بالطّبع سيظلّ مصاحباً ومرافقاً للآلام والهموم والمتاعب والذّكريات المزعِجَة..

فأعرف كيف تنسى؟

وأعرف متى ومن تنسى؟

١٧ شباط ١٩٥٣ العدد ٦٦

أَزْمة.. ولكنَّها جميلة

ما نحسب أَيَّة أَزْمة من الأَزمات السِّياسيَّة في العالم، أقلقت المرأة وحيَّرتها مثل أزمة الهدايا الميلاديَّة، فإِنَّك ما سمعت سيِّدتَيْنِ أو آنستين تتحدَّثان في هذه الفترة من السَّنة إِلاَّ وكان حديثهما يدور على الهدايا.. الهديَّة إِلى الزَّوج أو الأُمّ، أو الخطيب أو الأُخت، أو هذا النَّسيب وتلك القريبة..

وإِذا كانت نفسٌ غافلة أو ساهية عن الهدايا، فإِنَّ الإِعلانات الخلاَّبة في الجرائد والمجلاَّت وفي الحوانيت والمخازن، تنبِّهها بأَلف صوت رنَّان وبأَلف أَلف لسان إِلى أَنَّها يجب عليها أَنْ تسير في هذا الموكب مع السَّائرين، وإِلاَّ فإِنَّها تبدو كالأَجرب بين الأَصحَّاء. ولكنَّ عادة الهدايا - على ما يرافق النُّفوس فيها من حيرة وقلق، وما تلاقيه المرأة، سيِّدة كانت أو فتاة، من التَّعب والمشقَّة في التَّنقيب والبحث عن الهديَّة اللاَّئقة الموافقة - إِنَّ هذه العادة، على الرَّغم من كُلِّ ذلك، جميلة ونبيلة، فإِنَّ الإِنسان يظلُّ كالحيوان الأَعجم حتى يفكِّر بأَخيه الإِنسان، ويهتمَّ بإِسعادِه.. فالحيوان الأَعجم لا يهتمّ إِلاَّ بنفسه، ولا يبالي إِلاَّ أَنْ يملأ جوفه، ولو جاعت الحيوانات كُلّها. وربّما اعتدى على جنسه، وبطش بحيوان مثله لكي يروي عطشه بدم فريسته.. ولهذا كانت ميزة الإِنسان على الحيوان بأَكثر من الضَّحك، وبأَكثر من العقل المقتبس، وهذه الميزة هي أنّه يحبّ لأخيه مثلما يحبّ لنفسه، ولو في فترة قصيرة كفترة المواسم.. ويفكِّر ويعمل على أَنْ يسوق السّرور إِلى قلبه والغبطة إِلى روحه، بهديَّةٍ مهما يكن ثمنها ضئيلاً، هديةٍ ترمز إِلى صفاء مودَّته، وحسن إِخائِه، وطيب وفائه..

وهذا الشُّعور الذي يصاحبه الخوف من أنْ لا تجيءَ الهديَّة عند رضى المُهدى إليه، هو الذي يخلق عند المرأة بنوع خاصّ أزمة نفسيَّة. أجل، إنَّها أزْمَة، ولكنَّها أزْمة جميلة؛ هي مثل الذُّبول في أجفان غادة حسناء. إنَّ الذُّبول غير مستحسن في شيءٍ، ولكنَّه في أجفان الحسناء شيءٌ رائع ساحر.

إنَّ كُلَّ الهدايا التي يتبادلها الأحباب في المواسم الجميلة، وإن كانت ليست غالية الثَمَنْ، إنَّما هناك هدايا أبقى وأفضل وأجلب للشُّكْر من النَّاس والأجْر من خالق النَّاس وهي الإحسان إلى المنكوبين والمشرَّدين والفقراء.. فإذا جال في نفسك أنْ تحسن إلى هؤلاءِ فأحقُّهم بعطفك هم العرب اللاَّجئون الذين يقارب عددهم المليون..

فأذكروهم أيُّها القادرون على العطاء، وطوبى لمن سقى عطشان كأس ماء بارد، باسْم صاحب العيد.

٢٤ كانون الأوَّل ١٩٥٣ العدد٣٦

طلاَّب الشُّهرة

ما مِنْ أحَدٍ في الدُّنيا إلاَّ ويلذّ له أنْ يشتهر، فالشُّهرة نوعٌ من البقاء، وأحياناً هي نوع من الخلود.

فالإنسان مفطورٌ على حُبِّ البقاء، فتراه يحاول بكُلِّ وسيلة أنْ يستبقي ذكره في هذه الدُّنيا، وأنْ يظلّ اسمه يدوِّي في مسامع الدَّهر.

إنما الذين يخلدون خلوداً طيِّباً قليلون.

والسُّبُل إلى الاشتهار كثيرة ومتعدّدة؛ منها السَّبيل السويّ وهو سبيل الصَّالحين، ومنها السَّبيل الأعوج وهو سبيل الأشرار.. هذا رسَّام يتزوي عن النَّاس في غرفة زريَّة الأثاث، خافتة الضَّوء، ويكبّ على لوحته ليطبع في وجهها وجهاً في مخيِّلته، أو طيفاً لاح له في النَّهار وهو سائر في الطَّريق، أو مشهداً من مشاهد الطَّبيعة عند الفجر أو عند الأصيل.

إنَّ هذا الرَّسَّام يبغي بما يصنع أنْ يخلِّد ذاته بما يصوِّر، ويرسم من المشاهد التي حوله أو الفكَر التي تتمخَّض بها روحه..

وهذا عالم منصرفٌ عن اللَّذاذات انصراف الزُّهَّاد لكي يطلع على النَّاس باختراع فيه منافع للبشريَّة كلّها أو لأمَّة، أو لقبيلة. إنَّه لا يصنع ما يصنع طمعاً بثروة، أو منصب رفيع، ولكنَّه يطمع أنْ تملأ جوانب نَفْسه نشوةُ الظَّفَر، والانتصار على عقبة كانت في طريق النَّاس فمحاها.. ثم هو يطمَع بأن يتحدَّث به النَّاس إلى زمن طويل، وحديث النَّاس هو الشُّهرة..

وقِس على الفنَّان والعالِم وغيرهما ممن يفعلون إرادَة الحياة فيهم! بين جنديّ يغامر بحياته ليصون عَلَم بلاده أو ليكسب لها فوزاً، أو مصلح يُستهدفُ لكُلِّ محنَة وكُلّ بلاء في سبيل إنقاذ أُمَّته من ذلّ وعبوديَّة، أو لكي ينقذها من نقائص وعيوب فيها.

كُلّ هؤلاء وأمثالهم يطلبون الشّهرة من أبوابها ويسيرون في السُّبل القويمة إليها، وإن كانت سُبُلاً طويلةً وشاقَّة..

إنَّما إلى جانب هؤلاء الصَّالحين ذوي العبقريَّة أُناسٌ لم يخلَقوا ليحصلوا على الشّهرة من هذه السُّبُل، فتراهم يطلبونها بمخالفة القوانين كقُطَّاع الطُّرُق والسرَّاقين والقتلة، ومَنْ على هذه الشَّاكلة ممن تخلَّت عنهم السَّماء، فأستولت عليهم الشيَّاطين.

هناك صنفٌ من النّاس لا يحصى في القتلة واللّصوص، ولكنّ أصحابه أئمة مثل القَتَلة والمجرمين، وهم أُولئك الذين يعجزون عن أن يكونوا من أصحاب المواهب، فيَنشدون الشّهرة بالتّهجّم والتّطاول على أصحاب المواهب، لعلّهم يشتهرون، ولَكِنْ مثلما كاسرُ مزراب العين في القرية!

ولقد كان بين تلاميذ السيِّد المسيح عليه السّلام واحد من هذا الصّنف المنحطّ، هو ذلك الذي باع سيِّده بثلاثين من الفِضّة دون أنْ يطرف له جفن!

ولكِنّ المسيحيَّة لم تتمجَّد بيوضاس، بل بكُلّ رسول إِلاّ ذلك الخائن!

١٧ كانون الثاني ١٩٥٥ العدد ٤٠

الآباء والبنون

بين الآباء والبنين مشادَّة قديمة في الدَّهر، كالشَّيخوخة والشَّباب، وستبقى إِلى أَنْ لا تبقى شيخوخة ولا شبيبة، وليس في ذلك شيءٌ من الغرابة، إِذْ كيف يلتقي ناظِرٌ إِلى الأَمام وناظِرٌ إِلى الوراء، وكلاهما يرى غير الذي يرى الآخر!

يزعم الشَّيخ أَو الكَهْل أَنَّه أَعرف من الفتى وأَعلم وأَبصر منه وأَحكم. لأَنَّه أَبلى ديباجة الشَّباب، واستفاد من التَّجارب التي مرَّت به حكمة لم يستفدها ذلك المقبل على الكهولة، فعلى هذا أَنْ يرجع إِليه وأَنْ يأَخذ بنصائِحه، ويعمل بآرائه، لكي يأْمَن الخيبة والعثار.

لو خلعنا عن هذا الزَّاعم كهولته، وأَعدنا إِليه شبابه مرَّة لوجدناه

يفعل أخيراً ما كان يفعل أوّلاً!

وإن قال الآن إنّه لا يفعل، وإن زعم أنّه ينهج نهجاً أقوم وأصلح، فهو في شبيبته الأولى لم يتّعظ بسواه، ولم يستمع إلى نصائح الكهول والشيوخ وهو في شبيبته الثانية، لن يتّعظ بنفسه؛ لأنّ للشّباب ميادين لا يختار لذاته سواها، ولا يلذّ له الرّكض إلاّ في حومالها، وإنْ كانت لا تنبت غير الأشواك، ولا تجد فيها غير العقبات والعثرات!

إنّنا نسمع - كيفما سرنا - شكوى الآباء السّوريّين من أولادهم الذين يرونهم لا يحفلون بنواهيهم، متّهمينهم بالتمرد والعصيان عليهم، ملقين تبعة هذا العقوق من جانبهم على المحيط الأميركيّ الذي لا يقيم للعاطفة الوالديّة وزناً، وربّما زفر أحدهم زفرة حرّى مديدة وهو يقول: أولادنا في هذه البلاد ليسوا لنا!

فالحقيقة التي يجب أنْ تُعلم وتُقال في وقت واحد، هي أنّ الذّنب في هذه القطيعة بين الآباء والبنين مشترك بين الثلاثة: الآباء، والأولاد، والمحيط. وإنّما الآباء ملومون في الدّرجة الأولى؛ لأنّهم يتوقّعون من أولادهم أنْ يكيّفوا أنفسهم وأطوارهم طبقاً لتقاليد وعادات قد تكون جميلة وقد تكون مفيدةً، ولكنّهم لا يعرفون عنها إلاّ النّزر القليل.. وليس لها في محيطهم الواسع غير أثرٍ ضئيل؛ وهي تبدو سمجة لأنّها غريبة، وكذلك كُلّ غريب، وهم لا يستطيعون العمل بها إلى جانب التّقاليد والعادات التي يتلقّونها في المدرسة من الكُتب، ويقتبسونها في المجتمعات من الأتراب، وفي البيوت من الجرائد والمجلاّت التي يطالعونها!

فالآباء هم الذين يجلبون المتاعب لأنفسهم من هذه النّاحية في الحياة؛ لأنّهم يكبر عليهم أنْ ينسَوْا أنّهم أصحاب السُّلطة العليا - بعد الله - على

أولادهم، حتى بعد أنْ يشبّ هؤلاء عن الطّوْق.. ويصير لكُلّ واحد منهم دنيا مستقلّة من الرَّغائِب والآمال.

فهُم من هذا القبيل كالملوك الذين يريدون أن تبقى لهم جلالة المُلك وسلطانه وصولته، حتى بعد انتشار روح العِلْم الذي يدرك معه كُلّ فرد أنّ السُّلطانَ بشرٌ مثلُه، وأنّ حَقّه في الحرّيّة والأمْن كحقّه!

أجل، ليس أولادنا لنا، ولكن لا ينبغي لنا أنْ نشقّ الجيوب[1] أمام هذه الحقيقة، ولا أن نتوجَّع ونتفجَّع؛ فكُلّ الأولاد ليسوا لآبائِهم في كُلّ معترَكٍ إلاّ على قدر معيَّن، هذه الحقيقة أدركها فيلسوف الإِسلام الإِمام عَلِيّ بن أبي طالب حينما قال كلمته المشهور:

"ربّوا أولادكم على غير ما أُخذتم به، فإِنّهم خُلِقوا لزمان غيرِ زمانكم".

فإِذا كانت هذه القاعدة قد صدقت من قَبْلُ، وبيئة المقولة لهم واحدة، ولغتهم واحدة، فإِنّها اليوم أصدق؛ فالمهاجرون أولى النَّاس باتّباعها، لأنّهم يعلمون أنّهم قد نسلوا أولادهم ليس لزمان غير زمانهم فحسْبُ، بل لبلادٍ غير بلادهم.

١٦ تموز ١٩٤١ العدد ٢٠١

(1) الجَيب: طَوقُ القميص، الصَّدْر. "وشقُ الجيب" كناية عن الفاجعة والمصيبة، لأن المفجوع يشقُ ذلك حزناً.

قلنا مراراً، وقال غيرنا: إنّ من أكبر الضّنك الذي يشكو منه الشّباب في بلادنا - ولا سيّما الشّباب المتعلّم - هو أنّ هؤلاء الشّباب يأنفون من العمل اليدويّ، ويستنكفون أنْ يراهم النّاس ينقلون حجراً أو خشبة أو سلّة فاكهة.. كما يخجلون أنْ تقع عليهم العيون ينكشون حَقْلاً أو يزرعون بقلاً، أو يحتفرون بئراً أو يمهّدون دَرْباً، بل هم يعتقدون أنّ من واجب الغير أنْ يمهّدوا الدّرب لكي يخطروا هم عليها في الضُّحى والأصيل، ويجب أنْ يحرث غيرُهم الأرض، ويزرع الحَبَّ، ويغرس الشّجر لكي يجيئوا هم فيجنوا ويأكلوا بلا كَدٍّ، ولا عناء، وبدون أنْ يخطر في أذهانهم أنْ يشكروا الذين زرعوا وغرسوا.

أجل، إنّ معظم الشّباب في بلادنا الأولى - ولا سيّما الحاصلون على شهادة البكالوريا - لا يهمّهم أنْ يحسنوا شيئاً مثل التأنّق في الملابس، والتظرّف في الحديث، وقتل الوقت في ما لا طائل تحته..

ويخيَّل إليك عندما يُطِلّ عليك أحدهم بهندامه العصريّ أنّه ممثّل أميركيّ من هوليوود - كاليفورنيا - مدينة الممثّلين والممثلات، لا من قرية في لبنان، أو دسكرة في سوريّا.

إنّ هذا المَيعان في الشّباب لا علاج له إلاّ التّجنيد الإلزاميّ من جهة، والإكثار من المدارس الصّناعيّة ، وجعل الدّخول إليها مجّاناً وإلزاميّاً على حساب الحكومة، فإنّ الشّاب الذي يذوق طعم الاستقلال الذّاتيّ يصير أكثر فهماً لاستقلال الوطن، وأشدّ جَذْباً عليه، ورعاية له. أمّا إذا كان الإنسان - شاباً أو كهْلاً - يجوع ويعرى في وطنه، ويشعر أنّه مستعبَدٌ

مهان، فإنَّ عزَّته تموت، وإذا ماتت هذه لا يعود يميِّز بين وطنٍ حُرٍّ ووطن مستعبد.

لا فائدة للوطن من شابٍّ يهوى المناظر الجميلة فيه من غابات وكرومٍ وسَواقٍ، وحدائق، بل الذي يستفيد الوطن منه هو ذاك الذي يخلق الكرم، ويوجد الحديقة، ويغرس الأشجار ويشقُّ الأقنية، ويرفع الجسور، ويستولد الأنهر قوَّة وضياء..

إنَّ الذي يسهر اللّيل يناجي القمر لكي يطلع في الغد على النَّاس لأنَّه كان يناجي.. لا يشعر به اللّيل ولا القمر. ولكنَّ الذي يسهر لكي يرفع جداراً يمهِّد درباً، أو يصنع كرسيّاً أو أداة فهذا إنسانٌ يباركه اللّيل، ويطوِّبهُ القمر، ويخلد في الوطن كهضابه وأشجاره، وأنهره، وسواقيه، ودروبه، وكرومه..

فهل يدرك الشَّباب مهمَّتهم في الوطن؟ وهل يؤدّون الرِّسالة التي لا يمكن أنْ يؤدِّيها غير الشَّباب، وهي رسالة الجهاد والعمل لجعل الوطن أحسن مِمَّا هو، وجعل سُكَّانه أسعد مِمَّا هم؟

٣ حزيران سنة ١٩٥٣ العدد ١٤٠

ما هو الطُّوفان

إذا زاد الشيءُ عن الحَدِّ الذي يكون فيه جميلاً ومفيداً يصير قبيحاً ومُضِراً!

وكذلك إِذا وُضع في غير المكان المناسب وفي غير الوقت الملائم.

كتب إِلينا صديق كان مسافراً في ولايتَي وست فرجينيا وأُوهايو يصف لنا ما كان للطّوفان الأَخير من الأَثر السّيِّء، وما سبَّب من أَضرار وخسائر، وكيف شوَّش الحقول وجرف الأَشجار والبيوت وسدَّ المسالك والطّرقات، ونشر الكآبة والهول والضَّنك في كُلّ بقعة مَرَّ بها، فخطر لنا ونحن نقرأ كتابَه أَنْ نستخرج من هذا العارض الطّبيعيّ عِظة وعِبرة ودرساً!

ما هو الطّوفان؟

هو مطر غزيرٌ أَو ماء يحتشد في موضع واحد، فإِن كان نهراً طغى، وفاض، وجرف، وهدَمَ، وروَّع!

وإِن كان جدولاً صغيراً، تضخَّم، واتّسع، وتعالى، واندفع بقوَّة الجبَّار.

هو في كُلّ حالة ماءٌ، ولكِنَّه ماء في غير أَوانه، وفي غير موضعه، ولولا ذلك لكان فيه للأَرض العطشى ريّ، وللنَّاس فوائد ومنافع، ولكنَّه زاد عن الحدِّ، فصار آفةً بعد أَنْ كان بَرَكَةً.

ومثل الماء كُلّ شيءٍ آخَر في الحياة..

إِنَّنا نهتدي بالضوء، ونرى فيه الأَشياء والأَشخاص جليَّة واضحة، ولكنَّه إِذا زاد عن القَدْر الذي نحتاج إِليه بَهَر أَبصارنا، فصرنا لا نستطيع رؤية الأَشياء وهي على مَقْرُبَة منَّا!

إِنَّما ليس كُلّ شيءٍ كالطوفان، يصعب على الإِنسان الحؤول دون صيرورته آفةً كبرى، فهناك أُمور وحالات لا يعجزه أَنْ يتصرَّف بها تصرّفاً يعود عليه بالفائدة، ولكنَّه لا يفعل بل يسيء استعمالها، فترجع

عليه بالضَّرر، ويرجع هو يشكو الأيَّام والنَّاس مع أنَّ المُسيءَ هو لا سواه..

خذ مثلاً الخمر، فإنَّ القليل منها - كما قيل - يفرِّح قلب الإنسان. وفي حالة الإصابة بالرَّشح، يصف الأطباء للمصاب قليلاً من الويسكي!

ولكنَّ بعضهم يسرف في شربها، ويدمن عليها حتى تتمكَّن منه عادةُ الشُّرْب، فيصير لها عبداً، ولا يطول به الدَّهر حتى يتمشَّى في جسمه الضَّعف، وفي جيبه الإفلاس، فضلاً عمَّا يصيب أخلاقه من الهُزال..

ومن المفيد للمرء أنْ يلهوَ قليلاً، ولكنَّه إذا تمادى في اللَّهو واتَّخذه في صباحه ومسائه، لا يلبث حتى يأتي عليه يوم يجد فيه نفسَه لا قدرة له على اللَّهو، ولا سبيل إلى سواه. فيلتفت فإذا موكب أهل العزائم والمطامع قد بَعُدَ عنه كثيراً، وصار من العسير عليه اللَّحاق به، ولو نبت له جناح مكان كُلِّ إصْبع!

إنَّنا نأسف لحدوث الطوفان ونشعر مع الذين نزلت بهم خسائر كما نشعر مع كُلِّ مظلوم ومغلوب ومنكوب، والطُّوفان جائحة تنزل بالإنسان وحْدَهُ.

فالحقل الذي تبعثرت أشجاره وتبدَّدت أحجاره لا يضيع منه شيءٌ، وإنَّما يضيع الجمال الذي أحدثه فيه الإنسان، والنَّفع الذي كان يرجوه عندما يُخرج الحَبَّ من الأرض فيصير سنابل، أوْ تتفتَّق عنه البذور فتصير أزاهر ورياحين.

الثلاثاء ٢٤ نيسان ١٩٤٠

العَير المتنكّر

كتب إليّ صديقي الشّاعر الكبير مسعود سماحة يقول:

أخي إيليّا:

كنتُ الأُسبوع الماضي في مجلس، فسمعت قِصّة من رجل إيطاليّ أعجبتني جِدًّا، فصغتها في الأبيات التالية:

- الحمار وجِلْد الأسد -

مَـرَّ الحِمـار بجلـد ليـثٍ مَـرَّةً ... فهفا إليـه وخـاط منـه جِـلالا

ومـشى بـه فأسـتنفرت قدّامـه ... أسْدُ الشَّرَى وعَنت لـه إجْـلالا[1]

فتـوهّم المغـرور أنّ نهيقـه ... أمسى رعـوداً في الفـضا وبُرُوقـا

فأحتـلّ رابيـةً وأرسـل صـوته ... ليخيـف أعـداه فكـان نهيقـا

وَعَتِ الوحوش نهيقـه فتـضاحكت ... منـه ومـن أمثالـه الأغـرار

قالت: أيحسَبُ أنّ لُبْـدة ضـيغَمٍ ... توليه صوتاً غيرَ صـوت حِمـارِ[2]

هذه هي الحكاية كما نظمها مسعود، وهي حكاية ذات مغزى جميل ويُحمَد الرَّجل الإيطاليّ الذي حكاها لمسعود ولكنّها ليست إيطاليَّة، ولا نعني أنّ الشعب الإيطالي الغنيّ بالأُدباء والشعراء ليس له مثل هذه الحكاية، فلكُلّ شَعْب حكاياته الرمزيَّة. ولكنّ الحكاية على ما نعرف شرقيَّة يتداولها العرب كأنّها لهم، وللفُرْس مثلها، وقد تكون الهندُ أُمّ الحكايات عن ألْسنَة الحيوانات مصدرها، وهي سواء كانت مولودة في روما عاصمة الثّقافة الرُّومانيَّة، أو في الهند مَهْد الفلسفات، أو في بلادنا

---

(1) الشّرى: موضع كثير الأُسْد. عَنَتْ: خضعَتْ وذلّت.

(2) الضّيْغَم: الأسد.

مَهْبط الوحي، فهي حكايةٌ جديرةٌ بأنْ تنتشر في كُلِّ أُمّة للعظة البليغة التي تحويها. فإنَّ الحمار، وهو حيوان له منافعه، لا يصلح أنْ يتشبّه بالأسد أو بغيره من الضّواري؛ لأنّه وإن كان أضعف منها فتكاً، وأقصر بطشاً، فهو أكثر منها نفعاً للإنسانيّة. غير أنّ العبرة في القصّة هي أنّ كُلّ من يلبس غير ثوبه أو يتخلّق بغير أخلاقه ينتهي به الأمر إلى الفضيحة وربّما إلى التّلف والدّمار! وإنّنا لنذكر أنّنا نظمنا مرّةً حكايةً كهذه اقتضتها واقعة حال، وهي:

زعم المؤدّب أنّ عيراً ساءَهُ ... أنْ لا يسار به إلى الميدان[1]

فمضى فقصّرت القواطع ذيلهُ ... وسطت مواضيه على الآذان[2]

حتى إذا جاء المُروِّض واعتلى ... مَتْنَيْه راب الفارسَ الكَشْحان[3]

لكنّه ما زال غير مصدّقٍ ... حتى علا صوت كصوت الجان

فاستلّ صارمه وطاح براسه ... ورمى بجثّته إلى الغربان[4]

ما دام يصحب كُلّ حَيٍّ صوتُه ... هيهات يُخفي العَيْرَ جِلْدُ حصان

وهذا المعنى بالذّات قصده الشاعر وذلك في قوله:

من تردّى برداء ... ما رآه لأبيه

سوف يأتيه زمانٌ ... يتمنّى الموت فيه

---

(1) العَيْر الحمار وغلب على الحمار الوحشيّ ج أعيار.

(2) القواطع: يقال سيف قاطع ماضٍ.

(3) والكَشْحان: الكَشْح ما بين الخاصرة والضلوع.

(4) الصّارم: يقال سيف صارم: قاطع.

ولله في خلقه شؤون، ولكنّنا نعرف أنّ الله خَلق النّملة لتكون نملةً لا نَسْراً، فإذا حاولت أنْ تقلّد النسر هلكت، وليس للشجرة وإن طالت أغصانها وكثفت أوراقها أنْ تصير غمامة سابحة في الفضاء!

في الشرق والغرب طائفةٌ كبيرة من الكُتّاب تواصل الكتابة كأنّها الآلات، مدفوعةً إلى ذلك إمّا صيانةً لمورد رزق وذلك بحكم العادة، أو خَشيةَ أنْ ينسى الجمهور أنّها في الوجود! فهي لا تأتي بالشّهيّ الطّيّبِ مرّة حتى تجيءَ بالآسِن الآجن[1] ألف مرّة.

فَكَمْ من كاتبٍ أو شاعرٍ يتمنّى أنْ تتاح له الفرصة ليمحو الكثير الكثير ممّا كتب أو نظم، وذلك بعدما أدرك أنّ كتابته ونظمه لا أثر فيهما لروحه ولا سِمَة عليهما من شعوره!

فلا غرْو، فالإنشاء صورة صاحبِه، وليس للأديب ذي النَّفْس المضنوكة والذّهن المكدود حظ في الأدب الرفيع الجيّد لفظاً ومعنًى..

إذن فالانقطاع عن العمل فترة بعد فترةٍ لا بُدَّ منه لكُلّ مشتَغِلٍ ولا سِيّما الكاتب، إذ إنّ في حرفة القلم إجهاداً عقليّاً وروحيّاً قد لا نجدهما لدى أصحاب الحرف الأخرى..

ها أنا اليوم (قال: أبوماضي) قد خرجت من عزلتي لا سَعْياً وراء الشهرة فإنّي لم أكن في حياتي ممن يجدّون في طلابها، ولا ابتغاء للثّروة فليس الثّرْوة مطمحَ أيّ أديب، ولكنها النّفس المسيئة أو المحسنة، لا أدري.. فهي لا تشعر باللّذّة إلاّ في التّعب، ولا تجد الأُنْس إلاّ في وجوه الأوراق الباردة الصّامتة.. ولا تُحِسُّ بالطرب إلاّ بعد سماعها لصَرير القلم.

---

(١) الآسِنُ: من الماء الراكدُ. والآجِنُ ما فسَدَ وتغيّرَ طعْمُه ولونُه.

أجَل قد رَجَعْتُ إلى حَوْمة الصّحافة لأنّي أحْسَب كُلّ يوم أنفقه في غير خدمة قومي وبلادي ولغتي ليس من عُمْري، بل أنا أعتبر الفَنَاء في أمّتي وجوداً، والوجود في غير أمّتي فَناء.. ولئن تُدْميني أشواكها أحَبّ إلى نفسي من أنْ يَنْثُرَ عَلَيَّ سواها الورود والرّياحين!

أنا لأمّتي ضاحكاً وباكياً؛ بل أنا لها ضاحكة وباكية..

إنّني سأظل بعدما قرّرت أنْ أخوضَ مُعْتَرك الصّحافة، أدعو إلى تحقيق الأماني التي يعود تحقيقها بالخير الجَزيل على أُمّتنا..

فهناك عددٌ كبيرٌ من الأدباء ذوي المَواهب الذين أجبرتهم مطالب الحياة ومُستلزماتها على الانصراف عَمّا خُلِقوا له، إلى الرّكض مع المواكب الرّاكضة وراء لُقمة العَيْش..

فإذا أُتيح لنا أن نكافئَ ذوي المَقْدِرَة من الكُتّاب، ولَو بمبلغ يَسير من المال، استطعنا أن نخرُج بالكثيرين من هؤلاء من الصّوامع التي لَزِمُوها لزوم المتزهّدين.

فلقد حان الوقت لكي نَجْزي أحدَهم جَزاءً مفيداً، وذلك من غير أنْ نُسمعه بعض العبارات الطّنّانة كقولنا له كلَما أحْسن وأجاد: "لا فُضّ فُوك" أو "لله دَرّك"[1] أو "طيَّب الله أنفاسَك".

أنّى يَزْدهر الأدَب ويكثر الأدباء في أُمّة لا تُشجّع أدباءَها، ولا تُقبل بدَوْرها على ما يكتبون..

أكْرِموا أُدباءَكم بأخذ ما يُعطون من أرواحهم..

---

(1) لله دَرّك: الدّرُّ اللّبَن أو الكثير منه. يقال دَرّ دَرُّه كثر خيره. ويقال في الدعاء عليه. لا دَرّ دَرُّه.

وسيكون للمرأة - وهي نِصف الأُمَّة الأفضل والأنبل - عندي النَّصيب الأوفر.. فلا حياة للأدب إلاّ بها.. فلولاها ما كان شاعر، ولا كاتب ولا فنّان، فهي في نظرنا روح الشعر، ولبّ الفَنّ، وسِرّ الموسيقى.

بهذه الرُّوح الوثّابة ذات المبادئ القويمة البنّاءَة سأمشي إِلى الأمام في حياتي.. وكل ذلك بمعاونة إِخواني وأصدقائي.. فإِنّني بإِذن الله بالغ الهدف الأسمى الذي أُنشده.

الثلاثاء ١٣ شباط ١٩٤٠

نصيحة صديق

لقِيتُ صديقاً لي، فما حيّيته حتى بادرني قائلاً:

سمعت أنّك ستُصدر مجلّة؟

قلت: إِنّ الأمْر لكَما سمعتَ.

قال: وبلغني أنّك ستصدرها مرّة في الأُسبوع.

قلت: هذا فكرٌ لم يخرج بعد إِلى حيِّز العمل.

قال: إِيّاك أنْ تفعل؛ لأنّك إِذا فعلتَ كانت مجلّتك عبارة عن جريدة.

فأنت بالطَّبْع تريد أنْ ترتفع بها عن مستوى الجرائِد، وتنأى بها عن أحاديث السِّياسة التي تشبه في تكرارها حكاية إِبريق الزَّيت..

حاولت أنْ أفتح شفَتَيّ بالكلام، ولكنّ صديقي قاطعني

قائلاً:

خذ هذه النَّصيحة من هذه الذَّقن " ومَرَّ بيده على ذقنه، كأنَّه يستنزل الوحيَ" فتكون في مأْمن من النَّدم، وإِذا كان لا بُدَّ من ظهورها غير مرَّة في الشَّهْر، فأصدرها ثلاث مرَّات..

كان صديقي يَبذل لِيَ النَّصائح في هذا الموضوع بلهجةٍ كلّها إخلاص وغيْرة وحَنان، كأنَّما المجلة له!

وكنتُ أُبالغ في الإصغاء لأقواله، إلاَّ أنِّي في الوقت نفسه كنتُ أُفكِّر في موعد عقدته مع أحد أصحاب المطابع، فقلت له:

شكراً لَك يا صاحب، سأرى ما يمكنني عَمَلُه.

قال وهو يودِّعني:

لا تَنْس أنَّك تريد أنْ تعطيَ النَّاس مجلَّة لا جريدة.

قلت: لن أنْسى..

بعد ساعة رآني صديق آخر فحَمِدَ الله لرؤيته إِيَّاي، بعد غياب طويل وقال:

لا تتوَقَّع منِّي أنْ استغرب رجوعَكَ إلى عالم الصِّحافة، فقد كنت أعلم من قَبْلُ أنَّكَ سترجع لأنِّي أُؤمن بالمثل الفرنسيّ المعروف: "من كتب فسيكتب". ثم سألني عن اسم المجلَّة وموضوعاتها، وموعد صدور أوَّل عدد منها، فَلَمَّا علم أنَّها ستصدر ثلاث مرَّات في الشَّهْر استهجن الرَّأْي، واستنكره، وقال:

في حياتي لم أسمع بمجلَّة تصدر ثلاث مرَّات في الشَّهْر. اسْمع يا صاحبي وكن حليماً: إذا شئتَ أنْ تعيش مجلَّتك فعليك أنْ تسير بها على ناموس النُّشوء والارتقاء؛ صغيرة أوَّلاً ثم كبيرة فكبيرة! مرَّة واحدة في

الشَّهْر تكفي، وإذا لم يكن بُدٌّ من الزيادة، فمرَّتين؟!

قلت: سأنظر في الأمْر!

قال: قد نصحتك لأنَّني أعلم أنَّ النّصيحة الآن في أوانها ولَكَ أنْ تختار لنفسك ما يحلو!

وكان قد حان الظُّهْر فدخلت إلى مطعم سوريّ، وهناك وجدت من نصح لي أنْ أُصْدِرَ جريدة بدل المجلّة، كما وجدت من ردَّد في مسمعي هذين البيتين:

تبّاً لعيش الكَتَبة	تبّاً له ما أصْعَبَهْ
تبّاً لعيش يُرْتَجى	من شقّ تلك القَصَبَهْ

وسمعت من يقول: إنَّ الشعب السُّوريّ لا يقيم لأُدبائنا وزناً. كما سمعت من يقول: إنَّ الصحافة في كساد. كما سمعتُ من يقول: إنَّ الشعب السُّوريّ في المهجر قد ارتقى كثيراً عن ذي قبل، وصار أكثر ولعاً بالمطالعة..

وكان لكُلّ قولٍ تأْثيره في نفسي.

على أنّي لمَّا رجعت إلى نفسي وبسطت تلك الآراء المختلفة أمامي ووازنت بينها، سمعتني أقول مع جُحَا:

إنَّ المرء لا يستطيع أنْ يرضي كُلَّ النَّاس.

قلت لنفسي: لماذا؟

قالت: لأنَّك إنسان!

نيويورك ١٥ نيسان ١٩٢٩

المرأة في الشعر العربيّ

أكثر ما يدور الشّعر العربيّ القديم على أغراض كثيرة أهمّها:

المرأة، والحرب، والخمر.

إذا علمنا أنّ العربيَّ لم يحارب إلاّ دفاعاً عن المرأة، أو الحمى الذي فيه المرأة. ولم يشرب الخمر إلاّ ليذكر المرأة أو ينساها.. لقد ثبت لدينا أنّ المرأة هي إنسان عين[١] الشّعْر وبيت قصيده[٢] وذلك منذ كانت بدويَّة تَمْحَضُ[٣] النّوق، وتَلْبَسُ العَباءَة، وتأوي إلى خيمتها في الصَّحراء، إلى أن صارت حضريَّة تَلْبَسُ الوَشيَ، وتسكن القصر، وتمشي تتكسَّر في مشيتها لرخاوة العيش. ولم يتمرَّس واحد بالشّعر في أيَّام الجاهليَّة وبعدها، إلاّ وصف المرأة، وشبَّب بالمرأة، ولكن على كثرة الشعراء ووفرة ما حاكوا من القوافي حولها، يدهشك أن تبحثَ عنها في قصائدهم فلا تجد غير دُمْية منحوتة مصقولة، قد تكون على كثير أو قليل من الجمال، ولكنَّها ليست على كثير من الحِسّ والشعور إلاّ في بعض مواقف الحُبّ، حيث تظهر المرأة على المسرح خائفة مُضْطربة كأنَّما خُلقَت لتكون سِرّاً مُضْمراً في خاطر الدَّهْر. تَقْرأهم - وهم الشعراء الذين دَقَّت أفهامهم، وصفت أرواحهم - فإذا المرأة عندهم إمَّا طَرْف كَحيل، وخدّ أسيل[٤]،

---

(1) إنسان العين البؤبؤ الّذي يُعطي العَين قدرتها على الرؤية. والمقصود هُنا أن المرأة جوهرُ الشّعر ومدارُه. المثال الذي يُرَى في السَّواد وجمعه أناسيُّ.

(٢) بيت القصيد: هو أهمُّ بيت في القصيدة (٧ أبيات على الأقلّ) لأنّه أجملها وأخصَرُ للمُبْتغي.

(٣) مَحَضَ: النّاقة: سقاها اللّبَنَ.

(٤) الأسيل: اللّيِّن الأملَس.

وشعر طويل، وخَصْر نحيل. وإمَّا بَدْر يضحك عن لؤلؤ[١]، أو غصن يَرْفُلُ في الخَزّ، ويمشي، ويتكلّم، أو ظبيةٌ تفترس الأُسود، وتشقّ بألحاظها القلوب قبل الجلود؟!

ثم تقرأهم وهم العُشّاق الذين لطُفَت مشاعرهم، وأنار الحبّ قلوبَهُم، فيشجيك منهم أنّهم لا يرَوْن في المرأة غير ما يراه منها شابٌّ جاهل ينظر إليها من زاوية الهوى العاني. فهي إمّا هاجرة تتجنّى، أو لا شيءَ فيها غير أنّها هاجرة تتجنّى يجب استعطافها، واستِرْحامها. وإمّا ممنوعة دونها الرُّقباءُ، فيجب ذمّ الرُّقباء، والشَكوى منهم. وإمّا دانية مطاوعة، ولا شيءَ غير أنّها دانية مطاوعة..

أمّا قلب المرأة وما فيه من الأحاجي، والأسرار..

وأمّا وجدان المرأة وما فيه من الأشواك، والأزهار، والآصال والأسحار..

وأمّا عواطف المرأة، وهي تيّار يتكَشّف عن تيّار..

وأمّا نَفْس المرأة وما فيها من نور ونار.

وأمّا المرأة نفسها؛ وهي ذلك الكائن العجيب الجبّار.

فليس لها أثرٌ بيِّن في الشِّعر العربيّ، منذ كان حُداءً، وخَبَباً، ورَجَزاً[٢]، إلى أن صار قصائد ومُوَشّحات على كُلّ وزنٍ ولحن.

ولا غرابة في انصراف الشعراء قديماً عن كُلّ ما في المرأة من المعاني إلاّ ما تناله أبصارهم منها. لقد جاء عليهم دَهْرٌ لم تكن المرأة فيه أعلى

---

(1) لؤلؤ: استعارة مصرّحة للأسنان الجميلة.

(2) الحُداء: غناءُ سائقِ الإبل. الخبَب: نوعٌ من العَدْو للفرَس. والرَّجَزُ: ما يَحْدو به الحادي شعراً وزنُه "الرَّجز".

من بقرة الوَحْش التي شُبِّهت بها من بَعْدُ. ثم كان عهدٌ كانت فيه عاراً يجب أنْ يطمس ولو بدماء الجريمة. وتلاه زمنٌ قُضي فيه على المرأة أنْ تكون إحدى اثنتين: إمَّا قينةً تُختَزَن، أو قينة تُشرى وتباع..

ويستطاع القول: إنّ المرأة التي عرفت الشِّعر العربيّ هي التي يمكن أنْ يقال عنها إنَّها جميلة.

أمَّا المرأة في أدوارها الأُخرى؛ في طفولتها، وكهولتها، وأمَّا البنت والأُخت والأُمّ والزَّوجة، فقد خلا الشعر العربيّ منها إلاَّ قليلاً، لا ينقع غليلاً[1].. حتى إنّ حَظّ النَّاقة العَجْماء[2] كان في هذا الوجه أكبر من حَظّها.

تلك خطّة لم ينفرد بها الشُّعراء الأقدمون وَحْدَهُم، بل كان الرجال كُلُّهم كالشُّعراء من حيث تجاهل وجود المرأة، والجهل بأسرار نَفْسِها، تجهل ما فيها من قوَّة، ولا تفهم ما لها من حَقّ.

ولَعلّ ذلك مَنشأُه أنّ "البَيْت" بمعناه المعروف اليوم، لم يكن له أثرٌ في تلك الأزمان، وإنَّما كان للمرأة مجرَّد خِباء تُستَتر به عن الرِّجال. أمَّا الرَّجل فكان يأوي إليه في آخِر النَّهار بعد سَفَرٍ أو معركَة أو مساجلة، ليخفّف عن نفسه عناءَها، كما يذهب الرَّجل اليوم إلى المقهى أو النَّادي للتلَهّي..

وكيفما علّلنا هذا الأمر، فإنَّنا نرى في الشِّعر العربيّ القديم صورة صادقة للزَّمان الذي قيل فيه، ولا يُعَاب شعرهم على ما فيه من الفراغ الهائل من هذه النَّاحية..

---

(1) نَقَع: سكَّنَ حرارةَ العطش.

(2) العَجْماء: البهيمة لأنّها لا تتكلّم.

فالمرأة لم تكن إلاّ كما صوّروها، وإذا كانوا قد اقتصروا على ناحية واحدة منها، فلأنّ النّواحي الأخرى لم تُسْفِرْ لهم عن وجوهها. وأمّا الذين يحقّ لنا أن نلومهم منهم، الشعراء العصريّون الذين ما برحوا يصوّرون المرأة في شعرهم على ما بلغت وبَلَغوا هُمْ من الحضارة كما كان يصوّرها شعراء الجاهليّة، وغيرهم ممن جَرَوا وركضوا في ميدانهم، فإنّها لا تزال عِندهم تلك الدُّمْيَة الحسناء: وجهها قمرٌ، وقدّها غصن بلا ثمر، وأسنانها دُرَرٌ.. إلخ.

ويُحْزِنُكَ أنْ تجدَ من النّاس من يطرب لوصف وجه المرأة بالقمر، وتشبيه قدّها بالخيزُرانة وجبينها بالفَجْر، وأن يردّد عند سماعة هذه الأوصاف في دهشة وإكبار القول المأثور "إنّ من البيان لَسِحراً".

إنّ المرأة أكثرُ من وجهها وشعرها، وخدّيها، وثغرها، وجيدها ونَحْرِها، وقامتها، وخصرها، فوراء هذه كُلّها ألوف مِنَ الصُّوَر الجميلة التي لا عُذْر للشاعر إذا هو لم يتبيَّنها، ولا فضل له إذا هو رآها ولم يصّورها لمن لا يراها، فليس أَحَقّ من الشعراء بالتّنقيب عَمّا في نفس المرأة وقلبها من الكنوز الثمينة. فإذا لم يفعلوا وهم الأمراء في مملكة الأرواح، حقّ للنّاس أنْ يثوروا عليهم ثورة هَوْجاء تدحرجهم عن عروشهم، لأنّهم لم يحسنوا سياسة مملكتهم:

"وكُلّ من لا يسوس المُلْكَ يَخْلَعُهُ"

كما قال ابن زُرَيْق البغداديّ.

وَلَعَمْرُ الحَقّ، أيّ خيال هذا أنْ يقول شاعرٌ تقدَّمَك بألف سنة: إنّ وجه المرأة كالقمر، فتقول أنت: إنّ وجهها هو القمر. وأنْ يزعم أنّها

تضحك عن بَرَدٍ نَظيم[1] فتردّد أنت هذه الاستعارة كأنّك الصّدى..

أليس من الغَبْنِ على المرأة أنْ تبقى حقيقتها مجهولة في الشّعر العربيّ الذي وَسِعَ كُلّ شيءٍ ؟

أليس من الغَضَاضة على الشعر العربيّ أنْ لا يشتمل مِنَ المرأة إلاّ على ظاهرها؟

لقد تبوّأت المرأة مكانها في الشّمْس، فيجب أن تتبوّأ مكانها اللائِق لها في الشعر أيضاً.

١٥ نيسان ١٩٢٩

بُكْـــــرَة!

إذا قال الأميركيّ "بُكْرَة" فمعنى ذلك النّهار التّالي. أمّا إذا قال السوريّ بُكْرَة، فيكون معناها كُلّ نهار يجيءُ بعد اليوم ولو جاء بعد عشرين سنة..

كنتُ مرّة في زيارة عائلة لها ولد عمره ستّ سنوات، واتّفق وجود عدد من الزُّوّار في ذلك المترل من سيّدات ورجال، فلم يكد الولد يَظْهر على المَسْرح حتى أَخَذ كُلّ واحدٍ من الحضور يعجب بذكائه ونباهته، وهو لم يقل ولم يفعل شيئاً بَعْدُ! ولم يعجب أحد بِمَلاَحته، ولعلّ ذلك لأنّه مثل أبيه في الصورة لا مثل أُمّه!

وجاءَت الأمّ مرحّبة بالضّيوف، فأخذت الدّعوات الصّالحات تتدحرج من أفواه النّساء: الله يخلّيه.. الله يحميه.. الله ينمّيه.. الله يحرسه..

---

(1) البرد النّظيم: استعار حُبَيبات المطر المتجمّدة لأسنان المرأة المنتظمة النّاصعة.

حتى كدت أحسَب نفسي جالساً في إحدى حلقات الذّكر لأصحاب الطّريقة الشّاذليّة[1] في مصر..

ورأى السّادة أن يجارُوا السّيّدات في هذا المضْمار، فانفتحت أفواههم وتدفّقت منها عبارات الثناء والإطراء على أمّه، وأبيه، وعَمّه، وخاله، وجَدّه لأمّه، وجَدّه لأبيه وسائر الأهل والأنسباء في الوَطن والمَهجر. وكأنّ الأمّ خشيت أنْ تغرق في سيول الدُّعاء والثّناء، فرأت أنْ تصرف عنها الخَطَر بالتّحوُّل إلى موضوع آخَر. فقالت بعد أن بادلتهم الدّعاء لأولادهم والثناء على آبائهم، وأمّهاتهم، وأجدادهم: "بحكيلكم الصَّحيح، ما بيرْبى جسم حتى يبْلى جسم". وبانت على وجهها في تلك اللحظة آثار التّعب والهَمّ. وكذلك على وجه الأب، فأخذت كُلّ أمّ تشرح همومها، وكلّ أب يصف الأعباء التي على كاهله.. حتى تضايق كُلّ واحد من نفسه، فقال أحدهم مخاطباً الأب: لماذا أنت عتلان الهمّ، بُكرة بيصير المحروس شاباً..

وقالت سيِّدَة مخاطبة الأمّ: العمر مِثْلُ بَصَرِ المَنام، فتّحي عين وغَمّضي عين ما بتشوفي ابنك إلاّ صار رجّال!

فَكَبَسَت الأمّ شفتيها على ابتسامة اعتزاز بابنها، كأنّ السّنين انطوت في تلك اللحظة، وصار ذلك الولد رَجُلاً.. ولزم الأب الصّمت حيال ما قالوه، ليفهم القوم من سكوته أنّه يعرف قَبْلَهم الحقيقة.. التي فاهوا بها، وهي أنّ ابنه بُكْرة بيصير شاب..ولم يجد الزُّوّار بعد ذلك ما يتحدّثون به، فنودي على ورق اللّعب، وداروا بالطّاولة، وانقسموا فريقين: لاعِبٍ ومتفرّج.. وصارت الدُّنيا كُلّها عندهم في وُرَيْقَة تُطْرح، وورقة تُلَمّ..

---

(1) الشّاذليّة: طريقة صوفيّة نسبة إلى المَغربيّ "أبي الحَسن الشاذليّ" (ت ٦٥٦ هـ/١٢٥٨م). عاش في تونس وتوفّي في مصر.

فأمّا الولد الذي سمع الحديث ووعاه جيّداً لأنّه كان عنه، فلم ينسَ ما قالوه، فمضى إلى الغرفة الأخرى وكان فيها بعض أولاد الجيران الذين جاؤا ليلعبوا معه، فلمّا رآهم بادرهم قائلاً لهم في كبرياء: "أنا بوكره لن ألعب معكم"، فاستغربوا لهجته فسألوه: لماذا هل أنت مسافر عنّا، أم ستأخذ شربة زيت خرْوَع؟

فقال لهم وهو يبتسم: لا، ولكن سأصير بُكْرة شابّاً لي شوراب مثل أبي.. وألبس بنطلوناً طويلاً مثل عمّي.. واذهب إلى كُلّ مكان في اللّيل مثل زوج جارتنا!

فأجابه أحدهم وقد تحرّكت الغَيْرَةُ في قلبه: أنا سأصير شابّاً قبلك لأنني أكبر منك؟

ولَمّا رأوه لا يصدّقهم، ويريد منهم أنْ يصدّقوا أنّه سيصير بكْرة أكبر منهم كلّهم، أخذوا يتغامزون عليه ثم انصرفوا، وكُلّ واحد منهم يتوعّدُه بأنّه سيصير شابّاً قبله..

وكان اليوم التالي فنهض الولد من فراشه، وبعد أنْ تطلّع في المرآة نادى أُمّه، وقال لها: لماذا يا أُمّي لم أصِر شابّاً في هذا الصَّباح كما قال الذين كانوا عندنا أمْسِ!؟

فضحكت الأمّ طويلاً وقالت له: بُكْرة بتصير!

إيليــا

٣ تموز ١٩٣٥

تحت التوتة

أنا الآن جالس في ظلّ توتة متهدّلة الأغصان، مثقلة بالثّمر القاني الذي يتوهّج في الشّمس كأنّه فُصُوصٌ من عَقيق[1]. هي توتة جميلة كائنة وراء منزل صديقي وجاري في الوطن شكري أبي صالح، القائم على هَضبة عالية كثيرة الحَرّ مكشوفة النّواحي للشّمْسِ والهواء..

لم أجلس تحتها للتأمّل والنّجوى كما فعل "بُوذا" الصّالح، إذ لم يكن في ذهني موضوع ولا بَذْرة موضوع.. ولكن يظهر أنّ القُعود في ظلّ الشّجر يُنبّه الفِكر ويدفعه، فيتحرّك ويَسْري. وغير كثير ولا غريب أن أقول إنّ أكثر ما يكون الفكر حادًّا في العمل هو عندما يكون الجسم ساكناً هادئاً.. فأنت لا تفكّر وأنت سائر. إلاّ في دائرة مَحْدودة.. أمّا إذا استلقيت على ظهرك أو تمدّدت على الشاطئ وكنت وَحْدَكَ، خرج بِكَ الفِكْر من الدّوائر المحدودة، وسار بِكَ إلى دوائر لا حُدُودَ لَها.

ولو أنّا استطعنا أن نُدوّن على الوَرَق ما يقوم به العقل الباطن من الأمور ونحن نيام، لاجتمع إلينا نتاجٌ أروع وأعظم حدّاً من نتاج العقل في اليَقَظة، ولكنّنا لا نثبت من الأحلام إلاّ القليل؛ لأنّنا نؤمن بالأحلام، ولا نأبه لها إلاّ قليلاً.. كانت التوتة في نظري عندما أويتُ إليها شجرةً كسائر الشّجر الذي يأنسُ المرء به لخضرة أوراقه، ونُضْرَةِ فروعه، وجمال شَكْله، ووارف ظلّه. إنّما لبعض الشّجر في بعض الأماكن شأنٌ عظيمٌ في حياة البلاد والعباد، كشأن الملوك الصّالحين، والحكّام العادلين، والزّعماء المصلحين، والمخترعين المبدعين. ويظلّ لهذا النّوع من الشّجر المبارك أثرُه الطّيّب في النّفوس والجسوم، وإن تعرّى من أوراقِهِ، وتجرّد من ثمره، بل

---

(1) العقيق: حجر كريم أحمر يعمل منه الفصوص، والفَصُّ: حجرٌ كريمٌ يركّبُ في الخاتم.

يبقى شجراً كريم الذكرى ولو اقتلعته يد الأيّام من أصوله، وخلا منه مكانه..

وهذه التّوتة الّتي ترفّ عَلَيّ غصونها اللّدنة في هذا الشّجر المبارك، هي كذلك عندي على الأقلّ، ولعلّها كذلك في نظري لأنّها ترجع كما أرجع بنسبتي إلى وطن آخر غير الوطن الذي أنا وإيّاها فيه الآن.

إنّها مهاجرة مثلي، ومثل صاحب الدّار الذي يكلأها ويرعاها، لا للخير الذي يرجوه عندها بل لِما للتّوت الذي صحبَهُ في طفولته من الذّكريات الجميلة في ذهنه.

فإذا كانت هذه التّوتة تَمُتُّ بقربى ولو بعيدة إلى التّوت اللّبنانيّ، فيكون من حسن حظّها أنّها انتهت إلى حِمَى رجل لبنانيّ حفظ للتّوت عهده، ويرعى حرمته؛ لأنّ الأميركيّين لا يقيمون للتّوت وَزْناً، ولا يعرفونه إلاّ في الكُتُب أو بالسّماع..

بما أنّني أنا والتّوت غريبان في هذه الأرض، فلا عَجَبَ إذا وجدتُ في ظلّها أُنساً واغتباطاً..

ولا غرابة إذا وقف فكري عندها وِقْفَة إجلال وإعظام، فهي الآن ذاتُ فضل عليّ كما كانت ذات فضل كبير على بلادي وأهلها أزمانا طويلة.

فمنها كان الصّغار يأكلون، ومن أوراقها كان الجميع يلبَسون، فهي في لبنان ثالثة الشّجرات المباركة، أمّا الشجرتان الأُخريان فهما: الكَرْمة، والتّينة.

ولعلّ التّوتة هي الشّجرة الّتي يستفيد النّاس من ورقها أكثر مِمّا يستفيدون من ثمرها. يأكلون ثمرها فيتحوّل إلى قُوَّة ونشاط في أبدانهم، ويأكل دود القزّ ورقها فيصير على الأبدان ثياباً من حرير.

ولكنّ هذه الشجرة المباركة اندثرت في لبنان كما اندثرت شجرة الجوز في ولاية كنكتكت، لأنّ الحرير الصناعيّ قد تألّق من أوروبا على أرضها كالسّيل العرم، وعجزت دودة القزّ الضّعيفة عن أنْ تباري الآلات التي لا تتعب، فانهزمت أمامها شرّ انهزام!

ورأى اللبنانيّون بعدما غمرهم ذلك التيّار أنْ يذهبوا معه، فأخذوا يقتلعون من الحقول التوت الذي زرعه آباؤهم وأجدادهم، ليزرعوا مكانه التفّاح والخوخ وغيرهما من الفاكهة. وهكذا كافأوا الشجرة - شجرة التّوت التي كانت تطعمهم وتكسوهم - بأن قدّموها أخيراً طعاماً للمواقد!

ولو أنّهم تروّوا قليلاً وفكّروا مليّاً، لاستطاعوا أنْ يحوّلوا التوت إلى شجر مثمر كالتفّاح والخوخ والدّراقين، ولو فعلوا لاستفادوا منه أكثر ممّا يمكن أنْ يستفيدوا من هذه الأشجار، فإنّ ثمر التوت أشهى من ثمر العُلّيق الذي له في أميركا تجارة عظيمة رائجة ذات ربح وفير..

فتوْتة واحدة تثمر أكثر من ألف غرسة عُلّيق، وإنّما كان الأجدر بقومنا أنْ يستثمروا التّوت كما استثمر الأميركيّون العلّيق على الأقل بدلاً من أن يقلعوه، ويحكموا عليه بالاندثار والزّوال..

فهم يعلمون أنّ كُلّ بقعة من سوريا وفلسطين تقدر أنْ تزاحم بفاكهتها فاكهة لُبنان لغزارة الماء فيهما.. وقلّة الماء فيه، فتربتهما صالحة لزراعة الفاكهة أكثر من تربة لبنان، وأمّا التّوت فهو غير موجود في تلك الأصقاع كما هو موجود في لبنان، وليس من مصلحة أيّة بقعة في الأرض الاستغناء عن التوت بأنواع أخرى من أنواع أشجار الفاكهة.. فلقد أخطأ اللبنانيون باستبدالهم شجر التوت بغيره من الأشجار اليانعة المثمرة.. فلو أنّهم فعلوا ذلك لأوْجدوا في القطر السّوريّ فاكهة جديدة؛

ولكل جديد طلاوة، سَواءٌ كان ثمراً أو حجراً.. هذا الذي انتاب خاطري وأنا جالس في ظلّ تلك التُّوتة الوادعة المتواضعة.. فدَوَّنته على القِرطاس! وكيف يمكن أنْ تحتفظ شجرة التوت هذه بهشاشتها وبشاشتها بينما الفؤوس في لبنان قد بدأت تجندل التُّوت.

وفي النِّهاية يمكننا أنْ نقول إنّ من حَظّ هذه التُّوتة أنّها لا تَعْقِلُ، لذلك فهي ستظلّ هانئة، طروبة، خليَّة البال، ولن يستطيع أن يكدِّر خاطرها مكَدِّرٌ أو حسود، أو مفترٍ من الذين يتربصون الدَّوائِر بالتُّوت ليحرموا منه أرض لبنان!

٣ تموز ١٩٣٥

الحرِّيَّـــــة

قدّسوها، عبدوها، شادوا لها الهياكل الفخمة، نصبوا لها التماثيل والأنصاب المنحوتة، وصوَّرها الرَّسَّامون في ألواحهم فتاة حسناء شامخة الرَّأس مكلَّلة بالمهابة والجلال، ومثَّلها الشعراء في قصائدهم وأناشيدهم عروساً ممنطقة بالنُّور، وتصوَّرها الكثيرون إلهةً لا يطلع الجمال إلاّ من حيث تطلع، ولا تكون الحياة الهانئة إلاّ حيث تكون.

أهي حسناء تُحبّ وتعشق؟

أمْ ربَّةٌ تُبنى لها الهياكل وتُعْبَد؟

أهي صورة، أم تمثال، أمْ فكرة؟

أهي كما نصوّرها، ونتصوّرها، أم تختلف عَمَّا نصوِّر ونتصوَّر؟

جلستُ إلى نفسي أعرض مواكب الأجيال أمامي؛ من المواكب المغمورة بالضَّباب إلى المواكب المغمورة بالدَّم، إلى المواكب المغمورة بالنّور، فلاح لي أنَّ "الحريَّة" كما نصوّرها ونتصوَّرها غير موجودة إلاَّ في مخيّلاتنا..

في أوسع البلدان حريَّة عبوديَّة ظاهرة أو مستترة..

وفي أشدّ الممالك استبداداً حريَّة واسعة إمَّا ظاهرة، وإمَّا خفيَّة..

في الأُمم المنحطَّة تستبدّ الأقليَّة بالأكثريَّة، والأقليَّة في الأمم المنحطَّة هم أصحاب الأَمر والنَّهي؛ قد يكونون أُمراء، أو زعماء، أو ملوكاً، أو سلاطين..

وفي الأُمم الرَّاقية تتحكَّم الأكثرية بالأَقليَّة، وترغمها على العمل بمشيئتها. وبعبارة أُخرى إنَّ النَّاس - مذ كانوا- فريقان: حاكم ومحكوم. وما دام هناك فرد يحكم جماعة، أو جماعة تتسلبط على جماعة، فالحرِّيَّة غير موجودة، أو على قدر ما نتصوَّر أنَّها موجودة..

الحرِّيَّة من الأشياء التي يصعب بل يستحيل تحديدها، لأَنَّ صورتها في الذّهن تختلف باختلاف الحالة التي يكون عليها الفرد أو الجماعة. وعندي أنَّ الحرِّيَّة التي يمكن تحديدها ليست حُرِّيَّة، ولكن جُهْدَ المرء في تعريف الحُرِّيَّة التي نتصوَّر وجودها، هو أنْ نقول إنَّها حالة نفسيَّة نسبيَّة، تتَّسع وتضيق تَبَعاً لمُشْتَهياتنا ورغائبنا، وتبعد أو تَقْرُبُ وَفْقاً لحاجاتنا وميولنا..

يتوهَّم المستخدم في محل تجاريّ أنَّ الحرِّيَّة في أنْ يُنشئَ لنفسه محلاًّ تجارياً يكون فيه الآمر والنَّاهي. ولكن إذا نظرنا إلى هذا المستخدم في المحلّ الذي أنشأه لنفسه، نجد أنَّه حصل على كثير من الاستقلال، ولكنَّه لم يحصل على شيءٍ من الحرِّيَّة.

لقد كان - وهو مستخدمٌ - مقيَّداً بإرادة فرد هو صاحب العمل، وكان - وهو تاجر - مقيّداً بإرادة جماعةٍ هم العملاء والزّبائن. كان يترضّى فرداً، فصار يترضّى جمهوراً.

وكان يخدم سيِّداً واحداً فصار يخدم عشرات، لا بل مئات من الأسياد. وهو فوق ذلك يستمر لمصلحته مستخدماً أو أكثر؛ فهو غير حُرّ لأنّ الحُرَّ الحقيقيّ لا يرضى أن يسلب غيره حرّيّته أو يبتاعها منه..

ويتصوَّر الشّاب، وهو في حضانة أمّه أو وصاية أبيه، أنّ الحرّيّة في الانفلات من تلك الحضانة أو الوصاية، ولكنّه يخرج من قفص صغير إلى قفص أكبر.. وما القفص الأكبر سوى البيئة أو المحيط؛ فهو مضطرٌّ إلى مجاراة الوسط في عاداته وتقاليده، كما كان مضطراً وهو في البيت إلى التّقيّد بإرادة أمّه وأبيه..

لا يستطيع هذا الشّاب - إذا كان مُسْلِماً- أنْ يدخل إلى الجامع منتعلاً؛ لأنّ المسلمين يدخلون إلى الجامع حفاة الأقدام. ولا يستطيع - إذا كان مسيحيّاً- أنْ يدخل إلى الكنيسة حافي القدمين لأنّ المسيحيين يدخلون إليها وأحذيتهم في أرجلهم. وليس له سواء كان مسيحياً أو مسلماً أنْ يدخل إلى الكنيسة أو الجامع مقهقهاً معربداً، لأنّ القوم يدخلون إليهما محتشمين خاشعين.

وربّما كان - وهو مسلم - لا يرى بأساً في الدُّخول إلى الكنيسة للصّلاة لأنّ الله موجودٌ في كُلِّ مكان، ولكنّه لا يفعل؛ لأنّ النظريّة السّائدة في الوسط تعتبر عمله نُكْراً وشذوذاً.

وربّما كان - وهو مسيحيّ - يرى الدّخول إلى المخدع أقرب سبيلاً إلى مناجاة الكاهن الكائن الأعلى. ولكنّه يذهب إلى الكنيسة؛ لأنّ العادة هي أنْ يذهب النّاس إليها للصّلاة..

وقِسْ على الكنيسة والجامع وغيرهما من الأمور والأحوال..

إنَّ هذا الشَّاب لم يخرج إلى الحرِّيَّة بل انطلق من عبوديَّة محدودَة إلى عبوديَّة غير محدودَة.

وتعتقد الأُمَّة التي أرهقها حكّامها أنَّ الحرِّيَّة في التَّخلّص من أولئك الحكّام المستبدِّين، فتَنتَفض عليهم، وتدحرجهم عن عروش السِّيادة، وأرائك السُّلطة، فتتخلَّص من شرِّهم، وتحصل على نوع من الرَّاحة، ولكنَّها لا تحصل على الحرِّيَّة؛ لأنَّها لا تلبث أنْ تضع على تلك العروش والأرائك حكّاماً آخرين متوَّجين أو غير متوَّجين، وتقيِّد نفسها بطاعتهم، وتُقْسِم لهم يمين الإخلاص والوفاء. ويرى الشعب الذي استولى الأجانب على دياره وتسلّطوا عليه، أنَّ الحرِّيَّة في طرد أولئك الأجانب من أرضه. ولكنَّ الشعب المحكوم من الغرباء لا يكون إلاَّ ضعيفاً، فإذا استطاع أنْ يطرد الأجانب من دياره لم يسهل عليه أنْ يطرد نفوذهم السياسيَّ والاقتصاديّ. وإذا تمكّن من الاستقلال في إدارة شؤونه الدَّاخليَّة فلا يتسنَّى له أنْ يكون مستقلاً في إدارة شؤونه الخارجيَّة، فتراه يُسَلِّم مكرهاً ويحارب مكرهاً كما جرى لبعض الشعوب الصَّغيرة المستقلّة في الحرب الكبرى..

لا توجد حُرِّيَّة بالمعنى المتبادر إلى الذِّهْن من الكلمة، وإنَّما توجد حالة من القوَّة يأمن معها صاحبها الأذى فيزعم أنَّه حُرٌّ.

فالحرِّيَّة إذن نوع من الأمن على النَّفس والمال، ولكنَّ هذا الأمْن الذي ندعوه حُرِّيَّة غير ثابت ولا دائم، ولا يأتينا عَفْواً، بل لا بُدَّ لنا أنْ نضحِّي في سبيله بالشيءِ الكثير من حرِّيتنا للحصول عليه إذا كان مفقوداً، وللاحتفاظ به إذا كان موجوداً.

إذا اشتبكت الدَّولة في حرب فإنَّها لا تلبث أنْ تصادر النَّاس في حرِّيتهم، فتسوق القادرين على النِّضال إلى حومة الوَغى، وتفرض الضَّرائب على التجَّار والصُّنَّاع والفلاَّحين الذين لم يذهبوا إلى الحرب بَعْدُ.

هكذا، توضع الحرب على الرَّفّ وتصبح ملايين الأدمغة بلا إرادة تفكِّر كما تفكِّر بضعة أدمغة في البلاد! وتمشي ملايين الألسنة لا تقول غير الذي يقوله أولئك الأفراد المعدودون الذين يديرون شؤون الأُمَّة..

أرْقَى الأُمم في هذا الباب مثل أدناها، وأضعفها مثل أقواها. الحُريَّة سرابٌ خدَّاع، بل هي أكبر وَهْمٍ في العالَم، ولا يضحكني شيءٌ مثل الاعتقاد بأنَّ المرء يولد حُرّاً؛ كأنَّما هو يأتي إلى هذا العالم بملء إرادته!

أين حرّيته؟ أفي الأقمطة التي تلفّه بها القابلة حتى يصير كأنَّه مومياء مصريَّة، أم في السَّرير الضَّيِّق الذي يُحْشَر فيه كالنَّاووس[1]، أم في الغرفة التي يظلّله سقفها وهو يتساوى فيها مع الأمتعة التي لا تَعْقِل، أمْ الحرِّيَّة التي يزعمونها فيما انتقل إليه من آبائه وأجداده من الغرائز والنَّحائز[2] التي تكوَّنت فيه مع دمه وهو جنين في عالم الظُّلمة، أم هي فيما يلقّنه إيَّاه أهله في البيت، ويتلقَّاه عن أساتذته في المدرسة من العقائد والخصال والأطوار وهو طفل وجهه كالعجين؟

فالإنسان في أيِّ مكان يظلّ عبداً إمَّا لمحيطه أو للغرائز الوراثيَّة الكامنة في نفسه أو لعوامل الطّبيعة.. فأنت عندما تحيِّي صديقك بإحناء الرَّأس أو هزِّ يده تظنّ أنَّك تفعل ذلك من تلقاء نفسك؛ بلا وحي ولا إغراء ولا أمْر. ولكنَّ الحقيقة هي أنَّك أسير تلك العادَة التي اقتبستها من

---

(1) النّاووس: حجَرٌ منقورٌ تُجعَل فيه جثّةُ المَيت.

(2) النَّحائز: والنَّحيزة الطبيعة.

بيئتك؛ فلو كنت ولدتَ في قومٍ أحدُهم يحيّي أحدهم الآخر عند اللّقاء برفع اليدين في الهواء لكنت تفعل كما يفعلون. ولو ولدتَ في قوم يحيّي أحدهم الآخر بالتّفل على الأرض لكنت تَتْفُل على الأرض كلّما قابلت صديقاً لك. إذا أحببت خِلْتَ أنّك أحببت لأنّك شئت أنْ تحبَّ، وأمّا الحقيقة فهي أَنَّ الميل الجنسيّ غريزة فيك وأنت عبد لهذه الغريزة. وإذا غضبت ومالت بك النّفس إلى الانتقام خلت أنّك تغضب لحقّ يهان أو تنتقم من زائغٍ أو مُسيءٍ ولكن الحقيقة هي أنّ البطش غريزة فيك وأنت عاجزٌ عن استئصال هذه الغريزة مِنْ نفسك..

في الشّتاء تَلْبَس الفَرْوَ وتتباهى ناسياً أنّ الطّبيعة هي التي أرغمتك على اتّخاذ الصوف والفرو لباساً، فخضعت لأمرها صاغراً.. وفي الصَّيف تنزع الصُّوف والفرو وتُعرِض عنهما كأنّهما الأذَى أو المرض، فما أنت الذي شئْت ولكنَّ الطّبيعة التي سلّطت عليك الحَرَّ هي التي شاءَت..

القيود الاجتماعيَّة كالقيود الطّبيعيَّة يرسف بها المرء في ليله ونهاره، ولكنّنا ألفناها لطول العهد بها فصرنا لا نُحسُّ بأنّها قيود.. يقول العامل في نفسه: أنا حُرٌّ .. أذهب إلى عملي في الصَّباح فلا يعترضني أحد، وأعود إلى منزلي في المساء فلا يتعرَّض لي أحد! أجل، لا يجرّ أحدنا العامل بالحبل من منزله.. ولا يسوقه آخرُ بالعصا.. ولكنه يسعى وراء الدّولار الذي في جيب صاحب المال.. فالدّولار هو الحبل الخَفِيّ الذي يشدّه من سريره في الصَّباح، أمّا القوّة التي ترجع به في المساء إلى المنزل فهو المنزل نفسه؛ فالمنزل خشباً كان أو حجراً، هو الحاكم المتسلّط على ساكنه..

ويقول صاحب العمل: عندي المال الذي أسخّر به الرّجال، فأنا حُرٌّ بل أنا سلطان. بالرغم من كوني محروماً من تاج على رأسي، وإنّما كوني سلطاناً غير متوّج، لا يجبرني على الاعتقاد في نفسي أنّني حُرٌّ..

إنّي أذهب إلى مصنعي في الصّباح وأعود في المساء كما لو كنت عاملاً مأجوراً. فأنا إذن عبد مالي وعبد عُمّالي!

قد يتوهّم القارئ أنّ الحرّيّة في الانفلات من المدينة والخروج إلى القَفْر، والاعتزال في جبل أو وادٍ كالنّاسك.. هذا التّوَهُّم من جانبي لا يؤدّي إلى الحرّيّة، فالنّسّاك أنفسهم لا يمتازون في هذا الوجه عن أشدّ النّاس ارتباطاً بالمجتمع.. الإنسان أسير الحياة ما دام في الحياة، وهو أسير نفسه أينما كان! فإذا لم يكن عبد عذابه فهو عبد افتتانه، وإذا لم يكن عبد إيمانه فهو عبد شكوكه. وإذا لم يكن عبد رجائه فهو عبد قنوطه. وإذا لم يكن عبد الطُّمأنينة فهو عبد القناعة..

ليس في الأرض حُرّيّة، وإنّما سجن أوسع من سجن، وأسْر أهونُ من أسْر.

والله أعلـــم.

إيليا أبو ماضي

١١ أيلول ١٩٣

كُنْ مفيداً[1]

ما طائرٌ كان تائهاً في قفرٍ موحشٍ سحيق، يحلّق ويحوم في الفضاء فلا يجد غيرَ الغيوم الدَّكناء، ويهبط إلى الأرض فلا يلقى في الصَّحراء غير الرَّمضاء المُحْرِقة، والرِّمال الخَرساء! ويُطلِق أغاريده وأناشيده، فيضيع بين الأرض والسَّماء.

ما طائر كهذا ساقه القَدَر المساعف بعد الجهد والعَناء إلى بستان جميل، فاستقرَّ بعد القلق، واطمأنَّ بعد الاضطراب، لأنَّ وجود الماء الذي يرويه، والحَبّ الذي يغذّيه، والظّلّ الوارف الذي يقيه ويحميه خرَّف، وسرح، وغنَّى، وصَدَحَ..

ما هذا الطَّائر الذي وصفتُ بأسعد منِّي عندما نقلني القدر المساعف من بين المحابر السَّوداء، والأوراق الخرساء، والكتب الصَّامته كالزَّاهدين. فجئتُ إلى هذه النَّواحي لأُمتِّع النَّفس بربيعَين؛ ربيع سيزول ويمضي، وربيع لن يزول أبداً. أمَّا الأوَّل فهو الذي قد تهيَّأ للرَّحيل، وسيلفظ أنفاسه الأخيرة عَمَّا قليل.. وأمَّا الثاني فهو ربيع العواطفِ الجميلة التي كانت وستبقى عندي أجمل من الزَّهْر وأشهى، وأحلى من الماءِ الزُّلال وأطيب.

فأنا اللَّيلة أرفع صوتي شاكراً للحياة حسنالها عندي، وشاكراً لكم ولأبناء وطني الذين لقيتهم ما قاموا به نحوي، ونحو مجلَّة "السَّمير" التي جعلتها رسالتي إليهم كما جعلتها رسالة المهجر إلى العالم العربيّ.

[1] الخطاب الذي ألقاه صاحب مجلّة "السَّمير" في مدينة كانتون – أوهايو في الاجتماع الذي دعت إليه الجالية الكريمة.. وفي العدد القادم كلمة خاصَّة عنها.

هذه أوَّل مرَّة أزور فيها مدينة كانتون الرَّحْبة الأسواق كصدوركم، الضَّاحكة السَّماء كثغوركم، الغنِّية بالمحاسن كنفوسكم، ولَكِنَّ قولي أنا: هذه أوَّل مرَّة أزور بها كانتون، لا يعني أنِّي غريبٌ عن الجالية بها!

أنا لم أَعِش في أدَبي لبلَدٍ دون بَلد، لجالية دون أُخرى، بل لأُمَّتي أجمع؛ المهاجر فيها والمقيم، والقريب مِنِّي والبعيد عنِّي. أنا أعيش للّذين في هذا الزَّمان وللّذين يجيئون بعدُه؛ فمهمة الأديب هي أن يعمل في حياته لأبعد من مداها. وأنْ يعيش للنَّاس قبل أنْ يعيش لذاته، وأحَبُّ النَّاس إليه، وأعزّهم عليه، وأحقّهم منه بالخدمة هم قومه.

إنِّني لا أرى شرفاً أعظم، ولا مجداً أسْنى من أنْ أجعل قلمي وقفاً على خِدْمَتي لأُمَّتي وبلادي، فكلَّما ارتفعتْ ازددتُ أنا عُلُوّاً وارتفاعاً.

إنِّني عندما أضع حجراً في هيكل أمجادها أبني لنفسي هيكلاً من المجد، إنه لهيكلٌ فخمٌ سنيٌّ.

لقيَني بالأمس واحد مِمَّن ينظرون إلى الحياة من كُوَّة أضيق من ثُقْب الإِبرَة! فقال لي: لعلَّك استفدت من جولتك فائدة تحرز!

فسكتُّ، ولم أحِرْ جواباً، ولكنِّي سمعت نفسي تسألني قائلة: لعلّ النَّاس استفادوا من جولتِك فائدة تُذْكر..!

لم أتعجّب من سؤال الرَّجل المُشار إليه؛ لأنّ كُلّ إنسان يحبُّ أن يستفيد من دنياه مالاً، أو جاهاً، أو عِلْماً..

فلم أتعجّب من السّؤال الذي طرحته نفسي على نفسي؛ لأنّ مهمّة الأديب في دنياه أن يفيد، وأنا لا أزعم أنّي أفدت، ولكنِّي أستطيع أنْ أقول وأنا راضٍ عمَّا أقول: إنّي حاولت من قبل وسأحاول من بَعْدُ أنْ أكون مفيداً لقومي، سواءٌ أكنت مستقراً في مكتبي أو متحوّلاً من مكان إلى مكان!

أحاول أن أكون في حياتي مفيداً؛ لأنّي رأيتُ الوردة تصرف الأسابيع وهي تستمدّ الغذاء من الأرض، والهواء والنّور حتى يكتمل كيانُها وتتمّ ألوانُها، ثم تبذل عِطرَها لكُلّ ناشقٍ بلا سؤال ولا استئذان، وأنا أخجل أنْ تكون الوردة أكرمَ منّي!

وأحاول أنْ أكون مفيداً لغيري؛ لأنّي أرى النّحلة تكدح الصّيف كُلّه، تروح إلى الحقولِ فتمتصّ من كُلّ زهرةٍ قطرة وتعود لتصنع قرصاً صغيراً من الشّهْدِ؛ تصنعه لنفسها، ولكنّه في الواقع لغيرها. وأنا أكره أنْ أكون دون النّحلَةِ في البَذْلِ بينما أجد نفسي أنّي لست دونها في العَقْل.

أحاول في حياتي أن أكون مفيداً؛ لأنّ الإنسان الذي يجعل همّه الأوحد في الحياة أنْ يستفيد فقط لهو أنانيّ كبير وشرّ مستطير، بل هو خطر على النّاس، وعلى نفسه أخيراً.. لأنّه ليس أرقى بطباعه من العقرَب التي تشارك النحلة والنّملة في النّور والهواء والأرض، وتأخذ من العناصر مثلما تأخذ تلك، ولكنّها لا تعطي عندما تعطي غير السّمّ القتّال..

كن مفيداً!

هذا الذي جعلته قاعدةً أساسيّة أتمشّى عليها؛ وهي قاعدة أراها بعد الاختيار تتّفق ونواميس الحياة، وفيها من الخير ما يجعلني أتمسّك بها، حاثّاً النّاس على التّمسُّك بها معي..

فمن استطاع أن يكون مفيداً استطاع أنْ يكون سعيداً! أمّا وقد أفصحت لكم يا سادتي عن نظريّتي في الحياة من هذه النّاحية، فدعوني أتحدّث إليكم عن أنفسكم، ومن هذه النّاحية أيضاً.

أنتم يا أبناء وطني من سلالة أُمّة قد أفادت العالم كثيراً، فهي التي طوّعَت للسُّفن كُلّ بحر عِصيّ، وسَخّرت السُّفُنَ لذوي الإِقدام والطّموح

من أبنائها، فجابوا البحار وأنشأوا الأوازع[1] والثغور في بلادهم، وذلك على البحر المتوسِّط وفي بلاد النَّاس..

وأُمَّتكم هي التي استنبطت الحروف الهجائيَّة، فوضعت بواسطتها أساس كُلِّ مدنيَّة قامت، وتقوم في الأرض.

ولو لم تجئ الحروف الهجائيَّة لتأخَّر ظهور المدنيَّة حتى تجيء.

وأُمَّتكم هي التي شاد مهندسوها وبنَّاؤوها هيكل سليمان، كما بَنوا غيره من الهياكل والمعابد والقصور التي نرى العلماء في عصرنا الحاضر يكتشفون بقاياها وآثارها، وهم يعجبون من تلك العقول المبدعة المولِّدة.. وأُمَّتكم هذه هي التي أنارت العالم بالدِّيانات الرَّاقية التي رفعت الإنسان عن مرتبة الحيوان، وهذَّبت عواطفه، ورقَّقت مداركه، فصار كائناً ذا شعور راقٍ وقلب ينبض بالرَّحمة والحنان.

وإذا كانت هذه الأُمَّة التي أفادت العالم بصناعاتها وفلسفاتها ودياناتها قد كبا بها الدَّهر فأضاعت مكانها تحت الشَّمْس، فسيأتي يومٌ تعود فيه إلى قدرتها الأُولى فتفيد في غدها كما أفادت في أمْسها. فالحياة رقدةٌ وانتباهة، وسكون وعراكٌ، وأُمَّتنا لم تعقم بعد؛ لأنَّ الهواء الذي كان يغذِّي أسلافنا لا يزال يغذِّينا!

والأرض التي تألَّفت منها أجسادهم تتألَّف منها أجسادنا!

حنَّ الإنسان إلى امتطاء البحر فكانت السُّفُن.

وحَلُم بالطَّيران فطار..

وتمنَّى أنْ يخاطب أحبابه الذين فصلت بينه وبينهم المسافات، فما لبث أنْ استنبط التلغراف والتلفون والرَّاديو..

---

(1) الأوازع: الوازع الذي يتقدَّم الصَّفَّ في الجيش فيصلحه ويقدِّم ويؤخِّر.

فقولوا للّذين يتهكمّون علينا ويقولون عنّا إنّنا أُمّة أحلام، انظروا أيّها النّاس ما فعلت الأحلام!

أجل، نحن أُمّة تحلُمُ وتتصور، ويجب أنْ نفتخر ونتباهى بأنّنا كذلك! فالحيوانات العجماء لا تَحْلُمُ ولا تتصوَّر.

فما بالي أُحدّثكم عن التجارة والكهرباء والطّيّارة والسّيّارة والتلفون وأنساكم؟ فأنا لا أرى في وثبة لندبرغ من نيويورك إلى باريس أعجب من وثبة السّوريّ واللبنانيّ من مدينته أو دسكرته إلى أميركا وأفريقيا. وليست الطّيّارة التي حملت لندبرغ واجتازت به الفضاء المترامي بأعجب من الهِمَّة التي حملت السّوريّ واجتازت به البحار الزّاخرة إلى بلاد مجهولة منه؛ ومجهول هو عندها إلى بلاد لا يربطها ببلاده شيء. فلا تقاليدها تقاليده، ولا عاداتها عاداته، ولا لغتها لغته، ولا جوّها كالجَوّ الذي نشأ فيه. ولكِنَّ هذا المهاجر الأعزل من كُلّ سلاح، استطاع بما أُوتي من ذكاء وصَبْر على المكاره أن يخوض هذا المعترك ويخرج منه ظافراً، كما استطاع أن يشيد لنفسه ولبلاده سُمعةً طيّبة في كُلّ بلاد نزل فيها.. ففي مصر لمع النّشاط السُّوريّ لمعاناً باهراً في ميدان التِّجارة والعِلم والسِّياسة، وفي كُلّ ميدان آخَر كان له علَم خلّاق..

فإذا انتسبت الصَّحافة العربيَّة، رأينا السُّوريّ أباها وأُمّها.

في المكسيك للسوريّين واللُبنانيّين مصانع ومعامل من الدَّرجة الأُولى.

وفي السّنين القريبة الماضية انصرف المهاجرون إلى اقتباس العلوم والفنون، فكان منهم عَدَدٌ كثير من الأطبّاء والمحامين وأساتذة الجامعات..

سردتُ هذه المعلومات المختصرة لأُبرهن لكم أنّ الحيويّة في أُمّتنا لا تزال منيعةً.. برغم ما انتابها من المِحَن، وأصابها من الكوارث في ما غَبَرَ من الدَّهر، وستبقى قويّة منيعة وذلك لأنّ منارة الحضارات والفلسفات ما

تزال أنوارها متلألئة في سماء الشرق ومياهه.. وإن كانت مظاهرها بادية في سواه..

فإذا ما أحببتم أنتم بلادكم وقدّستموها فكأنّكم تقدّسون أرضاً هي مهد الحضارات، وبنت الدّيانات. وإذا فاخرتم اليوم بأسلافكم فكأنّكم بتم تفاخرون بالنّاس الذين مدّنوا العديد من شعوب العالم آنذاك..

فلا تستحُوا من أنفسكم أينما كنتم ولا تخجلوا ببلادكم ولو سكنتم النُّجوم!

وإذا سمعتم أحداً يقول: إنّنا لا نصلح لشيء، فقولوا له: انزع من صدرك هذه الرُّوح الماديَّة الصِّرْفة وإلاّ فستصبح أنت إنساناً لا تصلحُ لأيِّ شيءٍ، فالخير كُلّه في التنشيط لا في التَّثبيط!

كان لنا الأمْسُ وسيكون لنا أيضاً الغَدُ.

إيليـــا

١ تشرين الأوَّل ١٩٣٥

أمْسِ الذي غَبَر

قالوا: لَفَظ العام أنفاسه. وترَحّموا له وغفروا له سيّئاته وتلطّف بعضهم فعدَّد ميِّزاته وحسناته، ثم هزَّهم نشوة الفرح كأنّهم قوم خرجوا من تِيه، أو ارتفع عنهم حصار فساروا في الشوارع يطبِّلون ويزمّرون ويرقصون ويضحكون، وهم يهتفون للمولود الجديد.. للعام الطالع من وراء حجاب..

أحقّاً، إنّنا قد خرجنا من عهد إلى عهد؟

أيّ شيء تبدّل في النّاس؟

أجراس الكنائس تدقّ دقّات الحبور. أبواق البواخر والمعامل تصفّر صفير المرح. والنّاس يعربدون في السّكك والبيوت، حتى غير السُّكارى منهم..

نظرتُ من نافذتي إلى السّماء فإذا النّجوم في هذه اللّيلة مثلها في كُلّ ليلة لم تتبدّل ألوانها، ولو اختلفت حركاتُها..

ورعيتُ الأرض بنظري؛ فإذا هي مكسوّةٌ بالثّلج.. الثلج الّذي يسقط عليها منذ ليلتين، وتشبّث بها كأنّه يخشى السُّقوط مرّة أُخرى. وتشبّثت به كأنّها وجدت فيه وِقايَةً لوجهها من الأقدام والدّواليب!

هذا الثلج وليد السّنة الماضية ولكنّه لم يذهب معها، فهو مثل أكثر آمالنا وشهواتنا ورغائبنا وأفراحنا وأحزاننا التي لا تزال فينا وإن كُنّا قد انتزعنا آخر ورقة من الرّوزنامة..

هو باقٍ لكي يتبخّر فيعود ضباباً أو سحاباً أو يذوب ويتغلغل ماءً في الأرض، ويطّلع علينا في الربيع المقبل مع ما تُخرج الأرض من العشب والبقل والزهر والثمر..

طوَينا دفاترنا ولكنَّ دفتر الزّمان لا يُطْوى!

ووضعنا حدوداً أو تخوماً لكي نقسم الزّمن فقسمناه ولكن على الورقة أو في تصوّرنا ونسينا أنّ الزّمان لا ينقسم، فكُلّ ما كان من قَبْلُ هو كائنٌ غداً، وإن بدا في شكل آخرَ أو عجزنا أنْ نراه بادياً في أيّ شكل! إنّ التفّاحة التي تأكل اليوم ليست بنت فصل ولا سنة كما تتوهَّم، بل هي بنت كُلّ السّنين التي مرّت، هي وليدة الزّمان كُلّه كانت مخبوءَةً في أوّل شجرة تفّاح أنبتتها الأرض، كما كنت أنت أيّها القارئ أوّل إنسانٍ جاء إلى هذا الوجود..

إذن لا معنى لهذا الهتاف والصّريخ إلاّ أنّ النّاس يريدون أن يوجدوا لأنفسهم سعادة يتوقون إليها، ولم يظفروا بها من قبل..

وإذا كانوا قد استفاقوا بعد تلك اللّيلة لم يبدّلوا شيئاً في أنفسهم.. وإذا شعروا بشيء من الخيبة فذلك لأنّهم أخضعوا أنفسهم للوهم وتصوّروا أنّ سقوطَ آخر ورقة في الرّوزنامة يَعْقبُه عهد جديد..

أمّا أنت فلكَي تكون سعيداً في زمنكَ وفي ناسكَ، فلا تنظر إلى روزنامة قديمة ولا إلى جديدة بل إلى نفسك وأن تستمدّ ما فيها من قوًى لأحسن وأجمل ما تستمد له القوى.

وحذار أنْ تغلط وتقيس العمر بالسّنين، فكثير من الأعمار طويلة بدون جدوى. وإذا صار الإنسان كُلّ فخره أنْ يعدّ لياليه وأيّامه فهو رجل لم تكسبه اللّيالي والأيّام شيئاً كبيراً، ولم يستفد منه دهره إلاّ أنّه رجل عاش يأكل ويشرب ويعدّ الأيّام واللّيالي..

ولا يَغْلبنّكَ الزُّهد على نفسكَ، فتقولَ: ما يقدر أنْ يفعل فردٌ مثلي في هذا العالَم الكبير؟

فما جعل العالَمَ كبيراً إلاّ أفراد مثلكَ جاءُوا إلى هذا الوجود كما جئت، ولكنّهم لم ينصرفوا إلى العمل لإدراك غايات عالية في الحياة وما زالوا يعملون حتى بلغوها، فكان الخير في سعيهم وظفرهم لهم وللنّاس!

ودعنا نَسُق إليك نصائحِ ثلاثاً، هي:

وَسّع دائرة حُبّكَ.

ضَيّق دائرة بغضكَ.

كن لغيرك كما تحبّ أنْ يكون غيرُك لَك.

وعندئذ تجد في كُلّ يوم من أيّامكَ ما يجده الكثيرون من المَسَرّة والرّجاء في توديع سنة واستقبال أُخرى غيرها..

أوّل كانون الثاني ١٩٣٦

نظريَّة دارْونْ عربِيَّة

ولد شارلس دارون سنة ١٨٠٩م. من عائلة إنكليزيَّة ذات يُسْر، أغنته عن السَّفر لكسب العيش وأمكَنته من أنْ يكرِّس حياته للبحث والتَّبحُّر في العلوم.. فلا حاجة بنا إلى سرد سيرته الشهيرة الآن ولَكنَّنا نعيد القول إنَّه بين عامي ١٨٣٦ و١٨٥٨م. أتته فكرة النُّشوء التَّدريجيّ الطَّبيعيّ من عالم النَّبات والحيوان، وكانت هذه الفكرة ذاتها قد خطرت لعالم إنكليزيّ آخر معتزل عن دارون وزملائه وهو ألفرد ولسن غير أنَّ دارون نشر آراءَه في كتابه المشهور "أصل الأنواع" الذي طبعه عام ١٨٥٨م. فأحدثت نظريَّته في نشوء الأنواع التَّدريجيّ عاصفة هوْجاء بين العلماء، فغيَّرت في صيغة الآراء والعلوم، وقلبت كثيراً من المذاهب والتَّقاليد والفلسفات.

توفِّي دارون سنة ١٨٨٢م. نجد الإنكليز في عصرنا الحاضر يشمخون فخراً بدارون على العلماء، كما يشمخون بشكسبير على الشّعراء.. هذا ما كان من دارون وفكرته، ولكن هل خطر لَك أنَّه مسبوق إلى نظريّته هذه، وأنَّ الذي سبقه رجل عربيٌّ هو العلاَّمة الحضرمِيّ القبيلة والتونسيّ المولد (١٣٣٢- ١٤٠٦) م؟ إنَّه من أعظم مفكّري عصره.

لقد سبق هذا الفيلسوف دارون إلى هذه النَّظرِيَّة بأربع ماية وسبعين سنة.

إنَّه عبد الرحمن بن خلدون، ذلك المؤرِّخ الفيلسوف حيث دَوَّن في "مقدّمته" الشهيرة ما يلي:

"اعْلَمْ أرشدنا الله وإيَّاك أن تشاهد هذا العالم ممّا فيه من المخلوقات كُلّها على هيئة من التَّرتيب والإحكام وربط الأسباب بالمسبِّبات واتّصال الأكوان بالأكوان، واستحالة بعض الموجودات إلى بعض، لا تنقضي عجائبه في ذلك، ولا تنتهي غايته..!".

"ثم انْظُر إلى عالم التَّكوين كيف ابتدأ من المعادن ثم النَّبات ثم الحيوان على هيئة من التَّدرُّج.. آخر أُفق المعادن متَّصل بأوَّل أفق النَّبات مثل الحشائش وما لا بذر له، وآخر أُفُق النَّبات مثل النَّخل والكرم متَّصل بأوَّل أُفُق الحيوان مثل الحلزون والصَّدَف و لم يوجد لهما إلاّ قوَّة اللّمْس فقط..

ومعنى الاتّصال في هذه المكوَّنات أنّ آخر أُفُق منها مستعدٌّ بالاستعداد القريب أن يصير أوَّل أُفُق الذي بعده..

واتَّسع عالم الحيوان وتعدّدت أنواعه، وانتهى في تدريج التَّكوين إلى الإنسان صاحب الفِكر والرَّويَّة.

١٥ أيّار ١٩٣٦

الدُّنيــا مَرْكَــب

سافرت الباخرة "بيروت" من نيويورك في التاسع من أيّار، وعليها أكثر من سبعين مهاجراً من قومنا عائدين إلى المترل الأحبّ.. إلى الوطن الأوَّل إلى مواطن الصِّبا ومسارح الأحلام، إلى الأرض التي حملوا حُبّها في جوانحهم إلى كُلّ أرضٍ نزلوها، والسَّماء التي كانوا يرون صورها في كُلّ سماء قبيلة قبلها.. أجل، إنَّهم راجعون إلى البلاد التي أقامت فيها الطبيعة

القسطاس[1] بين الفصول، بحيث لا يختلس فصل من فصل ساعة ولا يظهر شهر في حلّة غير حلّته، وإن تبدَّل النَّاس من أطوارهم أطواراً أُخرى.

إنَّهم عائدون في هذا المركب التّجاريّ إلى الشواطئ التي وُلِدَت فيها الملاَحة، وخرجت منها سُفُن الفينيقيين تجوب البحار، وتكتشف الأَمصار، وتحمل إلى الدُّنيا الجرثومة[2] الأُولى للحضارة والمدنيَّة؛ وهي الحروف الهجائيَّة التي تعلَّم بها الإِنسان ما لم يعلم، ولولاها لبَقي على الفِطرَة الأُولى..

إن هؤلاء العائدين هم سلالة أولئك العائدين، وأبناء تلك الشَّواطئ ولكنَّهم غرباء في شواطئ النَّاس وفي هذا المركب، وربَّما كانوا غرباء حتى في تلك الشواطئ وبين سكَّانها..

على أنَّهم بالرَّغم من هذا، وبالرَّغم من كونهم مختلفي الأعمار والهيئات والحالات، تحدوهم كُلُّهم نزعة واحدة شاملة هي الحنين إلى رؤية الوطن والاجتماع بالأحباب به، فذلك عندهم السَّعادة العُظمى، بل هي الأُمنية الذَّهبيَّة التي يضحَّى على مذبحها بالمال والمجد والرَّاحة. فما أثرى سلطانَك يا حُبَّ الوطن!

مَدَّ النوتيَّة السُّلَّم من الباخرة إلى الرَّصيف التي تراءَت ليعقوب، وأخذ القوم يصعدون واحداً إثر واحد كأنَّهم سِرْب من النَّمْل يرقى من جِذْع إلى ثمرة شهيَّة، أو طائفة من النَّحْل تتهافت عند المساء إلى قفير بعد أن أمضت نهارها وهي تطوف الحقول وتجني منها الشَّهْد، أو كأنَّهم جيش عائد من معركة ليستريح داخل حصن أو ثكنة.

---

(1) القسطاس: بضم القاف وكسرها الميزان والمقصود العَدل والمُساواة.

(2) الجُرثومة: جُرثومة الشيءِ اصْلُهُ.

وكنت مِمَّن ذهبوا لتوديع بعض الأصدقاء الأعزّاء، فلَما صرت في الباخرة رأيت القوم في أُلفَة ما شهدت قبلها في مكان آخَر بين الّذين يعرف الواحد منهم الآخر، أو لم يعرفه قبل هذه السّاعة، فكأنّهم أدركوا وقد انفصلوا عن اليابسة أنّهم أصبحوا متضامنين في السَّرّاء والضَّرّاء، فقلتُ في نفسي: "فكُلّ غريبٍ للغريب نسيب"، ولا سِيَّما في الباخرة، ففيها يتجرَّد الإنسان من أكثر مطامعه الحادَّة، ويصبح في الباخرة أقرب إلى الفلاسفة الزُّهّاد، فلا عراك على ثروة، ولا اقتتال على مجد، ولا تجارة، ولا سياسة، ولا رِئَاسة، إذ لا ميدان للمطامع في مكانٍ محدود كالباخرة..

فالباخرة تبدو في حَدِّ ذاتها صورة مصغَّرة لجمهوريَّة أفلاطون السَّعيدة، بل هي صورة مصغَّرة للدّنيا، ولكِنَّ النَّاس ينسَون أنَّهم في دنياهم على سَفَر. فيتنازعون ويقتتلون ويتكالبون على الحطام كأنَّه باق وكأنّهم خالدون، ويظلّون غافلين حتى تباغتهم نكبة عامَّة كالحَرْب، أو يداهمهم طوفان أو زلزال فتستيقظ في أعماقهم محبَّة التعاون والتضامن، فينصر بعضُهم بعضاً.. ويعطف بعضهم على بعض؛ لأنَّ مصلحة الفرد في الشّدائد تغيب في مصلحة المجموع، ولا تتغلّب مصلحته الشخصيَّة في حالة كهذه إلاَّ متى تناهت فيه الأنانِيَّة وخلا من الإِحساس وبات في صورة الضّمير..

لعلّك تقول الآن: ليت الدُّنيا سفينة صغيرة! لا، لا ينبغي لنا أَنْ نضيِّق الدُّنيا ونصغِّرها ليسود فيها السَّلامُ كما يسود في السَّفنية، بل يكفينا أَنْ ينظر كُلّ واحد إلى الحياة كأنَّه مسافر في بحر، فيخفِّف من غلوائهِ ويصبح أكثر عطفاً على أخيه الإِنسان، وأقلّ طمعاً بالحطام.

ليست هذه دعوة إلى الزُّهد والتَّقشّف، ولكنَّها دعوة إلى السَّعي وراء السعادة في الطَّريق المؤدِّي إليها، فليس من الصَّلاح في شيء أن ينقسم المجتمع الإنسانيّ إلى طالب ومطلوب وأن يبقى النَّاس شطرين: غالب ومغلوب. بل خيره وهناؤه أنْ يغدو كُلّه طالباً، وكُلّه غالباً، ولن يصير كذلك حتى ينصرف عن معاركة أخيه إلى مغالبة الطَّبيعة فيكمِّل بقواها ما نقص في قواه، وليس لقُوى الطَّبيعة حدّ.

إن يوماً يعمل فيه الإنسان كأنَّه على سَفَر، ويعطف على أخيه كأنَّه في باخرة، هو اليوم الذي يذوق فيه لَذّة السَّعادة الحقيقيَّة.

١٥ أيّار ١٩٤٤

اقترِبْ مِنَ الطَّبيعة

لعلَّ أقَلَّ النَّاس ضجراً هم جماعة الكتّاب والمنشئين ومَن شاكلهم من أصحاب الحِرَف والفنون، الَّذين لاتقنع عقولهم بالوقوف عند حدّ معلوم فيها.. فالانتقال من حالة إلى حالة يجدِّد الهمَّة ويشحذ الفكر ويصقل الرّوح والقلب. إنهم أقَلّ النَّاس ضجراً؛ لأنَّهم لا يفرغون من أمْرٍ إلاّ بدا لهم أمرٌ جديد، فهم دائماً وأبداً متحرّكون، وليس مع الحركة ضجر، وهم دائماً متنقّلون وإن لم يسافروا في برّ أو بحرٍ، فالشاعر العربيّ يقول:

"تنقّل فَلَذّات الفتى في التّنقُّلِ"

على أنّ هؤلاء أيضاً يتطرق الملل والسأم إلى أنفُسهم من التّنقّل على وتيرة واحدة، ونمط واحد، فتراهم يجهّزون محابرهم وأقلامهم وطروسهم والنّاس الّذين حولهم، وينطلقون من أماكنهم إلى أماكن أخرى، ولا سيّما

عندما يجيء الصَّيف وتلبس الأَرض زينتها، فتراهم في الشواطئ، والجبال. وحيثما رأيتهم وجدتهم قد انفلتوا كثيراً أَو قليلاً من قيود المجتمع وتناسَوا شخصيَّاتهم الاكْتسابيَّة ورجعوا إِلى الطَّبيعة ليتلَقَّوا عنها الدّروس..

فإنَّ الإِنسان يظلّ ينظر إِلى الأَشياء بعين النَّاقد حتى يصير في حضرة الطَّبيعة فيمسي ينظر إِلى الحياة بعين المتعلّم؛ لأَنَّه مهما كان كبيراً يجد الطَّبيعة أَكبرَ منه، ومهما كان عليماً يجد علمه ضئيلاً أَمَام أَسْرارها، ومهما كان قويّاً فإِنَّه لا يلبث أَنْ يشعر بضعفٍ متناه حيال قوَّتها العُظمى.. ومن المُفيد لكُلّ إنسان مهما كانت مرتبته، أَنْ يرجع إِلى الطَّبيعة في الصَّيف أَو الشتاء أَو أَيّ فصل آخر، يتعلّم منها في لحظات أشياء لا يمكنه أنْ يجدها عند الإنسان، ولا في أَعمال الإنسان وإِن كانت كُلّها صوراً لما في الطَّبيعة!

وإِذا كنت الآن تتنزَّه على شاطئ بحر أَو في ذُرْوَة جبل، فاجعل هَمَّك أَن ترى وتَسْمَعَ وتأْخُذَ، لا أَنْ تعطي الطَّبيعة شيئاً..

فالشعر الأَسمى هناك، والموسيقى المسكرة هناك. والصور الفتَّانة هناك. والحكمة التي تشتاقها الأَرواح لا تجدها إِلاَّ هناك. فحذار أَن ترجع إِلى المدينة خالَيَ الوطاب.

أَمَّا إِذا كنت لم تذهب بعد إِلى شاطئ، ولا إِلى جبل، فأنصح لَك أَن تسرع بالذّهاب، لأَنَّ عُمْرَ الصَّيف قصير.

قال أحدهم: اقترب من الطَّبيعة تبتعد عن الطَّبيب، وأَمَّا نحن فنقول لَك: اقترب من الطبيعة تقترب من الله..

أَوَّل آب ١٩٣٤

الشّحاذة في نيويورك

كَثُر المستعطفون والمتسوِّلون الّذين ينسلّون إلى مركبات الصَّبْواي في نيويورك يستجْدون الرُّكّاب أو يستحيونهم في الذّهاب والإياب، حتى اضطرّت شركة الصَّبواي أنْ تلصق في كُلّ مركبة هذا الإعلان:

"أيّها الرُّكّاب! نرجو منكم أنْ تتعاونوا معنا على منع الاستكداء[1] في القطر. لا تتصدَّقوا على سائِل، بل انصحوا له أنْ يقصد إلى لجنة الإغاثة العموميَّة في المدينة".

إنّ الشَّركة في هذا الإعلان تلتمس معونة الرّكّاب التماساً كما يلتمس المتسوِّل منهم الصَّدقات، فهي تترجَّى وتتوسَّل لأنّها لا تستطيع منع المتسوّل من الدُّخول إلى مركباتها، طالما لا يزال يدفع الرَّسم المفروض كسواه من النّاس!

نحن مع الشَّركة القائلة بمنع التَّسول وإزالته من الوجود. بل نحن نعتقد أنّ الشحاذة يجب أنْ تمحى من قاموس المجتمع الإنسانيّ ليحلّ محلّها شيء آخرُ اسمه الواجب. فهذا المتسوّل المسكين الذي يتأفّف منه النَّاس ويُشيحون بوجوههم عنه كُلّما رأوه مقبلاً نحوهم، هو في الواقع ضحيَّة هؤلاءِ المتأفّفين وشرائعهم، وإذا لم يكن ضحيتهم فهو ضحيَّة الأقدار القاسية..

وليس تأليف لجان الإغاثة وإنشاء معاهد الإحسان، غير اعتراف صريح من المجتمع بأنّه ظالم قاس..

ولو لم يكن الأمر كذلك لمَا كُنّا بحاجة إلى الملاجئ والمعاهد التي

(1) الإسْتِكداء: الاستعطاء والتّسَوُّل.

تعمد هي نفسها إلى الاستجداء والاستنداء[1] لكي تَحول دون التسَوّل..
أجل، لا يجوز أن يستعطف الأعمى والمُقْعَد، والبائس والمُعْوِز، أنْ يستعطفوا في الشوارع، ولا في المركبات التي تجري تحت الأرض. ولكن يجوز للجمعيات المختلفة أنْ تبث البنات الحسان في كُلّ زاوية وساحة ومَمَرّ، يستوقفن الرَّائح والغادي ملتمسات أنْ يشتريا منهنّ زهرةً اصطناعيَّة أو طبيعيَّة وذلك باسم البِرّ والإِحسان، والرَّحمة والشَّفقه، أي باسم الأعمى والمقعد والمُعْوِز والمنكوب المطرودين من الصَّبواي.
فالكثيرون نجدهم يعبسون وتكْفهِرُّ وجوههم إِذا رأوا بائساً كأنَّما هو جرثومة مرض خبيث، أو شبح نكبة حاطمة، وقاموا يشدّون أيديهم على جيوبهم لئَلا يشمّ رائحة النقد فيها.
إذا كان الاستعطاء عاراً، وهو كذلك، فيجب أن يزول بتاتاً وأن يعان أَهل الفاقة كقوم غُصبت منهم حقوقهم في الحياة، دون أن يكون هناك محتالون بين المتسوِّلين اتّخذوا الكِدية حرفة يجمعون بها المال لأكثر من سَدِّ الرَّمَق وسَتر الجسم، وكذلك يوجد جمعيَّات خيريَّة فيها أُناسٌ خيّرون وأُناس كثيرون يستثمرون لغير البِرِّ والإِحسان!
بعد أنْ عُلّق ذلك الإِعلان في المركبات قلَّ عدد المتسوِّلين بل كاد ينقطع.
لم يقلّ عدد المتسوِّلين لإِعراض الجمهور عنهم نزولاً عند إِرادة الشَّرِكة، بل قلّوا بعدما قرأوا ذلك الإعلان المتعلّق بهم وبمهنتهم مهنة الشّحاذة، فارتاعوا وامتلأت قلوبهم بالخوف والخَشْية.

---

(1) أندى كثرتْ عطاياه. الاستنداءُ ضدُّ الاستجداء.

فالنّاس جميعهم في نيويورك مثقفون قارئون حتى المُستكدي والمُتسوّل.

وأخيرا فباستطاعتنا القول بأن منع الفقراء من التسوُّل في الصَّبْواي – أكانوا محتاجين حَقّاً أو مُعْوزِين أم غير معوزين – لا يعني أنَّ الفقر قد زال من المدينة التي يعدّ سكانها بالملايين وثروتها تحسب بالبلايين!

أوّل حزيران ١٩٣٤

الإِيمان والمعرفة

ليست القضيَّة قضيَّة إِيمان وجحود، بل سذاجة ومعرفة. فالنَّاس اليوم ليسوا أَضعف إِيمانا بالله من آبائِهم وأجدادهم، وإِن كانوا أَكثر علماً، وأوسع خيالاً، وأدقّ نظراً في الحياة وملابساتها.

كان النَّاس قديماً، وذلك لجهلهم لا لقوَّة إِيمانهم، ينسبون كُلّ جائِحَة وضائقة إِلى إِرادة الله، ويقفون عِنْد هذا الاعتقاد صاغرين مستسلمين، حتى يهيب بهم مصلحٌ أو نبيّ، قائلا لهم: إنَّ الله يريد منكم أن تهبُّوا للعمل والجهاد.. فيهبُّوا.

أمَّا اليوم، فإِنَّ النَّاس لاستضاءتهم بنور المعرفة يصعب عليهم أنْ يعتقدوا بأَنَّ الله لا يريد بهم الضَّرّ. فإِذا أَصابتهم شِدَّة بحثوا عن أسبابها، فيوصلهم البحث إِلى أَنَّها نتيجة نظام قديم لم يعد يصلح لزمانهم، أو أنَّها ناشبة عن علَّة اجتماعيَّة لم يتداركوها في وقتها فسرت في المفاصل والعروق. فتموج الكآبة في أرواحهم لعلمهم أنَّ الأزمة لم تهبط عليهم من السماء التي لم تغب شمسها ولا انطوى قمرها، وإِنَّما هبطت عليهم من

الإنسان نفسه؛ فهو الّذي يضيّق الدُّنيا على أخيه الإنسان، فيحاول أن يستأثر دونه بكلّ شيء حتى الشّمس والقمر! - لا سمح الله - فضعف الإيمان بالله هو الذي يريهم الأزمة مارداً معترضاً بين الأرض والسّماء، بل خوف الإنسان من الإنسان هو السّبب في هذا الخَطَر، بل قل: هو السّبب في الأزمات والحروب والمشاكل العامَّة.

وبعد هذا، ألم تكن الدُّنيا منذ كانت رخاءً وشدّة، وسعادةً وبؤساً؟ ثم ألم يكن الخوف والجزع من ملازمات الطّبيعة البشريّة في كُلّ عصر.. وأوان؟

إذن فالنّواميس العليا لا تتبدّل في ذاتها وإن اختلفت مدارك البشر في تعليلها. وعلى الإنسان مؤمناً أو غير مؤمن أنْ يسير بموجبها لكي يتسنّى له بلوغ الهناء؛ فالنّاس كما هو مشاهد ومعلوم في كُلّ عصر، مختلفون في الأمور التي تقع تحت الحِس والإدراك، تبعاً لما هم عليه من المعرفة والجهل. أمَّا في القضايا غير المتطوّرة والتي لا يحدّها العقل، فهم سواءٌ - العالم منهم والجاهل - أكانوا أهْل إيمانٍ وتسليم، ولا يمكن أنْ يكونوا إلاّ كذلك. فكُلّ قومٍ بما لديهم فرحون، وإلى ما عندهم مطمئنّون.

فالطمأنينة التي يشعر بها المؤمن بالله عزّ وجل وهو متّجه إليه جلّ شأنه خاشعاً متضرّعاً، أفضل وأبهى وأسمى من تلك الطمأنينة التي يشعر بها عابد الصّنم أو النّار عند رجوعه إلى صنمه أو ناره.. فليس الشُّعور الحادُّ بالأزْمة نتيجة ضعف إيمان بل هو نتيجة الأزْمة الحادّة نفسها. فخلاصة رأينا في هذا الموضوع أنّ الإنسان لا بدّ له من الإيمان بعدالة الحياة وصحّة نواميسها، ولكن عليه أنْ يجهد عقله لمعرفتها وإلاّ كان إيمانه المبنيُّ على الجهل كالشّجرة التي تزرع في الرّمل، لا تلبث أنْ تسقط لأوّل ريح تهُبُّ عليها..

فضلاً عمّا تقدّم، إذا عددنا الاستسلام طمأنينة جاز لنا أن نعدّ الجاهل المستسلم أروعَ نفساً من الإنسان المتعلّم الذي لا يستريح إلاّ إذا أدرك وعرف ما يجري حوله، وما يُراد به!

إنّنا كثيرا ما نحسد السُذّج على جهلهم، لاعتقادنا أنّهم لا يتألّمون. أمّا الحقيقة فهي أنّ للسُذّج أيضا قناعتهم وإن قلّت مطالبهم في الحياة!

ولقد كان النّاس في أوّل أمرهم سذّجاً كلّهم، فلم يكن نصيبهم من السّعادة أكثر من نصيب النّاس في عصرنا، ولا كان حظّهم من الهموم والمصائب أقلّ..

نكتب هذه الكلمة ونحن نعلم أنّ الإيمان يختلف في نفوس النّاس باختلاف مداركهم ونظراتهم في الحياة..

فكم من زنديقٍ عليه سِرْبالُ متديّن! وكم من رجل نُسِب إليه الكفر والإلحاد وقلبه ممتلئٌ حُبّاً ورحمة، حتى لأعدائه الّذين يشنّعون عليه!

١٥ حزيران ١٩٣٤

كتاب مفتوح

أنا مخاطبكم بلسان "السّمير" وحدها، إذ لا يجوز لي أنْ أنتحل النّيابة عن غيري، فأقول لكم إنّ ما قلتموه لـ "السّمير" ضمناً قد قالته "السّمير" لنفسها منذ نشأتها، وعملت به. فلم نحاول يوماً ما أنْ نثير غباراً لكي لا نمشي تحته إلى لُبانة، أو أَرَب شخص، ولو آذى الغبار العيون. ولا مدّت يدها إلى ماء صاف، فعكّرته طمعاً بصَيْد، لأنّها "مجلّة" تضحّي بالمصلحة الماديّة في سبيل سمعتها الأدبيّة ولا تضحّي هذه في سبيل تلك..

ولقد هوجمت مراراً بالرّغم من وداعتها ومسالمتها، فكانت تكسر من شرّه المتهجّمين عليها بلغة فيها كثير من الدّعابة الجريئة، وأسلوب ليس فيه مأخذ لناقد، رغبة منها في استبقاء ثوبها نقيّاً من الآفات والأدران، لأنّها تعتقد اعتقاداً مكيناً أنّ الذي يحطّ من قدر الإنسان ليس ما يقول السُّفهاء عنه بل أن يترل هو إلى منازلهم..

ولكنْ، ونحن نترفّع عن السُّفهاء المتطاولين ننتظر من المفكرين أنْ يترفّعوا عنهم معنا..

ولكنّنا، ونحن نلزم أنفسنا التّجرُّد في الخدمة العامّة، ننتظر من الرّأي العام أن يتجرّد في أحكامه..

نطالب الرّأي العام بهذه الأمور ونخصّ المفكّرين العقلاء لأنّ لكُلّ واحد منهم واجباً كالواجب الذي تفرضه على الصّحافي مهنته المقدّسة: وهو تنبيه العقول إلى ما يصلحها، وصيانة الأخلاق ممّا يفسدها، والمجاهرة بالحقائق دون تهيُّب، والإسراع إلى نصرة المظلوم بدون تلكّؤ، والمناضلة عن المبادئ القديمة، ونشر الفكَر العالية بالقلم واللّسان، وحُسْن الأحدوثة، ومحاربة العائثين المفسدين أصحاب الغوايات والنكايات ولو أدّى ذلك إلى التّضحية بالمال والوقت..

وعلى الجمهور أنْ يحترم نفسه، وأنْ يقاطع كلّ صحافيّ مُقْلِق بذيء القلم، سفيه اللّسان، يسخّر صحيفته للتطاول على الكرامات والتّحامل على الشخصيات والاعتداء على الأعراض..

وسيبقى الأديب مكرهاً بين حين وآخَر على الذّودِ عن حياضه لئلاّ يكدّرها السّفهاء، والدّفاع عن حومته لئلاّ تناله أوْحال الأدعياء. لأنّه إذا لم يفعل، ونام الجمهور واستكان، استفحل شرّ السُّفهاء فصالوا وجالوا في هذه الأمّة، ورجعوا بها إلى عصور الغباوَة والجهل والوحشة. إن

صاحب هذا القلم يحترم شعوركم الطيّب، ويؤمن بأن الإخلاص رائدكم فيما كتبتم. غير أنّه في الوقت نفسه لا يودّ الظهور بمظهر المتملّق؛ إذ لا شيء أضَرّ بالكاتب من التملّق، وهو يعتقد بأنّ الجمهور الذي يرضيه من الكاتب أنْ يتملّق، يفقد حقّه في مطالبة الكاتب بالحقائق...

وقد عَرَف الأحباب والأعداء فينا خطّة لم نَحِد عنها، وهي أنّنا لا نكتب لإرضاء صديق أو لإغضاب عدوّ، بل لنترجم عَمّا يخالجنا من الشّعور تجاه الحوادث التي تمرّ بنا، والأمور التي لها بكياننا صلة، وللتعبير عن رأي لنا أو عقيدة. لذلك كان لنا بين أصدقائنا من لا توافق آراؤنا آراءهم وظلّوا أصدقاءَنا. وكان لنا معارضون مناهضون، ولم نُشهر عليهم حَرْباً، ولم نناصبهم العداء..

عيبٌ، والله، أنْ يغدو هذا المهجر الذي أطلع عدداً من أقطاب الأدب والفكر، مسرحاً يَحْجُلُ[1] فيه السُّفهاء الأدعياء الّذين أعجزهم أنْ يكسبوا رزقهم من سبيل آخر، فاقتحموا دَرْبَ الصّحافة وكُلّ رأسماِلهم الشّتائم والدّسائس والأنفُس التي تفرح بالإثم.. مضافاً إلى ذلك الاعتقاد بأنّ الشّعب غبيٌّ، وأنّه لا يميّز الغثّ من السّمين. سيّان عنده الإسفنج والعجين..

---

(1) حَجَل: رفَع رِجلاً ومشى على الأخرى. أو وثبَ في مشيِه على الرِّجْلَين. والبعيرُ المُقَيّد يَحجُل على ثلاثِ قوائم.

قبيح، والله، أن يستغرق العقلاء المفكّرون في النوم، والنغم الأدب الصّافي تسطع حولهم وتتألق، وبلابله تغنّي لهم وتصدح. حتى إذا سمعوا صيحات السُّفهاء المُنكَرة فركوا أجفانهم وتثاءبوا وقالوا: أفٍّ للجرائد، تبّاً للصّحافيّين!! ناسين أنّ الصُّحف التي يتذمَّرون منها محسوبةٌ لسان حالهم، ومعدودةٌ كَذِباً أو صِدْقاً أنّها تمثّلهم..

مذكّرات أحمق

لماذا يختلف الرُّواة؟

يجيءُ أحدهم إليك فيصف لَك شخصاً أو مكاناً أو حالة، ويؤكّد لَك أنّ ما يرويه هو الحقيقة لأنّه لا يَرْوي عن سَمَاع بل عن عيان.. وإذا سألته أنْ يسرد لَك بعض التّفاصيل أو يشرح لَك دقائق أو رأياً استغرب سؤالك، ويعجب منك كيف لا تصدّق، وبادرك بقوله:

– عجباً! ألا تصدّقني؟ أتحسَب أنّني لي غاية؟ أتشكّ في كلامي؟ ويبدو الاستياء على وجهه، فلا تجد بدّاً من السُّكوت والاعتذار عمّا جرى به لسانك من الأسئلة..

إنّ محدّثك هذا لَم يتضايق من سؤالك لأنّك شكَكْت في صدقه، بل تضايق لأنّه هو نفسه لا يستطيع أنْ يؤدي إليك صورة كاملة للشّخص أو للمكان الذي يحدّثك عنه، أو الحادثة التي يرويها لَك، فأكثر النّاس لا ينطبع في أذهانهم ممّا يسمعون أو يبصرون إلاّ الصُّوَر التي تستهويهم ألوانها..

ولا يحفظون من الوقائع إلا ما وافق في نفوسهم هوى أو رغبة..

- البطِّيخة الصَّفراء -

ليس في الأَرض أشدّ خداعاً من الإِنسان.

ولا يخدع الإِنسانَ شيءٌ مثل البطِّيخة الصَّفراء.

تراها فيقول لَك منظرها إِنَّها كرؤوس أهل العراق في عهد الحَجَّاج، أَيْنَعَتْ وحان إزدرادُها..

وتذكر أَنَّك ستنهض في الصَّباح وبك رغبةٌ في طعام هيِّن ليِّن.. وأنَّ الأطبَّاء يشيرون بالإِكثار من أكل الفواكه في أَيَّام الصَّيف.. فلا ترى أوفى برغبتك من بطِّيخة صفراء فتشتريها، وتحملها إِلى البيت في رفق وهوادَة كأنَّها طفل وحيد، وتضعها في أَرحب وآمن ناحية من المثلجة، وتحجبها عن الرِّياح لِئَلاَّ تحمل إِليها السَّلام!

وتنهض في الصَّباح التَّالي فإِذا أمامَك على المائدة بطِّيخة صفراء، فتسارع إِلى السِّكِّين فتفلقها به فتجدها مرضوضة اللُّبِّ كأنَّما كان يعترك في جوفها جملان أو ينتطح جاموسان. أو أنَّك تجدها تنزلق الملعقة عنها كما تنزلق عن طابة مطَّاط. وما إن تضع قطعة صغيرة منها في فمك حتى تجد نفسك مُسْتَشِيطاً غضباً، لأنَّك قد حاولت أَنْ تُكسِبَ فمَك طعم المرورة الحَقّة، وتظل تلك المرورة على حالها مهما أكثرت من ذَرِّ السُّكَّر عليها..

ومع هذا كُلّه فإِنَّك تعود فتشتري البطِّيخ الأَصْفر كما تعود إِلى صُحْبَة الإِنسان..

أوَّل آب ١٩٣٤

الحركة الأدبية في المهجر

طارت شرارة الأدب الحديث في فضاء العالم العربيّ، وفي فضاء مدينة الفولاذ والحديد.. فضاء بابل العصر الكبرى، وأعني بها مدينة نيويورك.. وكانت شرارة فيها كُلّ عناصر الكهرباء، فامتدّ نورها مسرعاً كالبَرْق، فتكوَّنت مع الأيَّام عصبة الأدب وهي المشهورة باسْم "الرابطة القلميَّة"، فأزهرت وأثمرت واشرأبّت إليها الأعناق من كُلّ صُقْع[١]. ثم جار عليها الدَّهر فطَوى عميدَها القَبْرُ، ألا وهو الشاعر الأديب المصوّر الفنَّان، جبران خليل جبران الذي صار الأميركيّون يُحْصونَه اليوم بين شعرائهم الأفذاذ الكبار بالرَّغم من أنّ رفاته ثاوية في ظلال الأرز الخالد..

وهجر الرَّيحانيّ المدينة الصَّخَّابة قاصداً الإقامة في مدينة بسكنتنا[٢] قريباً من واديها الساكن الوادع، متنسِّكا منصرفاً إلى التأليف والإبداع..

وانفلت النُّعَيميّ من القفص الفولاذِيّ، وصَفَّق بجناحيه وطار إلى أعالي صنِّين، ولاذ بالشَّخروب[٣] وترهَّب متَتلمذاً للكأس الأعلى..

وأَلقت رياح الحياة العاصفة نسيب عريضه وراء حجاب كثيف من الجرائد والأوراق في إدارة جريدة "الهُدَى"، فصرنا لا نسمع شعره إلاّ من وراء ضباب كثيف..

وسكت رشيد أيوب سكوت بلبل فارق الماء والرُّبى الغَنَّاء..

وأمسك نَدْرَة حدَّاد عن نظم القوافي إمساك زاهد متعبِّد..

---

(١) الصُّقع بالضمّ الناحية.

(٢) أقام الرَّيحاني في قريَته "الفرَيْكَة" القريبة إلى حدٍّ ما من "بسكنتنا".

(٣) الشَّخروب: منطقة صخريَّة تقع على بُعد خمسة كيلومترات شرقيّ بسكنتنا، وترتفعُ عنها ثلاثمئة متر وهناك كان يمكث نعيمه حتى سُمّي "ناسِك الشَّخروب".

واستغرق مسعود سماحة في سُباتٍ، وكأنّه استغنى عن الشعر بنَكْهَة القَهوة..

وصمتَ نِعْمه حاج في متجره صمتاً متعمَّداً أنساه نَظْم القوافي، ولكنه لم يُكْسِبْه الذّهب..

وقِس على هؤلاء سائر الأُدباء والشُّعراء.

فإذا التفتَّ اليوم إِلى حَوْمَة الأَدب في هذا المهجر رأيتها كالحقل الذي هجره الفلاّحون، فغابت عنه الطُّيور الشَّوادي وبسط فوقه السُّكون سُرادقه[1]..

على أنَّ هذه الحركة التي ظننَّا أنَّها قد همدت في هذا الجانب من الأَرض، تتفتَّح في عصرنا الحاضر عن مثل النُّوَّار في كثير من الأَصقاع الناطقة بالضَّاد، لأَنَّ الفكر كالنّور لا يضمحِلّ فهو لا ينطوي ويغيب في مكان إِلاّ لكي ينتشر غداً في أَلف مكان!

وإِنَّنا لنلمح اليوم فجر حركةٍ جديدة في البرازيل فلا ندري كم تدوم، ولا نعلم عن أيِّ الثّمر تنجلي، ولكنَّها حركة تدلّ على يقظة الأَرواح، أَرواحِ الشعراء والأدباء الطَّامحين إِلى التجديد والخلق والإِبداع..

أَجَل، إِنَّ القائمين بهذه الحركة الأدبيَّة المباركة رَهط قليلٌ، غير أَنَّ كُلَّ حركة أدبيَّة يكون القائمون بها رهطاً قليلاً..

أَمَّا نحن العرب في الولايات المتحدة، فلا ندري بعد أَن راجت سوق العتابا والقِرَّادي في الجرائد، إِذا كُنَّا في هذا المضمار نسير إِلى الأَمام أَم نرجع إِلى الوراء!

---

(١) السُّرادِق: بَيتٌ من شَعر يُمَدُّ فوق ساحة الدَّار. وهو الخيمة، وهو المَنصَّة المسقوفة التي تُنَصَبُ في السَّاحة العامّة يشهد منها رجالُ الحُكْم العروض والاحتفالات. جَمْعُها سُرادِقات.

وهل انقضت مَهَمَّة المفكّرين أَمِ ابتدأت!؟

ومهما كان الأمر، فالواقع اليوم هو أَنَّ بيتاً من العتابا، أو مطلعاً من المعنّى، أو رَدَّة من القرّادي، يلعلعُ اليوم في فضاء هذا المهجر أو على الأقلِ في فضاء جرائِدنا، أكثر مِمَّا تلعلع أَيَّة قصيدة جميلة لأيّ شاعر مُبْدِع!

قد يقول البعض: إنَّها حالة محزنة، أمَّا الحقيقة فهي أنَّها حالة مُضْحِكة!

أوّل أيلول ١٩٣٤

ما رأيت وسمعت في ولاية الأسودَين: الفحم والحديد

انطلقت بنا السيَّارة عند السَّحَر إلى مدينة بتسبرغ بنت الغازولين.. وكأنَّها جنٌّ من جَنِّيّ سليمان، فأخذت تطوي حدود الأرض على أعجازها، فكانت تمرُّ بنا في القرى والدّساكر في جُهمة اللّيل وكأنّها روح عاشق حائر مضى متجوّلاً في الأرض راكضاً في إثْرِ حبيب بعدت به القارِعة[1].. وكان المحرِّك يَرْزِم[2] كما تُرْزِمُ النّاقة، وكأنَّه مسافر يحاول أن يطرد عن نفسه الوَحْشه، فيغَنّي، ويدندن!

ثم أخذت النّجوم تغور، وشرع الفَجْر يترع عنه جلباب الدُّجى ويُطِلّ على الهِضاب، فإذا بنا نخرج من ولاية نيوجرزي ثم دخلنا في ولاية بنسلفانيا المشهورة بجبالها وأَوديتها اشتهارها بالصاحبَين الأَسودَين: الفحم

---

(١) القارِعة: قارعة الدّار ساحتها. وقارعة الطريق أعلاه ووسطه.

(٢) أرزَم الرَّعد يُرْزِمُ: اشتدّ صوته. والرَّزَمَةُ: الصَّوتُ الشَّديد.

والحديد..

وكان النَّهار قد انتصف في ساعاتنا، فشعرنا بالجوع، فعرَّجنا على مطعمٍ في بلدة صغيرة وظننَّا أنَّنا سنُلاقى بالتَّرحاب لأنَّنا رَهْط على سَفَر، فَمطعم كهذا أكثر ربحه من أبناء السَّبيل. ولكنَّنا ما لبثنا أنْ عرفنا أنَّ النَّهار لم ينتصف بَعْد في ساعة المطعم، فقد نهضت إلينا عجوز شمطاء، وهي تقول: لا طعام قبل الساعة الثانية عَشَرَة. فحوقلنا[1] لهذه الصَّدْمة المُنْكَرَة، وأخذتنا نوبة من الضَّحِكْ! فقال لها واحد منَّا: لا بأْس، يكفينا شيء من القهوة، فأجابت وهي ما تزال على كُلوحتها:

ولا قهوة.

فخرجنا ونحن نقارن بين هذه الأَخلاق الجافية والأَخلاق العربيَّة السَّمحاء، ولكنَّنا لم نتذمَّر من تلك المرأَة بقدر ما تذمَّرنا من بطوننا التي صاحت عصافيرها في تلك البلدة، قبل أَنْ ينتصف النَّهار فيها!

ولم يكن هناك مطعمٌ آخر، فاضطررنا أَنْ نتحامل على أنفسنا حتى بلغنا بلدة لويستون، فدخلنا إِلى مطعم أنيق، ودُرنا بمائدة تُطِلّ على الطَّريق ونحن نضحك من عقلية تلك العجوز الشمطاء. ولكن ما كاد الطَّعام يوضع أَمامنا حتى شاهدنا رجلاً ينفتل ويسقط بغتةً أمام السَّيَّارة، كأنَّما انقضَّت عليه صاعقة، ثم رأيناه ينتفض في الأَرض كالدَّجاجة المذبوحة، فسارع النَّاس إِليه، وحملوه إِلى الرَّصيف، ففكّوا أزراره، وعرَّضوه للهواء، ثم جاءَت مركبة الإِغاثة فحملته إلى المستشفى، فعرفنا من بعضهم أَنَّ الرَّجل تصيبه هذه النَّوبَة بين فترة وأُخرى، قد كان من تأْثير هذا المشهد علينا أَنَّنا نهضنا، وتركنا الطَّعام كما هو حتى القَهْوَة،

---

(١) حَوْقَلَ فلان قال: لا حول ولا قوَّة إِلاَّ بالله.

وأيّة شهيّة تبقى مع هذا المشهد..

في ولاية الأسودَين: الفحم، والحديد

مدينة يتسوغ في المدائن مثل (بلقيس) في الملكات؛ سوداء وجميلة!. يحبّها النّاس لدُخانها، كما أحبَّ سليمان الحكيم ملكة سبأ لسواد بشرتها أو لغناها!

ولا غَرْوَ، فهذا الدُّخان الذي يتصاعد من فباركها، وينعقد في الجَوِّ سُحُباً، له الفضل الأكبر في امتلاء الجيوب فضّة وذهباً، ألا وهي جيوب الأغنياء الّذين يستغلّون أجساد النّاس كما يستغلّون المعادن، ويتّجرون بالأرواح كما يتجرون بالآلات الصّمّاء. فهؤلاء لا يسكنون المدينة السّوداء بل في ضواحيها حيث شادوا لأنفسهم القصور الأنيقة، وأحاطوها بالحدائق الغنّاء وأقاموا فيها الهضاب الزبرجديّة والجداولَ الرّقراقة، بعيدين عن المدينة وجلبتها ودخانها، وعن رُؤْية البؤساء الّذين يسرحون، ويمرحون تحت تلك المُلاءَة السَّوْداء..

يتضجّر المقيمون في نيويورك من حياة الرّكض الحثيث المتواصل فيها، وينْسَون في ساعة الضَّجَر والتأفُّف ما في نيويورك من المِيزات التي لا وجود لها في سواها من المُدُن..

فهل خطر لَكَ أيُّها المقيم في نيويورك أنْ تبتاع علبة ثقاب عندما تشتري علبة سكاير؟ كَلاّ، لأنّك تعوّدت أنْ تأخذ الثّقاب مجّاناً مع السّكاير سواءٌ كانت جيِّدَة أو غير جيِّدَة..

أمّا في بنسلفانيا فعليك عندما تشتري العصفور أنْ تدفع ثمن الخيط أيضاً.. ففي هذه الولاية يبيعونك السّجائر فقط ولا يهمّهم إذا كنت تشتريها لتأكلها أم لتحرقها، فعليك أنْ تشتري الثّقاب ولا تترعج من وضع علبته الكبيرة في جيبكَ.

لو كنتُ صاحب معمل سيّارات لنَصَبْت في ساحة محَلّي تمثالاً لمدينة بتسبرغ، لأنّها المدينة التي يتقصّف فيها أعمار السّيّارات قبل الأوان! ولو كنت مُصَوّراً وسُئلْت أنْ أضع لبتسبرغ صورة رمزيّةً، لأبرزتها في صورة شجرة كبيرة عاتية، كثرت الشُّروخ[1] في جسمها ولكنّها مع ذلك لا تزال قويّة غزيرة المائيّة، تمتدّ وتتدلّى منها فروع خضراء كثيرة الورق، شهيّة الثّمَر..

أوّل تشرين أول ١٩٣٤

كيف ينبثق النّور؟

"أغْني أحترِقُ فسأستحيل رماداً
فإذا لم أحترق أنا
وتحترق أنتَ
ونحترق نحن
كيف يخرج من هذه الظُّلمات نور؟".

طالعتني هذه الحكمة الرّائعة في مجلّة "الزهور" مترجمة عن الشاعر التّركيّ المجدّد "ناظم حكمت"، فتراءَت لي عندما استعرضت كلماتها

(١) الشُّروخ: الحروف النّاتئة البارزة، والعُروق. واحِدُها الشَّرْخ.

صورتان: الأولى صورة الشّاعر المتمرّد على الظُّلمات الحالكة يريد أن يخرج منها نوراً ولو احترق وصار رماداً.. والصُّورة الثانية صورة الأُمّة التركيّة التي رسمها هذا الشاعر في كلمته هذه بكُلّ ما فيها من ألوان بل بكل ما في نفسها من رغائب ونزعات.

فهي لو لم تحترق مراراً ويتحوّل كثير من تقاليدها إلى رماد لما استطاعت أنْ تخرج من الظُّلمات وتمشي في موكب الحياة برأسٍ مرفوع.

للسُّوَّاس أنْ يتكلّموا باسم الشعوب التي ينتمون إليها في المجالس والمؤتمرات الروحيّة فيربحوا لها قضيّة أو يخسروا قضيّة..

ولكن عندما يجيء وقت التّعبير عن وجدان الأُمّة يجب على السّياسي أنْ يتنحّى ويترك هذه المهمّة للشّاعر، فما من أحد غيره يقدر أنْ يعطينا عنها صورةً صادقةً..

فهو إذا نطق بما في ضميرها، وإذا وصف شعوره، فإنّه قطعة من شعورها. والأُمّة الجسورة الناقدة المضحّية تَخْلُق مثل هذا الشّاعر المغامر المضحّي..

فهو لا يدعو إلى الاستشهاد فَحَسْب، بل يقرّر حقيقةً لا جدال فيها ولا مراء، فلا يكشف الظُّلمات إلاّ النّور، ولا نور إلاّ إذا كان احتراق سواء أكان ما يحترق فحماً أم عظماً ولحماً!

يحترق الرّسّام في مخدعه وحيداً لا مؤنس له إلاّ الرُّؤى فتتحلُ عناصر روحه إلى ألوان رائعة، وأظلال ساحرة، وطيوف خالدة، فإذا بذلك الذي كان تراباً يتحوّل إلى قَبَسٍ من نور يؤْنس كُلّ تائه..

ويحترق الشاعر فيتطاير قلبه شرراً متألّقاً؛ كُلّ شرارة فردوس بهيج.

ويحترق المفكّر فتتطهّر نفسه وتصفو، وتتّسع وتعلو حتى لتصير كالسّماء تُظلّ الكُلّ وتدعو إليها الكُلّ..

فما أجمل - يا قومنا - هذا القول الذي قاله هذا الشاعر التركيّ العظيم: إن لم نحترق لا يخرج نور، إن لم نحترق فلا يحقّ لنا أنْ نشكو من بقاء الظّلمات الدّاجية حولنا!

أليس من الأفضل والأجمل لنا أنْ نتطاير لهيباً من أنْ نتلاشى دموعاً؟

إنّ الأمّة التي تعيش وترى النّور ولها في الحياة حَقٌّ صريح، هي الأمّة التي تمجّد بنيها المحترقين لتُخرج من قلوبهم وأرواحهم ناراً لا يستضيئون هم بها، ويستضيء سواهم..

أمّا الأمّة التي يكثر فيها ا لخاملون الجبناء الّذين لا نور في أرواحهم ولا حنين فيهم إلى النّور، أمّة يمرّ بأبنائها النّور فيغمضون عنه العيون لكي لا يَرَوْه، كما يغمضونها لدى رؤيتهم للقذى. فتلك أمّةٌ لن تذوق لَذّة النّور، ولا خوف عليها من أن تحترق في يوم من الأيّام.

إنّ أمّةً هذا شأنها ودأبها، يولد الرّسّام حين يولد فيها للعذاب، والمفكّر لصنوف الاضطهاد، والشّاعر للألَم..

فكُلّ هؤلاء معرّضون للاحتراق، أمّا هي فلن تحترق أبداً..

لا يحترق الرّماد..

أوّل كانون أوّل ١٩٣٤

الغُول الأَكبر

سواءٌ أكان الغول موجوداً كما تزعم الأمّهات الجاهلات عندما يخوّفن أطفالهُنّ كلّما تشيطنوا وعَصَوا أو تمرّدوا، أو كان الغول كما يُعَرّفه القاموس شيطاناً يأكل النّاس، أو دابّة رآها العرب وعرفتها - ومنهم عنترة الّذي وصف الغول في قصيدة له وصفاً ينطبق على الغوريلاّ -

سواء كان هذا الأمر أو كان الغول أوّل المستحيلات كما جاء في

قول الشاعر:

أيقنْ إنَّ المستحيل ثلاثة ... الغول والعنقاء والخِلّ الوفي[1]

فالأمر لا يهمّنا؛ لأنّه ليس موضوعَنا في هذا المقال!

فنحن لسنا في مَعْرِض البحث عن صحّة أو فساد ما قيل عن الغول؛ وعندنا إذا لم يكن آفةً رهيبةً فهو رمزٌ لكُلّ أُمّة رهينة مُهْلَكة.. وعلى هذا قال الكُتّاب: غول القمار، وغول الأفكار، وغول الاستعمار؛ لأنَّ هذه كُلّها آفات تفترس الأخلاق وتذهب بالأموال والأعمار والدِّيار.

كُلّ هذه غيلان فتّاكة بطّاشة يجب الحذر منها والاستعداد لرفع أذاها، ولَكِن أشدّ فتكاً من هذه الغيلان كُلّها غول نحن الّذين خلقناه ونحن الّذين نطعمه ونسقيه، ونأخذه معنا إلى كُلّ جمعيّة نؤسّسها، ونجلسه إلى جانب المحرِّر في كُلّ جريدة نكتبها، ونزجّ به في كل حفلة نقيمها..

فكثيراً ما سرنا به إلى الكنائس وخرجنا به من المدارس!

وكثيراً ما تماوج خياله في أفراحنا وأتراحنا!

هو الغول الذي يجب أَنْ نقاتله حتى نظفر به، ولكِنّنا لا نقاتله. وهو الغول الّذي يجب أَنْ لا يكون له وجود، ولكنّه لسوء الحظ أكثر من موجود.

وهو غول ليست له أنياب محدَّدة كالحراب، ولكنّه يَجْرَح ويذبح ويَنْهَشُ ويمزِّق!

وليس له أشكال الضّواري ولا وثباتها وهجماتها القاسية إنّما قتْلاه أكثر عدداً من كُلّ ما افترست الضّواري كلّها وتفترس.. هو غول النَّعرة

---

(1) الغُول: حيوانٌ وهْميٌّ.
العَنقاء: طائر معروف الاسم مجهول الجسم.

المذهبيَّة..

يكون لَك صديق يحزنه ما يحزنك، ويسرّه ما يسرّك، وتظلّ أنت وإيّاه على وفاق مثل الذي بين الماء والخمر.. فإذا تعرَّض بينكما شبح هذا الغول أنكرته وأنكرك فلا أرضه أرضك ولا سماؤه سماؤك..

وتتألّف جمعيَّة وطنية عموميَّة ويتحمَّس الأعضاء ويجاهدون لجعلها مؤسَّسة مفيدة، ويكثر المحبِّذون والمنشِّطون والمتبرِّعون. ولكِن لا تمرُّ سنة أو بعض السَّنَة حتى يمدّ أحدهم يده ويحرِّك ذلك الغول النَّائم، فيستيقظ ويقذف من شِدْقَيْه سمّاً وناراً، فتذبل تلك الغرسة رويداً رويداً، أو تحترق لساعتها. ويمدّ المرء بصره فيرى القاعة أقفرت من الأعضاء، ويصغي فلا يسمع غير أصوات اللاّئمين والمندِّدين والمشنِّعين.

ويكون الحالُ في مدينة أو بلدةٍ على أحسن ما يكون من التَّضامن وحسن الأُلفة والجوار..

فإذا أصاب أحدهم مكروه فكأنَّه أصاب الجميع، وإذا أقبلت الدُّنيا على أحدهم نال الكُلّ شيءٌ من ذلك اليُسْر!

ويظلّ القوم كذلك حتى يجيء من ينبِّههم إلى أنَّهم من مذاهب مختلفة، وأنَّ الغول الأكبر سيظهر عما قريب بينهم، فيكون أوَّلاً الفتور ثم الفتور فيصبح القوم بعد ذلك كالعقد الذي انفرط وتبدّد، ويمسي بعضهم إذا عرت جارَه نكبَةٌ أو ألَّمت به خسارة ينظر إليه بعين الشَّامِت القالي..

هذا ما نشاهده من آثار هذا الغول الكريه في المهجر. إنّ في الوطن فَهْداً أعظم فتكاً وأشدّ بطشاً لأَنّ كُلّ شيء يدور حوله أو أنَّه هو يحيط بكُلّ شيء، هو عندنا كالأفيون في العَين يقتلنا ونحبّه..

ولهذا الغول أصحاب كُثرٌ؛ فهم لا يملأون بطونهم إلاّ إذا قتل وفتكَ،

ولا ترتوي نفوسهم العطشى إلاّ بالدّماء التي تتدفّق من أعناق ضحاياه.

ليس مع وجود هذا الغول في الحومة قيمة للكفاءة الذّاتية..

وليس مع وجوده في الصّحافة قيمة للحقائق ولا سيّما إذا كانت تلك الحقائق عند السّوَى[1]..

وليس مع وجوده في الجمعية قوّة للجمعيّة ولو كان كلّ عضو من أعضائها أشدّ قوّة من هرقل، وأكثر حكمةً من سليمان..

وليس في وجوده في هيئة تحبّبها إلى النّفوس ولو كان أصحابها مثال الزّهد والاستقامة والكمال!

وليس أيّ مكان تطأه أقدام هذا الغول بالمكان الموافق!

كيف السّبيل إلى النّجاة من هذا الغول الهائل؟

ومتى ننتبه إلى ضرورة العمل للنّجاة من براثنه؟

١٥ كانون أوّل ١٩٣٤

مذكّرات أحمق

– الشتاء الأبيض –

نحن الآن في فصل الشتاء أو في صَبارّة القرّ[2] كما يقول اللغويّون في الفصل الذي تغدو فيه الطّبيعة مسرحاً ترقص فيه العواصِف، وتبكي السُّحب، وتضحك البروق، وتصمت السّواقي والجداول صمت المنكوب

(١) السّوَى: المقل والتّطهير.

(٢) صبارّة القرّ: وبتشديد الرّاء شدّة البرد.

المقهور، ويتجهّم وجه السَّماء كما يتجهَّم وجه الذي فوجئَ بنكبة هائلة.

كنت من قَبْلُ مثل كُلّ النَّاس أذُمّ الشتاء، وأودّ لو أنَّه لم يوجد. أو أنَّه جاء وأنا مقيمٌ في مكانٍ قريب من خطّ الاستواء. أو لو كنت غنيّاً يمكنني أنْ أنتقل إلى موضع لا شتاء فيه فراراً من البرد القارس والوحول والثلوج والغيوم السَّوْداء.

وقد فكّرت مرَّة في أحوال الأغنياء، وكيف يضطرون لكثرة أشغالهم البقاء إلى جانب أموالهم حتى في الصَّيف لئلاّ تلعب بها أيدي الضَّياع، فأدركتُ أنّ الثروة تستعبد صاحبها أحياناً فلا يستطيع الانفلات والانتقال عندما يريد إلى حيث يريد..

لذلك رجعتُ عن تلك الأُمنية وعدلت عنها؛ أي عدلت عن أن أصير غنيّاً! واشتهيت لو خلقني الله نوريّاً، لأنّ النَّوَر وحدهم - على ما يظهر - هم الّذين لا يقيّدهم مكان، بل يسيرون وراء الرَّبيع أينما سار، ويترلون أينما نزل، فكُلّ دار حَلُّوا فيها نِعْمَ الدَّار والمرتع، وإن كانوا لا يملكون من أرضها ولا من ترابها ذرَّة، وليس لهم بين أهلها صديق ولا حبيب.

ولَكنْ شاءَت الحياة أنْ لا أصير غنيّاً وأنْ لا أكون نوريّاً، فعلَيَّ إذن أن أحبَّ الشتاء ووحوله وأمطاره وثلوجه وبرده وزمهريره وبكاءَه وصريره، إذ ما يفيدني أنْ أكرهه وأعدّ عيوبه وزلاَّته وجناياته ومساوئه؟

فلقد جلست أمْسِ إلى نافذتي أنظر إلى السماء الكئيبة تَذْرِف دموعاً بيضاء كاللّجينَ[1] المفتوتَ أو القطن المتقَطّع المنثور. ومَا هي غَير سويعة حتى رأيت الأرْض تغيب تحت لحاف أبيض، ورأيت النَّاس يسيرون على

(١) اللُّجين: الفِضّة.

هذا البساط اليَقَق[1]، فتذكّرت الأشباح التي تمرّ على الشّاشة البيضاء في دور السّينما، ووجدت بين الحقيقة والوهم قرابةً ونسباً، حتى كأنّهما أخوان توأمان..

ليس هذا الشتاء الأبيض الذي حاكته يدُ الطّبيعة للأرض بلا أجرة بأوّل شتاء من نوعه، وليس هؤلاء النّاس الّذين يخطرون فوقه بأوّل قوم ظهروا على مثله، كما أنّه لن يكون آخرِ ستار، ولن يكونوا هم آخر الممثّلين. فرواية الحياة أعجب الرّوايات؛ إنّها رواية تتكرّر ولكنّها لا تنتهي، إذا غاب ممثّل ظهر آخر..

هي فكرة قاتمة كئيبة خلقها في ذهني الشتاء العابس الحزين، لا تلد الحيَّة إلا حيَّة، ولكِن أنا أخذتُ على نفسي عهداً أنْ لا أذمّ الشتاء وإن ساءَتني منه أشياء. فيلوح لي أنّه خليق بأن أُثْني عليه لما له من الأفضال الكثيرة والأيادي البيضاء على البشر. فلولا زمهريره وثلوجه وأمطاره ووحوله، لما خطر للإنسان أنْ يبني البيوت والقصور ولا أنْ ينشيء الدُّروب، والمسالك، ويَرْصُفُها بالحجارة وغير الحجارة، ولا ينسج الثياب ويصنع الأحذيةَ، ولا أن يستخرج النّار من الحجارة، ولا أنْ يصنع المظلات، ويجمّر المواقد، وما شاكل..

إنّي أُحبّ الشتاء لهذه الأُمور، وفي الوقت ذاته أكرهه لهذه الأُمور ذاتها؛ فلولاه لم يتحضّر الإنسان، ولو لم يتحضّر لكان رجلاً حُرّاً طليقاً يسير حيثما أراد، وذلك من دون أن يضطرّ إلى استنشاق روائح الغاز!!

أوّل كانون الثاني ١٩٣٥

---

(١) اليَقَق : القُطْنَ. وأبيض يَقَق: شديد البياض.

لماذا ولمن تكتب أو تنظم؟

تسألني لماذا أكتب؟

إنَّ الأسباب التي تحفِّزني إلى الكتابة كثيرة وغير متجانسة. إلاَّ أنَّ الغاية منها تكاد تكون واحدة لا شأن لها، وهي أن التمس في شعري فكرة تبقى؛ وما أحسب الباعث على هذا كُلّه إلاَّ رغبتي أنا في البقاء والدَّوام..

يتَّخذ الكثيرون من هذه الرَّغبة بُرْهاناً على الحياة بعد الموت؛ أي إنَّ الإنسان يترع إلى الخلود لأنَّ الخلود ينتظره حَتْماً. ولكنّها من جهة أُخرى برهان على كون الإنسان غير واثق مِنْ ذلك الأمر. وما أراه يجاهد ويناضل للبقاء بالكتابة والتَّصوير والآثار الأُخرى إلاَّ لأنَّ صوتاً خفّياً يهتف به دائماً قائلاً له: إنَّك للزَّوال.. إنَّك للاضمحلال! فأنا أكتب وأنْظمُ لأنِّي أستطيع استحضار الألفاظ كي تعينني على إبراز صورة في ذِهني، أو تأدية فكرة في رأْسي، أو تصوير عاطفة في قلبي. وأمَّا قلبي فهو ينفر من الصُّوَر التي تجيء على غير قياس، أو التي تتركّب لذاتها عند انتقاء التَّعابير المسبوكة كالنقود كما تتركَّب الطاولة من أجزائِها المصنوعة في المعمل..

أمَّا لمن أكتب؟ فهذا السّؤال أظنُّني قد أجبت عليه من قَبْلُ، في الفاتحة التي وضعتها لديوان "الجداول" حيث قلت:

يا رفيقي! أنا لولا أنتَ ما وقّعـتُ لحْنـا
كنتَ في سِرِّيَ لَمَّا كنتُ وَحديْ أتغنّى

أجل، كُلُّنا نكتب لهذا الرَّفيق، أفرداً كان أو جمهوراً. وإذا لم يكن

موجوداً تصوّرنا وجوده وحدثناه.

١٥ كانون الثاني ١٩٣٥

ماذا تحبّ أنْ تنسى؟

النّسيان أحياناً نعمة كبيرة، بل هو في معظم الأحايين من أكبر النّعم التي أسبغها الله على البشر..

فلولا نسياننا الإساءات لَظَلَلْنا أبد الدهر حاقدين نطلب الانتقام. ولولا نسياننا النّكبات والأخطار التي لقيناها لمات فينا الإقدام وتلاشى الطُّموح. ولولا نسيان المفجوعين للّذين فقدوهم لظلّت دموعهم تترقرق، وزفراتهم تصعّد..

ولكن ليس كُلّ النّسيان جميلاً، فإنّ نسيان المرء عيوبه هو الذي يشجّعه على ذكر العيوب في سواه، وهذه خَلّة[1] ذميمة!

ونسيان الشّيخ أنّه كَبِرَ عن الغرام هو الذي يحمله على التّصابي، والتّصابي في الشّيخ مَمْقوت..

ونسيان الغنيّ أنّه كان فقيراً هو الذي يدفعه إلى احتقار أبناء الخَصَاصة[2] والفقر. فهذه خصلة تشوّه سمعة صاحبها وتنقص من قيمة غناه! كُلّنا ننسى كثيراً أو قليلاً، وكُلّنا نحبّ أنْ نلجأ إلى النّسيان في مواقف مختلفة، ولذا فإنّني أُحِبّ أن أنسى ست ساعات من تاريخ حياتي الماضية.

١- السّاعة التي صفّيت فيها حسابي مع العمل لأوّل مرّة.

---

(١) الخَلّة: الخصلة والعادة.

(٢) الخَصَاصة والخَصَاص: الفقر.

٢- الساعة التي سلّمت فيها مجهود اثني عشرَ عاماً لشياطين البورصة في نيويورك!

٣- الساعة التي أحببت فيها!

٤- الساعة التي أصغيت فيها إلى رَجُلٍ يَرْشُقُ بقوارص الكلام رجلاً حسناته أضعاف سيِّئاته، دون أنْ أذكر له ما أعرفه من الحسنات والصفات المستحبَّة في الذي يذمُّه..

٥- الساعة التي استدنتُ فيها مالاً من أصدقائي على أمل إرجاعه إليهم في أقرب وَقْتٍ، فمرَّ أكثر من عام دون أنْ أَفِيَ من ذلك الدَّين سَنْتاً..

٦- الساعة التي أنا فيها؟!

وصدِّقني - يا سيِّدي - هذا الذي أُحِبّ أنْ أنساه!

- إيليا البطّال-

١٥ كانون الثاني ١٩٣٥

أُمراء وملوك وسلاطين

قال لي أَحدهم: إنَّ اللُّغة العربيَّة تفقد في عصرنا الحاضر قوَّتها وجمالها.

قلت: زدني إِيضاحاً لأنِّي لم أَفهم قصدك!

قال: لا أَعْني شيئاً غير الذي قلت لَك، وتوضّحه لَك الكلمات التي نطقتُ بها؛ وهي أنَّ اللّغة العربيَّة تفقد قوَّتها وجمالها. وإِذا سألتني: كيف؟ أجبتك أنَّها تفقد قوَّتها وقيمتها، لأَنَّ الَّذين يكتبون بها في هذه الأيَّام

يستخدمون ألفاظها لغير ما وُضعت له.

خُذْ مثلاً هذه العبارة - "الأديب الكبير" - فإننا لو ترجمناها إلى الإنكليزيَّة لوجدنا أنّ معناها في القاموس" الكاتب العظيم". ولو جئنا نبحث عن الكاتب العظيم لما وجدنا غير بضعة أفراد في كُلّ أُمَّة حتى أرقى الأُمم.. أمّا عندنا فلم يبق أحد كتب مقالةً في جريدة أو ألقى خطبة من على منبر إلاّ ونَعَتَتْه الجرائِد بالأديب الكبير، حتى صرنا نفتّش على أديب صغير فلا نجده، ولو دخلنا مع النُّور إلى كُل مكان! وخذ مثلاً آخَر: أمير الشعراء.. أمير الفن، ملك الإنشاء، سلطان العود.. فقد أصبح عندنا من الأُمراء، والملوك، والسَّلاطين ما يزيد عن حاجة الأُمَم كُلّها.

فما معنى هذا كُلّه، يا صاحبي؟ أليس معناه أنّنا لا نفهم ما نقول، أو أنّنا نتوهَّم أنّ النَّاس الّذين يقرأون لا يفهمون؟

وهل بقيت لهذه الكلمات قيمة بعدما ابتذلت كُلّ هذا الابتذال[1]..

قلت: وهل لديك لهذه الآفة من علاج؟

قال: نَعَم، لها عِلاج واحد، وهو أنْ نهجر اللُّغة العربيَّة ونكتب بلغة أُخرى يقرأُها غيرنا من النَّاس، لعلّنا نستحي منهم فنكفّ عن هذه السَّفاسف[2]، لأنّنا على ما يظهر لا نستحي من أنفسنا! فصمتّ بُرْهة ثمّ قلت بعد ذلك في نفسي ولنفسي: لا، لا، بل يجب أن نسعى لحمل قومنا على فَهْم لغتهم فهماً صحيحاً بحيث لا يصير أحد يستعمل كلمةً إلاّ بعد تمحيص وتدقيق..

١٥ شباط ١٩٣٥

(١) الابتِذال: ترْكُ الاحتشام؛ في اللُّبس أو الكلام.

(٢) السَّفاسِف: والسَّفْساف الرَّديءُ الحقيرُ من كُلّ شيءٍ.

مذكّرات أحمق

- واحد بِمَقام ألف -

هل وقع لَكَ مرّةً أنْ اختلفت وصديقاً لَك، لا لِعَيْب فيه ولا لذَنْب جناه، بل لِحَسَنَة له انقلبت في أيْدي النّاس سيِّئَة؟ هذا ما وقع لي بالأَمسِ، فقد اختلفت أنا والشَّيخ ناصيف اليازجيّ!

لا تُقَفِّلُ حاجبيكَ استغراباً قائلاً: عَجَباً كيف يختلف حيّ مع مَيْت واراه التّراب منذ عشرات السِّنين؟ لا، ليس الخلاف مع مَيْت بل مع بيت!

وللشيخ الذي طَمَره التّراب آيات حِكَميَّة لا تطمرها الأحقاب. واختلافي مع هذا البيت هو أنّ كثيرين يوردونه لمناسبة ولغير مناسبة حتى صار لا يصلح لمناسبة ولا لغير مناسبة!

أمّا هذا البيت فهو:

إِذا عُدَّت رجالُ العصـر يوماً ... فــإنّك واحــد بمقام ألــفِ

مَرَّ هذا البيت أمامي مئات المرّات وردَّدته قبل ذلك فلم أنتبه إلى أنّه غلو غير معقول، حتى سمعت أحدهم يتمثّل به في مدح إنسان ممَّن يستأهلون الشيءَ الكثير من الثّناء. أمّا أن يكون بِمَقَام ألف من رجال العصر فممَّا لا يمكن التّسليم به ولا السُّكوت عنه!

إذا أَخذنا كُلَّ أُمَّة على حِدَة في أيّ عصر من العصور، لم نجد عندها غير بِضْعة أفراد ممتازين، وهؤلاء هم الّذين نسمِّيهم النّوابغ العباقرة أو

رجال العصر. ولو أنّنا جمعنا اليوم الرِّجال الممتازين في كُلِّ أُمَّة لما وجدنا ألف رجل، ولا نصف الألف..

فهل يمكنك أنْ تتصوَّر وجود رجلٍ سياسيّ ممتاز يَعْدِل ألف سياسيّ ممتاز في هذا العصر؟

أو أنّ مخترعاً واحداً يسوى ألف مُختَرِع؟ أو أنّ شاعراً كبيراً بِمَقام ألف شاعر كبير؟

وبعبارة أُخرى أيمكن أن يكون عندنا إِنسان إِذا غاب ألف رجل ممتاز وبقي هو أغنى عنهم؟

كلاّ يا صاحبي، كَلاّ فرجال العصر قليلون، ويكادون يعدّون على الأصابع وفي أفقر الأُمم من هذا القبيل. فليس عندنا مخترع ولا شاعر أعمى.. لو قال الشَّيخ: إِذا عُدَّ النَّاس، لكان المعنى محمولاً ومقبولاً على العينين والرّأس.. ولكنّه قال: "رجال العصر" وخَفَّ البيت في المسامع، وجَرَد على الألسنة، وسار مثلاً دون أن ينتبه قائلوه إِلى ما فيه من الغلوّ الخارج عن دائرة المعقول..

ولكنَّنا نحبّ الشِّعر ونُحِبُّ فيه الغلوّ المُفرط، إِذن فليبق هذا البيت كما ورد، ولنتمثّل به كلّما حَسُنَ لنا، وليمتْ كُلّ رجال العصر قهراً وغمّاً!!

١ آذار ١٩٣٥

كتّابنا ووجوه الصِّينيِّين

كنتُ أتحدَّث إِلى أحدهم في الأدب، وفي أيّة ناحية يتّجه والى أيّة

غاية يسير، فوافقني على القول بأنّ في النثر والشّعر مرونة لم تكن فيهما لبضع سنين خلت، وأنّ الحرب التي قامت بين المجدّدين والمقلّدين في العالم العربيّ ليست في الواقع حرباً وإنّما هي لدى الفريقين بمثابة خوف محض.. فقد خشي المقلّدون أنْ تزول دولتهم وهم أحياء ينظرون، فالتهبوا كما يلتهب المصباح وقد أوشك زيته على النّفاذ..

وخاف المجدّدون أنْ يكون وراء ذلك الالتهاب نار حامية آكلة، فانصرفوا عمّا هم فيه إلى مكافحة تلك النّار الوهميّة. ولو تأمّلنا سَيْر هذه الحركة لوجدنا أنْ لا خلاف بين الفريقين؛ فكلاهما يسعى إلى الأحسن ناشداً لنفسه البقاء، وإنّما الخلاف يكمن في طريقة التّفكير..

فالمتمسّكون بالأساليب القديمة يعتبرون الأدب أسلوباً فقط، فهم لا يفكّرون فيه إلاّ من خلال هذه النّاحية فقط. وأمّا الثّائرون المجدّدون فهم لم يثوروا إلاّ لكونهم يرون أنّ المقلّدين يحملون إلى النّاس آنية ولكنها فارغة ولا شيء فيها يُذْكَر، وما كان لعطشان أنْ يؤثر على إناء من فخار فيه شراب بارد يرويه إناءً من ذهب لا شراب فيه.. ولقد كان من نتائج هذا العراك الطّبيعي انفلات أكثر الكُتّاب من قيود التكلّف والتأنّق، ثُمَّ أخذ بعضهم يكتب القصص ولكن بأسلوب شيّق واضح فصيح.. والتفت الشعراء إلى ما جرى ويجري في زمانهم من أحداث وتقاليد قديمة وعادات سيئَة، فعالجوها واصفين لها الدّواء الشافي الناجع وكل ذلك بأسلوب سهل واضح جليّ خالٍ من الكنايات والاستعارات والتعابير السطحيّة الغامضة.. وأضحى القرّاء لا يقنعون من الكاتب بالألفاظ المبهرجة ولا من الشّاعر بالقوافي الرّنّانة الخالية من كُلّ معنى جديد مبتكر..

كنت وصديقي على وفاق حتى أسمعني هذه الجملة المعترضة: ولكن

كتّابنا كوجوه الصّينيين عند السّواد الأعظم..

قلت له: ماذا تعني؟

قال: أعني أنّهم سواء؛ وذلك بفضل الطّريقة المتّبعة في أكثر الجرائد.

قلت: لم أدرك مَرْمَاك بعد!

قال: أنت تعرف الصّيني من ذؤابته وعينيه الضّيّقتين الغائرتين ووجنتيه البارزَتين، ومن قفطانه الشّبيه بقميص النّوم.. أو من حانوته كُلّما مَررت به..

ولكنّك يعجزك أنْ تعرف أي صينيّ هذا الذي تراه؟ ربما كان غسّالا" أو عتّالاً أو زبّالاً، أو كاهناً أو فيلسوفاً أو جزّاراً.. أم أنّه واحد من أتباع كونفوشيوس والسّلام..

فكتّابنا على ما أرى كلّهم نحارير ومشاهير، فالذي يكتب بدم روحه كاتب في نظرهم. والذي لا يكتب إلاّ بدم الدّواة كاتب عندهم أيضاً.. فالذي يصل بقلمه إلى قرارات النّفوس واصفاً ما فيها من حسنات أو سيئَات يعتبر كاتباً. والذي لا يصل بقلمه إلى أبعد مِنَ الدُّواة يعتبر في نظرهم كاتباً أيضاً سواء بسواء.

أفمن يأْتي بالفكرة الجديده والمعنى اللّطيف المبتكر يعتبر كاتباً كما يعتبر كاتباً كذلك الذي لا يأْتي بشيء جديد مبتكر؟

قلت: أسلّم معك أنّ شيئاً من هذا موجود لدى الكثيرين من النّاس، ولكن وجوده لديهم ليس مِمَّن يعرقل سير الأدب..

قال: بَلى، يعرقله، إذا كان بعض النّاس لا يطالعون مؤلفات الكُتّاب إلاّ إذا كانت أسماء مؤلفيها مشفوعة بالألقاب الطّنّانة الرّنّانة الخالية من كُلّ معنى أصيل. وهي تلك الأسماء التي تزيّن بها صفحات الصُّحف.

قلت: ولكن الأديب الحقيقي لا يعيش لزمانه فقط، وليس من

الضّروريّ أن تطير شهرته محلّقة في أعالي السماء.. وهو حيّ، فالكثيرون عاشوا في عصرهم مغمورين منسيّين. فما طمست بالرغم من كل ذلك آدابهم وأقوالهم ومؤلفاتهم ولا ضعفت ملكة الخَلق والإبداع المقيمة في عقولهم وصدورهم..

ولو رجعت إلى الصّحافة العربيّة منذ أكثر من ربع قرن لوجدت أسماء كثيرة مدوّنة فيها، ولكن عناكب النّسيان نسجت عليها بعد إصدارها خيوطها.. مع أنّها مشفوعة بنعوت هي غاية في الضّخامة والفخامة مثل: الشاعر المُفلق[1]، والكاتب اللّوذعِيّ[2]، والعلاّمة اللُغويّ، وهلمّ جرًّا!.. فأنت ترى أنّ النعوت الرّنّانة والأوصاف السّابغة التي تضفيها بعض الجرائد على غير مستحقّيها وتساويهم بالمستحقّين، لا تبدّل ولا تستطيع أن تضلّل، وإن ضلّلت السُّذّج.

أتراك لو صوّرت طائراً، وقلت للناس هذا طائر، يصدّقونك قبل أن يَرَوْه مصفقاً بجناحيه متنقّلاً بين الأشجار من فنن إلى فنن صادحاً مزقزقاً مغَرّداً، أو واقعاً على الأرض ليتلقّط الحَبّ، أو واقفاً على ربوة يتفلّى في ضوء الشمس؟ لا يا صاحبي فالأخيلة لا تصير حقائق وإن شابهتها، والغصون لا تقوم مَقام القُدود وإن شُبّهت بها، والخرز المنظوم عقوداً لا يوزن بموازين اللؤلؤ ولن تكون له قيمته..

فلتطمئنّ يا صاحبي ولتعلم أنّ هذه الفوضى سيزول آخرها كما زال أوّلها..

وأخيراً، إني لموافقك رأيك القائل بأنّ هذه الطريق المتّبعة في إسداء

---

(١) الشاعر المُفلق: المُبدعُ الذي يأتي في الشّعر بالغرائب.

(٢) اللّوذعِي: الذّكيُّ المتوقّدُ الخاطرِ، الفصيحُ اللسان.

النعوت الطّنّانة الفارغة قد جعلت معظم الكتاب كوجوه الصّينيّين، ولن يصير أحد من بينهم كونفوشيوس إلاّ الذي أرادت له الآلهة أنْ يصير.. ولن تبدّل مشيئة الجرائد مشيئة الآلهة..!

١٥ آب ١٩٣١

الطّواويس البشريّة

إذا أضفَت الآلهة عليك بركاتها وآلاءها، فاشكر لها فضلها وحدّث بنعمتها غيرك، وإنّما لا ترفع عَقيرتكَ[1] كثيراً لِئَلاّ تسمعك فتندمَ فتستردَّ هباتِها!

وهَبْ أنّها لم تسمعك، فإنّ أصدقاءَك لا يلذّ لهم كثيراً أن تردّد على مسامعهم حديث نجاحك، وغناك، وبراعتك، وشهرتك، وحَظّكَ، فالطّاووس على جماله مكروه لخُيَلائه، وإعجابه بنفسه، وفي الأساطير أنّه حُرِم الصّوت الجميل لفرط زهوه وعُجْبِه.

زِدْ على ذلك أنّك أنت نفسكَ قد تستحي في سِرّك من طريقتك في المباهاة والفخر اليوم. ولكن أرجو أنْ لا يأتي ذلك اليوم الذي تستحي فيه من نفسكَ، كما أرجو أنْ تستمرَّ هانئاً آمِناً إلى آخرِ رواية الحياة!

ولَكِن، مَنْ يعلم؟ فإن التّجارة التي رفعتكَ إلى عرش الغِنَى قد تبور غداً فلا يبقى لَك عرش. والشّركة التي ابتعت أسهمها فتضاعفت ثروتك قد تُفلّس وتتبدّد، فلا تبقى لَك ثروة. ومع ما لَكَ من البراعة والمهارة، قد

---

(١) العَقِيرة: صوت المُغنّي والباكي والقارئ.

يأتي من هو أبرع منك وأمهر، فيحرفك في الطّريق ويُنكّس عَلمكَ لينصبَ مكانه علمه. أمّا الحظّ الذي يخدمك الآن، فإنّه ينفلت عليك غداً فيصبح امرءاً غاشماً مستبدّاً! فحَريٌّ بك أن تكبح من جماحك قليلاً، وأن تحسب لهذه الأمور حسابها شأن الإنسان العاقل، لأنّك إذا أغمضت عينيك لا تلبث أنْ تعثر، فتسقُطَ أو تَصْدُمَ صخراً، فتتهشّم..

لا ثبات لما يشيّده الإنسان إذا كان الأساس رملاً لا صخراً، ولذلك ربما وجدت اليوم في هذا المكان صخراً، ووجدت غداً مكانه قصراً آخَر. ليس للفنّ والنّجاح والشّهرة بقاء، فقد تتدحرج الأسهم في البورصة فيهوى معها المُضارب المُثري إلى الحضيض. وقد يغفل الحظّ لحظةً عن لاعب الطّابَة أو الفارس في حومة الطّراد أو الطّيّار على متن الرّيح فيغوص في لُجّة النّسيان، ويصبح كأنّه لم يكن!

فإنّ الجمهور كالمرآة تحطّم كُلّ يومٍ تمثالاً لبطل لكي تنصب مكانه تمثالاً لبطلٍ جديد..

كم من أُسَرٍ عريقةٍ في الجاه والفخر، انقلب بها الدّهر فإذا هي لا تملك شيئاً غير الأسف على ما فات..

وكم من حكومات عَلَت حتى لا عُلُوّ قد سقطت ونسجت عليها عناكب النّسيان..

وكم من ممالك عظيمة اضمحلّت كما يضمحلّ الدُّخان!

فالإنسان الذي يعتقد أنّه مستثنى من شريعة التّبديل والتّحْويل الأبديّة، هو بلا شكّ رجل أحمق وأُعيذك أنْ تكون ذلك الرّجل! كم من النّاس الّذين ينفقون مالهم إلى آخر بارة وقوّتهم إلى آخرِ ذَرَّة، ويبدّدون الفرص الذّهبيّة التي بين أيديهم كأنّها تنبت كالشّوْك على جوانب الطّريق غير حاسبين لمجيء الشيخوخة، ولا لنفاذ القُوى حساباً! بالطّبع إنهم لا

يتعمّدون السُّخر من القضاء ولَكِنَّ تصرّفاتهم تتضمَّن هذا السُّخر..

هؤلاء هم التّياهون المختالون المعجبون بأنفسهم وبما يملكون فلا تكن منهم، فَالعقلاء لا يَدِلُّون[1]، ولا يتيهون بغناهم، ولا شهرتهم ولا براعتهم ولا بسواها من النِّعَم، كما أنّهم لا يحتقرون غيرهم ممّن لم تباركهم الآلهة بعد، لأنّهم بحكمتهم يعلمون أنّهم قد يتأتّى عليهم يوم يضطرون معه إلى التّخلّي عن مراكزهم لغيرهم!

فتحدَّث بنعمة ربِّكَ وإنّما لا تكثر التّشدُّقَ..!

الفردوس المفقود

كنت مستأجراً بيتاً أنيقاً في بروكلين لرجل إيطالي طيِّب الأخلاق، حريص على راحة المستأجرين حرص الحسناء على أسنانها الدُّرِّيّة تُعْنى بهم عناية المُضارب في البورصة بمراقبة أسْعارها.

فكنّا إذا انفجر أنبوب من أنابيب الماء أو الحرارة دعوناه فأرسل حالاً من يلحمه أو يبدّله في أنبوب جديد. وإذا تعطّل الموقد ناديناه بالتلفون فيبعث رجلاً ليصلّحه أو جاء بنفسه وأصْلحه..

مرَّت الشّهور تَعْقُب الشّهور والسَّنوات تتلو السَّنوات، ونحن لا نشعر بأنَّ البيتَ ملكُ سوانا إلاّ في أوّل الشّهرِ وذلك عندما يأتي صاحبه لأخْذ الكِراء[2]..

وكانت لنا ولزوّارنا الحريَّة التّامّة؛ نغنّي كما نشاء، ونرقص فلا

---

(1) دَلَّ يَدِلُّ: افتخرَ، أو مَنَّ بعَطائه. المصدر: دَلاً ودلالاً.

(2) الكِراء: أجْر المُستأجَر.

يتذمَّر أحد، ولا يتشكَّى حتى من صوت جرن الكُبَّة[1]، إذْ ليس هناك أحد سوانا. أمَّا الجيران.. فماذا علينا منهم؟ إنَّهم يرقصون على طريقتهم، ويغنّون كما يبدو لهم، فلا نعترض ولا نفكِّر حتى بالاعتراض..

فإنَّنا بدَورنا لنا طريقتنا في الرَّقص والغناء، فلا ينبغي لهم أنْ يترعجوا، إنَّما لا يدوم غير وجه الخلاَّق..

فقد ساقت إلَيَّ المقادير صديقاً من ذوي النَّباهة والحذْق، بدليل أنَّه لا يشتري سِلْعَة وَتَكْسُدُ، ولا يقتني تحفة إلاَّ واشتهى النَّاس لو كان لهم مثلها.. ولا يزاول تجارة إلاَّ وعادت عليه بالرِّبح الوفير!

زارني مرَّة، فما استقرَّ به المكان وأشعل السِّيكارة الأُولى حتى قال: كم تدفع كِراء هذا البيت؟

قلت: خمسة وسبعين دولاراً في الشَّهْر.

فقال وهو يهزّ رأسه متعجّباً: وكَم مضى عليك من الوقت وأنت فيه؟

قلت: حوالي خمس سنوات تقريباً.

فأجابني بلهجة خلتها فحيح ثُعْبان: يا لَك من مجنون..!

قلت: لماذا؟ ألا يسوى البيت هذه القيمة؟ أيمكن أن نجد بيتاً على الطراز الحديث وفي موقع جميل كموقعه بأقل من هذا الثمن؟

قال: ما أَقصَر نَظَرَكَ، وأقلّ دُرْبَتك[2]! ما هذا الذي عنيت وإنَّما عنيتُ أنك مُغَفَّلٌ كأكثر المُغَفَّلِين؛ تدفع في السَّنَة تسعماية دولاراً وتبقى مستأجراً ويبقى البيت لصاحبه الإيطالي، في حين أنَّك تستطيع أنْ تدفع

---

(١) الكُبَّة: لحم يُدَقّ في الجُرْن (حجرٌ مجوَّف)، ويضاف إليه جريش القمح والبُرْغُل أو الأَرُزّ ويجعل أقراصاً ويُطهى.

(٢) الدُّرْبَة: الجُرأة في الحرب.

القيمة نفسها ويكون البيت لَك، من غير أن يشاركك في مُلْكيّته أحد، وبعد مدّة من الزّمن لن تدفع فَلْساً..

قلت متعجّباً: وكيف ذلك؟

قال: بواسطة شركة "بروكلن العقاريّة" صاحبة المنازل الأنيقة في الشارع الثمانين، فهي تبيع البيوت بالتّقسيط الشّهريّ، ولا يزيد قيمة القسط عن الكِراء الذي تدفعه الآن، فلا تمرّ بضع سنوات حتى يصير البيت ملكاً خالصاً لَك.

قلتُ مدهوشاً كمن التفت مدهوشاً فوجد جرَّة نقود ملقاة عند قدميه: حَقّاً، إنّ الفرص كثيرة في هذه البلاد، وإنّما على المرء أنْ يجدها. أعتقد أنّ الله قد بعث بك إليّ في هذا النّهار لكي تكونَ فاتحة استقلال جديد في حياتي. تأمَّل كم دفعتُ من المال لصاحب البيت الذي أنا فيه، فإنّي هنا منذ خمس سنوات ونيِّف، ومع ذلك فهو لا يدهن الغرف ولا يصلح الدَّرج ولا يعطينا حرارة كافية للدفء في الشِّتاء!

فقال صديقي في اعتزاز وعنجُهيَّة: لست وحدك الذي يستغَلّ لصاحب الملك، بل قبلك مئات وألوف..

قلت: ما العمل إذَن؟

قال: العمل أنْ تذهب معي غداً بعد الظُّهر إلى مكتب الشركة، فتنتقي البيت الذي يلائمكَ، وتنقل إليه..

وفي اليوم الثاني ذهبت وصديقي وامرأتي إلى مكتب الشركة، فطاف بنا الوكيل على البيوت واحداً واحداً. وامرأتي كُلّما دخلنا بيتاً تلتفت إليّ وتخاطبني باللغة العربيّة لئَلاّ يفهم الوكيل فيطمعَ: "هيك تكون البيوت وإلاّ فلا، يا عيني شو هالتَّرتيب"!

وانتهينا من التطواف، فرجعنا مع الوكيل إلى المَكْتب بعد أن قررت امرأتي أن تشتريَ البيت الذي على الزّاوية لأنّ وراءه كراجاً، وله حديقة صغيرة، وأمامه ساحة..

سألتُ الوكيل عن الثّمن، فأجابني: الثمن بخس جدّاً، وهو اثنا عشر ألفاً وخمسماية دولاراً، ولكن بعد بضع سنوات بمكنك أنْ تأخذ من البنك رهنية قيمتها ستة آلاف دولار على الأقلّ فلا تعود تدفع لنا شيئاً، ويصير البيت مُلْكَك..

فالتفتّ إلى امرأتي، والتردّد ظاهر في سِماتي ونظراتي، فقد صَعُبَ عليَّ أنْ أُفارق الألف دولار التي وفّرتها واحتفظت بها للطوارئ، غير أنّ امرأتي أعجبها البيت، وأعجبَها جدّاً أنّها ستصير قادرةً على أن تقول: اشترينا بيتاً!

ويظهر أنّ الوكيل شعر بأنّني متردّدٌ، فاندفع يتكلّم عن الأراضي والبيوت وكيف ارتفعت أسعارها، فاغتنى فقراء كثيرون من ارتفاعها.

قال صديقي: ألا تشتري بألف دولار بيتاً ثمنه اثنا عشر ألف دولار وخمسماية دولار؟ إذن كيف تتوقّع أنْ يصير لَك بيت؟ وقالت زوجتي: لأنْ نَضَعَ الألف دولار في بيتنا خير من بقائها في البنك! وقال الوكيل: لا تَغْلَطْ، فإنّ هذا البيت يساوي أكثر وربّما ارتفع إلى خمسة عشر ألف دولار في أقلّ من شهر!

وهكذا، لم نخرج من المكتب إلاّ وقد وقّعتُ صكّ الاتفاق، وأعطيت الوكيل حوالة كبيرة عُرْبوناً[1]، وفي اليوم التّالي أتيته ببقيّة الألف دولار، وفي آخرِ الشهر نقلت إلى بيتنا الأنيق.

---

(١) العُرْبون: ما يُعَجَّل من الثمن على أن يحسب منه إذا مضى البيع وإلاّ استحَقّ للبائِع.

نعم، فالحُجّة[1] بقيت مع الشركة ولكن البيت أصبح لنا، ومع الوقت تنتقل الحُجّة إلينا، واضطررنا إلى شراء أمتعة كثيرة جديدة، ولكن هذه المرّة اشتريناها لبيتنا!

مرّت سنة لم تسمع أذني في خلالها صوت جرن الكُبّة؛ لأنّ امرأتي رأت أنْ نحافظ على البيت الذي هو بيتنا، وصارت الدّبكة[2] بغيضة إلينا لأنها ترجّ البيت فيسقط الدهان أو تنشقّ الحيطان...

وصارت زوجتي كلّما صَمّمْتُ أنْ أرفع عَقيرتي بالعتابا[3] أو البغداديّ تنهرني قائلةً: اسكُتْ فالجيران يسمعوننا، نحن الآن في حيّ أوادم!!

وبعد مرور سنة، تعطل في بيتنا الجديد هذا الموقد، فلدفعنا حوالي خمسة وسبعين دولاراً لإصلاحه، وجمد الماء في الأنابيب لقلّة الحرارة، فانفقنا أكثر من مئة دولار لتجديدها..

وكُنّا فوق ذلك مضطرّين إلى ضمان البيت ضِدّ الحريق بمبلغ كبير، ثمّ قمنا بدفع ما يتوجّب علينا من مُكُوس[4] وذلك في مواعيدها، إضافة إلى استئجار من يجرف الثّلج عن الطّريق.

وهلّت علينا بأنوارها السّنة التي بعدها فإذا المكوس ترتفع وإذا النفقات الأُخرى تزداد، فكنّا نحتملها بصبر لأنّ البيت سيصير لنا، فنستريح في آخر حياتنا من السّكن في بيوت النّاس!

ثمّ في السّنة الخامسة، وهي سنة ١٩٣٠م. سنة الكوارث والنكبات

---

(١) الحُجّة: صَكّ البيع.

(٢) الدّبكة: رقصة من الرّقصات الشعبيّة.

(٣) العتابا: نوعٌ من الشّعر الزّجليّ.

(٤) المُكُوس: المَكْسُ الضّريبة.

التي ربّت في القلوب الحسرات والآهات؛ ففيها كان عندي محلّ تجاريّ فيه بضائعِ تساوي عشرة آلاف دولار، فهبطت أسعارها حتى صارت لا تساوي نصف قيمتها، وفوق ذلك كَسَدت وباتت كأنّها لاصقةٌ بالرّفوف والخزائِن.

واشتدَّت حاجة الشَّركة إِلى النقد، فألَحَّت علينا أن ندفع ألف دولار أُخرى، لأنّنا كُنّا قد تأخّرنا عن دفع قسطين. ثمّ حَلَّ موعد دفع ما يتوجّب علينا من مُكُوس، فجعلت أَقرع أبواب المصارف وجيوب الأَصدقاء أَيضاً، ولكن على غير جدوى!

وأخيراً أُلقي الحجز على البيت، فاستردّته هذه الشركة المفضالة.. لا، بل قيل إِنّ البنك هو الذي استردّه مِنّا وذلك لأَنّ الشركة كانت مديونه له بمبلغ طائِلٍ من المال..

وهكذا، خرجنا من "بيتنا" ونحن لا نملك ثمن بيت آخر سواه، أَمَّا الأَموال التي دفعناها للشركة المحترمة والمكوس التي أخذتها الحكومة.. فلم نستفد منها غير قول امرأتي: لنا بيت!

حَقًّا، إنّ الفرص كثيرة في هذه البلاد، ولكن لغير الأَحمق!!

١٥ آب ١٩٣٤

الأدباء السَّاكتون

بيننا عدد من الأُدباء انقطعوا عن العالم و لم ينقطعوا؛ فهم معنا وبيننا وكأنَّهم أولئَك المنفيّون في مجاهل سيبيريا أَو جزيرة الشيطان، في حين أَنّ الحياة لا تزال كما عرفوها، لا غِنًى لها عن أولئَك الّذين يعكفون على

تصوير حقائقِها وأوهامها، وأفراحها وأتراحها، وما فيها من جمال متلائِم وغير متلائِم، وما تزخر به من طمع وقناعة، وغواية ورشد، وكبرياء وتواضع، وخوف وطمأنينة، وشوق إلى ما لم يوجد، وأسف على ما ضاع، وما لذلك كلّه من الألوان والظِّلال في النَّفْس البشريَّة، هذه المرآة السِّحريَّة العَجيبة التي كلَّما لاح في صفحتها سِرّ للعِيان انطوى تحته أَلف سِرّ..

وكذلك لا يزال في الأسماع ذلك الحنين الذي عرفوه لمواكب الأغاني، وفي الأَرواح ظمأ شديد إلى الينابيع التي طالما اندفق منها ماء سائغ للشاربين.

ولكنَّ هؤلاء الأُدباء آثروا الصَّمْت على الكلام، فما يحرِّك أحدهم قلماً ولا لساناً إلاّ ليعتذر بأنَّه مغلوب على أمره، وأنَّه في دنياه كالغريق يعلو ويسفل مع الأَمواج التي تعلو حوله وتَسْفُلُ، أو أنَّه لا يرى للقول فائدة، إذ ليس هناك آذان تستمع ولا قلوب تعي، أو أنَّه ساكت يتصبَّر ويعلّل نَفسه بالوصول إلى يوم أغرّ[1] مُحجّل[2]، كيوم النَّيروز، لا يتقيَّد فيه بتجارة ولا صناعة! ولا يسيطر على نفسه أحدٌ غير نفسه، وعندئذ يطلع من كمينه، وينشط من عقاله وينطلق يكتب ويخطب وينظم وينثر..

هكذا، تمرّ الأيَّام راكضة مهرولةً في أثر الأيَّام، وتتهادى الشُّهور كأوراق الخريف صفراء ذاوية، وذلك اليوم الأَغَرّ المحَجَّل الذي يعلّل به الأُدباء السّاكِتون أنفسَهُم لم يبرح بعيداً قصيّاً.. كأنَّما هو وراء نهر المجرَّة. وتلك الأماني التي تعتلج في الصُّدور لم تنفك محجوبةً خفيةً كمياه تجري في

---

(١) الأغرّ: الأبيض الكريم الحسَن.

(٢) والمحَجَّل:أبيض. التّحجيل بياضٌ في قوائمِ الفرس.

جوف الأرض لا تقع عليها عين ولا يبلغ صوتها إلى أُذن.. يمكننا أن نقول إنّ هؤلاء الأدباء فريقان: فريق مضى زمانه، أو أدّى رسالته في حينها، ولم يبق لديه ما يقوله لهذا الزّمان.. وبعبارة أُخرى، قد فرغ جرابه، وصَفَر وطابه، فهو معتصمٌ بالسُّكوت، والسُّكوت في بعض الأحيان من ذهب.. وفضْل الذي يصمت وقتَ الصّمت كفضل الذي يتكلّم وقتَ الكلام. وما انفضح أحدٌ بكلمة يضمرها، وإنّما تفضحه كلمة يظهرها!

وفريق آخر لم ينفق ما عنده، ولا أحسنه ولا أجمله، ولكنّه يعتقد خطأً أنّ مجال القول غير ذي سَعَةٍ، فهو يدّخر ما بقي له إلى يوم يقرأ النّاس سطورَهُ فيسكرهم فيها العَبير، ويستمعون إلى حديثه فيطربون لما فيه من شدو وخرير، فليس النّور نوراً إلاّ عند البصير، وليس الصّوت صوتاً إلاّ عند السّميع..

وعندنا أنّ هؤلاء الأدباء واهمون في نظريتهم، وعلى خطأ في اعتقادهم.. فإنّ الفكرة الطّيبة تخلق مجالها؛ إن لم يكن في المحيط الذي ظهرت فيه ففي سواه. فكثيرون من رجال الأدب كتبوا أحسن قصائدهم وقصصهم ورسائلهم وهم إمّا في المنافي أو السُّجون أو في حالات أشدّ ضَنْكاً من المنافي والسُّجون، فهل انطوت آثارهم يوم انطوَوا؟ وهل توارت مع زمانهم الذي توارى؟ كَلاّ، لم يحدث من هذا شيء، بل بقيت وزادت مع الأيّام جمالاً وانتشاراً، ولولاها لما عرف النّاس في عصرنا صورة ذلك العصر.. فأنت ترى أنّ الفكرة الصّحيحة إذا ظهرت ظلّت تعمل عملها حتى في الأيّام المظلمة إلى أن يكمُل تكوينُها، وتبرز إلى مسرح العيان؛ فلا السّجن يُضنيها، ولا القيد يؤذيها، ولا جهل المحيط يطمسها أو يخفيها، ولا شيء يفنيها وإنّما يقتلها أمرٌ واحد، وهو أن

يضنُّ بها صاحبها فلا يبديها! وإنّما يمحوها أن لا تقالَ ولا تدوَّن..

إذن فهؤلاء الأدباء السّاكتون كأهْل الكهف، في حين أنّ نار الرَّغبة في الأدب تعتلج في صدورهم فيطمرونها بأيديهم خشية أنْ يراها أو لا يراها أحد.. إنّ هؤلاء سيصلون إلى اليوم الذي يحلمون به، ولكنّهم سيصلون وقد خارت قواهم وضاعت أكثر رغائبهم.. فإذا رجعوا إلى تلك النّار المَشبوبة في صدورهم لم يجدوا لها أثراً، فيحاولون إضرامها من جديد، فإذا هي رماد.. كلّما نفخوا فيه تطاير فكان على ثيابهم غُباراً، وفي عيونهم قذًى[1]، فيندمون ولات حين مَندم!

أيّ ماء ركد ولم يأْسَنْ؟

أيّة زهرة انزوت عن النور والهواء ولم يصبح الظلام لها كفناً؟ وأيّ سيف طال عليه الثّواء في القراب ولم يأكله الصَّدأ؟ وقديماً قالت العرب: "آفة العلم التّرْك" كما قال أحد شعرائها في الجاهليّة:

ومَنْ يكُ ذا علمٍ فيبخلْ بفضلهِ ... علــى قومِــهِ يُستَغْنَ عنــه ويُذْمَــمِ[2]

فلا عُذْر للأديب في ضنّه وبُخْلِهِ، فإنّنا نرى الجدول يجري مترنّماً شادياً بين الأشواك وفوق الصّخور، ونرى الوردة تَعْبَقُ وتفوح في يد الملك ويد اللّص على السّواء..

أمّا إذا قالوا إنّهم يمدّون أبصارَهم فلا يجدون حولهم إلاّ أناساً منصرفين عن كُلّ شيءٍ اسمه الأدب، إلى الرّكض وراء الدّولار العيّار،

---

(1) القَذَى: ما يسقط في الشّراب وفي العين فيؤذيها.

(2) صاحبُ هذا البيت الشّاعرُ الجاهليُّ زُهيرُ بنُ أبي سُلمى، وقد قال فيه "ذا فضلٍ" لا "ذا علمٍ"، و "بفضلِه" لا "بعلْمِه".

فهذا الكلام حُجّةٌ عليهم لا لهم، لأنّ الذي لا يراقب النّاس لا يراهم مقبلين ولا مدبرين.

فيها أيّها الأديب الصّامت! إذا كانت تتلجلج في صدرك أنشودة ضاحكة كالرّبيع أو باكية كالشّتاء، فلا تحبسْها، ولا تغالبْها، الآن حان وقتها، إذا ضاع ضاعت، وإذا ضاعت عزّ ردُّها، ولذّتك في إرسالها من بين ضلوعك كلذّة النّاس في استقرارها بين ضلوعهم، بل ليس لَكَ أنْ تسألَ أين تقعُ، ولا كيف تقعُ، وإنّما عليك أنْ تُطْلِقَها ولو لم يكن حولكَ أحَدٌ، فحياتها أنْ تنتشر لا أن تَسْتَتِر؛ هذا إذا كانت خليقة بأن تحيا، وأن تبقى.. أمّا إذا لم يكن لديك شيء، فاعلمْ أنّ الكلامَ غيرُ موَجّه إليك..!

مذكّرات أحمق

– الاسم والكُنية –

يسأل كثيرون صاحب "السّمير" مَنْ أنا؟ فلا يجيب لأنّه عاهدني على أنْ لا يبوح باسمي إلاّ إذا بُحت به أنا! وأنا لن أبوح به لأنّي كلّما طرحت على نفسي هذا السّؤال ذاته وقفت حائراً ذاهلاً، فكيف أُخبر النّاس بشيء أجهله؟

وبعضهم يسألُ: إذا كنت عَزَباً أو متزوّجاً، وهل أنا جميل الصُّورة أم دميمها؟ وهل أنا غنيّ أم فقير؟ وما هي مهنتي إذا لم أكن تاجراً؟ أو تجارتي إذا لم أكن مستخدماً..

فكلّها أسئلة يصعب عليها الجواب، وإن ظنّها الكثيرون سهلة. فأنا لا

أقدر أن أقول إنّي أعزب لأنّي تزوّجت، ولا أن أقول متزوّج لأنّي الآن وحدي.. ولا أستطيع أنْ أحدّد الجمال والقُبح فكثيراً ما نظرت إلى وجهي في المرآة فرأيتني في أتمّ صورة، ومن لا يرى نفسه جميلاً عندما يكون وحدَهُ؟

ولم أسمع أحداً يقول إنّي دميم الخِلْقة، فلا بُدَّ إذَن من أحد أمرين: إمَّا لأنّي جميل الصّورة، وإمَّا لأنّ النّاس حولي جبناء مُراؤون.

أمَّا الغِنى والفقر فلم أعرف لهما تحديداً ثابتاً بَعْدُ، فإذا عَدَدْت نفسي غنيّاً لا أُخطئُ، وإذا عددت نفسي فقيراً لا أعدو الصَّواب ما دام الغنى ما أعتبره أنا غِنى، والفقر ما أعدّه أنا فقراً. فكلّ جواب على هذا السّؤال لا يؤدّي غير المعنى الذي يجول في نفسي، إذن فلا يفيد أحداً أنْ أقولَ له إنّي غنيّ، كما لا يفيده أنْ أقول له إنّي فقير.. فلربّما اعتبرت نفسي غنيّاً في الصَّباح وفقيراً في المساء، ولم أكن على صواب إلاّ في نظري وحدي!

أمَّا مهنتي فلا أقدر أن أُحددها، لأنّها تفكير بجملتها، فهي إذَن مهنة عامَّة.

ويقول غير المتديّنين: إنّ الإنسان حُرٌّ يعمل ما يشاء ما دام لا يمسّ شاملة ينتظم في سلكها التّاجر، والماهن، والمستخدم والموظّف، والذي لا عمل له!

أيّ إنسان لا يفكّر؟

أنا لا استغرب فضول السَّائلين، فإنّ الإنسان منذ فجر التّاريخ يحاول أنْ يخلّد شخصيته في الأرض، ولذلك لم يقنع بأن يكون إنساناً فَحَسْب بل عمد إلى تمييز نفسه في هذه الدائرة وأراد أن يكون له دائرة خاصَّة به، فأطلق على نفسه اسْماً، وكان ذلك بَدءَ الاستقلال الذّاتيّ وكان أوَّل من تسمَّى أوَّل مستقل. ثمّ جاء الّذين لا طموح عندهم ولا مطامع كبيرة،

فصاروا يطلبون المجدَ بالانتماء إلى الآباء والأجداد والانتساب إلى القبائل والعشائر.. والأمصار، وأخيراً الأديان والأوطان.. وهكذا شُغل الإنسان بسواه، وهو إنّما قصد الاشتغال بنفسه، وصار يعجزه أنْ يتجرَّد من اسمه وكُنيته، ويستغرب كثيراً أنْ لا يكون لأحد غيره اسم وكُنية، وبعض الأحيان لقب أيضاً..

فالألقاب والنّعوت اختراع الكُسالى والمُرائين.. وهي أكثر ما تكون لدى الشعوب التي دَبَّ الخوف في مشاعرها، واستحوذ الجهل على أوائلها وأواخرها، وقامت الأوهام عندها مَقَام الحقائق، حتى إنّها لتدافع عن السَّخافة الباطلة بالظُّفْر والنّاب، ويهون عليها أنْ تضحّي بالأموال والأرواح في سبيل مَخْرَقَة[1] أو ضلالة.. أو خُرَافة.

ألسْتَ ترى أنّ القوم في بعض الأقطار الشرقيّة يتناكر[2] بعضهم بعضاً من أجل لباس الرَّأس، فُيصِرُّ بعضهم أنْ يرتدي العِمامَة والطَّرْبوش، ويحاول الآخرون الانعتاق منهما، والعمامة والطَّرْبوش مادّة واحدة وبعض القبّعات كذلك، فلم يبق إلاّ الشَّكل، وهو الذي يختلفون فيه ويقتتلون من أجله!

لماذا لا يكون من حَقّ الإنسان أنْ يرتدي من اللّباس ما هو أفضل في نظره وأكثر ملاءَمة لرأسه وجسمه؟ وهل يتغيّر المرء إذا تغيَّرت ملابسه؟ وهل تصير نزعات الشَّرّ فيه نزعات خير، أو يتحوَّل إلى عِلْم؟

وهل إذا أجمع النَّاس على لُبْسِ نوعٍ من الثّياب - وكان هذا النّوع يؤْذيني أو يضايقني - وَجَب عليَّ أنْ أتضايق وأصبر على الأذى.. إكراماً للنّاس؟ وبعد ذلك يقول المتديّنون لا إكراه في الدِّين..

---

(١) المَخرقة: الكذِبُ والاختلاق.

(٢) تناكر: تجاهل وتناكر القوم وتعادَوا.

أيّ ضرر عليك منّي إذا لبست قبّعة وكنت أنت لابساً عمامة، أو إذا لبست عمامة وكنت أنت لابساً قُبّعة؟

ولماذا أرتبطُ بتقليد أو عادة ذهب زمانها، وزالت بواعثها وأسبابها؟

فالبُرْنُس مثلاً لازم للعربيّ البادي في الصّحراء لأنّه يقدر أن يستر به وجهه عندما يمضي للتحسُّس على العَدُوّ، أو يخرج للقاء فتاة يحبّها وذلك في غفلة من الرُّقباء. ولكن هذا البُرْنُس غير لازم للمقيم في المدائن والضِّياع؛ فالذين يَلْبَسونه إنّما يَلْبَسُونه للزّهو والزّينة والفَخْفَخة..

أراني قد توغّلت في الموضوع بقصد أو بغير قصد، ولعلّه توغّل مفيد لأنّي أحبّ أنْ لا يعلّق القرّاء أهمّيّة على الأسماء والكُنى والألقاب، فهي لا تؤثّر في جواهر الأشياء والأشخاص، وإن كانت تخدع أحياناً وتضلّ النّاس عن الحقائق أحياناً أخرى..

ليس للكنار اسم ولا كُنْيَة، ولكنّك تسمع صوته فتطرب..

ولم تتّخذ البُومة لنفسها اسماً ولا كُنْيَة، ولكنّك عندما تقع عيناك عليها تَسْتَقْبحها، ولا سمعت نقيقها مَرّة إلاّ وددت أنّك لم تَسْمعه..

فأنت بدَورك لن تأخذ من الأمور والأشياء إلاّ الذي يرضيك؛ شَرْط ألاّ تُكْرِهك قوة فوق قوّتك..

سيّانِ عندك اسمٌ وغيرُ اسم!

وأنا بدوري كما تعلم، أكتب ما أكْتب دون أن أسأل قارئاً عن اسمه وكنيته، لأنّني لا أكتب للأسماء والكُنَى والألقاب والنّعوت بل لأنّي أعرف أنّ فوق هذه الأرض قوماً يحبّون قِراءَة اللغة العربيّة وفي نفوسهم رغائِب كرَغائبي، ولقلوبهم أوتار تتحرّك وتهتز بما يتحرّك له قلبي ويهتز..

إنّي أكتب لهم دون أنْ أسأل أحداً - على ما بي من الفضول- أيّ اسمٍ اسمهُ..

ورضيت لنفسي أنْ أنشر ما أكتب دون أنْ أُعلن اسْمي. ولا أنا استنكر سؤال النَّاس عنّي، فهذا حقٌّ لهم، ما أنا رغّبتهم فيه، وإنّما لِيَ حقٌّ لا أظنّ أحداً ينازعني فيه وهو أنْ أختار السُّكوت كلّما سأل أحد: من هو هذا الأحمق صاحب المذكّرات؟

أختار الصَّمت لعلّي أصير غنيّاً، فقد قالت العرب: إنّ الصَّمت من ذهب!!

١٥ أيلول ١٩٣١

رَجْعُ الصَّدَى

وقف رجل بابنه مرَّة عند جبل، وقال له: ارفع صوتك، فرفع الولد صوته فإذا الصَّدى يجاوبه. فقال له: ما هذا؟ قال: الصَّدَى..

فنظر إليه وقال: يا بنيَّ! لو رفعت صوتك هازئاً ساخراً لعاد إليك الصَّدَى هازئاً ساخراً. ولو أرسلت صوتك مترنّماً لرجع إليك مترنّماً.. مثلما تعطي تأخذ، فاعرف إذن كيف تعطي الذي يرضي سواك لكي يعود إليك ما يرضيك، فأنت لا سواك الذي يسعد نفسه ويشبعها، واعلم أنْ لا شيءَ في هذه الحياة يذهب سدًى، وأنّ كل ما يفرحك ويغمّك، ويريحك ويتعبك، هو منك وإليك..

واعلم فوق ذلك أنّ المال وإن كثر في يديك مُعَار، وأنّ الشهرة لا تدوم، وأنّ الأصحاب يتغيَّرون ولا يبقى إلاّ أنت. فلا تعمل إلاّ حسناً، ولا تصنع إلاّ خيراً، فإنّك مُلاقٍ غداً كلّ ما عملته اليوم، وسيعود اليك

كما عاد الصَّدَى..

تشرين أوّل ١٩٣١

الآباء والبنون

– كلمة إلى الآباء والأمّهات –

نظرت شجرة اللّوز إلى أزهارها البيضاء اللاّمعة تتراقص في الشمس، فأحنقها من بناتها أنّها تتبدّل ولا تحتجب، وأنّها ترقص كلّما دغدغها النّسيم رقصاً غير مُحتَشِم.. ثمّ رأتها تنعقد وتسقط مسرعة إلى الأرض وتغيب فيها، فقالت في سِرِّها مكتئِبة: هذا جزاء من يعصي والديه، ويتّخذ الطّيش مركباً!

ونظرت الأزهار البيضاء اللاّمعة إلى شجرة اللّوز المعلّقة فيها كالقناديل، فأنكرت أنْ تكون منها إذ لا تجانس بينها.. وساءها أنّ العصافير تطير عن تلك الشجرة، وهي مقيَّدة إليها لا تطير.. قامت تسخر من جمودها وهي تقول في سرِّها: إنّ الحياة قد ظلمتني ظلماً كبيراً إذ أنبتتني فيها وقيَّدتني إليها، فهي لا تفهمني ولا تفهم أنّها لا تفهم..

نسيت شجرة اللّوز أنّها كانت من قَبْلُ زهرة متراقصة في غُصْن متأوِّد[1]، فانعقدت وسقطت إلى الأرض، فأنبتها الله نباتاً حسناً وشاء فكانت شجرة لها فَيءٌ وثمر..

---

(١) متأوِّد: مُعْوَجٌّ، من تأوَّدَ: اعْوَجَّ والْتوى.

وجهلت زهرة اللوز أنها ستصير مع الأيام شجرة كأمّها، تعدّ الجمود رزانة ورَجاحة، والكآبة حكمة ومهابة..

وجهلت كلتاهما أنّ مشيئة الحياة تفوق مشيئتيهما؛ فهي التي تلمس الزهرة فتصير شجرة ذات عروق وغصون، وتلمس الشجرة فإذا الأزهار تتألّق وتلمع كتألّق النجوم ولمعانها..

بين الآباء والأبناء مُشادّة قديمة جدّاً، وستبقى حتى لا تبقى شيخوخة ولا شبيبة..

فليس في ذلك شيء من الغرابة؛ إذ كيف يلتقي ناظرٌ إلى الوراء وناظرٌ إلى الأمام، وكلاهما يرى غير الذي يراه الآخر؟

يزعم الشيخ أو الكهل أنّه أعرف من الفتى وأعلم، وأبصر منه وأحكم لأنّه أبلى ديباجة الشّباب، واستفاد من التّجارب التي مَرَّت به حكمة لم يستفدها ذلك المقبل على الكهولة. فتبعاً لذلك، فعلى الابن أن يرجع إلى أبيه ليأخذ بنصائحه ويعمل بآرائه.. فيأمن الخيبة والعثار[1]..

لو خلعنا عن هذا الزّاعم كهولته وأعدنا اليه شبابه مرّة واحدة، لوجدناه يفعل في شبابه ما كان يفعل في كهولته وإنْ أنكر بدوره ذلك، وإن زعم أنّه ينهج نهجاً أقوم وأصلح.. فهو في شبيبته الأُولى لم يتّعظ بسواه ولم يستمع إلى نصائح الكهول والشّيوخ. وهو في شبيبته الثانية لن يتّعظ بنفسه، لأنّ للشّباب ميادين لا يختار لذاته سواها، ولا يلذّ له الرّكض إلاّ في حوماتها.. وإن كانت لا تنبت غير الأشواك، ولا يجد فيها غير العقبات والثّغرات. نسمع كيفما سِرْنا شكوى الآباء السوريّين من

---

(١) العِثار: العَثْرَة الزَّلَّة والسُّقوط، والشّرُّ والمَكْروه.

كون أولادهم لا يحفلون بنواهيهم ولا يبرّون[1] بهم، وكثيراً ما نعتوهم بالتمرّد والعصيان، وألقوا التبعة في هذا العُقوق على المحيط الأميركيّ الذي لا يقيم للعاطفة الوالديّة وزناً.. ولربما زفر أحدهم زفرة حرّى مديدة وهو يقول: أولادنا في هذه البلاد ليسوا لنا.

فالحقيقة التي يجب أنْ تُعلم وتُقال في وقت واحد هي أنّ الذّنب في هذه القطيعة بين الآباء والبنين مشترك بين الثلاثة: الآباء والأولاد والمحيط!

ففي نظرنا أنّ الآباء ملومون في الدرجة الأولى؛ لأنّهم يتوقّعون من أولادهم أنْ يكيّفوا أنفسهم وأطوارهم طبقاً لتقاليد وعادات قد تكون جميلة، وقد تكون مفيدة، ولكنّهم لا يعرفون عنها إلاّ النّزر اليسير! وليس لها في محيطهم الواسع غير أثر ضئيل.. وهي تبدو سمجة لأنّها غريبة، وكذلك كُلّ غريب. وهم لا يستطيعون العمل بها إلى جانب التقاليد والعادات التي يتلقّونها في المدرسة من الكتب ويقتبسونها في المجتمعات من الأتراب.. وفي البيوت من الجرائد والمجلاّت التي يطالعونها!

فالآباء هم الّذين يجلبون المتاعب لأنفسهم خلال حياتهم، لأنّهم يَكْبُر عليهم أنْ ينسَوا أنّهم أصحاب السلطة العليا بعد الله على أولادهم، حتى بعد أن يشبّ هؤلاء عن الطّوق ويصير لكُلّ واحد منهم دنيا مستقلّة من الرّغائب والآمال. فهم من هذا القبيل كالملوك الّذين يريدون أنْ تبقى لهم جلالة المُلْك وسلطانه وصَوْلته حتى بعد انتشار روح العِلْم الذي يدرك معه كُلّ فرد أنّ السُّلطان بشرٌ مثله، وأنّ حقّه في الحريّة والأمن كحقّه..

أجل، ليس أولادنا لنا، ولكن لا ينبغي لنا أنْ نشقّ الجيوب أمام هذه الحقيقة، ولا أنْ نتوجّع ونتفجّع، فكُلّ الأولاد ليسوا لآبائهم في كُلّ

---

(1) برّ: البِرّ ضد العُقوق. وعقّ أباه عقّاً استخفّ به وعصاه وترك الإحسان إليه.

مكانٍ إلاّ على قَدْر!

هذه حقيقة أدركها فيلسوف الإِسلام الإِمام عَليّ بن أبي طالب فقال كلمته المشهورة:

"رَبّوا أولادكم على غير ما أُخذتم به، فإِنَّهم خُلقوا لزمانٍ غير زمانكم".

فإذا كانت هذه القاعدة قد صدقت من قَبْلُ، وبقية المقولة لهم واحدة، ولغتهم واحدة، فإِنَّها اليوم أصدق والمهاجرون أَوْلى النَّاس باتّباعها، لأَنَّهم يعلمون أنّهم قد نسلوا أولادهم ليس لزمان غير زمانهم فحَسْب، بل لبلاد غير بلادهم؛ فإِنَّهم لن يتسنَّى لهم الرِّضَى عن الحالة التي يحسبونها مُنْكَرة وغير منكرة، ويعدّونها شاذّة وهي طبيعيَّة، إلاّ إِذا ذهلوا عن أَمانيهم قليلاً، وأخذوا بالأَمر الواقع شأْن الحكماء؛ لأَنَّه من الظُّلم الفاضِح أَن نطلب من أَولادنا أن ينشأوا مثلنا ويفعلوا كما نفعل، في حين أَنَّهم قد ولدوا أَميركِّيين، وفي حين أَنَّا نحن أنفسنا نتأمرك طائِعين أو مكرهين..

١٥ تشرين الثاني ١٩٣١

الخوري وصاحب الدُّبِّ

وصل إِلى إِحدى القُرَى في لبنان رجل معه دُبٌّ يرتزق به. ذلك من خلال عَرْضه على الناس لاعباً، وراقصاً، ومُعَافى.. فقاده ذات يوم إِلى السَّاحة العموميَّة حيث يجتمع الشباب والرِّجال، وكانوا جميعاً من أَصحاب الأَجسام القويَّة والسواعد المفتولة والعضلات المتينة، لا يتقنون لعبة من الأَلعاب كما يتقنون المباطحة.

فَلَمَّا رآهم صاحب الدُّبِّ مجتمعين في السَّاحة تقدَّم منهم ثمَّ صاح بأعلى صوته:

مَن يبطح منكم هذا الدُّب أُعطه نصف "بشْلك"، ومن يبطحه دُبّي هذا يدفع لي "بشلكاً".. ولم يكد ذلك القروي يتوقف عن الكلام حتى وجد دُبّه يقف أمامه منتصباً على قدميه فاتحاً ذراعيه، فأشارَ اليه بعصاه أنْ تقدَّمْ فتقدَّم دُبُّه، فصاح صاحبه بالقوم قائلاً لهم بلهجة لا تخلو من التحدِّي والاستفزاز: هل من مبارز؟ هل من مناجز؟ انتبهوا إِنَّه فتيّ قويّ جبّار!

فدبَّت النَّخوة في هؤلاء الجماعة، فتقدَّم من الدُّبّ شابٌّ عريض المنكبين تلوح على وجه سيماء الشجاعة، فراح الاثنان يتغالبان ويتباطحان والعيون شاخصة، والقلوب خافقة..

فراح صاحب الدّبّ يحرّض دُبَّه على المقاتلة، والقوم يشجعون ذلك الفتى المِقدام. ولم تكد تمضي بضع دقائِق حتى وجدوا الدّبَّ يسقط أرضاً والفتى باركٌ على صدره، فهتف القوم هتاف الانتصار فاستوى الشاب واقفاً على قدميه وهو يفتل شاربه بيمينه ويدير عينيه يَمْنة ويَسْرة فخوراً مختالاً، لأنَّه استطاع أنْ يضيف إِلى مفاخر قريته مفخرة جديدة من بطولاتها على مَرِّ الأَيّام والسِّنين..

أما صاحب الدُّبّ فمدَّ يده إِلى جيبه ونقد ذلك الشاب "بشلكاً" رغماً عنه وهو يمعن النَّظر في دُبِّه..

ثمَّ أقبل شباب القرية، وكلّهم يطلب مباطحة ذلك الدُّبِّ المهزوم الذي وجد نفسه كُلَّما تقدَّم منه شابٌّ لمباطحته يسقط أَرضاً من شِدَّة الإِعياء والخوف.

فارتاع صاحب الدُّبّ بعدما خسر جميع ما في جيبه من "بشالِك"،

وراح يصيح بالقوم مهدّداً متوعداً قائلاً لهم بصوت عالٍ: اتركوه اتركوه وشأنه حَسْبي وحَسْبُكم.. ولكنّهم لم يرتدعوا ويتركوا الدُّبّ وشأنه.. وفجأة صاح به أحدهم: فلا أحد يخلّصك منهم إلاّ خوري الضيعة.. فانطلق صاحب الدُّبّ بمفرده باحثاً ومفتّشاً تاركاً دبّه الضّعيف وحيداً.. فَلَمَّا وقع نظره على الخوري قال له متوسّلاً ضارعاً: تعال معي يا سيّدنا إلى الساحة وقل لأهل ضيعتك أنْ يتركوا لي دبّي الذي هو مصدر عيشي الوحيد، فهم سيقتلونه من كثرة ما باطحوه!

فلمعت عينا الخوري زَهْواً وسروراً، وراح يشمّر عن ساعديه المفتولين، ثمّ التفت إلى ذلك الرّجل وقال له متعجّباً: "أيوجد في ضيعتي دُبٌّ و لم يخبروني"؟

(حكاية قديمة ذات مَغْزَى)

أوّل كانون أوّل ١٩٣١

القَرويُّ والثّعلب

قال أبو ماضي: روى لنا صديقنا نجم بولس من ونستد كنكتكت هذه الحكاية، فها نحن نقدّمها إلى القُرَّاء كما سمعناها ولكن بأسلوبنا وأسلوب راويها معاً.

قيل إنّ قرويّاً اصطاد ثعلباً ووضعه في قفص، فتألّب عليه أهل القرية ينصحونه بقتله، إلاّ امرأته التي أشارت عليه أنْ يبيعه في المدينة، فخالف الكُلّ وأطاع امرأته..

فلدى وصوله إلى المدينة راح يعرض ثعلبه على النّاس والتّجّار،

وكُلّما وقف أمام حانوت تكأكأ النّاس يتفرّجون والقرويّ يتوقّع تهافتهم على ثعلبه.

ولَمَّا أوشك النّهار على الانقضاء وبدأت الشمس تميل نحو الغروب، شقّ على صاحب ذلك الثعلب أن يبيت ومعه ثعلبه في المدينة وخاف شماتة امرأته، فصمم أن يبيع ثعلبه بأيّ ثمن حتى ولو كان تافهاً.. حالفاً في قرارة نفسه أنْ لا يعود إلى صيد الثعالب ولا إلى مطاوعة زوجته!

ولَمَّا وجد رجلاً يقترب من القفص متأمّلاً الثعلب قال له بلهجة لا تخلو من تلهّف واستعجال: ليتك تشتريه!

قال الرَّجل: وما أصنع به؟ لحمه لا يؤكل، وصُحْبته لا تمدح، وغدره لا يؤْمَن! قال القرويّ: ولكن نسيت أنّ له فرواً ناعماً ثميناً.

لماذا أكره الحرب؟

إنّي أكره الحرب وأمقتها؛ لأنّ الّذين تلتهمهم نارها هم غير الّذين يوقدونها، وأمّا الّذين يحترقون بسعيرها فألوف وملايين..

أكره الحرب؛ لأنّ الخبزَ الذي يأكله الإنسان ملوّثاً بدماء الشّبّان مبلولاً بدموع الأمّهات والأخوات والزّوجات هو سمّ زُعاف[1] للنّفس البشريَّة. وأما الدار التي نبنيها بجماجم القتلى وجثثهم خيرٌ منها السّجْن. فالكساء الذي يحوكه المرء من زفرات الأرامل وحرقات الأيتام هو بلاء كالبَرَص. فإنّ الذّهب الذي يستفيده المرء من كوارث الحرب وبلاياها هو جمر لاذع لمن عنده شعور. أكره الحرب؛ لأنّها حاصدٌ مجنون، يمرّ بالحقل فيقتلع الأزهار ويقصف الأشجار، ولا يستثني الأحساك والأشواك.. وإذا أبقى على شيءٍ نافع أبقاه مشوّهاً معطوباً..

أكره الحرب؛ لأنّها تمسخ الإنسان الرّاقي وحشاً ضارياً مفترساً.. وترُدّ علمَهُ جَهْلاً، وحكمته حماقةً، وحبّه بغضاً، ورحمته قسوةً، فيمسي لا يحترم عهداً، ولا يرعى ذمّةً، وكيف يشفق على سواه، وهو قد فقد الشعور وصار لا يُشْفق على ذاته؟

أكره الحرب؛ لأنّها عمياء كالرّدى، هوْجاء كالزلزال، فتّاكة كالوباء تنزل بالمدينة العامرة الآهلة فإذا البيوت مقابر أو أطلال دواثر، وإذا بالأحياء يتمنّون لو أنّهم لحقوا بالأموات..

أكره الحرب؛ لأنّها لم تكن في زمن من الأزمان مفيدةً لغالب أو مغلوب، بل هي التي شوّهت المدنيّات الأُوَل، وطمست معالم

---

(١) سم زعاف: سريع القتل.

الحضارات، وعرقلت سير العلم والتمدّن سواء كانت حرباً دينيَّة أو تجاريَّة محضة، أو للفتح والتوسُّع، أو لمجرد البطش والانتقام. فإنَّ النتيجة منها واحدة وهي سفك الدِّماء، وإزهاق الأرواح، وتخريب الدِّيار، وهدم الثغور..

أكره الحرب؛ لأنَّ النَّاس الَّذين يحبّونَها قد بلغ عددهم الثلاثة:

الأوَّل: رجل يطلب مجداً على حساب الجمهور.

الثاني: رجل تعوَّد المتاجرة بالدِّماء والأرواح فلَذَّ له الكسب من هذا الباب.

الثالث: رجل يسخِّره سواه للقيام بأعبائِها فيندفع إليها مقتنعاً بقول القائلين له: إنَّ في الحرب مجداً وشرفاً، فيندفع إليها اندفاع الأبطال المغاوير، وهو يتوَهَّم أنَّه مندفع بقوته وحدها وليس بقوَّة أحد سواه..

فقل للَّذين يتحدَّثون عن الحرب ويحنُّون إلى وقوعها كما يحنّ الأولاد إلى رؤية قتال الدِّيكة والثِّيران: إنَّ الحرب ليست من الملاهي وليس من ورائِها إلاَّ الدَّمار والخراب.

ولقد شهدنا ما آلت اليه أحوال أوروبا كلها وذلك بعد الحرب الكبرى. فهي لم تجن من ورائِها سوى ثمار الوَهْن والضَّعف والاضطراب، حتى الفائزةُ من بينها بالغنائِم والأسلاب والمال الوفير لقد خرجت من عَجَاجتها[1] ظافرة.

ولا يَحْسَبَنَّ الرَّابحون في الحرب أنَّ نارها ستبقى محصورة في بقعة صغيرة أو كبيرة من الأَرض كما كان الأمر قديماً.. وذلك لأَنَّ العالم قد أصبح بفضل المواصلات السَّريعة والمصالح المتشابكة ضيِّقاً صغير المساحة،

---

(١) العَجَاج: الغُبار والدُّخان.

فلا تندلع نار الحرب في مكانٍ ما من العالم حتى تمتد إلى جميع بقعه تقريباً وذلك بين ليلة وضحاها.

فإذا جرى ذكر الحرب أمامك يا صاحب، قُلْ: ربَّنا هَب السُّوَّاس رَشَداً وباعِدْ بيننا وبين أيّامها العَصيبة وأنر بصائر النَّاس جميعاً، ليعلموا أنَّهم إخوان أعوان وأنَّ عليهم أنْ يكافحوا الأمراض والأوبئة والآفات، فهذا الكفاح من جانبهم كفاح يغنيهم عن مكافحة ومقاتلة بعضهم بعضاً..

يجب أن نكره الحرب بسبب ويلاتها وأوجاعها وأنْ نبتعد عنها قدر المستطاع، وذلك لخير الّذين يتمنّون وقوعها في القريب العاجل.. فهم في نظرنا يجهلون بأنَّ تجارة الحرب التي يمارسونها هي تجارة بائِرة خاسرة، ولا خير فيها سوى أنَّها شَرٌّ مستطير وويلٌ عظيم..

لماذا يزدادون وننقص؟

لو رجعنا إلى البلاد اللبنانية وأحصينا سكّانها في آخر القرن الثامِنَ عَشَرَ - وهو القرن الذي كان فيه عدد سكّان الولايات المتحدة أربعة ملايين نسمة فقط - لوجدنا أنَّ تلك البقعة من الأَرض أرض وطننا، كان فيها من السُّكّان حوالي أربعة ملايين نسمة أيضاً..

وبعد أربعة عشر قرناً لا يزال سكانها كما كانوا بلا زيادة ولا نقصان، مع أنَّ مساحتها تستوعب أربعين مليوناً من النَّاس مع هذه الملايين الأَربعة..

وقد زعم بعض المؤرخين أنّ عدد سكان لبنان وسوريا قد بلغ في أحد العصور الماضية وفي شواطئها وحدها حوالي عشرين مليون نسمة..

كُلّ الأُمم ازداد عدد سكّانها منذ تلك الفترة، فترة العصور الماضية، إلاّ سوريا فإنها بقيت على حالها وذلك من حيث عدد سكّانها!

فما هو السّبب إذن في هذا الجمود؟ ولماذا يزداد عدد سكّان الأُمَم قرناً بعد قرن بينما نحن باقون على حالنا ننقص دون أنْ نزداد؟ إننا ننسل كما ينسلون بل نحن أكثر نسلاً من أُمَم كثيرة.

فالعائلة اللبنانية والسّوريّة لا تقلّ عن خمس أنفس، وفي كثير من القرى والضِّياع تزيد عن عشر.

وكلّ ذلك بالرَّغم من أنّ الأقليم السوري أجود الأقاليم مُناخاً، وأراضيه الشاسعة يمكن استغلالها واستثمار خيراتها وهي خيرات تزيد عن حاجة السُّكان ويمكن تصدير معظمها..

كُلّ مملكة تنقسم على ذاتها في نظرنا تخرب، وسوريا بلاد شاسعة واسعة ولكن أفرط سكانها في المشادة أو التّقاطع والتّدابر[1]، حتى أصبحنا لا نجد فيها شخصين متّفقين كُلّ الاتفاق، وحتى لَيكادُ الواحد - وهو واحد - أنْ يختلف مع ذاته إذا لم يجد شخصاً مواطناً له ليختلف معه.

انْزِل بأيّة قرية تجد لهذه العائلة حزباً ولتلك العائلة مشايعين. إنّهم يختلفون فيما بينهم كُلّما أرادوا تشييد كنيسة أو تعبيد طريق أو جرّ الماء العذب إلى قريتهم من مكان بعيد.. أو اختيار معلّم للمدرسة. كما أنّهم يختلفون حتى على الخوري، والمختار، والشيخ والنّاطور والجابي..

فمنصور لا يرسل ابنه إلى المدرسة، لأنّ المعلّم من غير حزبه..

---

(١) التدابر: تدابَرَ القوم تعادَوْا وتقاطعوا.

وهو أيضاً قد لا يذهب إلى الكنيسة بالرّغم من أنه مؤمن، لأنّ كاهنها من غير أسرته..

وأمّا سليمان فهو يعزل نفسه ويقبع في بيته، لأنّ المختار ليس من مذهبه..

وهكذا دواليك، فنحن فيما يتراءى لي أمّة تتغلغل في دم أبنائها روح "القبليّة" الشنعاء.. فهي قبليّة تحصر صاحبها في ذاته. فتشيّد السّدود بينه وبين جيرانه فيقضي وقته مصرًّا على مكافحتهم ومناهضتهم، بدلاً من التعاون معهم، فتضيع من جرّاء ذلك التعنُّت قواه وقواهم، ويصبح سعيه وسعيهم من غير جدوى ولا طائل..

سَعَينا في حياتنا مراراً للتّخلُّص من هذه الرُّوح لما لها من مضارّ علينا جميعاً، وذلك عندما اشتدّ عَسْف الحكّام وتَفاقَم جَوْرُهم، ولكنّنا وجدنا أنفسنا وبلادنا كما المريض والحُمّى؛ فهي لا تكاد تفارق المصاب بها حتى تعود إليه بعد فترة.. فتُسْقِمَه وتُضْنيه..

حاولنا أن نجتمع تحت لواء الجامعة العربيّة ففرّقتنا روح القبليّة، فأصبحت بلادنا متفرّقة منقسمة إلى بِقاع وأقطار وأمصار..

وحاولنا أن نجتمع باسم الوطن، فإذا بنا وقد أصبحنا طوائِف ومذاهب وشِيَعاً..

وحاولنا أن نجتمع باسم الطائِفة أو المذهب، فإذا بنا ننقسم إلى عَلمانيِّين وغير علمانيِّين، وإلى ذوي دِين وغير ذوي دِين، وإلى أصحاب شرف موروث وشرف مُكْتَسب.

لقد أخفقنا في جميع هذه المحاولات، وذلك لأنّها كانت محاولات، وهي بمَثابة فورات طارئة أكرهتنا على المسير في ركابها ظروف وأحوال

استثنائيَّة، فَلَمَّا انقضت تلك الأحوال وزال أثرها عادت إلينا رُوح القبليَّة لِتتحكَّم في أرواحنا وتتولى تدبير أمورنا ومقدَّراتنا..

فهذه الروح نفسها هي التي قسَّمت وطننا الواحد لتجعل منه أوطاناً وأوطاناً..

وهي نفسها التي جعلت فكرة محبَّة الوطن غير مطَّرِدة ولا نامية في نفوسنا..

وهي نفسها التي طَمَست ماضينا وشوَّشت أفكارنا في حاضرنا، وألقت على مستقبلنا ستاراً مظلماً حالكاً لونه..

وهي قد وقفت أيضاً حَجَرَ عَثْرَة أمام انتشار المدرسة الواحدة الموَحَّدة المرامي والنزاعات والأفكار في سائر أقطارنا ودَسَاكرنا..

فإننا بدورنا - حتى في مدارسنا - نسعى لكي نخدم روح القبليَّة هذه ونعمل على تقويتها مع أنَّنا مقتنعون بأنَّها هي التي أضعفت قُوَانا، ولا ينقذنا منها إلاَّ المدرسة الواحدة التي تجعل مرامي وأهداف أمّتنا واحدة موَحَّدَة، وغاياتها النَّبيلةَ غاية واحدة أيضاً..

فنصيرَ تبعاً لذلك أُمَّة لها لون واحد.. لون لا يبوخ في المستقبل القريب..

عندئذ يزداد عدد السُّكّان حتى ولو قَلَّ عدد المواليد.. ويكثر نتاج الأرض وإِنْ صَغُرَت مساحتها، وتزدهر صناعتنا بعدما نكون قد وفَّرنا لها ما يلزمها من موادَّ خام، وغيرها..

وتَعْمُرُ بلادنا بالمخترعين والفلاسفة والشعراء الّذين يملأون أرضها وسماءَها بأنوار الإفادة والمعرفة.. فيخلّدون ذكرها كما خُلِّد ذكرهم.. وتتخلّص من بعض الّذين يدّعون العلم والشعر والإبداع، وهم في حقيقة

أمرهم يضيئون كالحباحب[1]، فلا يَكْشِفُون دُجَى، ولا يَهْدُون مُدْلجاً[2]..

وأخيراً، إِذا كُنَّا نريد أَنْ نصبح أُمَّة مثقفة راقية سعيدة، فما علينا إلاَّ أن نسير مجتمعين متضامنين متكاتفين على الطريق المؤدِّية إلى هذه الأُمَّة.. وهذه الطريق المَرْجُوَّة ليست في نظرنا سوى الطَّريق المؤدِّية إلى التَّعليم الإلزامي المُوَحَّد..

أوَّل حزيران ١٩٣٢

لماذا تذهبين إلى المَصيف؟

إِذا كنتِ تذهبين إِلى المَصِيف، وليس لَكِ غاية سوى أن تستريحي في الفندق هاربة من متاعب البيت ومشاغله..

وإِذا كنتِ تذهبين مخافة أَنْ يقول الجيران عنك إِنَّكِ لم تفارقي المدينة إلاَّ لأَنَّكِ بخيلة..

وإِذا كنتِ تذهبين لكي تدلِّي النَّاس على كونك من أَهل الغِنى والثراء.. أو لكي تظهري في المَصِيف لابسةً أجمل وأنْفَس الحُلَل.

وإِذا كنتِ تذهبين لكي تقول الجريدة عنك: "ذهبت السَّيِّدة الفاضلة أو عادت السَّيِّدة المعتبرة"..

---

(١) الحُباحِب: ذُبابٌ يطيرُ في اللَّيل، ويُضيءُ ذَنَبُه كالسِّراج.

(٢) المُدْلِج: السَّائرُ ليلاً، مِن أَدْلَجَ.

وإذا كنتِ تذهبين إلى المصيف لكي تجتمعي هناك برفيقاتك لتقضي أكثر الوقت وأطيبه معهنّ بلعب الورق..

وإذا كنتِ تذهبين لكي تتسقّطي الأخبار من المصطافين والمصطافات عن فلانة وفلان..

وإذا كنتِ تذهبين لكي يتسنّى لَكِ في الشّتاء أنْ تتباهَيْ أمام النّاس بأن المَصيف الذي كنت فيه من أجمل المصايف، وأنّك نزلت فيه في أحسن وأتقَن فندق، وأنّك أكلت أطيب وأفخر طعام، وأنفقت مالاً جمّاً.. إذا كان هذا أو بعضه هو الذي يحملك على الذّهاب إلى المَصيف، فاعْلمي إذن أنّكِ في هذه الحالة لا تنتقلين من المدينة إلى الشّاطئ أو الجبل، وإنّما أنت تنقلين معك المدينة بكل غواياتها وضلالاتها وأوهامها، وسخافاتها، وتحملين ما فيها من أراجيف ونمائم وضغائن وسخائف!

وبعضٌ منها يفسد عليك الحياة في كنف المدينة، فكيف إذا حملتها كُلّها معك؟

إنّ بُوْتقة الطّبيعة لا تقبل الزَّغَل[1]، وهذه كُلّها زَغَل.

إذن عليكِ أنْ تذهبي إلى المصيف كما يذهب الرُّوّاد والمكتشفون الّذين يذهلون بالغاية التي وضعوها نُصْب عيونهم عن كُلّ شيء خلفهم، ويمضون يتفحصُّون كُلّ ما يَعرِض لهم من صور ومشاهد، حتى إذا رجعوا إلى العُمْران رجعوا بثروة من الأخبار والمعلومات الجديدة، وحدّثوا النّاس بما يُعجب ويلَذّ ويُطْرِب..

إذا خرجتِ من المدينة فانْفُضِي غبارها عن حذائِكَ، وأطْلِقي روحَكِ من سلاسل التّصنّع والرّياء، والتّكلّف فيها..

---

(١) الزَّغَل: الغِشّ.

سلاسل المجتمع المغلوب على أمرِه المأخوذِ بسحره، المدمن الشُّرب لئلاّ يصحو من سُكرِه..

وإذا صرت في البريَّة، وأصبحت تنظرين إلى السماء الضاحكة، فاستقبلي النور والهواء بملءِ صدرك، وبكُلّ جوارحك، ولا تخافي أنْ تستوهبي الطّبيعة الكثير منهما، فلَيس أحبّ إلى الطّبيعة من العطاء..

عَرِّضي وجهك للشَّمْس تسكبْ عليه ذوباً سحريّاً..

وٱفتحي رئَتيك في الفضاء الرَّحْب الفسيح تمتلئا هواء نقيّاً..

وٱمشي بين الأعشاب البليلة والأزهار الجميلة، فتُفِيضَ على أثوابك وفي نفسك عطراً ذكيّاً..

وٱصغي إلى همس الجداول وخرير السَّواقي، تسمعي وَحْياً عُلْويّاً. ولا تهملي الإصغاء إلى شدْوِ الطُّيور عند الأصيل، وزقزقة العصافير عند الفجر، فإنَّ للطيور لغةً كلُّها شِعْر وسِحْر..

ليس في المدينة جمال إلاّ وهو مسروق أو مستعار من الطّبيعة. وليس في الطّبيعة قبح إلاّ وهو مدسوس عليها من المدينة!

كم من قَلْبٍ أهرمه الهَمّ في المدينة، رجع في ظلّ الطّبيعة الرّؤوم جديد الشباب..!

كم من روح صارت لمتاعب المدينة وأكدارها كالمُومِياء المصريّة؛ لمستها يدُ الطّبيعة السَّاحرة ففكّت عنها اللّفائف والأكفان وردَّت إليها حياتها الأُوْلى ورفعتها إلى السَّحاب بعد أنْ كانت تتمرَّغ في التُّراب..!

هناك الجمال السائِغ الذي لا تصنُّع ولا تكلُّف فيه..

وهناك الفنُّ الذي لا تَخْلُق ديباجته ولا تبلى روعته..

هناك السَّعادة التي لا مَنَّ فيها على قاطف ثمارها.. ولا خوف من نضوب مواردها، وإنّما على الإنسان الذي يبغي الظّفَر بها أنْ يفتح عليها

عينيه.. وإذا رآها أنْ يسعى إليها غير مكترث بما يوحي إليه به شيطان المدينة الرَّابض في قرارة نفسه، وعليه أنْ ينبذه أَوْ يطرده قصيًّا..

ويمضي غير معترف بسلطان ولا سيادة إلاَّ سلطانَ السَّماء والهواء والنّور، فيرجع أخيراً وفي صدره من ندى الأزهار طهرها والعبير، وفي نفسه من الجداول صفاؤها والخرير..

إنْ شئتَ تَعْرَى من همومك كُلّها | فأنظُرْ إلى صَدْرِ السَّماء العاري
وآمش على ضوء الصَّباح فإن خبا | امش على ضوء الهلال السَّاري
عش في الفَضا تمسِ خليّاً هانئاً | كالطَّيْر حُرّاً كالغديْر الجارِي
عش في الفضاء كما تعيش طيوره | الحُرّ يأبى العيش تحت ستار[1]

إيليا

مذكّرات أَحْمق ١٥ حزيران ١٩٣٢

رفيقتي

مرَّت الأعوام تتلو الأعوام وهي مستلقية على نحري منبسطة على صدري دون أن أستنكر صحبتها أو استغرب هيئتها حتى كان صباح أمس. نهضت من نومي ثمّ ارتديت ثيابي، فوقفت أمام المِرْآة أُصلح من شأنها، فَرأيتها تتدلّى من عنقي كذؤابة الصّينيّ أو ذنب الفرس، فتذكّرت أنّها رفيقتي منذ سنين، وأنّها تلازمني النّهار كُلّه حتى إذا ما نمت خلعتها وألقيتها بعيداً عنّي، فقامت تحرسني من آفات اللّيل.

(١) هذه الأبيات لأبي ماضي نفسه.

تلك هي ربطة العُنُق التي لا يستوقفني أمام المرآة غيرها وغير حلاقتي لذقني كُلَّ صباحٍ.. ولا يقتضيني شيء من العناية أكثر منها.. ولا أعرف لأيّ اللّباس شأناً أغرب من شأنها..

قلت لنفسي في حَيْرَة: ليت شِعْري، لماذا ارتديتها؟ وأيّة فائدة يجني لابسها؟ فهي لا تقي من حرّ ولا قرّ، ولا تظلّل في شمس ولا مطر، ولا تقي في حرب أو سِلْم، ولا تستر عورةً ظاهرةً ولا تظهر جمالاً مستوراً، ولا تعمِّر ديباجتها أكثر مِمَّا يعمِّر الورد.. وما أقصر عُمُر الورد!

ففي لبسها وخلعها من العناء أكثر مِمَّا في أيّة قطعة من الكساء. فأنت ترتدي جواربك وقميصك وبنطلونك وحذاءك وقبّعتكَ في ثوان، ولكن عندما تصل إلى ربطة عنقك تضطرّ إلى أن تساوي بين طرفيها، وتحرص على أنْ تأتي عقدتها لا عِوَج فيها ولا تجعيد في حواشيها، فتلجأ ساعتئذٍ إلى المرآة لكي ترى كيف صارت، فتصلحها كما يجب أنْ تكون.. وربّما عقدتها وحللتها عِدَّة مرَّات قبل أنْ يستقيم لَك الأمر.

هكذا تضيع كلّ صباح من حياة كُلّ متمدِّن دقائق ثمينة لو قضاها خارج بيته لاستفاد نشاطاً وملأ رئَتيه هواءً نقيّاً.. فخيرٌ لنا أن نصرف هذه الدّقائق في مطالعة صفحاتٍ من كتاب، أو ننهي في مكتبنا عَمَلاً من الأعمال المهمّة التي لا تتطلّب وقتاً طويلاً، أو نصغي إلى أنشودة على الرّاديو.. أو أن نطالع بعض الأخبار المنشورة على صفحة جريدة ما..

ولكنّنا نترك هذه الأُمور والأفعال كلّها لنهتمَّ بهذه الخِرْقَة، لا ندري أيُّ ضرر سيحلّ بالعالم لو تخلّصنا منها..

يتمنّى كثيرون - وأنا منهم - لو لم تكن.. والتمنّي في هذا الموقف دليل واضح على العجز والاستسلام.. فما الّذي يمنعني إذاً من هجرها ونبذها غير الخوف.. من أنْ لا أصبح كسائِر النّاس إِذا طلّقتها؟ فقد

صارت بعد تقادُم العهد عند النّاس شيئاً لا غِنى لهم عنه، فإذا خلعتها بدورك فكأنّك خلعت عنك المدنيّة كلّها.. وإذا خرجت عن طاعتها فكأنّك خرجت من دائرة الإنسانيّة!

يمكنك أنْ تجادل النّاس في أديانهم ولا خوف عليك، ويمكنك أن تخالفهم في نظريّاتهم السياسيّة والفلسفيّة وتظلّ كرامتك عندهم محفوظة. أمّا إذا حاولت تحرير رقبتك من هذا الوثاق فأنت لست من النّاس، أو أنّك إنسان ولكنّك مصابٌ في عقلكَ!

وإنّك لتهرع حالاً إلى المستشفى إذا أحسست بألم مفاجئ في صدرك أو جوفك. وإذا قال لَك طبيبك إنّها الزّائدة المعوية - وهي جزء من كيانك وجسدك - فتسأل الأطبّاء أنْ يقطعوها بواسطة عمليّة جراحيّة وكُلُّ ذلك من غير أنْ تجزع.. ولكنّك تجزع جزعاً شديداً لدى مقابلتك للنّاس، وهذه الزائدة المستطيلة ليست مطوّقة لعنقكَ..

لا أدري كم مَرَّ مِنَ الزّمن وهذه الخرْقَة مستعبِدة للنّاس المتمدّنين!

فإنّي لأعترف صراحةً أنّها استعبدتني منذ صِرْت يافعاً، فاستذلّت رقبتي بلا إذنٍ منّي، فرحت اسأل ذاتي وأنا حائر مضطرب: ما دمت منها متضايقاً، فلماذا أجَشّمُ نفسي عناء لفّها حول عُنقي كُلّ صباح؟

ثارت النساء التّركيّات على البراقع فمزّقنها وبرزن سافرات الوجوه، بالرّغم من أنّ البراقع من أدوات الزّينة المشجّعة على الاستهواء والتّشويق والإغراء.. وتمرّدت أقدام الصّينيّات على القوالب الحديديّة فخلعتها وحَطّمتها شرّ تحطيم.. كي لا تبقيها صغيرة.. والصّغرمستحبٌ في أقدام الغادات..

أمّا نحن المتمدّنون الّذين كُنّا نضحك هازئين من البراقع التركيّة، ورحنا نشفق على قوادم الصّينيّات من غوائل تلك القوالب.. ولكنّنا لم

تنفتح أعيننا بعد وحتى عصرنا الحاضر على هذه المهنة المتدلدلة من أعناقنا..

النساء التركيّات حرَّرْن وجوههنَّ، والصِّينيّات أقدامهنّ، أمَّا نحن فرضينا أنْ تبقى أعناقنا موثقة مكبولة.. وأعناقنا متَّصلة برؤوسنا التي نخشى عليها من العدوى "وخير أعضائنا الرؤوس" كما قال المتنبِّي!

فحَذَار حَذَارِ أنْ نجعل الأقدام عندنا تفْضُل رؤوسنا وتمتاز عنها في السّعي إلى الرّقيّ والتجرّد من السّخافات والخرافات والعادات الضّارَّة بنا في مجتمعنا.. فمن أجل ربطة عنقي أصبحت أكره كُلَّ ربطة حتى ربطة السّاق التي يعتبرها الإنكليز أسمى وسام لديهم..

١٥ حزيران ١٩٣٢

صورة قلميَّة
رشيد أيّوب

تقرأ رشيد أيّوب فيخيَّل إليك أنَّ روحه قاتمة مكفهرَّة كسماء كانون في ليلة دَكْناء، وأنَّ قلبه كالرَّبع الخالي - لا نبت فيه ولا ماء - ولكنَّ هذا الباكي في قوافيه ليس كما يوهمك شعره؛ فهو قلّما شوهد غير متهلِّل، وقلّما حضر مجلساً إلاّ وقد حضرت معه النَّادرة المُستَمْلَحة والنُّكَتة المستحسنة حتّى يتعجَّب جليسه كيف يخلو شعره من حديثه في الصَّالونات.. وكيف يخلو حديثه من مِسْحَة الكآبة التي نلمحها في شعره، ويروح يسأل نفسه قائلاً: أمِن الممكن أنَ يكون رشيد منفرداً غيرَه مع جُلاّسه؟

وإذا طرب لبادرة أو نكتة لمعت عيناه من وراء نظّارتيه وارتسمت على شفتيه ابتسامة خفيفة كما ترتسم قطرة النَّدى على مُقْلَة زهرةٍ أو وردة..

ابتسامة رشيد كابتسامة الطِّفل كُلُّها طهر وبراءَة ولا تحفُّظ عليها.

إنّها حَقًّا مرآة تلوح من خلالها روحه وقد خلعت عنها رداء الكآبة..

أمَّا لماذا لم تظهر روحه هذه في شعره، فذلك سِرٌّ من الأسرار لا يستطيع أن يفكّه أو يدركه إلاّ الرَّاسخون في علم النَّفْس!

استعصى حاجباه على المشيب، فكلّما جاء فؤاده ولِمَّتُهُ بالحُجَج البيضاء الناصعة الدَّالة على كونه تخطّى عصر الشباب منذ عهد بعيد، انبرى الحاجبان الأسودان يفنِّدان ويكَذِّبان..

ولولا اعترافاته الكثيرة في شعره لصدّقهما النَّاظرون إليه، وهما من الحلوكة بمكان يخيَّل إليك معها أنَّه يتعهدهما بالخِضاب وليس من خضاب!

يقضي رشيد معظم نهاره في القسم الأعلى من المدينة حيث يوجد تجّار السَّجاد الكبار والبضائع البيضاء والجلابيب المُهَلْهَلَة..

ثم يقفل عند المساء راجعاً إلى منزله في بروكلن رجوع التجّار الأغنياء الكبار..

وأينما شاهدته رأيت في يده حقيبة صغيرة من الجلد تَحْسَبها لشدَّة تمسّكه بها ملأى بالحُلِيّ والجواهر أو الصُّكوك والسَّندات الماليَّة، أو بالأوراق والوثائق السياسيَّة. ولكنَّ شيئاً من هذا ليس فيها، فالجواهر تجهل الطَّريق إلى حقيبة الشَّاعر وهو يجهل الطَّريق المؤدِّية إلى السياسة ومنعرجاتها ولوالبها..

إذن، ماذا يوجد في حقيبة رشيد أيّوب تلك؟

لا تتسرع فتقولَ إِنَّها تحوي قصائد جديدة أو قديمة له، فصاحبنا رشيد يَحْرِص على أشعاره حِرْصاً يجعله لا يأتمن عليها حقيبة من جلد كهذه الحقيبة حقيبته..

فهو شغوف بإعلان ما عنده من الجديد في الشِّعر، فكيف يسمح لنفسه إذاً بأن يطوي طيّاً أبديّاً نِتَاج قريحته.. يطويها ولكن في جراب من جلد لا ينفذ إليه الهواء..

إنَّ اكتشاف سرّ أبي الهَوْل أسهل من اكتشاف السّرّ المدفون في حقيبة رشيد الغريبة اللّون والشكْل.. فهو لا يفتحها أمام أحد.. ولعلّ من الأفضل والأوفق أن تبقى مقفلة، وذلك لأنَّها يوجد فيها أوراق لا تخصّ كُلّها رشيداً، إنَّها تحوي أوراقاً فيها كثير من الأسرار الشخصيَّة..

فهي تحوي اعترافات المسوكرين على أعمارهم دون تَجَنٍّ أو مخادعة أو افتراء.. ففي هذه الحقيبة كثير من الأسرار إلاّ أنَّها أسرار غير سياسيَّة وغير غراميَّة وغير تجاريَّة.. فهي تحوي اعترافات المسوكرين على أعمارهم وتقارير الأطباء عنهم، وذلك من غير كَذِب، أو لَبْس، أو مواربة..

فالمشهور عن رشيد أنّه لم يبح أبداً بسنوات عمره، كما يحرص على عدم ذكر عمر أحد من أصدقائه لعلّهم يصونون بدورهم سرَّ عُمْرِهِ. وكُلّ ذلك بالرَّغم من أنّ هذا السّرّ أصبح مكشوفاً مشهوراً ذائعاً بين النّاس.. وكُلّ ذلك يعود إلى فضل الشعراء والرّفاق الذين عرفوه وعاشروه وعاشوا معه وهو لم يزل بعد جديداً في هذه البلاد..

إنّه يحبّ القهوة السَّادَة أي التي لا سكّر فيها.. إنّه لا يحبُّها لأنّها تحرم الدِّماغ من الاستسلام إلى النَّوم العميق، ولكِن الرَّشيد يشربها فينام..

وإذا نام رشيد فتتعطل بسبب نومه العميق حركة الكائنات، بعدما يكون الله قد ألقى على الدُّنيا جميعها السُّبات العميق.. نام آدم قديماً فأضاع ضلعاً، ثم وجد بعده رفيقة أنيسة لطيفة..

أمَّا رشيد فإنَّه على كثرة ما يغفو لم يفقد بعد قلامة ظُفر و لم يكسبه النَّوم حتى خيال حسناء، وإلاَّ لسمعناه يتغزَّل بالطَّيف طَيْفِ المحبوبة وذلك كبعض الشُّعراء..

إذا أردت أن تعرف أيّ قلب طروب موجود بين ضلوع رشيد، وأيّ نشاط روحيّ نشاطه.. فعليك أن تنظر إليه وهو جالس في مجلس أُنس مع أصحابه وعشرائه، أو في سهرة لطيفة رَقَّ جوُّها وصَفَا.. فهو هنالك الفن كُلُّ الفَن والنَّديم نِعْم النَّديم.

عندئذ ينسى رشيد أنَّه جاوز الخمسين، كما ينسى أنَّ قصائده في رثاء شبابه أكثر عدداً من قصائد الخنساء في رثاء أخيها صخر..

فالويل لَكَ كُلّ الويل إنْ حاولت تذكيره..!

حَسْبُكَ أنْ تنظر إلى وجهه اللبناني الأصيل، وهو يمرّ بصاحبه في آية حالة من حالاته النَّفسيَّة، لتعلم أنَّ صنِّين قد زوَّده بكثير من قُوَّته؛ فهو ما برح على تقادُم العهد ملوَّحاً، وكأنّما شمس صنِّين قد لوَّحته منذ أيَّام قريبة..

وقد عرف رشيد ما للدُّنيا من أيادٍ بيضاء عليه، فلذلك لم يذمّها في شعره ولا حتى تعرَّض لها بالشَّكوى منها.. فهو لو اشتكاها لشكاها شكوى خالية من كُلّ حقد أو ضغينة، وذلك لأنَّ قلبه لا يتَّسع إلاَّ للمحبة والمساواة والإخاء.. فهو في بعض الأحيان يَنْقِمُ على دنياه

فيشكوها بلسانه فقط، أَمَّا قَلْبُه فيظلُّ بها متعلّقاً، وبها مغرماً. وكل ذلك لأنه قلب أخضر!

١٥ حزيران ١٩٣٢

حكاية مهاجر

من الحوادث ما يشبه الأَحلام، فهي تمرّ بالإِنسان خفافاً سراعاً، فلا يُعيرها التفاتاً، إِمَّا لأَنَّها لم تصادف هوًى في نفسه، أو لأَنَّه هو مشغول عنها بسواها!

ثم تمرّ الأَيَّام عليها وهي مطوِيَّة، حتى تقع حادثة أُخرى تشبه الأُولى أو تناقضها، فتجلو الصدأ عن لوح ذاكرته، وتَصْقُله، فإذا به يرى أمامه تلك الحادثة المطوية بكُلِّ أَلوانها ودقائِقها، كأَنَّها جرت أَمامهُ في الساعة التي هو فيها..

ذلك ما حدث سنة ١٩٢٠م.

في تلك السَّنة هبط نيويورك من بلدةٍ في الدَّاخلية، مهاجر سوريٌّ انصرف إِلى التِّجارة فحظي في ميدانها بحِصَّة الأَسد، فشحَذَت بصره التَّجارب حتى صار يرى خواتم الأُمور عند رؤيته فواتحها.. وصار النَّاس يضربونه مثلاً في اليقَظَة والحزم، وحسن التَّدبير..

فهو لم يأْتِ هذه المرَّة إِلى نيويورك لتَسَوّق البضائع كعادته، بل للسِّياحة والنُّزهة وترويحاً للنَّفس من عناء العمل، وذلك قبل أن يهجم الموسم الذي تروج فيه بضاعته..

وصل بسيارته إلى شارع واشنطون عند الظُّهْر فرابط بها في الحَيِّ السّوريّ لكي يلفت إليه الأنظار، فسمع بأُذنيه عن كَثَب قول المتسائلين: لمن هذه السَّيَّارة الجميلة؟

فقد كانت في الواقع سيَّارة فخمة من ذلك الطِّراز الغالي الذي لا يستطيع اقتناءَه إلاَّ ذوو اليَسار..

فيا لها من سيَّارة فخمة؛ إنَّها مستطيلة، خضراء اللّون، كأنَّما كُسيَت بالسُّندس[1]، وعلى نوافذها ستائِر من مخمل أحْمر، وفي مقدمتها أو فوق حَيْزومها[2] دُمية من النّيكل على شكل نَسْر.. ولها مصابيح أماميَّة مصنوعة من معدن أبيض اللّون لا يصدأ، فأضفت إلى جمالها جمالاً ما بعده من جمال..

والتقينا، ولا أدري كيف! فإذا هو رجل ممتلئ عافية، طروب، متهلِّل، فيه خُيَلاء[3] يحاول أن يخفيها بالتَّواضع فتزداد ظهوراً على ظهور.. وفيه شيءٌ من المعرفة يصاحبه كثير من الاعتداد يجعل عنده المعرفة كُلّ المعرفة..

جاذبتُه أطراف الحديث فإذا به لا يَلَذّ له موضوع كالحديث عن أمثاله العصاميّين في أميركا التي لا يفشل فيها إلاّ الأغبياء الذين تمرّ الفرص الثمينة أمامهم فلا يمدّون أيديهم لاقتناصها أو انتهازها، وذلك لأنّهم يجهلون أنّها فُرَص..

---

(1) السُّنْدُس: ضرب من رقيق الحرير.

(2) الحَيْزوم: الصَّدر أو وسطه.

(3) الخيلاء: التكبّر والعجب.

وكانت لي عادة لزمتني لزوم روحي وهي أنْ أُذكِّر كُلَّ مواطن ألتقي به بالوطن القديم وسكّانه، لعلّه يذكره لي بدوره، ليجد كلانا أُنساً!

فقلت لصاحبي بعد أنْ ارتويت من أحاديثه عن نفسه:

ألا تحنّ إلى بلادك الأُولى؟ ألا تشتاق لُبنان؟

فنظر إِلَيَّ نظرةً حادَّة، وقال وهو يقلّب شفتيه: وأيّ شيءٍ في لبنان؟

قلت: لا شيءَ سوى أنّه وطنُكَ، وهو وطن جميلٌ حقّاً.

قال: إنّ لبنان جميل في نظري، ولكن قبل أن احتضنتني هذه الجنّة المباركة.. أجل إنّ الولايات المتّحدة الأميركيّة هي جنّة الله في أرضه. هذه جنّة المجتهدين، هذه بلاد الخير والنّعيم..

فَلمّا رآني احرّك شَفَتيَّ، قاطعني قائلاً: لعلّك تريد أن تذكر لي السّواقي والينابيع، والتلال والسُّفوح، وغابات الصّنوبر، والكروم، واعتدال الجوّ، وجُوْدة المناخ، فهذه كُلُّها موجودة في أميركا، وفيها فوق ذلك محاسن ليست موجودة في لبنان ولا في أيّة بلاد تحت الشّمس.. لو كانت لَكَ سيّارة كسيّارتي وطوّفت بها كما طوّفت أنا لرأيت كم للسماء من يَدٍ على هذه الأرض.

إِنّي أراها في نيويورك ذات البروج الشّاهقة والجسور المعلّقة والشّوراع المتلألئة، كما أراها أيضاً على شواطئ نيوكنكتكت الجميلة الخلاّبة السّاحرة، أو في جبال كولورادو العجيبة، أو في غياض كاليفورنيا وبساتيها التي كنت أراها بعينيّ، والفضل في رؤيتي إِيّاها يعود إِلى سيّارتي هذه التي تراها..

إِنّها مركبة تطير بلا جناحين، وهكذا تمرّ الحياة بي دون أن أستشعر فيها شيئاً من الملل الذي يحسّ به المقيم في لبنان، حيث الحياة فيه على وتيرة واحدة، وحيث النّاس اللبنانيون لا ينتقلون إِلاّ بالخيال، وهم

قاعدون على الأرض أمام بيوتهم.. متحدّثين ما طاب لهم الحديث فيما وراء الطبيعة والنجوم..

فتحتُ فمي وهممت أن أتكلّم، فانعقد لساني دهشة واستغراباً. ثم سمعته يخاطبني قائلاً: أنا أعرف ما يجول في نفسك. لعلّك تقول الآن في سرّك: هذا الرّجل فاقد حسّ الوطنيّة! أنت غالطان؛ على الإنسان أن يكون مفيداً في الحياة أينما كان، وأنا هنا لا أُفيد نفسي وحدها بل أفيد كثيرين من النّاس. وماذا عَساي أن أفعل بعد رجوعي إلى لبنان الذي ليس فيه سوى الجمود والقعود؟ فإنّما يرضى بالحياة في تلك الدّيار رجل لا همّة له ولا طموح، رجل شاخت عزيمته، وانهدّتْ قواه، واستولى على نفسه الزّهد. أمّا أنا فبالرغم ممّا صرت إليه من المكانة والغنى لا أزال أشعر أنّ في ميادين المجد مُتّسَعاً لجيول همّتي..

أوَليسَ من الغَبْن أنْ أعود إلى لُبنان لأدْفِنَ مطامعي بين صخوره الجرداء، وأُغطّي آمالي الفضيّة بأشواكه وعلّيقه؟

قد تستنكر كلامي هذا لأنّك لم تتعوّد أن تسمع مثله من غيري، ولأنّك أديب عربيٌّ لا تزال روحك تهيم بك فوق تلعات لُبنان وهضابه، فأنت في أميركا بجسمك، أمّا روحك فهناك..

فلا تتعجّب إذا قلت لك إنّ الخيال رسمٌ قتّال، وقد كنتُ أنا مثلك من قَبْلِ انفتاح عيناي على ما في أميركا من قوّة وجمال وحقائق رائعة.

بل كنت - وذلك بعد سنوات من مجيئي - كلّما ذكروا لي لُبنان ارتعشت جوارحي حنيناً إليه، واغرورقت عيناي حزناً على ذاتي لأنّي لستُ فيه. أمّا اليوم فإنّي أضحك من تلك الوضعية التي كنت عليها وصرتُ أتمنّى لو كان لبنان كُلُّهُ جزءاً من أميركا، فيسْعَدَ أهله وينْعموا. توقّف عن الكلام فخلته اكتفى فقلت له: إنّ حديثك معي لذو شجون

غير أنّي لا أسلّم معك بكُلّ ما قلت، بل لي رأي في الأمر يختلف عن رأيك. وإنّي سأوجزه لك إيجازاً مفيداً لي ولَك.

فقال لي بعدما مدّ يده إلى جيب سترته وأخرج منها ساعته الذّهبيّة الثّمينة فراح يحدّق فيها: كنت أودّ أن أسمع حديثك، فإنّني بالرّغم من أنّ لي رأياً لا أحيد عنه، فلا يكبر عليّ أنْ أسمع رأيَ غيري، ولكنّني قررت أنْ أترك نيويورك الساعة السّادسة بينما نحن الآن في الساعة الخامسة، فلم يبق غير ساعة يجب عليّ خلالها أنْ أزور إدارات الصُّحُف جميعاً، فأصحابها كُلّهم أصدقائي وسيعتبون عَلَيّ إذا عرفوا أنّي كنت في نيويورك ولم أزرهم، وسأذكر هذه الدّقائق التي صرفتها معك بفخر وإعجاب، ثم مشى بعد قليل إلى سيّارته وهو يقول لي مودّعاً: جود باي..

فأجبته بلغته مستغرباً مندهشاً: جود باي..

تعاقبت أمواج الحياة مسرعة متتابعة، فما استطعت أنْ أستبقي من صورته ظلاًّ في ذهني ولا من حديثه صدًى في نفسي. ولا بِدْع، فهو ليس بأوّل عصاميّ رأيته، ولا حديثه عن أميركا وما فيها من فرص سانحة بالحديث الطريف المبتكر الذي سمعته لأوّل مرّة.. وليست سيّارته بالسّيارة الوحيدة الفخمة التي عَرّجت على شارع واشنطون ووقفت تستحمُّ بنور الشّمس في أيّام الصّيف.. فإنّه وحديثه قد مرّا بي مرور الطّيف ثم اختفى ولم يرجع.. غير أنّ في شارع واشنطن شيئاً كالسِّحْر من حيث صِلة السوريّين به، فهو عندهم كعصر الشّباب لا يذكرونه إلاّ بالحُسْنى مهما كثرت فيه الهفوات والأغلاط..

فهو ليس كذلك لأنّه يحمل اسم بطل الاستقلال الإميركيّ.. فقليلون الذين يعيرون هذه النّاحية التفاتاً، وإنّما هو كذلك عندهم لأنّه الكُوَّة التي أطلّوا منها على أميركا كُلّها. ثم لأنّه البقعة الأولى التي احتلوها

في أوّل هجرتهم، ثم سيّروا منها الزوّار إلى كُلّ ناحية.. فهم وإيّاه كالأتراب وملاعب الصّبا، يفترقون في الدُّنيا تحت كُلّ كوكب، فإذا ذكروا أيّام الطفولة التقوا بها بالذّكرى واتّحدت في ظلّها أرواحهم، كما تتلاقى العيون النّاظرات إلى القمر المتألّق في اللّيل.. وأمّا النّاظرون إليه فهم منتشرون في شتّى بقاع الأرض غير متباعدين غير متلاقين..

فما ذكر مُهاجر في الداخليّة مدينة نيويورك إلاّ وحامت روحه على شارع واشنطن كأنّما ليس فيها غيره. وإذا جاء إلى نيويورك فأوّل سؤال يخرج من بين شفتيه: أين شارع واشنطن؟ وأوّل خطوة تخطوها قدماه إلى الأمام فلا تكون متّجهة إلى هذا الشّارع العظيم.. ذلك الشّارع الذي ظلّ حافظاً مركزه في النّفوس بالرّغم ممّا صنع به الدّهر الظالم القاسي.. فأشبهت حاله مع الدّهر حالة فتاة حسناء بقيت في وجهها ملامح الحسن والجمال بالرُّغم من إصابتها بمرض الجُدَري الذي رقّش وجهها بنجومه.. أو بالجميلة الفتيّة التي جاوزت عصر الصّبا وبقيت جميلة حَسْناء..

فليس بغريب إذن أن يلتقي إنسان بإنسان في شارع واشنطن وذلك بعدما تفارقا مدّة عشر سنوات أو أكثر..

أقول قولي هذا وذلك بعدما وجدت نفسي ألتقي بصاحبي المليونير هذا وذلك للمرّة الثانية..

تلاقينا ولكن من غير موعد سابق.. بينما كنت مارّاً ذات يوم من أمام محل إبراهيم حتّي وشركاهُ للسفريات.. فلفت نظري رجل كان يقف مع جماعة الواقفين أمام ذلك المحل.. فخطا نحوي خطوات مُتّئدة وراح يتفرّس في وجهي كما رحت أتفرّس في وجهه مستعرضاً في ذاكرتي هيئته وأنا أقول في نفسي: أظنّني رأيت هذا الرّجل من قَبْلُ، ولكن أين رأيته ومن هُوَ يا تُرى؟

فرحت أكدّ ذهني وأعصر ذاكرتي.. ولَمَّا وجدته يقترب مِنّي أكثر فأكثر ويلقي عَلَيَّ بالتحيَّة، حيَّيته بأدب واحترام وعيناي تحدِّقان في وجهه تحديق حيرة واستغراب..

قال لي وهو يتكلَّف الابتسام في وجهي قاصداً بذلك أنْ يخرجني من حيرتي تلك:

يظهر أنَّك لم تتذكَّرني بعد!

قلت له: عَفواً، أذكر أنِّي التقيت بك من قَبْلُ ولكنِّي لا أتذكر المكان ولا الزَّمان! وهذه ليست المرَّة الأُولى التي تخونني ذاكرتي اللَّعينة فهي تورطِّني دائماً في مواقف مُحْرِجة حتى مع العشراء والأصدقاء. قال: هَوِّن عليك، فلا تلم ذاكرتك بل لُمِ الدُّنيا التي بدَّلتني إنساناً آخر، فإنَّني لو نظرت إلى وجهي في المرآة لتَبيَّن لي أنَّني لست ذلك الإنسان نفسه الذي التقى بكَ لأوَّل مرَّة منذ اثنتي عشرة سنة تقريباً.. أنا فلان، أما زلت تعرفني؟ ثم زادني معرفة حينما قال مستطرداً: أنا فلانٌ الذي نصحتَه بالعودة إلى لبنان بعدما التقاك ولكنَّه لم يبال بنصيحتك ولا اكترث..!

قلت: نعَم تذكَّرتك آلان ولكنِّي لا أذكر أنَّني نصحتك بالرُّجوع إلى وطنك الأصلي لُبنان..

قال: بلى، نصحتني ولكنَّني لم أُبال بنصيحتك الثمينة هذه، ولم أَعرف قيمتها وفائدتها لي إلاَّ بعد فوات الأوان.. ثم زفر زفرة حَرَّى.. مقطِّباً جبينه الكثير الغضون. فرحت أتأمَّل في وجهه فأبصرت فيه ملامح اليأس والكآبة، وخاصة بعدما غزا الشَّيب بجنوده لِمَّته البيضاء اللَّون.

قلت له: أراك كئيباً حزيناً وأنت تقف أمام هذا المكتب للسَّفر، فهل أنت مكره إكراهاً على السَّفر ومغادرة أميركا؟ فإنَّني أراك وأنت مسافر

إلى لبنان وكأنك ذاهب إلى المنفى بالإكراه.. مع أنّ الكثيرين من المهاجرين يغبطونك ويحسدونك لأنك عائد إلى الوطن المحبوب..

قال: كيف لا أكتئب وأنا مثل الجندي الذي عاد إلى وطنه من ساحة القتال مجرّحاً، منهوك القُوى، بحيث لم يعد يقوى على خوض غمرات الحرب الضّروس مرّة أُخرى.. فلو أنّه حارب فانتصر بعدما أضاع قوّته وعافيته لكان في ذلك له أكبر عزاء.. ولَكِنّه خرج من الحرب منهكاً متعباً، وكل ذلك من غير أن ينتصر..

حاربت وقاتلت مدّة طويلة وأنا وحيد، ولكِنّي خرجت من تلك الحرب اللعينة ولم أستفد لنفسي ولا لوطني سوى الفشل الذّريع..

قلت: عجباً، ألم تكن كما عهدتك من أهل اليسار، ومن التّجّار الكبار؟ قال: بَلَى. فبلوتي شرّ البلاء، وقصّتي مع الدّهر من أغرب القصص وأقساها وأَمَرُّها..

جئت إلى هذه البلاد وأنا أُمنّي نفسي بالحصول على ثروة لا تزيد عن خمسة آلاف دولار فقط.. ولَكِنّ أميركا كالخمر.. من يتناول قدحاً منه يحنّ إلى شرب قدح آخر ثم آخر.. ويظلّ يشرب حتى يتعتعه السُّكر.. فَيَسْكر ويفرح، ولكنّه يجد نفسه بعد حين يتقيّأ ما شرب من الخمر، وما أكل من أفخر المأكولات وأطيبها.. كنتُ أظنّ أنّني أملك ثروة، أمّا في حقيقة أمري فثروتي هي التي كانت تملكني، فكنت لها عبداً من غير أنْ أدرك هذه الحقيقة المُرَّة، ثم وجدتها تنسلّ هاربة مِنّي حتى فارقتني أخيراً وما في جيبي سنت واحد.. لأُصْبح كالعَبْد الذي لا مولى له، ولا فائدة ترجى منه..

فلم تأخذ أميركا مِنّي عصر شبابي الغضّ النّضير، بل جرّدت نفسي من أشواقها وأحلامها.. فأصبحت لا أُحس إحساساً دفيناً بالطرب

والنشوة لدى رؤيتي للجمال.. فخسرت الأصحاب والخلاّن والأصدقاء كما خسروني..

فإذا رأيتني أحنُّ إلى رؤية وطني الذي هجرته منذ سنين طويلة غصباً عنّي، فإنّي جدُّ مشتاق إلى رؤيته من جديد مثلما هو شوقي إلى الفرار من قاتلي.. وها أنذا بدأت أشُمُّ خلال ثيابي رائحة الموت المتقدِّم نحوي، ومنْجَلَهُ بيده ليقبض به روحي المقتولة ظلماً..

قلت وقد رابني وأفزعني حديثه: إنّك ناكر للجميل ومتجنّ كل التّجنّي على أميركا نفسها!

فضحك منّي ساخراً بي ثمّ قال: نَعَم إنّني أحاول أن أتجنّى عليها تماماً كما يتجنّى المدهوس على دواليب القطار التي دهَسته فقتلته.. إنّني أتجنّى عليها كما يتجنّى الغريق على التيّار الذي اختطفه حتى كاد أن يودي بحياته. ألا ترى حالتي المؤسفة التي وصلت إليها؟

جئت أميركا يافعاً مفارقاً مدرستي وأهلي وأصحابي، فخسرتهم جميعاً بعد إقامتي بها هذه المدّة الطّويلة.. ولم تشأ بدورها أن تعوّض عليَّ خسارتي الكبيرة هذه التي لا تعوَّض..

وما كدت أطأ أرضها بقدمي حتى وجدتها تجرُّني بناصيتي جرّاً بلا رحمة ولا هوادة، لتوقفني فجأة أمام الدّولار الجبّار قائلة لي: اسجد له، وإلاّ فلن تصل إلى ربوع الحياة السعيدة الفاضلة. فسجدت لذلك البَعْل حتى تقوّست قامتي، فَلمّا نهضت من مكاني وفتحت عيني باحثاً ومفتّشاً عنه وجدته قد ابتعد عني هارباً منّي.. فأستعنْتُ بنفسي علّني أجد عندها ضالّتي وأستعيد بواسطتها قوتي وجبروتي، ولكنّني وجدتها قد تحولت فأصبحت خرائب وأطلالاً دارسة..

وإذا أمانيّ التي كنت أستعذب طعمها وأستحضر صورها في خاطري، قد صارت لا لون لها ولا طَعْم إلاّ لون وطعم التّراب.. أعطيت أميركا قوّتي وزهرة شبابي فردَّت عَلَيَّ جميلي أضعافاً مضاعفة، ولكنّني أضعت بطيشي وزهو نفسي في ساعة واحدة من ساعات طيشي وغفلتي جميعَ ما قدّمت لي وأنعمت به عَلَيَّ.. إنّني سأُفارقها رغماً عنّي لأعود إلى وطني الأوّل لُبنان علّني أستطيع أن أقضي بقية عمري في كنف صخوره وأنا هادئ البال غير مشوَّش الخاطِر..

أضعت ثروتي من جرّاء طيشي وقلّة عقلي.. وثقتي اللامتناهية واللامحدودة ببعض معارفي وأقاربي وأصدقائي.. فسلبوها منّي حينما غفل القدر عنّي.. فيئستُ من حياتي حتى أصبحت أتمنّى أن أُدفن في لبنان لكي لا يحضر هؤلاء الظُلاّم الغواة جنازتي.. ويلتفوا من حولي ليسلبوني بعد موتي آخر دولار في حقيبة يدي.. سمعته وهو يتكلّم مندفعاً في كلامه كالشّلاّل.. وقد اشتدَّ استغرابي منه ومن كلامه خاصّة بعدما وجدته يختم كلامه معي بقوله:

إنّني عائد إلى لبنان لأقضي بقيّة عمري في كنف صخوره، فهي على صلابتها وقساوتها أرَقُّ من قلوب البشر عَلَيَّ في هذه البلاد ولأنْ أُدفن بين الأشواك هناك أَرْوَحُ وأهنأ لنفسي من أن أُدفن بين الأزهار والرّياض.. هنا.. فتلك تعرِّش حولي لتقيني حرارة الشّمس أو عبث الثعالب، أمّا هذه فلا تلتفّ بقبري إلاّ لكي تمتصّ رفاتي!

فرُحت بعد ذلك أُقارن في نفسي بين أقواله هذه وأقواله لي لدى التقائي به لأوّل مرّة وذلك منذ عشرات السّنين، فهممت أنْ أقول له: إنّ حَقَّك على أميركا قد أخذته منها كاملاً بعدما وصلت إليها وأنت خالي الوفاض، فوهبتك بمجهودك طبعاً الثروة الطّائلة وهدوء البال مقروناً

بالصِّحَّة والعافية، حتى توصَّلت إلى أن تصبح بواسطة غناك ملكاً متوّجاً على عرشه، فَلَمْ تشكرها وتنكرَّت لها بعدما خسرت ثروتك وشبابك. فتخلَّت هي بدورها عنك.. وكُلُّ من لا يحسن الملك يخلعه..

فأميركا التي زعمْت أنها سلبتك ثروتك التي جادت بها عليك، قد استطاعت الآن أن تصنع منك فيلسوفاً.. ولكن فما أمكنني ذلك لأنَّ موعد سفر الباخرة قد اقترب، فوجد نفسه يصعد إلى سيارة الشركة وبصحبته ثلاثة أشخاص. ولَمَّا انطلقت به وبهم تلك السَّيارة مَدَّ يده من خلال شبَّاكها ملوحاً بها مودّعاً إيَّاي وهو يقول: جود باي. جود باي.

فأخذت أُلوِّح له بيدي مودّعاً إيَّاه وأنا أُحاول أن أُصحح عبارته هذه تصحيحاً لغوياً فقط قائلاً له:

كود باي كود باي يا صديقي ويا حبيبي.. كثَّر الله من أمثالك..!

١٥ آب ١٩٣٢

مدرسة وساعة

هناك رجلان مهاجران من المكسيك، كلاهما غنيّ أحبَّ بلاده كما أَحَبَّ كُلُّ بلاد أسدت إليه جميلاً..

الأوَّل: يعقوب سمعان.

والثاني: ميشال العبد.

أرادَ الأوَّل أن يهب وطنه الأوَّل (لُبنان) شيئاً يسيراً من ثروته الطائلة فشاد في مسقط رأسه بلدة "عانا" مدرسَة مجَّانيَّة عموميَّة، تستقبل طلاباً كثيرين قادمين إليها من شتَّى النَّواحي..

فأرصد لها مبلغاً من المال يفي بسَدِّ نفقاتها، ونفقات المدرِّسين والعاملِين فيها.. فهي حتى عصرنا الحاضر لا تزال أبوابها مفتوحة تستقبل النَّاسَ على اختلاف ألوانهم ومذاهبهم، عامرةً بالأهل وطلاَّب العلم والمعرفة.

وشاء الثاني: أن يزيد بيروت التي هي عاصمة لبنان جمالاً على جمالها، وفاءً منه لِفَضلها عليه، فأهداها ساعة كبيرة ثمينة، فنصبت في ساحة كبيرة من ساحاتها؛ وهي الساحة التي ما زالت تسمَّى حتى عصرنا الحاضر بساحة العَبْد.. كلاهما جاد فأحسن ولكِنْ على طريقته الخاصَّة به..

فنحن بدورنا لنا ملاحظة شخصيَّة يدفعنا إلى الجَهْر بها دافعٌ هو نفسه الذي دفع المحسن الكبير يعقوب سمعان كما دفع ميشال العبد، ألا وهو حُبُّ الوطن وأهله..

فالساعة تعلِّم النَّاس ضرورة الحِرْص على الوقت، وكيفيَّة الانتفاع به.

أمَّا المدرسة فتعلِّمهم ألاَّ يضيِّعوا أوقاتهم إلاَّ في الدَّرْس والتحصيل لكي يتمكنوا من الحصول على أعلى الشهادات وأنفعها.

أما أنا فأقول بدوري: لو كنت ميشال العبد وثروته، لكنت أنشأت مع إهدائِي لبيروت تلك الساعة الثمينة، مدرسة في لبنان، ولكنت أخذت على عاتقي تعليم معظم الفتيان صناعة من الصناعات التي تحتاج إليها بلادنا.. فإنَّ قيمَةَ الشيءِ في نظرنا تزداد أو تنقص بحَسَب الحاجة إليه..

فنحن في وطننا القديم نجد أنفسنا محتاجين حاجة ماسَّة إِلى الميكانيكيِّين والفنيِّين الذين بإِمكانهم بعد توفر المواد لديهم، أن يصنعوا الساعات والقطارات والسيَّارات..

ولكنَّ هؤلاء غير موجودين عندنا في عصرنا الحاضر بسبب عدم وجود المدارس الصِّناعيَّة.. وافتقارنا إِلى الأساتذة المتخصِّصين في هذه المجالات التي يساعد وجودها لدينا على رقيٍّ وازدهار وتقدم مواطنينا ووطننا..

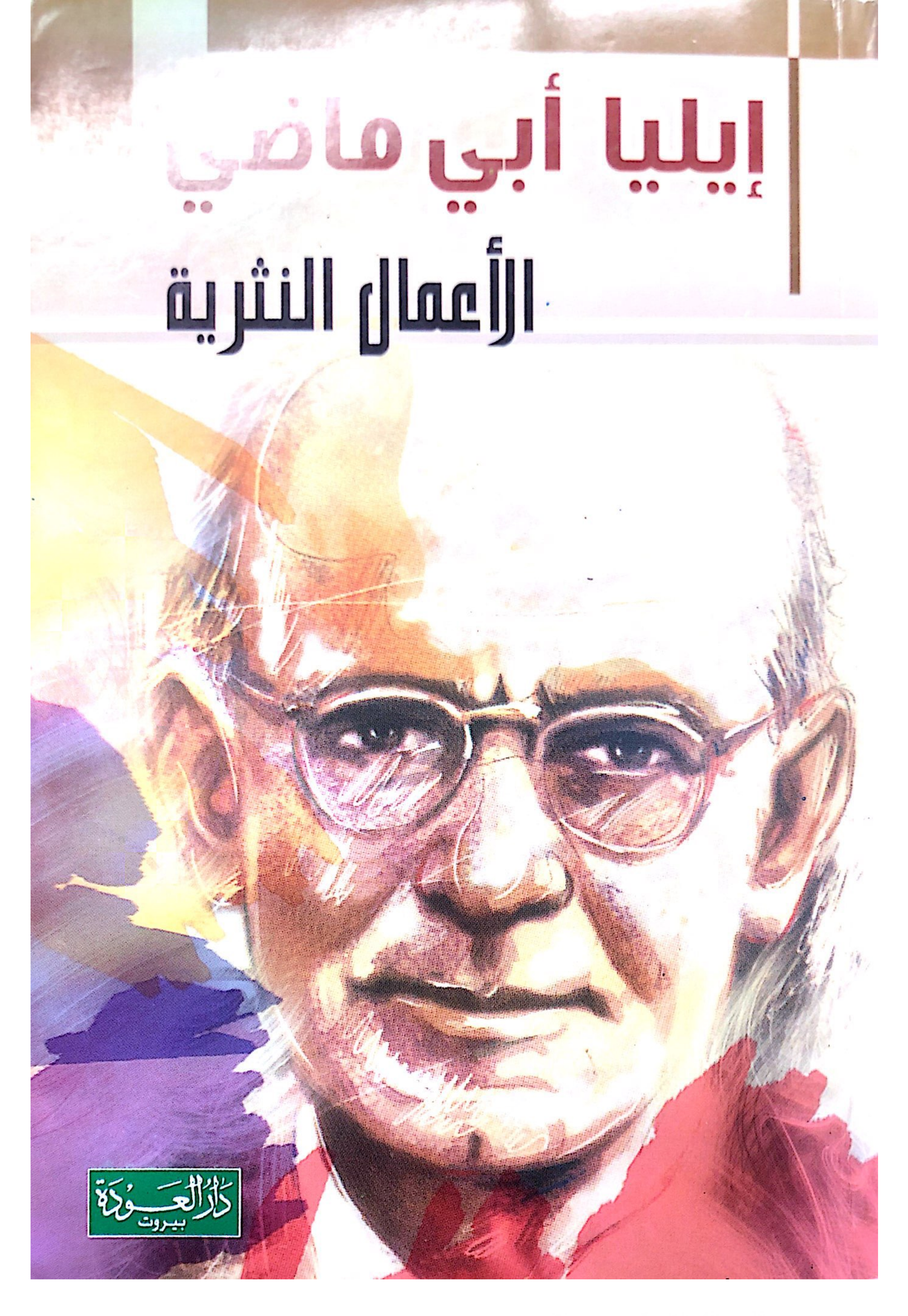
لا نقصد من وراء كلمتنا هذه أن نفاضل بين هبة وهبة، فالواهبان كلاهما خليق بالشكر والثناء.. فقد تمنينا على المحسن الكبير أن يهدي وطنه إِضافة إِلى الساعة التي أهداها له مدرسة أيضاً، وذلك لأنَّ الساعة لا تساعد على تشييد مدرسة وإِنَّما المدرسة تكفل صناعة السَّاعة بواسطة الطُّلاب الذي يدرسون فيها ثم يتخصصون في هذا النَّوع من الصِّناعة..

وإِنَّنا جدّ مقتنعين أنَّه يوجد بيننا أغنياء أَكثَرُ مالاً من هذين المحسنين الكبيرين ميشال العبد ويعقوب سمعان.. ولكنهم لم يكلِّفوا أنفسهم في يَوْمٍ من الأيَّام إِهداء وطنهم أيَّة ساعة حتى ولو كانت رَمْليَّة.. ولا نجدهم يشيدون مدرسة صغيرة أو ينفقون على أديب أو مخترع أو شاعر بعض المال الذي قد يَكْفل لهؤلاء العيش المحترم ويساعدهم على إِكمال رسالتهم في الحياة.. فهم كما يُقال: لا للصيف ولا لضيف ولا لغدرات ونوازل اللَّيالي.. والزَّمان..

ومع ذلك فهم يمنّون على أُمتنا بوجودهم فيها..

فأمام الأغنياء خلود الذِّكر وحسن السّمعة، إِذا هم تصدّقوا بالمال على الفقراء وإِنشاء المدراس ومؤازرة المشاريع العمرانيَّة لكي لا يبقوا جامدين كالتَّماثيل.. فإِنَّ عبادة التماثيل في شتَّى أنواعها قد اندثر زمانُها، ومضى عهدُها..

الفهرس



Scanned with CamScanner